

فلاطون التدريس

التربية وطرق التدريس

الجزء الثاني

تأليف

صالح عبدالعزيز

درجة الأستاذية (في التربية) من جامعة لندن
عضو الجمعية البريطانية لعلم النفس
أستاذ كرسي التربية بجامعة عين شمس
عميد معهد التربية العالي للمعلمين بالإسكندرية
أستاذ كرسي التربية بالجامعة الليبية
المدير العام لإدارة معاهد المعلمين والمعلمات
وكيل وزارة التربية والتعليم
(سابقاً)

الطبعة السابعة

منقحة ومزودة



دار المعارف بمصر



الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . ع . م .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة السابعة

يسعدنا أن نقدم هذا الكتاب إلى طبقتين من القراء — طلبة معاهد إعداد المعلمين ، وطلبة كليات المعلمين ، وكليات التربية ، وسيجدون في هذا الكتاب ملخصاً جامعاً مانعاً للكثير من نظريات التربية وتطبيقاتها العملية ، ثم نقدمه أيضاً لطبقة جمهورنا المثقف ، وهؤلاء في أيديهم مقادير كل إصلاح اجتماعي .

ونحن في إعدادنا هذا الكتاب للطبع للمرة السابعة كان هدفنا زيادة العناية بتتبع ما وصل إليه العلم من تقدم لا سيما في ميدان تطور النظريات التربوية وعلم النفس الذي كان ولا يزال ذا أثر عظيم في آرائنا ، وتعديل الكثير من الصفحات التي كتبت في طبعات سابقة .

هذا ولقد سنحت لنا فرصة التوسع في بعض الموضوعات ، وزيادة تأكيد ما نادينا به من أن من أوجب واجباتنا أن نزيد من قيمة الذاتية في التربية ، ونؤكددها — نقصد ذاتية التلميذ ، وذاتية المدرس ، وذاتية المدرسة ، وذلك لأنها مفتاح كل إصلاح تربوي ، واجتماعي ، ونحن إذا فقدنا هذا الهدف في التربية والتعليم فقدنا كل شيء .

وإنا ندعو القراء إلى قراءة الكتاب في ثوبه الجديد بعد أن أعدنا قراءته ، وتنقيحه وتطويره ، وإننا جد واثقين أنهم بعد ذلك سيقدرון الجهود التي بذلناها في إعادة مراجعته للمرة السابعة .

والله نسأل أن ينفع بهذا الكتاب ، وأن يسدد خطى العاملين في نشر العلم ، ورفع مستوى المعلمين .

الاثنين ١٤ ربيع الآخر ١٣٩١ - ٧ يونيو ١٩٧١

صالح عبد العزيز

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة السادسة

ما أعجب أمر ذلك المخلوق الذى يجمع بين الضعف والقوة ، فهو أمام البحار الواسعة ، والجبال الشاهقة ، والرياح العاصفة ، والأسود الكاسرة لمخلوق ضعيف لا حول له ولا قوة .

ولكنه باستعمال الموهبة التى منحه الله إياها استطاع أن يسيطر على كل هذه المخلوقات فأخضعها لسيطرته . وذلكها لمنفعته ، وأظنك الآن أدركت أن ما نعينه بذلك المخلوق هو الإنسان ، وما نقصده بالموهبة ، العقل والتفكير والبيان .

ولعلك تتساءل قائلاً وما شأن هذا بالتربية وطرق التدريس ؟! ولكن مهلاً فمن غير التربية والتعليم يستطيع أن يجعل من ذلك الإنسان ، إنساناً حقاً . أليس التعليم هو الطريق الوحيد الذى يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويسير بهم فى طريق المخترعات ، ويدفعهم إلى المكتشفات . وهل وصلت الإنسانية إلى ما وصلت إليه إلا عن طريق العلم والمعرفة ؟ وهل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ ١

وإذا سلمت معى بأهمية التعليم وأثره فى تكوين الإنسان المؤمن بربه ، المؤمن بقوميته ، المتفاعل مع بنى جنسه ، المتعاون معهم فى رفع شأنهم ودفع الضرر عنهم ، فإنك ترى معى أن هذا التعليم الذى ننشده ذلك الذى يمكن الناشئ من أن يحيا حياة سعيدة يشعر فيها بدوره ، ويقوم به فى إيمان وإخلاص . وهذا لا يأتى إلا إذا وقفنا على أساليب التربية المتعددة وتطورها ، واخترنا منها ما يلائم بيئتنا ويتفق ونهضتنا .

إننا فى نهضتنا الثورية الشاملة ننظر إلى التعليم على أنه وسيلة لرفعة المجتمع

وإعداد أبنائه للعمل المثمر الخلاق ، فلم يعد العلم للعلم هو الغاية ، وإنما أصبح العلم للمجتمع يخدم أهدافه ، ويحقق أغراضه . يقدر العمل وينبذ الكسل ، ويدفع للإنتاج .

ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى معرفة وسائل التربية السليمة التي تعد المجتمع ذلك الإعداد المنشود .

وهذا ما تجده في ذلك الكتاب إذ نعرضه عليك في طبعته السادسة بعد تنقيح وتوضيح وإضافة بعد أن وجدنا إقبالك عليه مشجعاً ، وحرصك عليه كبيراً . وستجد فيه ما يرشدك إلى أمثل الطرق ، وأيسر السبل في تكوين الشخصية مدعماً بالآراء المختلفة والوسائل المتعددة . . .

ستجد موازنات بين آراء المربين ، وستقف على أهمية الامتحانات وأنواعها وعيوبها . وستدرك ما للتربية الاجتماعية والحلقية من أثر ، وما للتخطيط التعليمي من مكانة في جمهوريتنا العربية الحبيبة ، ولعلنا بهذا نكون قد أسهمنا بدور في إعداد أعظم نعمة أنعم الله بها على عباده وهي نعمة الأبناء فهم زينة الحياة الدنيا . وهم كما قال الشاعر الحكيم :

نعم الإله على العباد كثيرة وأجلهن نجابة الأولاد

وإن التربية السليمة وسيلة من وسائل هذه النجابة ، فلنحرص على أن يتزود صغارنا بخير زاد : زاد الدين والخلق الاشتراكي والتعاون والإنتاج والإيثار ، والله محقق الآمال .

المؤلف

صالح عبد العزيز

١٦ من أبريل سنة ١٩٦٦

٢٥ من ذي الحجة سنة ١٣٨٥

مقدمة

مهلاً قارئى العزيز ؛ فلانى أرى آثار الدهشة قد استولت عليك ، حينما طالعت غلاف هذا الكتاب . لعلك يا عزيزى تتساءل عن زميلى الفاضل الدكتور عبد العزيز عبد المجيد ، ذلك الباحث المدقق الذى سعدت برفقته فى جولاتى العلمية بالجزء الأول من هذا الكتاب .

حقاً لقد كانت صحبة كريمة ، يزيناها سمو المقصد ، ونبل الغاية . وكنت أود أن أراه بجانبى يشاطرنى ذلك المجهود المتواضع ، ويستأنف معى ذلك الشوط الثانى فى رحلتنا النافعة والممتعة فى وقت واحد . ولكن الهجرة فى سبيل إحياء العلم ، والنهوض بالمعرفة ، بعض ما يهدف إليه العلماء المكافحون . فلأحى فيه صدق جهاده ، ولأبعث إليه من وراء البحار ، رقيق تحياتى ، وعظيم تقديرى .

ولأعد إليك أيها القارئ - وقد وقفت على بداية القصة ، وعرفت أن كتابنا هذا، تنمة لكتاب سابق - لأقول لك : إن حرصنا على توثيق الصلة بين كليهما أدانا إلى أن نعود فى مستهل هذا الكتاب على مؤخر الكتاب الأول عوداً يتسم بشيء من العجلة والأناة معاً ، فهو يبدأ بلمحة خاطفة عن التربية القديمة وقادتها الذين مازالت التربية الحديثة تكن لهم ما يكنه التلميذ لأستاذه من مهابة وإجلال . ثم يسلمك إلى وقفات طويلة عند بعض الطرق الحديثة التى حظيت منا بالشرح والنقد والتحليل . وليكن معلوماً أننا لا نهدف من وراء هذا إلى مجرد سرد الحقائق العلمية ، ولكننا نأمل أن تكون تلك الحقائق حياً للمدرس الناشئ ، يستلهمها كلما عَنّ له أن يعدل خطته ، أو أن يضفى عليها لوناً من الجدة والطرافة .

ولقد وجهنا اهتمامنا - مستجيبين للانجاء الحديث إلى العناية بالطفل واتخاذ محور الارتكاز فى عملية التربية - إلى الحث على دراسة التلميذ دراسة

شاملة ، والتفطن لما يحول بذهنه من خواطر ، وما يجيش في قرارة نفسه من مشاعر ، وما يعترض سبيل حياته من مشاكل . فإن ذلك كفيل بسلامة التوجيه ، وحسن الرعاية وغير ذلك مما لا بد منه ، لإنهاض مجتمع صالح ، على أساس من المبادئ الديمقراطية العادلة .

ومن هنا كنا حريصين - حينما انتقلنا إلى دراسة المنهج - على أن نتناول بالتمحيص والعلاج مشكلة العلاقة بين الطفل والمنهج ، محاولين بقدر استطاعتنا التوفيق بين طرفي هذه المشكلة . على أننا لم ننس حظ القارئ ، ولا حق العلم ، فقد عرضنا المنهج في ضوء المذاهب الفلسفية المختلفة متناولين الأسس التي يبنى عليها ، والاعتبارات التي ينبغي أن تراعى عند وضعه ، والأمور التي يتوقف عليها النجاح في تطبيقه ، ثم لم يكن من الصعب علينا بعد ذلك كله أن نبرز مواطن الضعف المختلفة في مناهجنا الحالية بوجه عام . ولم يفتنا أن نفرّد جانباً للمادة التي يتكون منها المنهج ، نزيد القارئ فيه إلماً بالعلاقة بين المواد الثقافية والمواد المهنية ، وما يرميان إليه من تربية حرة وتوجيه مهني . وأدليتنا برأينا الخاص في حل تلك المشكلة ، وعسى أن نكون قد أصبنا التوفيق بين طرفيها .

على أننا لا نبغى من وراء إعلان آرائنا الخاصة أن نوسع دائرة الخلاف العلمي ، وأن نتجنى فيها جانباً منعزلاً نطل منه على قرائنا ، ولكن هدفنا الأسمى هو أن ننتفع بخبرة سابقينا ، وأن نتعاون مع معاصرنا على عرض الثروة العلمية في خير معرض ، وربما لقينا في سبيل هذا بعض الصعوبات ، كما حدث عندما عرضنا للمشكلة الخلقية ، وأعلننا رأينا الخاص في تحديد مدلول الأخلاق ، وما حملنا على ذلك إلا إشفاقنا على القارئ من أن يتخبط وراء تلك الغاية في المراجع المختلفة فلا يجد إليها سبيلاً . ولم نشأ أن نحرمه أثناء عرضنا لمستويات السلوك الخلقى من ذكر الأمثلة المختلفة التي تكشف له عن هذه المستويات . ولقد أخذنا بيده في رفق وهودة إلى مدارج الماضي وألفية الحاضر حيث يستعرض قادة التربية قدماءهم ومحدثهم ليقف على نظرة

كل منهم إلى أهمية الغرض الخلقى ، قبل أن نواجهه بوسائل التربية الخلقية المباشرة وغير المباشرة ، وقبل أن نطوف به فى ميادين الأخلاق ، ونتردد بين البيت والمدرسة مبينين أثرهما فى تنشئة الطفل على الأخلاق الفاضلة . ولكننا أخيراً نعتذر إلى القارئ إذا كنا قد صدمناه بالحقيقة المرة فما كان لنا أن ننكر أنه إذا كانت هنالك محنة قاسية يتلظى بناها ذلك المجتمع ، فهى تلك المحنة الأخلاقية التى تتطلب العلاج الناجز السريع .

ولم يكن لنا أن نقف فى التربية الخلقية عند هذا الحد ، ونصرف النظر عن موضوع طالما شغل أذهان المربين هو موضوع الحرية والنظام . وأى بحث أجدى على العملية التربوية من أن نكشف اللثام عن السر الذى تكمن وراءه طاعة الأطفال للمدرسين ، وأن ندرس أطوار الإدارة النظامية فى المدارس على مر الدهور ، وأن نحدد الموقف الذى ينبغى أن نتخذه من هذه الأدوات جميعاً ، مارين بنظرية العقاب ، معلنين أنه لا ينبغى أن يكون عقاباً سلبياً تقف الغاية منه عند حد الجزاء والانتقام ، ولكن يجب أن يكون إيجابياً يؤدى رسالته فى إصلاح الطفل وتقويمه .

وبمثل الصعوبة التى صادفتنا فى تحديد مدلول الأخلاق ، حاولنا تحديد مدلول الجمال ، وكفينا القارئ عناء الحيرة أمام الآراء المتضاربة لمختلف رجال التربية الذين تصدوا لبحث هذا الموضوع ، وقد اهتممنا بالتقدير الجمالى ، وانتقلنا إلى ميادين التربية الجمالية ممثلة فى البيت والمدرسة ، ثم أعقبنا ذلك بعرض سريع لموضوعات الدراسة المختلفة ذات الأثر البعيد فى خلق الشغف بالجمال ، وتنمية الحاسة الجمالية عند الأطفال .

ثم انتقلنا إلى مشكلة الامتحانات التى قتلها بحثاً رجال التربية الحديثة ، فكان علينا أن نبذل أقصى الجهد فى أن نعرض على القارئ ثقافة جديدة تشغله عما علق بذهنه من آراء ترددت فى ثنايا التقارير والمحاضرات التى عرضت لهذا الموضوع . كما أوضحنا له المشكلة فى ضوء المذاهب الفلسفية المختلفة ، ووضعنا يده على القول الفصل فى هذا الموضوع ، وهو أن الامتحانات إن لم

تكن خيراً لا غنى عنه ، فهي شر لا بد منه .

ورحمة بالطفل ، وادخاراً لجهود المربين تساءلنا عما يدفعه إلى العمل ، أهو سوقه وإرغامه أم هو إثارة اهتمامه وجذب ميوله ؟ ولقد أدانا ذلك التساؤل إلى عرض وجهتين من النظر مختلفتين تمام الاختلاف ، قائمتين على الحجاج والأسانيد . ولقد هدتنا دراستنا إلى أن كليهما قد تناولنا الموضوع من زاوية واحدة ، بينما كان من الممكن أن تلتقيا في منتصف الطريق .

ومن ذلك العرض السريع لخطّة الكتاب يتجلى واضحاً للقارئ أننا قد رفعناه على دعائمين : إحداهما فلسفية ، والأخرى سيكولوجية . أو بعبارة أخرى ، ألقينا على الحاضر ضوءاً من الماضي ، ورأبنا بالجديد صدع القديم . ولم نقف بذلك عند مجرد العرض ، ولكننا عرجنا في كل موضوع على مواطن الضعف الكامنة في نظم التربية والتعليم ، وتناولناها بالنقد البريء الذي لا غاية له إلا الصالح العام .

على أننا نعلن أن صدورنا جد رحيبة لمثل هذا النقد ، فنحن لا ندعى أننا قد أتينا على كل ما ينتظر للعلم من تقدم ونجاح ، ولكنها حلقة وصلناها بسلسلة البحوث العلمية ، ولا يضيرنا — بل يهنا — أن يتقدم غيرنا — مشكوراً — ليزيدها قوة وتماسكاً حتى يتاح لباحث آخر أن يصل بها حلقة جديدة متينة ، ويمثل ذلك يتمكن المربون من تأدية رسالتهم ، وإنهاض حركتهم على هدى من العلم والعرفان .

ويسرني الآن ، وقد قدمت كتابي إلى القراء ، أن أبادر فأقدم بجزيل شكرى إلى أبنائى الذين أبوا إلا أن يضربوا لى مثلاً حياً على إخلاصهم ووفائهم ، وأن يبذلوا — طيبة نفوسهم — جانباً من وقتهم وجهودهم فى سبيل إخراج هذا الكتاب . وأخص بالشكر الأستاذ نصر زيدان المدرس بالمدرسة التوفيقية ، والأستاذ محمد إسماعيل عبده المعيد بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة ، وأتمنى أن يهئ الله لهما مستقبلاً سعيداً وأن يحزيهما عنى خير الجزاء .

صالح عبد العزيز

٢٣ رجب ١٣٧٠ - ٧ أبريل ١٩٥١

تمهيد

إن فن التربية لن يصل إلى حالة الوضوح التام بدون مساعدة الفلسفة فهناك علاقة متبادلة بين الاثنين وأحدهما بدون الآخر ناقص ، ولا يمكن الانتفاع به ، هذا وإذا لم تبين التربية ودقائقها على أسس نفسية وفلسفية لكانت موضوعاً مملاً حتى على القائمين بالتربية أنفسهم ، ولكانت فروع التربية كالتنظيم الداخلى للمدارس والمنهاج مثلاً ، أكثر ملالة وسآمة ، ولما خرجت التربية عن أن تكون موضوعاً ميكانيكياً صرفاً ، لا يتجاوز معلومات جافة كجداول الضرب تستظهر قبل الامتحان ، ولكانت أقرب ما تكون إلى مجموعة من المعلومات المبعثرة المهوشة لا رباط فيها ولا حياة .

وليس هذا الكتاب تاريخاً لتطور طرق التربية لكنه يسرد نواحي التربية القديمة فى مدارسها الماضية ، فيستعرض أسلوبها وينقد نظرتها إلى الطفل . تلك النظرة التى لم تعد تراعى من حاجاته إلا حيزاً من الفراغ حجمه مائة متر مكعب ومساحته عشرون متراً مربعاً ، ثم يعود لينظر مقارناً بها مدرستنا الحديثة بأسسها القويمية ، وأسلوبها الجديد ، فيذكر المدرس والطالب بجمود التربية المنصرمة ، وينبههما إلى حكم الأجيال القادمة علينا ، ذلك الحكم الذى يشبه حكمنا على السالفين ، ما لم نحفز الهمم . ونشحن العزائم فى تقويم أسلوبنا التربوى ، وما لم ندفع التربية فى مدارسنا دفعاً إلى الأمام .

فإلى طلاب البحث فى علم التربية المبني على أسس فلسفية ونفسية ، ومن يهمهم أمر التربية عموماً . . .

إلى هؤلاء جميعاً نقدم هذا الكتاب ، فإذا أتيح له أن ينير أمام بصائرهم مناحى هذه التربية الحديثة ، فقد حقق ما وضع لأجله .

تتناول التربية الأشخاص فتبدأ بهم من حداثة عهدهم بالحياة ، أى من طفولتهم إلى أن تخرجهم رجالاً مربين .

فنّ هو ذلك الرجل المربى الذى تهدف التربية إلى تكوينه ؟

ذلك الرجل هو الذى أتيح له أن يقرأ ويفكر ، ويعرف أكثر ما يمكن من الموضوعات والمعلومات الملائمة لسنه وبيئته ، بحيث لا يعوزه الحديث فى تلك الموضوعات عندما تطرح أمامه فى مجتمع ما ، فهو على دراية بمواطن الحديث يعرف لكل مجال مقالته ، دون تلثم أو ارتباك ، لأنه واثق من نفسه وعلى بينة من قدرها .

هو ذلك الرجل القوى الملاحظة السريع الخاطر الثاقب التفكير ، الذى يقرأ أفكار من حوله وينفذ إلى أعماق نفوسهم ويتحسس مشاعرهم ويعامل كلا منهم بما تقضى به نظرته الفاحصة وهو دقيق فى أحكامه لا يكيل المدح ، ولا يقذع فى الذم .

هو ذلك الرجل الذى يسبح بفكره فى حقب الزمان والمكان ، القادر على حكم نفسه ، وجعلها من المرونة بحيث تتكيف مع الأوضاع بكل سهولة فلا يصدمه طارئ ، ولا يذهله عارض مفاجئ ، ولا يثنيه عن شق طريقه فرقة أو بعاد عن أهله وذويه .

وأخيراً هو ذلك الرجل الذى إن آمن بحق بذل فى سبيل تحقيقه النفس والنفيس .

هو ذلك الرجل الشجاع الذى يجعل وطنه كل شيء أمامه ، يحمل روحه على كفه من أجله ، ويهتف به من أعماق نفسه متمثلاً أمامه هذا القول الرائع :
إن بح صوتى فهذا دى يخط على الأرض يحيا الوطن

هو ذلك الثابت الجأش الذى لا تنال منه الكوارث مهما تابعت ولا الحوادث مهما توالى . . لأنه على علم بقوانين الحياة المتقلبة المضطربة .

هو ذلك المتواضع المترفع عن المظاهر الذى لا يرى نفسه مشجياً لأحداث الأرياء لأنه عقل قبل أن يكون جسماً — حتى بعد موته فهو لا يوصى بأن تنقش على قبره آيات المدح والثناء ، مادام مصيرها الفناء .

ولنعد إلى الطفل الذى ستعدهه بالتربية لنكون منه هذا الرجل المربى ،
ولنقارن نظرتنا إليه بنظرة الأجيال السالفة .

ففى عهدنا هذا تعتبر السعادة والمرح هما المميز الواضح لعهد الطفولة
ولا شك أن هذا يتعارض بشكل جاد مع الحال منذ ستين عاماً تقريباً ، بل
إننا لا نكاد اليوم نرى فى طفولتنا من اللهو والمرح ، ما يهبى الطفل لحياة
مستقبله ، يرفرف عليها الاطمئنان ، وتشيع فيها الثقة بالنفس .

لهذا كان علينا أن نتوقع لأطفالنا صحة جيدة ، ومرحاً دائماً ، فإن لم يكن
أمرهم كذلك ، وجب علينا أن نبحث عن الأسباب والعلل ونقف منها موقفاً
إيجابياً يكفل معالجتها ، ولترك ظهرياً تلك الأيام التى كنا نقتصر فيها على أن
نشيع حول فراش الطفل المريض جواً من الشفقة والحنان مكثفين بهذا الموقف
السلبى ، حتى يقضى نحبه ، فقد مضت تلك الأيام بلا رجعة .

وفى حفلات الرقص التى كانت تقيمها سيدات القرن الماضى خير مثال
على ذلك ، فقد كن يستعملن الضوء الأخضر ، حتى يبدون شاحبات كوسيلة
للإغراء والفتنة وجذب الانتباه ، فى حين أنهم اليوم ولنفس الغرض يستعملن
اللون الأحمر البرتقالى لأن الرجل الآن تهره مظاهر الفتوة والحياة والصحة .

وعلىنا الآن وقد عرضنا الرسالة التى تجردنا لأدائها فى هذا الكتاب ،
أن نخلص إلى تفصيلها ، بادئين بالنظم التربوية القديمة ، حتى يتسنى لنا فيما
بعد أن نقارنها بما وصلت إليه التربية الحديثة من مبادئ وأساليب . .

الفصل الأول

التربية القديمة وأساليبها

التربية القديمة :

كانت التربية القديمة تهدف إلى تشكيل طبيعة الطفل بأن تفرض عليه طريقة التفكير التقليدية وطريقة العمل العادية ، بله الاستجابة العاطفية . أى أنها أرادت أن تحل محل التأثيرات الطبيعية الغريزية للطفل تأثيرات صناعية نمتها خلال عدة أجيال الانجاهات الدينية والعقلية والاجتماعية التى نظرت إلى العواطف البشرية على أنها شر ، ورأت لذلك أنه يتحتم أن يحال بين القلب ورغباته الطبيعية ، ونظرت إلى الحواس على أنها لا يمكن الثقة بها ولذا فهى ليست جديرة بأن تكون أساساً للمعرفة ، فالترعات الإنسانية والفرائض تنبع من طبيعة شريرة فى أصلها ، ولذا فإن وجهتها هى الشر ، ويجب أن تقتلها ، فالرغبات الطبيعية التى كانت ترمى التربية والدين إلى كبتها والقضاء عليها كان يجب أن يتحاشاها المربي ، وكل نشاط أو عمل يحتاج إلى مجهود عقلى كبير أو يبعث على الاشتمزاز العاطفى ، كان يحكم عليه بأن له قيمة تربوية ، وكان هدف التربية أن يصب الطفل فى قوالب من السلوك غير طبيعية ، حيث يكون الدافع الطبيعى مخفياً وراء السلوك الذى يرضاه ويحتم وجوده الكبار ولو كان هذا السلوك يخفى وراءه دافعاً يغاير التعبير الخارجى .

وقد تضافرت العقائد الدينية أو الفلسفية ، والنفسية والاجتماعية والتربوية على اتخاذ هذا الموقف من طبيعة الطفل . ولم يقتصر الأمر على وجهات النظر الدينية والفلسفية فى رفض التربية المؤسسة على تدريب الحواس ، واستغلال الخيال ، وتوجيه الميول الطبيعية ، والفرائض ، بل شاركتها فى ذلك

وجهة النظر السيكولوجية ، إذ اعتقد علماء النفس أن العقل يتكون من مجموعة متباينة من الملكات ، تنمو وتتمرن بما يناسبها من الأعمال ، وتتوقف قيمتها على صعوبة العمل الذى يؤديه ، ولم ينظر إلى هذه الملكات على أنها متصلة بعضها ببعض ، ولذا اختلفت العوامل المهدبة لها . غير أن هذه الملكات لم تتساو فى قيمتها ، وأرقى هذه القوى فى نظرهم هى ملكة التفكير ، وكانوا يعملون على تنظيمها عن طريق الرياضات العقلية ، والمجادلات المنطقية ، واللغة أما قوة الذاكرة فكانوا يعتبرونها العماد الذى يركز عليه جميع الملكات الأخرى ، وقاسوا عليها نجاح العملية التربوية ، ولهذا أخذ تدريب ملكة الذاكرة يتبوأ المكان الأكبر . وكان أحسن طريق لتدريبهم هو حفظ مواد لا تمت إلى طبيعة الطفل بأى صلة .

وقد ساعدت النظم الاجتماعية القائمة ، على تدعيم هذه الآراء ، فكان الطفل يعتبر « رجلاً مصغراً » لا يعترف له بقيمة أو حقوق حتى يتمكن من تقليد الرجال البالغين ، وفى هذا العصر الذى ساد فيه التكلف والتظاهر فى الملبس ، والعادات والسلوك والحفلات ، كان الطفل يصبغ بصبغة الكبار وتعكس لنا الملفات الأدبية التى ظهرت قبل عصر روسو صورة الطفل كما اعتبره الناس عندئذ . فهو ناضج فى كلامه ، ناضج فى تفكيره ، ناضج فى أعماله . فكلامه وتفكيره ، وأعماله لم تكن لتختلف كثيراً عن كلام الرجال ، وتفكيرهم وأعمالهم . وأما من ناحية التربية فكان يعامل أيضاً معاملة الكبار ويدرس ما يدرسونه من مواد ، فاللغات مثلاً : كان يدرسها من جميع وجوهها المنطقية والنحوية ، ويسيطر عليها بإجهد الذاكرة ، ويستعملها بالأسلوب التقليدى نفسه الذى كان يستعمله أهل العصر فى هذه الحياة التى بنيت على نظم كلها تكلف وتصنع . تلك هى التربية التى كانت سائدة فى عصر روسو ، وما قبل روسو ، وظلت موجودة طيلة القرن التاسع عشر برغم صيحات قادة التربية الذين تزعمهم روسو . ويمكن أن نلخص الأسس التى قامت عليها الأساليب التربوية القديمة فيما يأتى :

أولاً -- لقد قدر لنا في هذه الحياة ما قدر فواجبنا الإذعان لأحكام القدر .

ثانياً -- الشر في الطفل طبع لا يستأصله إلا مراقبة الوالدين المستمرة .
ثالثاً -- لكل منا في هذه الحياة حدود لا يتعداها ، حتى الطفل يجب أن يبقى في مكانه ، ولو بالرغم منه ، والوسيلة لذلك هي الإرهاب والعقاب . فلنستعرض هذه الأجيال السابقة حيث تحكمت في أساليب تربيته هذه الأسس ، ولنناقش كل أساس على حدة ، ومدى ما وصل إليه الآن .

الأساس الأول

لقد كان هذا الأساس بما يتضمنه من إذعان لخبريات الحوادث عبئاً ثقيلاً يزرع تحتة الناس وخاصة لتطبيقه وقت ذاك ، على الحالة الصحية ، فمن يمرض وجب عليه ألا يشكو ، حتى لقد كان من المأثور في تواريخ حياة مشاهير ذلك العصر أن نرى تلك العبارة الشائعة : « لقد جاهد في القيام بعمله بالرغم عن تردد علمته المزمته عليه » .

فالناس إذاً كانوا مرضى دائماً ، والموت يطفى مشعل الحياة في سن مبكرة عنها اليوم ، وعلوم الطب ووظائف الأعضاء مازالت في مهدها ضعيفة الأثر في مقاومة الأمراض مقاومة فعالة ، فما كان على الشخص إلا أن يتجلد بقوة فوق طاقة البشر ليتقبل تلك الأحكام الصارمة المنسوبة إلى القضاء ، لا لشيء إلا لأن القضاء مقدس وحكمه أيضاً مقدس . أما اليوم فإننا لا ندعن لهذا الادعاء ، بل نتمرد عليه ، وننقصه من أوله ، وليس هذا لأننا فقدنا إيماننا وتقديسنا لحكم الله ، ولكن لأنه من العبث أن نشرك « الميكروب » مع الله في القدسية والتعظيم فنرضى بسطوته ، ونرضخ لوطأته .

ومن الأمثلة على التطور الحادث في هذا الاعتقاد ما كان مؤكداً منذ جيلين عندما كان يذهب موظف إلى أواسط أفريقيا ، لقد كان يتباه الجزع

والملح لأنه يعرف مصيره الأكيد ، فهو مساق إلى « الكوليرا » ، و « التيفوس » ، حيث لا مناص من الموت ، أما اليوم فهو وعائلته يعرفون أين يكمن الخطر ويوجد ميكروب المرض ، فيعتنون بنظافة خدمهم ونظافة ملابسهم لعلمهم أن في طيات الثوب القذر تكمن ميكروبات تبذر الأمراض وتحصد الأرواح .

الأساس الثاني :

هو الأساس القاسى الذى يحكم على الطفل بأنه شرير ، لا لشيء إلا لأنه يلعب أو لأنه جائع يطلب المزيد من الطعام ليسد به رمقه . فكأن الطفل إذا رُجِلَ عليه ما على الرجل من قيود ، ولعل هذا كله راجع للذبيوع المثل القائل : « من شب على شيء شاب عليه » .

فالطفل الذى يلعب ، يشب وهو يلعب ، ويشيب وهو يلعب ، ولا سبيل إلى الإصلاح إلا بصولة العصا ، وإرهاب السوط .

ولقد اشتط فى استعمال هذا العلاج حتى لقد بذرت فى نفوس هؤلاء الأطفال بذور الخوف ، وعدم الثقة بالنفس ، وتردد صدى ذلك فى نفوسهم عندما كبروا فصاروا فى شك من أمر دنياهم وآخرتهم . وإذا تراجعنا بعيداً حيث نصل إلى القرن الثامن عشر ، نجد أن التربية متناقضة الأوضاع ، فالوالد يحب ولده ، ويتمنى له الخير كله ، لكنه مع ذلك يقسو عليه فى المعاملة قسوة تزيد على ما يعامل به أشد المجرمين بطشاً فى هذه الأيام .

وهذا مثال لتلك التربية تضمنه خطاب من سيدة لأخرى ، تحدثها فيه عن تربيته لأولادها :

« عندما بلغوا من العمر سنة واحدة علمتهم العصا والخوف منها كيف يحتفظ البيت بهم ويسكونه معاً ، وكيف يكون عويلهم وصراخهم همساً رقيقاً . ولما بلغوا الخامسة من عمرهم سمح لهم يوماً واحد ليتعلموا فيه الأحرف الهجائية ، ولو أن أحدهم قد تعلمها فى ساعات قليلة ، وعند ما تعلموا هذه

الحروف الهجائية ، بدأوا مباشرة في دراسة المقطوعة الأولى من كتاب شعري قراءة ثم هجاء فكتابة إملائية ثم المقطوعة التالية وهكذا . ولم يكن هناك ما يسمى لعباً أو لهُوًّا ، بل جد وعمل ست ساعات متوالية كل يوم .

وليك ما كتبه سيدة أخرى ابنة قسيس تصف أيام طفولتها كثال لطفولة القرن الثامن عشر : « لقد كان الزى الشائع للأطفال أن يلبسوا بتيقة من الحديد تتدلى على الكتفين . وقد كان من نصيبي أن غُلتُ في واحدة منها منذ السادسة من عمري إلى الثالثة عشرة ، من الصباح الباكر إلى المساء المتأخر . وقبلما خلعتها أثناء هذه الفترات اليومية ، وكان عليّ أن أتلقى دروساً وأنا واقفة بهذا الزى المتعب ، فما كان يسمح لي أن أجلس في حضرة أحد حتى والدتي ، ولم يكن يُقدم لي من الغذاء إلا كمية ضئيلة ممثلة في كسرة خبز وبعض اللبن البارد ، وعندما أردت أن أتحرر من قيود هذا الزى ، لم أقدر على كبح جماح نفسي في التعبير عن ابتهاجي بالانطلاق إلى الغابة المجاورة ، أعدو ما يزيد على نصف ميل هائمة دون وجهة معينة . وقبل أن أبلغ الثانية عشرة من عمري كنت مرعمة على ترجمة مقطوعة من الشعر اللاتيني يومياً ، وأنا واقفة أرسف في أغلال هذا الزى » .

وما تقدم يتضح لنا خطأ ذلك الأساس الذي تميزت به التربية القديمة . أما اليوم ولحسن الحظ فقد علمنا الكثير عن وظائف الأعضاء وحاجاتها ، أصبحنا نعلم أنه لا بد للاحتفاظ بصحتنا من أن نتمتع بحرارة الشمس والهواء الطلق ، ونحن وإن لم نتخذ من تلك الوسائل الصحية ضماناً لسلامتنا ، فنحن على الأقل نتخلص من نقد مريب يوجهه إلينا غيرنا .

لقد أصبحت الحياتم الآن أكثر بهجة وتسليه من ذي قبل ، وإن المدرسة لم تعد هي فقط سبيل الطفولة إليها : بل هي وغيرها من المعاهد الاجتماعية التي تمت للمدرسة بصلة . سواء الوحدات الطبية المدرسية أم الحدائق العامة كل هذا بدأ منذ العصر الفيكتوري ، حيث وضع الأساس للقضاء على القسوة ضد الطفولة ، وما إن جاءت الحرب العالمية الأولى حتى جاءت بفلسفة

جديدة ، فالرجال لا يأملون أن تشرق عليهم شمس الغد فما كان منهم إلا أن يقولوا :. « دعنا نشرب ونمرح فغداً سينتهى أمرنا » لكن أمرهم لم ينته غداً كما حسبوا ، وسيمرحون لا في الغد فقط ، بل طالما تتفتح أكمام الأزهار وتغرد الطيور .

الأساس الثالث

لنتناول الأساس الأخير من الثلاث البغض ، الذي قامت عليه التربية القديمة ، ذلك الأساس الذي يحدد الأوضاع في المجتمع ، ويفصل بينها بحداد متراس البنیان ، فلم يعد هناك ذلك الحاجز الكبير بين العمل والمرح ، بل إن العامل المرح أكثر إنتاجاً . وها نحن أولاء نرى العامل وقد توفرت له وسائل التسلية والتسرية ، فيجدها لنفسه وعائلته أنتى يطلبها ، فن سيارات إلى نزوات خلوية وخارجية .

هذه الانقلابات في أسس التربية ومبادئ الحياة ، إن لم تكن قد عمت ، وانتشرت تعاليمها في ربوع العالم تمام الانتشار ، فستصل إلى ذلك يوماً ما .

ونحن إن عارضنا هذا التيار المنتشر ، فلن نجد معارضة فتيلة ، ففي كل مكان مدرسة حديثة تربي أجيالا جديدة ، وضعت من لبان هذه التعاليم ، ونمت على الإيمان والعقيدة الراسخة بها ، وكرست جهودها لتحقيق هذه المثل التي تهدف إليها التربية الحديثة ، فلن يبق في الوجود مثل هذا المجتمع ، ذي المصانع الكثيرة أو المدن المفتقرة إلى المكتبات العامة ، أو القوانين الجائرة المتعسفة ، فهذه الثلاثون عاماً الأخيرة قد حققت انقلابا كبيرا ما كان من المتوقع أن يتم ، ولنا نحن أن نتوقع سير التيار الانقلابي في الثلاثين عاماً القادمة كما سار في السالفة على الأقل .

وما يواجه المربين من المشاكل ، إعداد النشء إعداداً يؤهلهم للتغلب على مشاكل المستقبل ، فما لاشك فيه أن لكل عصر ولكل جيل مشاكله الخاصة ، فما كان مقصوداً بالتربية بالأمس ، لم يعد هدفها اليوم ، وهدف

اليوم لن يكون مقصد رجال الغد ، فالعالم دائم التقدم والتغير .

فبالأمس كان الناس يَطْبَعُونَ أنفسهم على الطاعة العمياء ، لحكامهم ومدرسيهم ، وكل من له الأمر عليهم ، ولم يكن همهم إلا كسب ما يقتاتون به من ردىء الطعام ، وما يكتسبون به من ردىء الملابس ، لقد كانوا منذ بدء عهدهم بالحياة في المدارس ، يسامون العذاب ، ويعرضون للجوع يفت أكبادهم ، والبرد ينحل أجسامهم ، والموت يحصد أرواحهم ، ومن لا يدركه الموت منهم فعليه أن يروض نفسه على التقشف والزهد ، حتى يطيب للسماء أن تناديه ، وما كان التعليم العالي ليزيد عن الأولى شيئاً ، ويخفف من حدة هذه الحياة ، بل يزيد منها كتباً تستظهر ، والمبدأ دائماً واحد ، هو إعداد مواطن خامل ، ليتبوأ مركزه الجامد في ذلك المجتمع الراكد .

أما المرأة فكل تربيتها تعليم القراءة والكتابة والتدبير المنزلى .

أما اليوم فالتربية تقفز بالطفل إلى حالة تؤهله لأن يتمتع بالحياة . وهذا قانون التعليم الأولى الإنجليزي يبين مقاصد التربية في فقرة من فقراته (١) :

« إن غرض التعليم الأولى الشعبى هو أن يبنى ويقوى الأخلاق ، ويوسع المدارك ويسمو بها ، وينتهاز مدة الدراسة لإعداد الطفل إعداداً صالحاً لما تتطلبه حياته المقبلة ، فيعينه على تكييف نفسه تكييفاً عملياً وفكرياً لهدفه في الحياة ، ويعتمد هذا التكييف على تكوين العادات وإنمائها ، تلك العادات التى تبذر فى نفوس الأطفال حب المعرفة لما يحيط بهم ، معتمدين فى تحصيلها على أنفسهم مع إلمامهم بما يتفق وحالتهم ، من مواد الأدب والاجتماع واللغة ، التى تيسر لهم القدرة على التعبير عما فى نفوسهم ، وتعرفهم بموطنهم ، وتطبعهم على حب ما هو صالح ، وعلاوة على هذا تعمل المدرسة على تهذيب الغرائز الطبيعية ، وتقويتها ، حتى تدفع بالطفل فى مستقبل حياته إلى الوجهة العملية الطبيعية له ، مع المحافظة على صحة جسمه ، وتقويته ، لا بساعات

يقضيها في التمرين الرياضي فقط بل بتفهمه ماذا يعمل ، ولماذا يهيج هذه الطريقة دون غيرها .

وبما أن وقت المعلم لا يتسع لكل هذه الأشياء ، إلا أنه يمكنه أن يضع أمام الطفل الأساس العام لهذه العادات ، كي يخلق منه مواطناً صالحاً ، يقدر كل ما هو نبيل ، ويكون مستعداً للتضحية بالنفس في سبيل الحق بعيداً عن الأنانية وحب الذات ، ذا خلق اجتماعي رياضي .

ولنا أن نأمل في الغد تحقيق هذه الآمال التي لا يتسع اليوم لتحقيقها .

المراجع

1. A.G. Hughes and E.H. Hughes : Learning and Teaching.
2. Sturt and Oakden : Matter and Method in Education.
3. Monroe : Text-Book in the History of Education.

٤ — تطور النظرية التربوية ، تأليف الأستاذ صالح عبد العزيز .

الفصل الثانى

نحو التربية الحديثة

سبق أن عرفنا ما كان من أمر التربية القديمة التى كانت سائدة فى عصر «روسو» ، وما بعد عصره ، تلك التربية التى بدأ «روسو» يهاجمها بقوة وحماسة ، ولم تكن جميع تعاليم «روسو» التى نادى بها إلا تطبيقاً لمبدئه العام المعارض معارضة تامة لما سار عليه الناس فى عصره ، ومن نصائحه للمربي قوله : «سردائماً على عكس النظم الموضوعة تجد نفسك على صواب فى معظم الأحيان» ، ولقد عبر بصور مختلفة عن تلك الفكرة بقوله : «مهما يكن الأمر فتجنب كل شيء من شأنه أن يجعل عمل الطفل شاقاً إذ أننا لانهم مطلقاً بكمية المعلومات التى يتعلمها الطفل بقدر ما نهم بأن الطفل لا يعمل شيئاً ضد رغبته» . بهذا هدم روسو أسس التربية القديمة التى كانت وليدة عصر النهضة بكل ما تراه من وسائل للتقدم . هذه الوسائل التى اعتبرت التربية خلقاً للطفل على يد مدرب يلقنه الأدب ، والدين ، وما شابه ذلك ؛ ليعجل منه شخصاً غير الشخص الذى خلقته الطبيعة ، لديه قدرة من المعرفة ، مقياس قيمتها الأفراد الذين يتعامل معهم ، ويسير على منهج عملى تفره القوانين الاجتماعية ، ويعبر عن عواطفه بالأساليب التى تسمح بها الشرائع الدينية ، والخلقية القائمة . عارض روسو هذه التربية ، ونادى بضرورة اتصال الطفل بالطبيعة ، واستجابته لميوله الفطرية التى تحددها مقدرته ، ورغباته الموروثة وكان الرجل المتعلم فى نظر الناس عندئذ هو ذلك الرجل الذى ألم بكثير من أنواع المعرفة والثقافة الاجتماعية ، أما فى نظر روسو فهو الرجل الذى نما نمواً طبيعياً جيداً .

وكان الرأي السائد في هذا العصر هو أن قيمة العملية التربوية تتوقف على المجهود الذى يبذل للتغلب على الصعاب فى نقل المعرفة إلى ذهن الطفل ، ولكن « روسو » رأى أن قيمة هذه العملية تتوقف على مقدارنا فى استمالة الطفل لتقبل أى مسألة من المسائل ، وما زال هذا الصراع بين المدرسة القديمة التى تعتمد على بذل الجهد ، وبين المدرسة الحديثة التى يتزعمها روسو والمبنية على الاهتمام - أقول : ما زال هذا الصراع قائماً حتى يومنا هذا . ومشكلة العصر الحاضر هى مشكلة التوفيق بين هذين الاتجاهين .

والأساس الأول الذى وضعه روسو ، وأكد أنه هو أن عملية التربية يجب أن تبدأ من التزعات الغريزية ، ونحطأ المربين الأكبر هو أن يحقروا هذه الرغبات أو يمتنعوا بدلاً من أن يهذبوها أو ينظموها ، فإن تأثر الطفل بأساليب التربية غير الطبيعية كثيراً ما ينتج عنه شخصية توصف كثيراً بأنها شريرة بطبيعتها ، وقد يكون للأطفال العذر فى ذلك « فأنت تقول إن لغتهم الأولى الدموع ، وأناجد مصداق لذلك ، فهذا اللحظة الأولى بعد ولادتهم نقف ضد رغباتهم ، والهدية الأولى نقدمها لهم هى الأغلال ، والقيود ، واهتمامك الأول بهم يأتى فى صور التعذيب » .

وكان روسو يرى أن التربية هى عملية الحياة ذاتها أو أسلوبها ، وإذا كانت كذلك فإنها تستمر طوال حياة الفرد أو على الأقل إلى سن النضج ، ويجب أن تتناسب فى كل مرحلة من مراحلها مع سن الشخص ، وحاضره . يقول روسو متسائلاً : ماذا يجب أن تفكر فى هذه التربية التى تضحى بالحاضر لبناء مستقبل غير مضمون ، وتقيد الطفل بأنواع مختلفة من القيود ، وتشبعه منذ البداية - على أمل أن تعد له إذا ما تقدم وكبر - سعادة زائفة من الجائز جداً ألا يتمتع بها أبداً ، وكيف تسير هذه التربية على قواعد معقولة وكيف يمكننا أن نقر ذلك ونحن نشعر بألم هؤلاء الأشقياء الصغار الذين يؤدون كالعبيد أعمالاً شاقة لاتنتهى ، وفى الوقت نفسه لا يضمنون نتيجة سارة لكل هذه التضحيات ، وإن ذهبهم إلى المدرسة معناه انتهاء زمن المسرة ،

وابتداء زمن الخوف ، والدموع ، والتهديدات ، والاستبداد .
 لم تعد التربية إذن عملية مصطنعة قاسية تحارب النوازع الفطرية وتضددها ،
 وتعتبر الطفل رجلاً صغيراً يهياً لأن يكون رجلاً كبيراً على يد المربي ، ولكنها
 أصبحت — وقد سمحت للقوى الفطرية أن تظهر — عملية تؤدي إلى حياة مرحلة
 متناسقة طبيعية ، وأصبحت تتناسب مع سن الفرد يوماً فيوماً ، وتوجه نشاطه
 بما يتفق وميوله في سنه الحالية . يقول روسو : « إن الطفل يعلم أنه سيصبح
 يوماً ما رجلاً ، وأنه يزود بجميع الأفكار التي يستطيع أن يعرفها عن مرحلة
 الرجولة ، ولكنه ينبغي أن يبقى جاهلاً تمام الجهل بكل ما يتصل بهذه الرجولة من
 أفكار لا يستطيع أن يفهمها » .

ولا نستطيع أن ننكر أن « روسو » أوجد عملية تربية لها غرض معين ينبع
 من حياة الطفل الداخلية ، وتجاربه الشخصية ، وقد قسم هذه التربية إلى
 مراحل كل مرحلة تتناسب مع سن الطفل . فطبيعة الطفل إذن هي التي
 تحدد تطور العملية التربوية ، وكذلك خبرة الطفل هي التي تحدد الوسيلة ،
 فجميع آراء المصلحين من رجال التربية أمثال « بستالوتزي » ، و « هربارت » ،
 و « فروبل » وغيرهم من كبار رجال التربية ، تستمد أصولها من تعاليم روسو .
 وكذلك أصبح الإشفاق على الطفل أحد العوامل التي أكدتها التربية
 الجديدة ، « أيها الناس كونوا إنسانيين ، وهذا أول واجب عليكم ، اعطفوا
 على الأطفال ، وشجعوا أعمالهم ، وغراثمهم المحبوبة » . تلك هي تعاليم ذلك
 الرجل الذي نسي الكثير منها في تطبيقاتها العملية ، تلك هي نظريات « روسو »
 الخاصة بالعطف على الطفل من الناحية العقلية ، والخلقية والشخصية والتي
 طبقها « بستالوتزي » فأصبح لها وزن عظيم في العملية التربوية .

ولقد أصبحت تعاليم « روسو » ، على ما فيها من مبالغات ، الدستور الذي بنى
 عليه تقدم التربية في القرن التاسع عشر ، « فروسو » كان المصلح الذي نادى بعدم
 صلاحية القديم ، وتنبأ بالعهد الجديد ، فأصبح الملهم الأول لهؤلاء المصلحين
 الذين حاولوا تطبيق نظرياته عملياً أمثال « بستالوتزي » و « هربارت » و « فروبل » .

وإذا ما تساءلنا عن أثر النزعة الطبيعية في المدارس فإن الإجابة لا تكون مواتية أو سهلة ، فإن حركة عميقة كهذه لا يمكن أن يكون أثرها مباشراً . ولكن بالرغم من هذا يمكننا أن نجد وميضاً ضئيلاً لهذا الأثر عندما يتم الكشف عن نتائج هذه النزعات المتأخرة ولا سيما النزعة السيكلوجية ، ولقد كانت النتائج المباشرة لآراء « روسو » بسيطة ، وبالحملة يمكن أن نقول : إن الأثر كان عاما ولا يمكن أن يحدد بمقياس .

ولقد تمخض عن الحركة الطبيعية التي نادى بها « روسو » نزعات ثلاث : « سيكلوجية ، واجتماعية ، وعلمية » تلك النزعات التي ظهرت نتيجة للاتجاه الفكري في نهاية القرن الثامن عشر . نمت ، وتطورت معاً ، واندماج بعضها في بعض لدرجة أنه أصبح من المتعذر فصلها من حيث الزمان أو المكان ، أو الشخصيات التي تنتمي إليها . وإذا بحثنا في تأثيرها في المدارس نجد أن الحركة النفسية كانت ذات أثر كبير في طرق التدريس إذا ما قورنت بالحركة العلمية التي كان أثرها ملموساً ، وواضحاً في مادة الدراسة ، كما أنها فاقت النزعة الاجتماعية التي اهتمت بمادة الدراسة وبالتنظيم .

والفكرة الأساسية التي نادت بها الحركة السيكلوجية هي أن عملية التربية ليست بعملية صناعية ، عن طريقها يعرف الإنسان الكثير من المعلومات الخاصة بشكل اللغة والأدب ، أو أي معلومات شكلية من أي نوع ، ولكنها عملية نمو طبيعية من الباطن ، أو هي عملية الإفراج عن القدرات المختلفة المغروسة في طبيعتنا . والحركة السيكلوجية - في بعض نواحيها - لا تخرج عن أن تكون حركة « راديكالية » تقدمية أو حركة تقدم إصلاحية حتى سارت في طريق الإصلاح شوطاً أبعد من آراء « روسو » . وإذا كانت الحركة الطبيعية قد عارضت بكل شدة طرق التربية والتعليم السائدة في المدارس ، تلك الطرق التي اشتقت روحها من مذهب التدريب الشكلي في التربية فإن الحركة السيكلوجية عملت على التوفيق وإزالة الصراع القائم ، بين فكرة الميل أو الاهتمام ، وهو شعار التربية الحديثة ، وبين فكرة بذل الجهد وهو شعار

التربية القديمة . ولكن ظلت التربية القديمة مادة جذورها متغلغلة مدة طويلة خلال القرن التاسع عشر ، ولما كان هدف التربية الحديثة مصارعة الاتجاه القديم ، والقضاء عليه فإن هذا الصراع قد ظل قائماً بارزاً لم يؤد إلى التوفيق بين الطرفين .

وهناك فكرة أساسية لهذه النزعة السيكولوجية قوامها أن التربية عملية نمو للذاتية اتفقت مع النزعات التي سادت في أواخر القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر ، ومع النزعات الاجتماعية ، والنمو البيولوجي ، ومع نظريات التطور بجميع نواحيه العلمية والفلسفية التي أخذت تتضح في الفترة نفسها ، ومع أن هذه الفكرة قد صيغت الآن في ألفاظ مخالفة فإن الفكرة والصيغة التي قبلت خلال جيلين أو ثلاثة كانت الصيغة نفسها التي وضعها « بستالوتزى » وهي : « أن التربية ليست سوى النمو المتزن المنسجم لجميع قوى الفرد » على أن الفكرة نفسها بجميع صيغها المختلفة ، والتي ترجع إلى معرفة دقيقة لعلم النفس يعبر عنها في العصر الحاضر « بتنظيم العادات العملية أو النزعات المكتسبة السلوكية » وهذا المدلول التربوي الذي يتجه نحو النمو الفردى أصبح مظهراً جوهرياً للاتجاه السيكولوجي في التربية ، وهو من فضل أواخر القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر على التربية ، ومع ذلك فهذه النظرية لها أهميتها الاجتماعية ، وتتفق مع النزعة التي ترمى إلى تعميم التعليم ، تلك النزعة التي تقول بأنه إذا كانت التربية هي عملية نمو الفرد ، وإذا كانت عملية طبيعية وليست بعملية صناعية ، فهي عملية يمر بها جميع البشر ، وهي عملية يمكن أن ينتفع الجميع من تنظيمها ، وتوجيهها ، وبناء على ذلك تتضح أهمية تعميم التعليم الأمر الذي كان غير ممكن حين كان الاهتمام مقصوراً على التعليم العالي ، وحين كانت التربية عملية تزويد الطفل بالأفكار ، وبمظاهر نشاط البالغين .

على أن الأهمية العظمى لكثير من آراء « بستالوتزى » - زعيم الاتجاه السيكولوجي - ترجع إلى أنه بفضل حلت التجربة محل التقاليد ، وجعلت

أساساً للآراء التربوية ، وبفضله أيضاً أخذت التربية شكلاً آخر — « فبستالوتزى » يرى أن الإنسان أشبه شئ بشجرة تم غرسها على مقربة من طمى وماء ، وأن البذرة التى نمت منها تلك الشجرة تشبه الخواص الطبيعية أو الموروثة فى الإنسان ، وعلى ذلك فليس فى طاقة المربين أن يخلقوا فيه شيئاً من هذه الخواص لم تحمله البذرة التى نشأ منها ، وليس عليهم إلا أن يتعهدوا هذه البذرة بالنماء حتى يخرج الزرع شطأه ويستوى على سوقه فيعجب الزراع ، فبدأت تهتم بالعوامل الوراثية ، وبعوامل إعداد البيئة .

أما « هربارت » فيبالغ بعض الشيء ويقول : إن وظيفة التربية كلها يمكن تلخيصها فى كلمة واحدة ، هذه الكلمة هى تهذيب النفس « أوهى بناء الأخلاق » وكان يرى أن كل مادة من مواد الدراسة يجب أن تعرض على الأطفال بطريقة تشوقهم ، غير أنه لم يكن فى الوقت نفسه يرضى عن هذا الضرب من التشويق المصطنع الذى أتهمه الناس به وهو براء منه . وما قاله فى ذلك : « إن المبالغة فى وسائل التشويق ، والمغالاة فيها والإمعان فى الحرص على تسهيل الدروس بطريقة العمل والاصطناع ، لمن أعظم الأسباب التى تعمل على تضليل الأطفال ، وتؤدى إلى اختلاط المعانى فى نفوسهم وإنه لمن الخطأ البين أن ندلل لهم جميع الصعوبات التى يصادفونها فى دروسهم حتى تصبح هذه الدروس نفسها من السهولة واليسر ، بحيث لا تكلفهم عسراً فى فهمها أو مشقة فى تعرفها ، على حين أنهم لو صادفوا فى طريقهم شيئاً من ذلك لأصبح كل منهم يعرف نفسه ، ويقف على مبلغ قوته ، وبذا يستطيع أن يميز دائماً بين ما يطبق من الأعمال ، وما لا يطيقه منها » . ويمكن أن نقول إنه من الناحية الفلسفية ، ومن الناحية السيكولوجية للتربية ، ومن ناحية المناقشات العملية قد برز أثر هربارت فى شدة تأكيده لأهمية التعليم ، وما يتبع ذلك من أهمية الطريقة التى يجب أن تتبع فى الفصل ، ولا سيما طريقة الإلقاء ، ويمكن أن نلخص آراء هربارت ، وجميع مبادئه التربوية فيما يأتى :

« إن التعليم يكون دائرة الأفكار ، وإن التربية تكون الأخلاق —

ولا قيمة للثانية بدون الأولى .

لقد كانت الحركة الهربارتية حركة مبدئية لفلسفة التربية ، ومن مبادئ هذه الحركة اشتقت الطرق العلمية المختلفة باختلاف الزمان ، والمكان ، أما الحركة الفروبلية فقد كانت على نقيض ذلك إذ كانت تهتم بمرحلة واحدة من مراحل التعليم هي مرحلة الرياض ، ومن هذه الحركة نشأ في عالم التربية تذوق المبادئ التي تحتوى عليها ، والتي أمكن تطبيقها على كل مرحلة من مراحل التعليم ، وهناك تناقض عظيم في وجهات النظر ، وفي موضع التأكيد أو الاهتمام بين نظرتي كل من هربارت ، وفروبل ، إذ أن هربارت يهمل طبيعة الطفل إهمالا تاما ، ولا يعنى إلا بعملية التدريس ، وبالاهتمام بكيفية التلقين ، أما الحركة الفروبلية فتؤكد قيمة الطفل وميوله ، وخبراته ، ومظاهر نشاطه على أنها نقطة للبداية ، ووسيلة من وسائل التعليم ، وتهدف إلى تحسين الروح السائدة ، والهدف ، والأخلاق داخل جدران الفصل . وهربارت ، يؤكد قيمة المدرس ، والآخر يؤكد أهمية الطفل . زد على ذلك أن هربارت قد أكد أهمية المعلومات على أنها وسيلة من وسائل بناء الأخلاق ، أما فروبل فقد أكد مظاهر نشاط الطفل المستثارة ومظاهر نشاطه الموجهة على أنها وسيلة لبناء الأخلاق . وكل من « بستالوتزى » و « هربارت » و « فروبل » ، قد جعل الهدف من التربية بناء الأخلاق ، ولكن « بستالوتزى » يرى أن هذا الهدف يتحقق بوسائل خارجية — عن طريق الإعداد المباشر في الفضائل الخلقية — وعن طريق « اليد ، والرأس ، والقلب » ! أما « هربارت » فقد رمى إلى الهدف نفسه ، ولكنه اتخذ التعليم وسيلة لتحقيق ذلك عن طريق الأفكار التي تستثيرها الرغبات ، فالرغبات تستثير العمل ، والعمل توجهه الأفكار التي يمكن الحصول عليها بالاحتكاك بالآخرين ، وبذلك تتكون الأخلاق : أما « فروبل » فيرى أن التربية تبدأ بالنشاط الذاتي لدى الطفل ، وتنتهى من ذلك إلى الأفكار ، وتكون الميول الإرادية . فهي في نظره عملية وجدانية إرادية أكثر من أن تكون عملية عقلية .

لقد رأينا أن « فروبل » — مثله كمثل « هربارت وبستاووتزى » — قد أكد الناحية الخلقية فى التربية ، فالترية لدى « فروبل » هى بناء الأخلاق ، لأنها ترسم تصميم طبيعة نشاط الطفل ، وهى خلقية ، لأنها تعمل على ربط الطفل بالحياة وهى تعبير بالغ عن طبيعة الطفل الباطنية عن طريق العمل . والتربية التقليدية أو التربية القديمة تربية ناقصة إذ أنها تنتج النمو العقلى أكثر من إنتاجها للقوى الأخرى المكتملة لها ، وكما هو الحال عند « روسو » نجد أن « فروبل » يؤكد الناحية العملية ، ويود أن لا تنمو هذه القوى كما نمت قوة التحصيل والتفكير ، لأنها تتمشى فى نموها معها ، هذا وبتأسيس التربية على نشاط الطفل ، وتوجيه التربية بمبدأ النشاط الذاتى ، تنمو القوة التنفيذية بالنسبة نفسها مع بقية القوى ، فليس هناك أى تعارض مطلقاً بين المعرفة والعمل ، ولا بين الناحية النظرية والناحية العملية ، ولا المهنة والأعمال .

والآن يتقدم بنا تاريخ التربية إلى العصر الذى نعيش فيه ، ولذلك يجدر بنا أن نعرف هذه الرسالة الجديدة التى يقوم بأدائها القرن العشرون ، فى نهاية القرن السابق وبداية هذا القرن ظهر نبي التربية الجديد « جون ديوى » ، ورأينا نبوته تعلن عن نفسها فى عبارة من عباراته يقول فيها : « جدير بالتغير الذى يطرأ الآن على التربية والتعليم فى مدارسنا أن يمتد إلى مركز الجاذبية منه ، وهذا الانقلاب فى التربية لا يقل فى شأنه عن ذلك الانقلاب الذى أحدثه « كوبرنيكس » فى عالم الفلك فلقد نقل « كوبرنيكس » محور الفلك من الأرض إلى الشمس ، وترى التربية الحديثة إلى نقل محور التربية من البالغ إلى الطفل ، فالطفل إذاً هو مركز الجاذبية ، والطفل إذاً هو الشمس التى تدور حولها سائر الأفلاك الأخرى » ، وكان من نتائج هذه الحركة أن أصبح الطفل محور البداية وهو المركز وهو الغاية من عملية التربية ، وغدت طبيعة حقلاً لأبحاث العلماء والفلاسفة والمفكرين ، حتى أصبح عصرنا هذا يطلق عليه عصر دراسة الأطفال . على أن « جون ديوى » يعتبر أيضاً من أشد المتحمسين للاعتبارات الاجتماعية ويقول فى ذلك : « إن كل الأمم الحديثة

تخضع للتأثير المؤكد البالغ الذى يحدثه العلم ، والديمقراطية ، والصناعة فى الحياة الاجتماعية، الحاضرة . وأصحاب العقول المفكرة يبحثون لإيجاد أسلوب من التربية أكثر احتراماً لطبيعة الطفل ، وأكثر تمثيلاً للمدينة الحاضرة .

ونستطيع أن نقول : إن حركة التربية الحديثة ، وإن نظمها وطرقها البيداغوجية تنجه إلى غايتين : الغاية الأولى هى مراعاة طبيعة الطفل ، والغاية الثانية هى مراعاة طبيعة المجتمع ؛ الغاية الأولى سيكولوجية ، والغاية الثانية اجتماعية . فالتربية الحديثة تحاول التوفيق بين طرفين : الطفل والمجتمع . ويمكن أن نلخص مبادئ العلامة « جون ديوى » وهو أحد زعماء التربية الأمريكيين فيما يأتى :

أولاً - التوفيق بين مذهبي الاهتمام وبذل الجهد Interest and Effort فعلينا أن نبعث فى أطفالنا ميلاً إلى العمل ولنتركهم بعد ذلك أحراراً فيه فسوف لا يدخرون وسعاً فى القيام به . (انظر الفصل الثانى عشر) .

ثانياً - جعل النشاط المدرسى مؤسساً على نمو الأطفال وتطور هذا النمو ، لا على المناهج التى لا قيمة لها أكثر من أنها وسيلة لغاية وليست غاية فى نفسها كما يزعم الناس .

ثالثاً - يجب أن يكون التعليم عملاً لا دخل للإجبار فيه ، وفى ذلك يقول صراحة : « وليس من المعترف به اليوم أن المدرسة تستطيع أن تزيد شيئاً فى عقل الطفل أو ترفع من نسبة ذكائه ، وغاية ما يمكننا قوله فى هذا الصدد أنها تستطيع العمل على ترقية المقدرة الفكرية فيه كما تتعهد مواهبه الفطرية بالسقى والنماء » .

رابعاً - وربما كان هذا المبدأ الأخير هو أهم المبادئ التى نادى بها « جون ديوى » - يجب ألا نفصل المدرسة عن المجتمع فهى جزء منه ، وينبغى أن تكون صورة مصغرة من صوره التى تنطق عنه ، فالمدرسة الحديثة فى رأى هذا العالم الحديث هى الحياة الاجتماعية نفسها مفعمة بالنشاط والعمل زاخرة بالصناعات والمهن ، متفاعلة بالأفكار والمبادئ والمدرسة على هذا هى التى

تستطيع أن تدرب كل طفل فيها على أن يكون عضواً عاملاً في جماعة مدرسية صغيرة من تلك الجماعات التي لا بد أن تثبت في نواحي المدرسة . ولقد كان من أثر هذه المبادئ التي انتصرت لها التربية الحديثة أن حدث تطور في نظم التربية وظهر هذا التطور فيما يأتي :

أولاً - فيما أصاب المناهج الدراسية من تغيير ظاهر .

ثانياً - فيما رسخ في أذهان الناس من الاعتقاد بفساد الطرق القديمة .

ثالثاً - فيما يستولى على المربين من العجب والدهشة حينما يرون بأعينهم تلك الحرية الواسعة التي يتمتع بها الأطفال في مدارس التربية الحديثة ، أو عندما يجدون لهؤلاء الأطفال نصيباً وافراً من إدارة المدرسة نفسها ، ودخلاً عظيماً في القيام بشئون أندية وجماعاتها ، بل في توقيع العقوبات التي تفرض على المقصرين من أفرادها .

رابعاً - في توثيق الصلة بين الأخلاق والتعليم ، فبرى زعماء التربية الحديثة أن خير الطرق لتعليم الأخلاق إنما هو عن طريق العمل والنشاط وما يتبع ذلك من الرغبة في خدمة الآخرين والغيرة على مصالحهم .

تلك هي الآثار التي جادت بها قرائح التربية الحديثة ، وذلك بعض التطور الذي لحق التربية ، وما كاد هذا الصوت العظيم يصل إلى آذان المربين حتى خفوا إلى مدارسهم يتعهدونها بالتجديد ، ويعيدون إقامتها على نظام حديث ، فجعلوا أساس هذا كله الطفل وميوله ، ونظروا إلى ما يشوقه وما يدفعه إلى العمل ، فكان من نتيجة ذلك أن أصبحت عملية التعليم سارة شائقة تسير في طريقها الطبيعي الذي نادى به « روسو » ، وسوف لا نتمكث طويلاً حتى نرى في المستقبل القريب تعاليم هذا الفيلسوف الحديث قد ذاعت في العالم المتحضر ، وعرفت طريقها إلى بيوت العلم ، ومعاهد التعليم ، وإذا ذلك فقط يظأطئ الناس رؤوسهم إجلالاً لهؤلاء الفلاسفة الذين ظهروا في سماء التربية منذ قرن أو قرنين ، وكان في مقدمة هؤلاء جميعاً نابغة الفرنسيين « روسو » ، وزعيم فلاسفة الألمان « هربارت » ، وشيخ المربين في الوقت

الحاضر العلامة « جون ديوى » الذى استطاع أن يهضم آراء سابقيه وأن يمثل أفكارهم وأن يمد العلم والتربية بالكثير من المؤلفات القيمة التى سوف تكون ذخراً عظيماً للعلم والمتعلمين فى الأجيال المقبلة . ولنتوجه الآن إلى ذلك البناء العظيم الذى شاده هؤلاء العمالقة من المربين لتلقى نظرات طويلة عليه .

المراجع

1. Graves : History of Education.
2. Monroe : Text book in the History of Education.
3. Dewey : Interest and Effort in Education.

- ٤ - المرجع فى تاريخ التربية ترجمة الأستاذ صالح عبد العزيز الجزء الأول .
- ٥ - المرجع فى تاريخ التربية ترجمة الأستاذ صالح عبد العزيز الجزء الثانى .

الفصل الثالث

أسس التربية الحديثة وطرقها

لو استفسرنا معاجم اللغة عن معنى كلمة « مبدأ » لم نجد لها تخرج بمعناها عما يأتي :

١ - أنه القانون العام الذي يرشدنا إلى العمل .

٢ - الحقيقة الأساسية التي نتخذها كأساس لتفكيرنا .

وفي هذا الفصل سنحاول أن نضع بين يدي القارئ فكرة موجزة عن القواعد الأساسية الصادرة المتعلقة بالتدريس والتعليم ليستعين بها على التفكير السليم بروية واتزان في مجال التربية ، كما سنحاول إمداده بالقوانين العامة ليستضي بها في عمله المدرسي .

ومن الواجب على كل مدرس أن يتأمل المبادئ التربوية في ظل الحاضر ، ثم يعمل بطريقته الخاصة بعد أن يستوعب هذه المبادئ ويقتلها بحثاً وفهماً ، وما لا شك فيه أن المبادئ العامة قليلة نسبياً إذا ما قورنت بطرق التنفيذ التي لا حصر لها ، كما أنها تضم إلى عمومها كونها عالمية ، في حين أن طرق التنفيذ خاصة وذاتية . وعلى كل فإن دراسة بعض الطرق الحديثة في التربية ستلقى شعاعاً هادياً يضيء السبيل إلى فهم وتفسير القواعد الأساسية ، وغالباً ما ترسم لنا خطط التنفيذ الناجحة ذات القيمة العظيمة في الظروف المختلفة بشرط أن تتناولها يد التهذيب والتحويل بما يلائم كل ظرف .

وسنعرض في هذا الفصل بعض الطرق المشهورة التي جاءت بها الأعوام الأخيرة على يد المهرة من المدرسين الموهوبين الذين مهدوا لنا الطريق للتقدم

في ميدان التربية والتعليم . وقبل أن نسوق هذه الطرق يجدر بنا أن نلخص بعض القواعد الهامة التي تميّط اللثام عن سر هذا الانقلاب التربوي الشامل ، مع حرصنا الشديد على حدى المبدأ التربوي وهما : الأطفال الذين يتعلمون - والمدرسون الذين يقومون بتعليمهم ، وهذا ما جعلنا نعرض للطفل والمدرس عند تناول القواعد المتعلقة بالتعليم والتدريس .

بعض القواعد الهامة في التربية

- ١ - يتعلم الطفل عن طريق النشاط النابع من قوى الميول الغريزية .
فعلى المدرسين أن يفسحوا للأطفال مجالا يتفق وهذه الميول .
- ٢ - مواجهة الأطفال بالمشاكل المعقدة الغامضة الجذابة للقيام بحلها وتحليلها . وهذا يوجب على المدرسين أن يعملوا على إيقاظ شتى العناصر والمواهب الكامنة في الأطفال ، كما يوجب عليهم أن يعملوا على مساعدتهم لاكتشاف هذه العناصر بأنفسهم .
- ٣ - اعتماد طرق التربية والتعليم على الصفحات العقلية لكل فرد ، وهذه الصفات تختلف قلة وكثرة بين الأفراد كما تتفاوت بين كل فرد وآخر ، وهذا يملئ علينا تقسيم الفصل الواحد إلى وحدات متجانسة من حيث طبيعة أجسامهم وحظهم من الذكاء وميولهم وأمزجتهم بحيث يمكن تزويد كل فرد بما يلائمه .
- ٤ - العمل على تنمية قوى الأطفال إلى أقصى حد في ظل جو اجتماعي تساير فيه طرق التدريس هذه الصفة الاجتماعية .

اللعب في التربية والتعليم

تساير المدارس الحديثة في التعليم ميول الأطفال الغريزية ، فمثلا تشجع في أطفالها غريزة حب الاستطلاع بتقديم المشاكل والألغاز إليهم للقيام بحلها ، كما تقيم المناقشات بينهم لتشجيع حب السيطرة فيهم . . وهكذا .

هذا وإن الكثير من الطرق التربوية الحديثة : كطريقة المشروع ، وطريقة الجمل في تعليم القراءة ، وطريقة البحث في تعليم العلوم والتاريخ والجغرافيا لأكبر برهان ساطع على تطبيق المشاكل القائمة على ميول الأطفال في التربية والتعليم . وإذا رجعنا إلى القواعد السالفة وجدنا أن المبدأ الرابع يظهر بوضوح في نشاط المدارس الحديثة ويتجلى ذلك في ميدان الألعاب الجماعية ، وعقد الجمعيات المدرسية كما يتضح في مجال العمل الجمعي . وعلى العموم فإن ميل المدارس الحديثة يتجه إلى إيجاد دوافع تحمل الأطفال على التعلم بنفس الحماسة التي تفيض بها لعبهم التلقائي ، ومثل هذه الطرق يطلق عليها في الغالب « التعليم عن طريق اللعب » . فاللعب وسيلة الفهم والمهارة عندما يتصل الطفل بالعالم المادى والاجتماعى ، وما المهارات المتعددة من : لغوية وحركية وجسمية . . إلخ ، إلا منتج من نتاجه وثمره طيبة من ثماره . ونقصد باللعب : التعبير النفسى المقصود لذاته المصحوب بالسرور . فلو أننا آمننا بذلك وأقدمنا على أعمالنا بروح اللعب خلقت هذه الروح من عملنا الجدى تعبيراً ساراً مقصوداً لذاته .

هذا ، ولقد تنبه علماء التربية إلى هذا السر فأدخلوا اللعب المعتمد على باعث في ميدان التربية وشاع في المدارس ودور التعليم .

والضحك مثل آخر لاستخدام الميول الغريزية في التعليم ، وإذا قلبنا صفحات الماضى وقضينا بعضاً من الوقت مع مدرس قديم لوجدناه يضيق ذرعاً بتلاميذه إذا وقع بصره عليهم وهم يضحكون حتى ليظن به الرأى نوعاً من المس إزاء هذا العمل الشنيع عنده غاية الشناعة ، القبيح كل القبح . ولقد كان هذا المدرس « الكلاسيكى » يرى أن مجرد وجود التلميذ تحت سقف المدرسة كاف لا متناعه عن الضحك واللعب ، وكان يرى في المدرسة بقعة معزولة عن الحياة الخارجية التي لا تحرم الطفل من التعبير عن غرائزه وميوله فحسب ، بل الواجب على الطفل أن يكون جادا في عمله ، بعيداً عن الضحك الذى يرى فيه المدرس مضیعة للوقت وعبثاً به .

هذا ، ولكننا اليوم نؤكد أهمية الضحك في التربية والتعليم فهو من الغرائز الأولية في الإنسان ، وكل عمل تحركه غريزة من الغرائز يكون أثراً وأقوى رسوخاً في النفس . وما هو ذا « لوبنفيلد » ^(١) يحدثنا عن الضحك فيقول :

« إن في الإنسان طاقة زائدة يحسن أن يصرفها عن طريق الضحك في الوقت المناسب ، وإذا لم تصرف هذه الطاقة عن هذا الطريق كان لها أثر سيئ على النمو العقلي فتعطله وتعوقه عن التقدم » .

ولما كان المدرس دائماً مظهراً للسلطة والسيادة ، وكان التلميذ غالباً ما تساوره نفسه بأن يضحك على أستاذه ويضاحكه ، ليروح بذلك عن نفسه ويضفي عليها الفرح والسرور فإننا نجد الطلاب الآن يعملون إلى حفلات السمر ويدعون إليها أستاذتهم ، وفيها وفي أمثالها يجد الطلاب متسعاً للتنفيس عن المكبوت من رغباتهم في جو من الفرح والسرور يغمر الجميع ويخلخل ضغط التبعية التي يشعر بها التلاميذ نحو مدرسيهم . ولا شك إذا سمح لتلاميذه في بعض الأحيان بالضحك في حدود معقولة سيخلق بذلك جواً تربوياً بديعاً بشرط ألا يجر التلاميذ إلى الغرور وألا يجلب على المدرس الحيرة والارتباك ، فبذلك ينفس الأطفال عن شعورهم ، ويقبلون على أعمالهم في سهولة ويسر ، ويتناولون الحياة هينة لينة بعيدة عن الهم والحزن ولا يغضبون لأنفهم الأشياء ويكون شأنهم شأن المازح في الحياة يسير فيها سيراً طبيعياً سهلاً ويألف الناس ويألفونه ويسمو عنده الشعور الاجتماعي ويكون سلوكه الاجتماعي إيجابياً لا عكسياً . ولا يغيب عنا أن الضحك يجدد النشاط ويدفع الطفل إلى العمل بروح جديدة قوية لا تقف في وجهها الصعاب .

ونحن من ناحية أخرى نحذر المبتدئين أن يقصدوا إلى ذلك أو يسمحوا للأطفال بالضحك عليهم ، ولعل قراءة المحاضرات الهزلية أو سرد القصص المضحكة هي آمن الطرق للتنفيس عن هذه الغريزة في رجات الفصل . ومن

المهم على كل حال أن يحتفظ المدرس بكرامته وألا يشور لأنفه الأشياء حتى لا يكون مثاراً لسخرية التلاميذ وخاصة كبارهم .

والضحك عظيم الأهمية في التربية ، وإن الأطفال والكبار الذين يمتازون بروح الدعابة والمرح هم أقل الأفراد عرضة للرسوب في الامتحانات والإخفاق إذا تلقوا الحياة ، كما أن الضحك يعافى المرء مما يعتره من هموم وما ينتابه من أحزان ، ويؤدى إلى مسالمة الناس ، فهو عامل من عوامل الخلق الحسن إذا كان صادراً عن نفس طيبة لا تضمر شراً لغيرها ، كما أنه البرهان الخارجى على صحة العقل وسلامته .

وإليك بعض الطرق الحديثة التى كان لها أثر عظيم في الانقلاب التربوى الشامل في وقتنا هذا :

١- طريقة اللعب وعلاقتها بالتربية

ليس من المبالغة أن نقول : إننا إذا فهمنا طبيعة اللعب استطعنا أن نتغلب على جميع المشاكل العملية في ميدان التربية ، وذلك لأن اللعب - في أضيق معانيه - ما هو إلا ظاهرة تختص بالطفولة ، وعن طريقه تتكشف دوافع الطفل الابتكارية في أقوى وأوضح صورها .

فمظاهر النشاط الابتكاري كالفن والمهن من ناحية - والاكتشافات الجغرافية والكشف العلمي من ناحية أخرى جميع هذه الأشياء تمت بصلة وثيقة إلى اللعب ، بل هي في الواقع استمرار لتطور الذاتية ونموها ، وإننا لنخطئ أشد الخطأ إذا فهمنا أنه ليس للعب الترفيهي ولا للاستجمام أى هدف آخر سوى التخلص من أعباء الحياة الواقعية ومتاعبها .

وفي اللعب نجد أن اللاعب - طفلاً كان أو رجلاً - يعبر عن رغبة ملحة لدى الكائن الحي للتعبير عن ذاته ، وهذه الرغبة لا بد من إشباعها وإلا ذبلت روحه . ومن أجل ذلك نجد أن جميع الإصلاحات الممكنة في ميدان التربية ، أو في محيط المجتمع ، تحركها دائماً رغبة شديدة في توسيع المجال الذي تجدد فيه هذه الرغبة الحيوية أنواعاً قيمة من أنواع النشاط الذي يرضى هذه النزعة ، يحدوها مثل أعلى يشبه ذلك الحلم الجميل الذي تراءى لعيني ذلك القس المتفائل ، فقد كان يشهد جمهورية يصبح فيها الجدد لعباً واللعب حياة . ثلاثة في واحد وواحد في ثلاثة .

على أن الذوق السليم قد لا يقبل في سهولة ذلك الهدف المثالي . ولكي نثبت صحة هذا القول فما علينا إلا أن نتناول العلاقة بين اللعب والجهد ببعض التفصيل : لا شك أن كلا منهما يتضمن مظاهر نشاط متباينة ذات قيم متفاوتة ، فهناك نوع من اللعب لا يهدف إلى شيء مطلقاً سوى مجرد التسلية وشغل الوقت ، كما يوجد نوع ثان يرى إلى أهداف تربوية محدودة ، وهناك نوع

ثالث مفعم بالهام من الأمور والجدى منها . ويقابل هذا السلم التصاعدي في اللعب نظام آخر - يوازيه في ميدان العمل الجدى يشغل الطرف الأدنى منه ضرب من العمل كثير الإجهاد عديم الإحساس بوشك أن يكون حيوانياً وهو في الواقع سبة في جبين العمل بوجه عام . كما يشغل الطرف الأعلى منه بنوع من العمل يكسب صاحبه شرف القيام به ، حتى إنه قد يرفع أمة بأسرها أو عالماً بأكمله . ومما يثير الدهشة حقيقة أن نفس المميزات التي تفرق بين أنواع العمل هي عين المميزات التي تفرق بين ضرب من اللعب وآخر . على أن مظاهر النشاط في أسمى أشكاله تختلط فيها مميزات العمل الجدى ، فأرق أنواع العمل هو ذلك النوع الذى يختاره صاحبه ويحد مستوياته ، أو بعبارة أخرى : هو ذلك العمل الذى يجد فيه الفرد فرصة سانحة للتعبير عن الذات في صورة الإنتاج الفنى . ولا نكون مغالين إذا قلنا إن أرق أنواع المدارس وأحسن نماذج المجتمعات إنما هو ذلك النوع الذى يصبح فيه الجلد ضرباً من ضروب اللعب ، أو بمعنى آخر الذى يسود العمل فيه روح اللعب .

وليس من العسير على القارئ أن يدرك أن هذا المبدأ يتضمن روح النظرية التى تنادى بأن الذاتية هي الهدف الأسمى من التربية ، على أن هذا المبدأ ليس ببدعة جديدة طرقت باب التربية ، فقد أصبح له من التأثير في النهضة التربوية اليوم ما لم يكن له في أى وقت مضى . ومن بين الحركات التى ألهمت هذا المبدأ بطريق مباشر وغير مباشر ، تلك الحركة المباركة التى اقترنت باسم الدكتور « ماريا منتسورى » تلك السيدة التى جذبت انتباه العالم بطريقتها الجديدة .

ومن المحتمل أن نجد في طريقة « منتسورى » أجزاء ذات أهمية ثانوية ، وقيمة وقتية ، كما أنه من المحتمل أيضاً ألا تثبت هذه الأشياء أمام التجربة ، ولكن هذا في الواقع لا ينطبق على المبادئ الأساسية لطريقتها ، ولا يمكن أن يقلل مطلقاً من قيمة جهودها الجبارة التى ترمى إلى إلقاء مسئولية تربية الطفل على عاتقه ، وتقلل عامل التدخل الخارجى في نموه إلى أدنى حد ممكن ،

لأنها ترى أنه ما دام الإنسان مدنيًا بالطبع فلا بد أن تتيح لأبنائها تلك الفرص التي تدربهم على التعاون والعيشة الجماعية التي يسودها الإخاء والمودة والتضامن في اللعب والجد واكتساب الكفاءة الاجتماعية والرشاقة الشخصية .

على أن أهم ما يميز طريقة « منتسوري » إنما هو أجهزتها التعليمية التي بواسطتها يتعلم الطفل كل ما هو جدير بتعلمه أثناء حضائته وطفولته ، ذلك كحسن استغلال القدرة الحركية والتمييز الحسي ، وتعليم مبادئ القراءة والكتابة والحساب . وطريقته في ذلك هي أن يترك الأطفال لأنفسهم ترعاهم عين المرشدة التي ترقب حركاتهم وسكناتهم على أن يتبع كل طفل طريقته الخاصة ، ويختار الوقت المناسب له والأعمال التي في مقدوره ويتقبلون نقد أنفسهم بأنفسهم ، وتكون نتيجة ذلك : أن يكتسب الطفل الصغير موهبة الابتكار والاعتماد على النفس وقوة التركيز ، وأن يتعود احترام الذات بجانب احترام الآخرين ، وأن يكتسب صفات الجهد والعمل الذي يهدف إلى غرض معين الخ من الصفات المحبوبة التي لا يعرفها الكثير من الأطفال الذين يرسفون في قيود الطرق الكلاسيكية ، ويحتنقون بنظام التعليم في الفصول .

وليس هناك ما يدعو إلى الشك في هذا القول ، وما على المنكر إلا أن يمر بجماعة من الأطفال قد فك أسرهم وتخلصوا من قيود هذا النظام العتيق واستبدلوا به نظاماً آخر تفرغ في جنباته الحرية وينتشر أريجها في ربوعه - فإنه لا شك راجع عن غيه ومقلع عن رجعيته ومدرك للبون الشاسع بين الفصل القديم والفصل الحديث الذي تنتشر فيه السعادة والهدوء ويسوده حب العمل والميل إليه .

ومع أن الدكتور « منتسوري » لم تهتم مطلقاً بقيمة اللعب الإيهامي وما يصحبه من قصص خرافي ، إلا أننا يمكننا أن نقول : إن الروح العامة لطريقته قائمة على الاعتراف بمبدأ اللعب كوسيلة هامة في تربية الصغار .

على أن هناك طرقاً أخرى تشبه طريقة « منتسوري » وإن كانت أضيق منها مجالا ، وتستخدم في تعليم الأطفال والكبار أحسن مثل لهذه الطرق « طريقة البحث » التي تستخدم في تدريس العلوم والتي استخدمها « آرمسترنج »

منذ أكثر من ثلاثين عاماً ، وتأثر بها تدريس الكيمياء ، والطبيعة ، وغيرها من المواد . وما دامت هذه الطريقة تضع التلميذ موضع الباحث الأصلي أو المكتشف الأول الذى قابلته مشكلة فأخذ يصارع الظروف فى سبيل الوصول إلى الحل ، فيمكن أن نعتبرها إذن قائمة على مبدأ اللعب .

وإن الدكتور « كيتينج » - وإن كان من أشد النقاد مرارة فى تجريح طريقة البحث واستغلال مبدأ الحرية فى التربية - قد كان بالرغم من ذلك صاحب فضل كبير فى استغلال مبدأ اللعب فى تدريس مادة التاريخ . ولا يفوتنا أن نذكر القارئ بأن حركة الكشف للبنين وما تبعها من حركة المرشدات للبنات ما هما إلا بعض الحركات المقصودة التى ترمى إلى تطبيق مبدأ اللعب فى التربية الأخلاقية .

على أن قادة الفكر الذين حذوا حذوا « آرمسترنج » و « الدكتور متسورى » قد حاولوا تطبيق مبدأ اللعب فى تدريس مختلف مواد المنهاج وكان لهم فى ذلك فضل عظيم . هذا وقد ظهرت طائفة من المقالات تضمنت ثورة فى عالم التربية وتناولت موضوع الحكم الذاتى والتأديب المدرسى ، ولعل مصدر الوحي والإلهام فى ظهور هذه الحركة بإنجلترا هو « هومرلين » صاحب الحركة المعروفة باسم « الجمهورية الصغيرة » تلك الحركة المشتقة من حركة أمريكية أخرى واسعة النطاق .

وسكان الجمهورية الصغيرة. أحداث مجرمون « بنون وبنات » وتراوح أعمارهم بين ١٤ عاماً فما فوق ، وقد تسلمهم « هومرلين » وفقاً لقانون الطفولة الصادر سنة ١٩٠٨ . هذا وإن القارئ لتستولى عليه الدهشة وتملكه الغرابة إذا علم أنه بمضى الزمن قد خلق « هومرلين » من هؤلاء المجرمين أطفالاً أبرياء ! ! فلا غرابة بعد ذلك إذا آمنا بالطريقة العلاجية التى استخدمها هذا المعهد مع هؤلاء الأطفال . وإن أوضح نقطة فى السياسة التى نهجها « هومرلين » هى الحرية التى منحها سكان هذه الجمهورية ، فواطنوها لم يخضعوا لأى قانون سوى ذلك القانون الصادر عنهم أنفسهم والذى هو من خلقهم .

ولقد أداروا دفعة حياتهم وتولوا شؤونهم بأنفسهم وتحملوا أعباء المسئولية الذاتية التي يتمتع بها أى فرد يعيش فى ظلال الديمقراطية .

على أن الدوافع التي أدت « هومرلين » إلى أن يطرح الطرق التقليدية فى العلاج الخلقى واضحة وبسيطة : فقد كان يرى أن إجرام الأحداث لا يرجع إلى عناصر فطرية ، ولكنه ينشأ عن سوء توجيه تلك الدوافع القوية التي لم تجد منفذاً طبيعياً لها فاضطرت إلى أن تسلك سبلا ملتوية بعيدة عما يقره المجتمع . وإن العلاج النفسى لذلك لا يكون عن طريق الالتجاء إلى الكبت ، أو استخدام عنصر الشدة ولكن عن طريق الإعلاء ، وهو نفس الطريق الذى اتبعته جمهورية « هومرلين » فالحدث المجرم الذى لا يجد من يرشده إلى طريقة إصلاحه ، والذى سبب يأس أبويه ومدرسيه ، والذى كان مصدراً للشغب مع أبناء حيه يذهب إلى مزرعة « هومرلين » فيندفع إلى العمل بين زملائه الذين شغفوا بمهمهم فتحركت فيهم روح الابتكار ، ووجد كل منهم مجالاً يستنفد فيه طاقته بدافع من نفسه ، دون أن تسوقه عصا الاستبداد ويلهب ظهره سوط الشدة . وسط هؤلاء الزملاء المستغرقين فى نشاطهم الذاتى يتمكن هذا الحدث من أن ينشأ نشأة صالحة ، ويربى على كسب قوته بطريق شريف ، ولا يكون عالة على غيره ، ولا يلجأ إلى التخاذل والتكاسل عن العمل الذى يدفعه إلى استجداء الأصدقاء ويعرضه لا حتقارهم .

وفى هذه الجمهورية لا يجوز أحد أن يثور مطلقاً ضد القانون الموضوع ، ذلك القانون الذى لم يستمد سلطانه إلا من رأى العام ، والصادر عن جماعة كانوا يوماً ما أعضاء فى عصابات . ومن العجب العاجب أن نرى مدمن الحرب من المدرسة والكسول المتقاعد قد أصبح كل منهما عضواً نشيطاً فى جماعة الزراع ، وهكذا خلق هذا النظام من أعداء القانون وطريدى المجتمع أكبر المحافظين على القانون وأحد أبناء المجتمع المنتمين إليه .

لقد أسهنا فى شرح آراء « منتسورى » وهومرلين وذلك لما لهما — بالإضافة إلى طريقة البحث — من أثر ظاهر . ولقد كان لهذه الحركات فضل عظيم

فى المملكة البريطانية ، وفى كثير من الدول الأوربية : فبعد ذلك الانقلاب الاجتماعى والروحى الخطير الذى نشأ عن الحرب الكبرى أخذت هذه الحركات التربوية تعلن عن نفسها وبزت النظم القائمة فعلا ، وبدأ التغيير يلحق طرق التدريس ، وساد النظام الذاتى فى ربوع المدرسة ، وليس من المبالغة أن نقول : إن هذه الحركات قد جذبت انتباه المدارس وظفرت بإعجابها فطرفت أبوابها ، وبدأت تنهار أمامها حواجز التقاليد القديمة وتنكسر قيودها إلى أن انتهى الأمر برواج هذه الآراء الحديثة وانتشار طرقها حتى فى أشد البقاع نقداً لها وسخرية بها عند أول ظهورها . ويمكن أن نلخص أهم مبادئ هذه الحركة فيما يأتى :

أولاً - تغيير سلطان الوالدين والمدرسين بالنسبة للطفل ، وتحسين موقفهم منه .
ثانياً - إلقاء أكبر قسط من المسئولية على عاتق الأطفال أنفسهم ، ومرونة طرق التدريس بحيث تتسع لحاجات الأطفال المتعددة .
ثالثاً - الاهتمام بأذواق الأطفال المتعددة وقدراتهم المتباينة .
وبالجملة يمكننا أن نقول : إن هذه الحركة ترمى إلى تحقيق ذلك المبدأ الذى ينادى بأن تلقائية الفرد إنما تجد طريقها فى روح اللعب .
ولقد ارتبطت هذه الحركة منذ بدايتها برغبة فى إصلاح المادة والطريقة ، وإفساح المجال أمام مواهب الأطفال وقواهم الإبداعية ، والعمل على ربط الأعمال المدرسية بالحياة وجعلها أكثر إنتاجاً . وهذا هو الاتجاه الجديد الذى يهدف إلى إصلاح مناهج التعليم .

على أنه ليس من السهل أن نتناول بالتفصيل اتجاهات هذه الحركة الجديدة ؛ وذلك لتعدد المظاهر التى اتخذتها فى بقاع العالم المتمدين : ففى بعض الجهات اتخذت شكلاً تطورياً هادئاً فأفسحت المدارس صدرها لهذا التغيير . وفى جهات أخرى ظهرت فى ثوب ثورى وأعرضت كل الإعراض عما يمس القديم أو يتصل به ، وكان المأمول لهذه الحركة الحديثة الشديدة الجرأة أن تكون قصيرة الأجل ولكن لم يحدث شئ من ذلك . وكان الأمر

بالعكس : فقد أفادت الكثير من المدرسين فائدة عظمى ، وإنه إذا كانت درجة الحماسة للإصلاح التربوى قد فترت بعد الحرب الكبرى فإن أعمال المصلحين لم تفشل قط فى أن تؤثر على الأهداف التربوية وتحدد مجراها .
وهناك مشكلتان هامتان تتصلان بموضوع التجديد فى عالم التربية وهما :

١ - مشكلة التنظيم المدرسى .

٢ - وظيفة المدرس وعمله .

فالنظام الجديد لا يتفق مع النظام التقليدى العتيق الذى يقبر التلاميذ فى الفصول ويخضعهم لجداول ثابتة ، ولكنه يجعل الطفل حراً فى أن يجوب ميادين العلم بطريقته الخاصة ، وفى الوقت الذى يناسبه ، وذلك لأن هذه المعاهد الحديثة تنهج منهجاً مناقضاً للفلسفة القديمة التى تعتنقها المعاهد الكلاسيكية القديمة التى درجت على تقسيم المدرسة إلى مجموعات من المتعلمين ، ومعاملة كل مجموعة منها كوحدة تتحرك فى اتجاه معين وبسرعة مناسبة لها ، كما أنها تنتقل من موضوع إلى آخر وفقاً أو تلبية لنداء دوافع خارجية . وإذا كانت فصول المدرسة كبيرة فلا بد من تتبع هذه القاعدة بكل تحفظ ، على أنه قد يكون هناك مجال للتوفيق بأن تقسم الفصول الكبرى أقساماً متعددة على أن يعاد تنظيمها وفقاً للموضوعات المختلفة . فهناك الموضوعات الاختيارية والشعب والنشاط الفردى للضعفاء . ولكن بالرغم من هذا التبسيط الاتجالى لطرق التدريس فلا يزال وحده هو المتحكم فى الطريقة وهو الذى يقرر ما يجب أن يتعلمه الطفل ، ومتى يكون هذا التعلم ، وكيف يكون . والطفل إزاء كل هذا لا يملك سوى السمع والطاعة ، وبذل قصارى جهده فيما يمليه عليه مدرسه .

أما « منتسورى » فتتخذ طريقاً عكس ذلك ؛ إذ أنها تنادى بأن يكون الطفل مستقلاً بالعمل والدراسة بالمدرسة وأن تكون المدرسة نموذجاً مصغراً للمجتمع الخارجى حولها ، وبما أن الإنسان اجتماعى بطبعه فلا بد للمدرسة من أن تفسح صدرها لنواحي العمل الجمعى . هذا ما فعلته الدكتور « منتسورى »

بل زادت عليه فألفت نظام الجداول الثابتة وقضت قضاء مبرماً على الفصل كوحدة للتعليم : فأطفالها أحرار يسلكون ما يحلو لهم من الطرق ، وينهجون النهج الذى يرتضونه فهم يتمتعون بحرية الحركة المشروعة .

هذا مع ملاحظة أن هذه الطريقة ذاتها لا بد أن يدخلها بعض التعديل مع كبار الأطفال : فهناك حالات يصبح تكرار المعلومات فيها مجرد ضياع للوقت والمجهود ، كما أنه توجد حالات أخرى ترتفع فيها قيمة العمل الجمعى بحيث لا يمكن أن يعادله شىء آخر . وإذن فلا بد من الاهتمام بمظاهر النشاط الجمعى أو التعاونى ، كما هو الحال فى الموسيقى وفلاحة البساتين وأعمال الحقل ، والأشغال اليدوية ، والتمثيل والرياضة البدنية . ولكن على الرغم من تلك الحاجة الماسة إلى هذا النظام الجمعى فى العمل فلا زال هناك فرق واضح بين روح هذا النظام ووظيفته ، وبين روح ذلك النظام التقليدى ، وإن الدلائل لتبشر بأن هذا النظام الجديد ليس نظاماً عملياً فحسب ، بل هو نظام كفيل بأن يؤتى أشهى الثمرات وأطيبها إذا ما قورن بالنظام القديم وإذا قسنا تلك النتائج الجديدة بالمعايير القديمة .

هذا ، وأما وظيفة المدرس : فقد يصعب علينا أن نحدد عمله فى هذا النظام الجديد الذى من شأنه أن يشجع الذاتية ، وإن هذه المشكلة لتزداد تعقيداً إذا ما نظرنا إلى ما تنادى به « منتسورى » وهو أن يكون المدرس مرشداً فقط ، وعلينا أن نلاحظ أولاً وقبل كل شىء أنه مهما كانت ظروف المدرسة طبيعية « Natural » فهى لا تزال بيئة مختارة وعالماً صناعياً وسط هذا العالم الطبيعى ، وعلى المدرس أن يقوم فيه بعملية الانتقاء .

فالمدرسون يهثون المسرح ويعدونهم للاعبين ، وإن كانوا يروون أنهم لا يساهمون فى إعداد الرواية . فهم وإن كانوا فى الواقع يراقبون حركة النمو والتطور بروح ملؤها الصداقة والحب ، إلا أننا لا يمكننا أن ننكر ألبنة أنهم هم الذين يحددون الشكل النهائى الذى سيتخذه مجرى التمثيل .

من أجل ذلك يمكن أن نقول : إن الطفل فى مدرسة « منتسورى »

وإن كان يعمل ما يريد فإن ما يريده مرسوم في نطاق دائرة موضوعة من قبل : فهو يقوم بوضع أسطوانات في ثقب مناسب لها ويرتب الألوان حسب تدرجها ويتعلم كيفية العد من جهاز معروف « بالسلم الطويل » . وما دامت الطريقة قد نظمت العمل بهذا الوضع فهي لم تترك شيئاً يفعله في الواقع .

وأهم ميزة تميز هذه المدارس هي انسجام « الروتين » الذي تتبعه : ففيها يستخدم الأطفال الأجهزة التعليمية ، ولكن على أى وجه تستخدم هذه الأجهزة ؟ وكيف يتأتى لهم أن يقوموا بذلك ؟ .

إن الأطفال يتمكنون من القيام بذلك وفقاً لإرادة المدرس الذى يحرص على أن يستخدم الأطفال الأجهزة فيما أعدت له : فالأسطوانات الخشبية مثلاً يجب أن تستغل في تعويد الأطفال دقة التمييز الحسى واللمسى ، لا لتكون دى يلهو بها الطفل ويعبث . على أن صحة هذا الاستغلال تنتقل من طفل إلى آخر عن طريق التقليد ، ويصبح ذلك ركناً هاماً من أركان التقاليد المدرسية ، وتكون وظيفة المدرس وإرادته الكامنة هي العمل على بقاء هذه التقاليد واستمرارها .

ونحن إذا ما تكلمنا على معلمة مدرسة « منتسورى » كمرشدة فلا نقصد بذلك أنها سلبية في موقفها من الطفل ، بل هي في الواقع مرشدة إيجابية نشيطة ، وظيفتها أن تقف على مقربة من الطفل ولا تتدخل في شؤنه من غير مبرر ، وهي يقظة دائماً ، وعلى أتم استعداد إذا ما دعا الأمر إلى تدخلها . وعليها فوق ذلك أن تحتفظ بسجل دقيق يشير إلى مدى تقدم الطفل ويعرب عن حاله ، مثلها في هذا كمثل الأم الرؤوم التى تباشر طفلها وتوليه عناية فائقة مع احتفاظها بقدرتها على ضبط النفس ، وهي تتطلع باستمرار إلى تلك الفرصة الذهبية التى ينطق فيها الطفل بكلمة أو يقوم باقتراح وعندئذ فقط تتقدم إلى الميدان .

أما وظيفة مدرس الكبار من الأطفال فلن تتغير في روحها العامة عن هذا الاتجاه ، فهي وإن كانت تتطلب قدراً كبيراً من المهاره الفنية والذكاء

والمعلومات فإنها تستلزم مع ذلك أموراً أخرى : فسيصبح من عمله أن يهيئ البيئة التي تشجع دوافع الأطفال نحو الفنون والعلوم وتقودهم في هذا الاتجاه قيادة رقيقة حكيمة . هذا فضلاً عن أن المدرس الذي هو بحكم مهنته متعمق في تقاليد موضوع تخصصه - عليه أن يلجأ إلى طرق الإلهام والإيحاء والنقد ويستخدمها في نقل أسرار هذه التقاليد إلى الباحث الصغير فيقبل عليها من تلقاء نفسه . فالمدرس في الواقع ما هو إلا وسيط أو ناقل لرسالة "Idea" من العالم الكبير إلى العالم المدرسي . وسوف يؤثر على تلاميذه فيخرجون إلى هذا العالم وقد أينعت فيهم مثالية العمل والإخلاص له والتفاني فيه . هذا وإذا كان التنظيم والتعليم الجمعي سوف يفقدان ما لهما من سلطان في النظم الجديدة ، فإن بقاءهما سيظل ضرورة لازمة يدعو إليها الاقتصاد المدرسي ، وإن المدرس الحديث لن يعرض عن فنون التربية القديمة كل الإعراض ، تلك الفنون التي لا تمثل أخطاء الأقدمين بقدر ما تثبت مدى ذلك النجاح الذي أحرزوه في أجيال متعاقبة ، كما تصور مقدار ما بذلوا من جهد جهيد وصبر شديد في أداء رسالتهم فلا بد لهذا الناشئ الحديث أن يتناول تراث الأقدمين بروح النقد البريء ، ويتعهد بالتهذيب والتعديل ليخلق منه وسيلة صالحة ودعامة قوية في تشييد الأهداف الجديدة .

وإذا ما انتقلنا من ميدان التربية العقلية إلى ميدان التربية الأخلاقية وجدنا أن بعض المتحمسين لحركة التجديد على أتم استعداد لقبول ذلك الرأي الذي يذهب إلى أن طبيعة الطفل خيرة ولا تحتاج إلى توجيه ، وأنه إذا ترك وشأنه إزاء الجمال الخلق فلا بد وأن يتكشف له في حياته كما تنكشف الزهرة عن جمالها الطبيعي ، هذا هو رأي المتفائلين . ويناقض ذلك رأي المشائمين الذين يرون أن طبيعة الطفل شريرة وأنه طبع على الخطيئة . ونحن نرى أن في كلا هذين الرأيين غلوّاً لا مبرر له ، والمسألة لا تعدو أن تكون نتيجة حالات مزاجية تحكمت في زعيميهما ، وهما « روسو » وجرمييه Germiah » فالواقع الذي لا سبيل إلى إنكاره هو أن سبيل الخير في هذه الحياة يبشر دائماً بالغو ،

وهذا ما لا يتأتى لطريق الشر أن يحققه ، فمظاهر النشاط الخيرة قد تكون عاملا من عوامل نمو الذات ، أما مظاهر النشاط الشريرة فهي وإن كانت تنتعش في بعض الأحيان إلا أنها تحمل بين طياتها بذور انحلالها وعطبها ، فإذا كانت الكائنات الحية أشد من غيرها حاجة إلى نمو نزعة الابتكار فيجب عليها أن تبحث عن عناصر الخير وتجد في طلبها ولا تهدأ إلا إذا انتهت إلى غايتها . على أن تاريخ الإنسانية وما فعله الإنسان بأخيه الإنسان يرينا مدى الشك الذي أصاب هذا البحث عن عناصر الخير وكيف وصل في النهاية إلى تلك المأساة .

هذا ، وإذا توقعنا أن تكون دوافع الطفل ذات أساس حيوى فعال يتجه نحو عناصر الخير ، فإنه من الصعب جداً أن نتوقع أنها وحدها كفيلة بأن تحل مشاكل الحياة دون أية مساعدة ، تلك المشاكل التي حيرت أصحاب العقول الجبارة من بنى البشر . بعد هذا لا يمكننا أن نتجاهل وجهتي نظر كل من : « شرستن وشلمى » ويتلخص رأى الأول في عبارته المشهورة : « متى اجتمع شخصان أو ثلاثة فلا بد أن يكون الشيطان بينهما » ، أما رأى الأخير فيتلخص في تلك العبارة المأثورة : « إن الخلاص من الخطيئة مثله مثل كل شيء طيب لا بد أن يكون نابعاً من الباطن وإلا نكون قد أجرمنا أكبر جرم في طبيعة هذه الحياة » .

ويجب أن يكون تهذيب الأخلاق ما لتثقيف العقول من مجال محدد ووظائف هامة : ففي حالة صغار الأطفال لا يمكن أن نسلم بأن نعهد للمدرس البيئة بأن يقتصر على إعداد المسرح ليتمكن الطفل من إظهار نواحي نشاطه المختلفة ، كما يمد الطفل بممثلين يشتركون معه في إخراج الرواية ويكون هؤلاء من أقرانه وأنداده ، بل نحن نعتقد أن المدرس بما له من بسطة في العلم ونمو في الشخصية يكون عاملا هاما ذا أثر فعال في العقول التي يرعاها وذلك عن طريق القدوة والمثل الصالح ، لا عن طريق النصح والإرشاد ، وعلى يده يتعلم الطفل شتى الطرق ويتدرب على المواقف المختلفة ، كما ترتقى ميوله ومواهبه التي تميزه عن

الحيوان وتفرق بينه وبين الإنسان الممجى الذى لم يتعهد بالرعاية والتهديب .
وليس هناك أدنى شك فى أن مثل المدرس العليا وقيمه الروحية ستنتقل إلى
تلاميذه ويستمدون منها المؤثرات التى ستوجه دوافعهم الاجتماعية وتصورهم
فى أشكال محدودة وطيبة .

وهكذا الأمر فيما يتعلق بمدرسى الكبار من الأطفال ، فهو وإن كان
لا يستطيع تطبيق مبدأ تشكيل الأخلاق على الشباب ، لأن ذلك يتعارض
مع ما عليه الشباب من عزة فى النفس وما يمتلكهم من الغرور ، فإنه بالرغم من
ذلك يستطيع أن يستغل ما وهبه من مؤثرات توجيهية ، ومن إحياء ناتج عن
تفاوت فى السن واتساع فى المحيط العلمى ، وخبرة فى الحياة ، يستطيع أن
يستغل ذلك كله فى التأثير على الأخلاق ، فأثر المدرس لا يمكن إنكاره
فى توجيه الجوانب الأخلاقية فى المدرسة أو الفصل وذلك عن طريق التأثير فى
قراءات التلاميذ ودراساتهم ، ولو أن تلاميذ اليوم وشباب المستقبل سيواجهون
فيما بعد موجات الولاء والآمال التى تهدر فى محيط الحياة الخارجية ، إلا أن
واجب المدرس يحتم عليه أن يتعلم هؤلاء الشباب عن طريق تأثيره معنى ذلك
الولاء وأهمية تلك الآمال ، وذلك ليستطيعوا فيما بعد أن يشقوا الطريق الذى
يريدونه ويستعدوا لتحمل المسؤولية بالقدر الذى تسمح به سنهم .

هذا ، وهناك مبدأ أخلاقى آخر لا يقل خطورة عن المبادئ السابقة ،
وهو : أن عمق الأفكار الأخلاقية يتوقف إلى حد بعيد على مدى تعلمها عن
طريق الخبرة ، ومدى استغلالها كمرشد فى أفعالنا ، وهنا فقط تظهر أهمية
الحكم الذاتى الذى يتلخص فى إلقاء عبء حكم التلاميذ على عاتقهم ،
وبهذا نتخلص من تلك النظريات الميتافيزيقية عن طبيعة الخير ومدى تأصلها
فى الطبيعة البشرية .

ومبدأ الحكم الذاتى مبدأ هام جدير بالمدرس ألا يهمله . ويمكنه أن يقابل
ما يصدر عن التلاميذ من أخطاء بصدر رحب ، ويتنزه الفرص الطبيعية
ليبين لهم عاقبة أعمالهم . فبالإضافة إلى واجب المدرس كمواطن فى المجتمع

المدرسى ، ذلك الواجب الذى يشترك فيه مع تلاميذه ، عليه مسئوليات أخرى لا يمكنه أن يتصل منها : فعليه أن يراقب العمل المدرسى ويعمل على تسيير دولابه سيراً طبيعياً بعيداً عن عبث الشواذ ، وإذا ما هدد الخطر أركان المدرسة ولم يجد المدرس وسيلة إلى الإقناع الذى يحمى به عناصر الخير من الهبوط إلى الهاوية فعليه حينئذ ألا يتوانى عن التدخل بحزم ليحفظ على المجتمع خيره .

وليس هناك ثمة تناقض بين هذه النتيجة وبين المقدمات التى تقدمنا بها ما دام المدرس على ثقة بأنه يعمل لا كمستبد يحاول أن يوقف كل شخص عند حده ، ولكن كوسيط بعث به المجتمع الذى ينتسب إليه كما ينتسب إليه الجاني تماماً ، والذى يجب على كل منهما أن يظهر نحوه خالص فروض الولاء والاحترام. فالمدرسة حقيقة تاريخية يجب أن تعلق المجتمع الأكبر الذى لا تشغل منه أكثر من وظيفة عضو واحد .

المراجع

١ - التربية ، مادتها ومبادئها الأولية ترجمة الأستاذ صالح عبد العزيز

2. T.P. Nunn : Education, its Data and First Principles.
3. W. Boyd : Towards a New Education.
4. J. Adams : Modern Developments in Educational Practice.
5. Rugg and Shumaker : The Child Centred School.
6. A. Ferrier : The Activity School.
7. A. Hamaide : "The Decroly Class".
8. B. Russell : On Education.
9. Maria Montessori : The Montessori : Method.
10. N. Mac Munn. The Child's Path to Freedom.
11. H. Caldwell Cook : The Play way.
12. E.T. Bazlay. Homer Lane and the Little Commonwealth.

ب- طريقة منتسورى

نشأة طريقة منتسورى

يرجع الفضل فى انتشار طريقة منتسورى وظهورها فى مبادئ التربية إلى الأحوال الاجتماعية التى كانت سائدة فى إيطاليا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ذلك أن تفاقم الشرور الاجتماعية التى انتابت الأحياء الفقيرة فى روما وضواحيها دفع بعض المفكرين إلى العمل على إزالتها ، وإنعاش الحالة الاقتصادية فى البلاد ، وكان من أهم المشروعات التى قامت لهذا الغرض مشروع إنشاء جمعية تسمى باسم «جمعية الإنشاء الحسن» ، وكانت هذه الجمعية تهدف إلى شراء مقاطعات شاسعة والعمل على استغلاله موارد هذه المقاطعات على أحسن وجه ، وكانت الخيرات التى تدرها هذه المقاطعات تعود على الزراع الذين يعملون فيها ، وقد ظهرت الآثار الاجتماعية لهذا المشروع فأُنقذ الكثيرين من غائلة الجوع وتحسنت الأحوال الاقتصادية للكثيرين ممن كانوا على وشك الإفلاس .

ثم ظهرت المشكلات الخاصة بالأطفال الذين هم فى سن دخولهم دخول المدارس ، فكان هؤلاء الأطفال منطلقين على سجيبتهم ، يلعبون كما يحلو لهم ، وكان من الطبيعى لهؤلاء الأطفال بحكم صغر سنهم وعدم تقديرهم للأغراض التى نشأت من أجلها الجمعية أن يتناولوا أبنيتهم بالعبث والتخريب ، وحيتئذ ظهرت فكرة صائبة فى ذهن الرئيس العام للجمعية وهى أن يجمع فى حجرة كبيرة جميع الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين الثالثة والسابعة ، وأن يظلوا تحت إشراف معلمة خاصة قد خصصت لها حجرة فى منزل المقاطعة ، وكانت هذه الفكرة منشأ ما يسمى بمنزلة الطفولة "The house of Children" وقد شجع رئيس الجمعية على الإقدام على هذه الفكرة ما أدركه من أنها

لأن تكلف من المصاريف أكثر مما كان يدفع في تربيم ما يفسده هؤلاء حين كانوا يتركون على سجيتهم فيعشون بما تصل إليه أيديهم .

وكان الهدف الأول الذي يرى منزل الطفولة إلى تحقيقه هو أن يقدم لأبناء المزارعين والعمال الذين يضطرون إلى الغياب نهائياً عن منازلهم ، نفس الرعاية التي كانوا يلاقونها على أيدي آبائهم لو لم يكن هؤلاء منصرفين إلى أعمالهم ، ولم تكن الجمعية تتقاضى نفقات ، ولكنها كانت تصر على إرسال الأطفال في السن المحددة . كما كانت تصر على نظافة الجسم والملبس ، وكذلك كان على الآباء تقديم فروض الاحترام للمشرفة ومساعدتها في تربية هؤلاء الأطفال . وكان للمشرفة حق طرد الأطفال الذين يذهبون إلى المدرسة بوجه قذر أو ملابس ملوثة ، وكذلك الأطفال الذين يثبتون أنهم ليسوا أهلاً للإصلاح بل دائماً يقعون في المحذور ويرتكبون الأخطاء ولا يطيعون الأوامر .

فالحاجة الاجتماعية إذن هي التي أوجدت هذا النوع من المدارس ، وهي أيضاً التي أعطت الفرصة لظهور الدكتوراة منتسوري وانتشار طريقتهما في ميادين التربية .

ذلك أنه في أواخر سنة ١٩٠٦ عهد الرئيس العام للجمعية إلى الدكتوراة منتسوري بتنظيم مدارس الأطفال في مقاطعات روما . وكانت طريقة منتسوري هي الطريقة التي اتبعتها نتيجة لخبرتها وتجاربها السابقة في ميادين التربية والتعليم . ومنتسوري سيدة إيطالية ولدت سنة ١٨٧٠ واتجهت في بداية حياتها اتجاهاً علمياً ؛ إذ التحقت بجامعة روما وحصلت على إجازة طبية سنة ١٨٩٤ . وقد التحقت ماريا منتسوري بعد ذلك ، كطبيبة مساعدة ، بمستشفى الأمراض العقلية بروما ، وفي أثناء اشتغالها بالطب هناك وجدت في نفسها ميلاً خاصاً لدراسة التربية ومعالجة ذوى العاهات وضعاف العقول من الأطفال ؛ ويتجلى ذلك الاتجاه في عبارتها الخالدة « لقد اختلفت مع زملائي فعتقدني أن الضعف العقلي يمثل في أساسه مشكلة تربوية أكثر من أن يرجع إلى مشكلة طبية » . ومنذ ذاك الوقت نجد أن منتسوري تنكب على قراءة كتب التربية .

وفي سنة ١٨٩٨ نتاح لها فرصة إلقاء إحدى المحاضرات في مؤتمر التربية الذي عقد في « تورين » عن تعليم ذوى العاهات العقلية وتصرح بأن مثل هؤلاء المرضى أشد احتياجاً إلى العلاج بأساليب التربية منهم إلى العلاج الطبي ، فيعجب بها وزير المعارف ويدعوها لإلقاء سلسلة من المحاضرات على المدرسين في روما ، وبهذه الطريقة نجد أنها تضع أساساً لمدرسة جديدة لضعاف العقول من الأطفال هي مدرسة « أورتوفرنিকা » The Scuola Ortofrenica التي أشرفت على إدارتها .

ولقد تأثرت الدكتورة منتسوري في آرائها الخاصة بتعليم ذوى العاهات العقلية من الأطفال ، بآراء كل من « إينارد » و « سيجوين » وهما من كان لهم فضل الأولوية في ميدان معالجة ضعاف العقول . وكان تأثرها بآراء « سيجوين » عظيماً جداً ، واستخدمت الكثير من أجهزته وزادت عليها الشيء الكثير ، واستطاعت أن تبتكر ابتكاراً عظيماً في هذا الميدان . ولقد قضت منتسوري سنتين كاملتين (١٨٩٨ - ١٩٠٠) في إدارة مدرسة « أورتوفرنিকা » مجربة طرق « سيجوين » في تربية ضعاف العقول دون كلل ، واكتسبت فيهما خبرة تربوية واسعة كما يتجلى ذلك في قولها : « إن هاتين السنتين اللتين قضيتهما في التربية أولى مؤهلاتي العلمية في التربية وأصدقهما » .
 "The two years of practice are my first and indeed my true degree in pedagogy".

وقد أدى نجاحها في هذا الميدان إلى اعتقادها أن هناك خطأ كبيراً في طرق العاديين من الأطفال ، وقد زادت شهرتها وعظم صيته عندما نجح أحد ضعاف العقول عندها في امتحان شهادة عامة وكان نجاحه لا يقل في نسبته عن نجاح غيره من الأطفال العاديين . . ولقد أدهشت هذه النتائج التي وصلت إليها منتسوري الكثير من المربين . أما هي فقد كانت في منتهى التواضع عندما ردت على هذا الإعجاب قائلة : « إن نجاح ضعاف العقول وقدرتهم على منافسة الأطفال العاديين إنما يرجع إلى عامل واحد فقط وهو أنهم تعلموا بطريقة مخالفة » .

“To me, she said, the boys from the asylums had been able to compete with the normal children only because they had been taught in a different way”.

ومنذ ذلك الوقت بدأت منتسوري تفكر جديداً في تطبيق ذلك النوع من التربية والتعليم الذي استخدمتهم مع ضعاف العقول على العاديين من الأطفال . عكفت منتسوري بعد هذا على الدراسة الجامعية والتحقت ثانية بجامعة « روما » وبدأت تدرس التربية التجريبية وعلم النفس التجريبي وأخيراً منحت منصب التدريس في جامعة روما .

وفي سنة ١٩٠٦ عهد إلى الدكتورة منتسوري بالإشراف على تعليم أطفال الأحياء الفقيرة في روما كما سبق أن ذكرنا . وفي سنة ١٩٠٧ فتحت أول مدرسة من ذلك النوع ، وأطلق عليها اسم « مدارس الأطفال » أو « بيوت الأطفال » « Casa dei Bambini » واهتمت منتسوري بثلاثة أشياء :

(أ) بصحة الأطفال

(ب) بالتربية الخلقية

(ج) بالنشاط الجسماني

وكان في كل مدرسة من تلك المدارس مرشدة أو ناظرة ، وطبيبة وحاضنة ، وكانت تلك المدارس تقبل الأطفال ما بين سن الثالثة والسابعة ، وكان التعليم بالهجان . وتلا ذلك إنشاء مدارس من هذا النوع ليس فقط في أنحاء روما بل في بعض أجزاء إيطاليا مثل ميلانو ، ثم في سويسرا الإيطالية ، فكانت تجربة اجتماعية تربوية شائقة أدخلتها منتسوري في ميدان حياة الطفولة : « إن فحوى تجاربي البيداغوجية تتمثل في بيوت الأطفال ، إذ أنها عبارة عن نتائج سلسلة محاولاتني التي قمت بها. في ميدان تربية الأطفال الصغار مضافاً إليها طرق استعملتها من قبلي مع ضعاف العقول » .

There lies the significance of my pedagogical experiments in the “Children’s houses : it represent the results of a series of trials made

in the education of young children with methods already used with deficient".

والفكرة التي أوحى إلى منتسوري بطريقها هي : « أن الطفل ما هو إلا جسم ينمو ونفس تتكون ، وهاتان الخاصتان ترجعان إلى شيء واحد هو الحياة نفسها ؛ لذلك يجب علينا ألا نشوه أو نخفق هذه القوة الغامضة ، وعلينا أن ننتظر ولا نتمجل ظهورها ، ولنعلم أن في نجاح أحدهما نجاح الآخر » . ولم يمض عام واحد حتى عرف اسم منتسوري وذاع صيتها في جميع أنحاء العالم . ومن إيطاليا انتقلت الطريقة منتسوري إلى سويسرا ومنها إلى الأرجنتين . وبدأت تجد من يدافع عنها وعن طريقها في الولايات المتحدة سنة ١٩١٠ وفتحت فرنسا أبوابها لطريقة منتسوري وقبلتها في مدارسها سنة ١٩١١ ، ووصلت إلى إنجلترا سنة ١٩١٣ حيث بدأت الحماسة تدب وبدأت تكن « جمعية منتسوري للمملكة المتحدة » .

The Montessori Society for the United Kingdom.

وفي السنوات التالية قامت بإلقاء سلسلة من المحاضرات في عدة مدن بالولايات المتحدة بأمريكا . وفي سنة ١٩٢٠ ظهر للدكتورة منتسوري كتابان هما :

١ - كتاب « الطريقة الراقية لمنتسوري »

The advanced Montessori method

٢ - وكتاب « المادة التعليمية لتربية الأطفال من سبع سنوات إلى إحدى عشرة سنة » .

The Didactic material for the children from 7 to 11 years.

ومفتاح طريقة منتسوري إذن يمكن العثور عليه في الطريقة التي كانت تتبعها في تربية ذوى النقص . والواقع أن ما أدخلته منتسوري على طريقها من تعديلات لتلائم تربية الأطفال العاديين لم يغير من جوهر طريقها في تدريب ذوى النقص تغييراً كبيراً .

تربية ذوى النقص عند منتسورى

لما كانت طريقة منتسورى تهدف أصلاً إلى تربية ذوى النقص العقلى فإن القانون الأول لهذه الطريقة يقول : إن مخاطبة عقلية مثل هذا الطفل يجب أن تكون فى مستوى أقل مما لو طبق هذا على طفل عادى . وعلى هذا فنحن فى احتياج إلى استخدام حواس الطفل أكثر من عقله ، ولذلك كان الاهتمام بتدريب الحواس عند منتسورى فى المقام الأول . ونقول منتسورى : إن حاسة اللمس هى أهم الحواس ، بل إنها تهيمن على باقى الحواس وهى إلى جانب ذلك من الحواس التى تلاقى تطوراً كبيراً فى السنين الأولى من حياة الطفل ، فهى إن أهملت فى هذا الطور فقدت الكثير من قدرتها الوظيفية بعد ذلك ، وقد كان الاهتمام الذى وجهته منتسورى إلى حاسة اللمس عظيماً إلى الحد الذى جعل بعض مؤرخى التربية يسمون طريقتهما بطريقة « التعليم باللمس » .

على أن هذا لا يجوز أن يؤدى بنا إلى الاعتقاد بأن طريقة منتسورى كانت تركز على أسس فسيولوجية، صرفة، إذ الواقع أنها كانت تقوم على أهم الأسس السيكلوجية التى تقوم عليها التربية الحديثة . فالدكتورة منتسورى تصر على مراعاة التطور العقلى للطفل ومراعاة ميوله وفى ذلك تقول : « يجب أن نهم بالتربية التى تؤدى إلى إشباع خبرة الطفل . والطفل يمر بلحظات نفسية يكون استعدادة العقلى فيها لتقبل المعلومات قويا فإذا نحن تركنا هذه اللحظات تمر هباء ، فمن العبث أن نحاول إعادتها ، إذ يكون الوقت المناسب قد مضى » . ثم تقول : « إن الطفل إذ لم يستطع أن يقوم بعمل ما أو أن يتذوق حقيقة ما فيجب على المدرسة ألا تصر على إرغامه على ذلك ، بل يجب أن تفرض أن هذا العمل قد جاء قبل أوانه وعليها أن تنتظر الدلائل التى تثبت أن الحاجة إلى هذا العمل قد أصبحت ماسة » .

ومن مظاهر مراعاة الدكتورة منتسورى للتطور العقلى للطفل أنها لا تقر العمل حسب جدول دراسى موافق عليه من السلطات ولكنها تعترف بالفترات

التي يجد فيها الطفل نفسه ميالا إلى إشباع ميوله ، وعلى هذا نجد في مدارس منتسوري طفلا يشتغل بلا انقطاع في عمل انتقاه هو لنفسه ، فهو لذلك لا يبدي تدمراً ولا تأففاً . وما دام الطفل سيختار لنفسه نوع العمل أو الموضوع الذي يكون موضع دراسة فإن الدكتورة منتسوري تقول : إن الجوائز في هذه الأحوال لا داعي لها ؛ فهي لا تقر مبدأ العقوبة أو منح الجوائز المادية للمتفوقين ، ولذا رفضت ذلك من مدارسها رفضاً باتاً ، وكيف تبقى على مبدأ آمنت بأنه كفيل بتدهور مستوى النفس البشرية ، فهذه ليست بواعث طبيعية ، بل قسرية ، وإذ وقعنا فيها كان مثلنا كمثل الفارس الذي يقدم لجواده قطعة من الحلوى ليشجعه على الجري ، أو سائق العربدة الذي يلهب ظهر جواده بالسوط ليلبي نداءه ، وشتان بين الجواد في كلتا الحالتين ، وبين جواد آخر يمرح حرّاً طليقاً في بيئة طبيعية .

فمجرد شعور الطفل بأنه بلغ ناصية الأمر في موضوع ما أكبر جائزة يمكن أن ينالها إذ أن « تقدمه الشخصي وشعوره بهذا التقدم هما سبب سروره الحقيقي ، وربما يكون سروره الوحيد » . بل إن اختيار الطفل للموضوع الذي يميل إليه وانكبابه عليه يحقق غرضاً تربوياً هاماً ، وهو أن النظام سيكون محفوظاً إلى حد بعيد . وقديماً كانت تلهث المشرفة على منازل الأطفال وبيع صوتها ويتصبب العرق من جبينها ، كل ذلك في محاولات غير مجدية لضبط النظام ومنع أي حركة قد يقوم بها الطفل . فالمادة التي يتناولها الطفل بالدراسة وشوقه لتتبع أسرار هذه المادة هي في حد ذاتها — في نظر منتسوري — خير ضابط للنظام .

وتفسر الدكتورة « منتسوري » كلمة « النظام » تفسيراً يخالف التفسير التقليدي الذي كان يصر على ألا يأتي الطفل بحركة ما فهي تراعى حاجات الطفل السيكولوجية في هذه الفترة ، وتعترف بحب الطفل للحرية في هذه السنوات الأولى من حياته ، فمن العبث إذن أن تكبت هذه الحرية وتقيد حركة الطفل باسم النظام الذي لا طائل تحته ، وإنما تربي طريقة منتسوري

إلى إعطاء القدر الكافي من الحرية للطفل ، وفي هذا القدر الكافي تمس مع النمو الذاتي له ، كما أن فيه من الحرية ما يسمح له بالحركة في أرجاء الحجرة ، وكل من يزور أى مدرسة تسير على طريقة منتسورى يدهش لنظام الأطفال هناك ، فهناك بالتقريب أربعون طفلاً في سن تتراوح بين الثالثة والسابعة ، وكل مكب على عمله ، فأحدهم منهمك في عمل خاص بالحواس ، وآخر يجد في حل مسألة حسابية ، وثالث يكتب الحروف ، ورابع يرسم ، وبعض هؤلاء الأطفال يجلسون على مقاعد ، والبعض الآخر جالسون على الأبنية .

تلك هي الأسس السيكولوجية التي بنت منتسورى طريقته عليها ، وإذا ما انتقلنا من مرحلة اعتبار الأسس السيكولوجية إلى طرق تطبيقها نجد أن هذه الطرق تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

١ - التمرينات للحياة العامة العملية .

٢ - التمرينات لتربية الحواس .

٣ - التمرينات التعليمية .

أولاً - تمرينات من الحياة العملية

وهذه تشتق معظم أصولها من فكرة منتسورى عن الحرية ، فالحرية كما تراها منتسورى تستلزم أن يكون المرء مستقلاً بنفسه بقدر الإمكان وأن يقوم بأداء ما تتطلبه مشاكل الحياة بنفسه ، وعلى هذا ففي منازل الطفولة يتعلم الأطفال كيف يغسلون أيديهم مستعملين في ذلك أحواضاً صغيرة واطئة ، كما يتعلمون تنظيف الأطافر مما قد يعلق بها من أوساخ ، وكذلك تنظيف الأسنان ، وكذلك يقوم الطفل بخلع ملابسه ولبسها بنفسه . ولتمرين الطفل على ذلك تستخدم أجهزة خاصة مكونة من إطارات خشبية وفوقها قطع من القماش أو الجلد وهي مربوطة بأزرار ومفاصل أوتوماتيكية ، وبعد عدة تمرينات في فك وربط قطع القماش بالأنواع المختلفة للأربطة يجتذ الطفل نفسه قد اكتسب مهارة تجعله قادراً على لبس وخلع ملابسه بنفسه ، وهذا يدخل الكثير من

السرور على الطفل إذ يشعر أنه قد امتلك ناصية الأمر وأنه قد أصبح قادراً على مباشرة بعض أموره بنفسه .

وتذهب منتسورى بفكرة إعطاء الطفل الحرية الكافية إلى حد أنها لا ترق بقاء الأطفال أمام قماطر مثبتة ، تلك القماطر التي تطلق عليها منتسورى أدوات العبودية Instruments of Slavery وعلى ذلك فهي تستعيز عن هذه بأخرى غير مثبتة صغيرة الحجم للبحث يسهل على الأطفال نقلها من مكان إلى آخر بلا ضوضاء ، إذ أن هذه القماطر مجهزة بكيفية تضمن معها إحداث أقل ضوضاء ممكنة ، وتقول منتسورى : إن هذه الطريقة لا تمنح الأطفال جزءاً من الحرية فحسب ، ولكنها إلى جانب ذلك تكسبهم مهارة ومراناً على وضع الأشياء في أماكنها .

وقد أعدت منتسورى عدة تمارينات رياضية منظمة لكي تنمي في الطفل حركاته العضلية ، وهي لاتوافق على تمرين الأطفال بالتمارين الرياضية المعدة للبالغين فتقول : « نحن نخطئون إذا اعتبرنا الأطفال من ناحية الاستعداد الجسماني رجالاً صغاراً ، إذ أن لهم مميزات خاصة بهم » ، ولذلك فكرت منتسورى في إعداد عدة تمارينات رياضية خاصة بالأطفال مراعية في الوقت نفسه حركات الطفل التلقائية والحاجات التي تتطلبها حياتهم في السنين الأولى ، ومن هذه التمارينات تلك التي كان الأطفال يقومون بها لتعلم صعود ونزول السلام ، وكانت هذه التمارينات تجري على سلام صغيرة تتناسب وأحجام الأطفال .

ثانياً - تمارينات خاصة بتدريب الحواس

وتعد منتسورى أجهزة خاصة لتدريب الحواس ، ويلاحظ أن غرض منتسورى من تدريب الحواس يختلف كل الاختلاف عن الغرض الذي يهدف إليه علم النفس التجريبي في الوقت الحاضر ، فعلى حين أن علم النفس التجريبي يهدف إلى قياس الحواس كانت الدكتوراة منتسورى ترمى إلى تدريب هذه الحواس وشحذها .

وكانت فكرة تدريب الحواس في بادئ الأمر منشؤها تعويض الأطفال المصابين بالنقص العقلي عن نقصهم ، فلما فكرت منتسورى في تطبيق هذه الطريقة على الأطفال العاديين رأت إدخال بعض التعديلات عليها ، فقد لاحظت أن ثمة أوجه خلاف بين الطفل ذى النقص والطفل العادى ، فعلى حين يبدى الأطفال العاديون سروراً عميقاً في تكرار التمرينات التى يقومون بأدائها صحيحة ، نجد أن الأطفال ذوى النقص لا يستهويهم هذا ، بل هم يقومون بأداء التمرين كمجرد واجب ولا يظهرون أى رغبة في تكراره ، والطفل ذو النقص يحتاج إلى التصحيح حين يخطئ على حين أن الطفل العادى يفضل أن يصحح لنفسه بنفسه ، وتلخص منتسورى هذه الفوارق حين تقول : « إن مجرد شعور الطفل ذى النقص بأنه يقوم بهذه التمرينات ليعوض نقصه يجعل هذه التمرينات بغضبة لديه » .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن منتسورى كانت تعلق أهمية كبرى على حاسة اللمس ولعل الذى دعاها إلى ذلك نجاحها في التجارب التى أجرتها على الأطفال العمى ، فقد استطاع هؤلاء الأطفال أن يميزوا الكثير عن طريق حاسة اللمس . وقد بهرت هذه النتائج منتسورى فرأت أنه من الخير إجراؤها على الأطفال العاديين فكانت تعصب عيونهم وتكلفهم تمييز الأشياء عن طريق اللمس « وكان هذا يزيد من حماسة الأطفال في أداء تمريناتهم » ، على أن اهتمام منتسورى بالحواس لم يكن مقصوراً على حاسة اللمس وإنما تناول الحواس الأخرى ، وكانت الأجهزة المستعملة في تدريب الحواس تشبه إلى حد كبير الأجهزة المستعملة الآن في معامل علم النفس . فلإدراك الحجم تستخدم أسطوانات خشبية مختلفة الأطوال والأقطار ، ولإدراك الأشكال تستخدم أشكال هندسية مختلفة مرسومة على ورق أو مصنوعة من الخشب . ولتمييز الوزن تستعمل كتل صغيرة متشابهة في الحجم والشكل ولكنها تختلف في الوزن ، ولإدراك اللمس تستعمل مسطحات على درجات مختلفة من النعومة والخشونة وهكذا . وكذلك يعتاد الطفل التمييز بين الألوان بأن تعرض عليه قطع من الصوف مختلفة الألوان .

كيفية سير الدرس

أخذت منتسورى عن « سيجوين Seguin » فكرة تقسيم الدرس إلى ثلاث خطوات :

(أولاً) ربط المدرك الحسى باسم الشيء . فمثلاً حين يرى الطفل لونين مختلفين وليكونا الأحمر والأزرق يقرن اللون بمحسوس ، فيعرض على الطفل قطعة من الطباشير الأحمر مثلاً وأخرى من الطباشير الأزرق .

(ثانياً) معرفة الشيء إذا ما ذكر اسمه فيسأل المدرس الطفل أن يعطيه قطعة الطباشير الحمراء أو الزرقاء .

(ثالثاً) استرجاع الاسم الخاص بالشيء فيسأل الطفل : ما هذا ؟ فيجيب : هذا أحمر أو أزرق .

وتستخدم منتسورى طرقاتاً مشابهة لهذه في تنمية حواس اللمس عند الأطفال لكي يميزوا الأوزان ودرجة الحرارة .

ولقد أضافت منتسورى لهذه الخطوات الثلاث تجارب أخرى يقصد بها أن يكتسب الطفل القدرة على التفرقة بين المؤثرات المتدرجة فيطلب إليه التمييز بين الألوان المختلفة وقد تصل هذه الألوان إلى ٦٤ (أربعة وستين لوناً) .

وتلعب التمرينات الخاصة بتنمية حاسة إدراك الشكل دوراً هاماً في نظام منتسورى إذ أن هذا يؤهل الطفل إلى التفرقة بين الأشكال المختلفة . وتبتدى هذه التمرينات بأن يطلب إلى الطفل وضع أشكال خشبية في مواضع مخصصة لها أو وضع هذه الأشكال متجاورة لتكوين شكل هندسى خاص . وحينما يحاول الطفل أن يضع هذه القطع في الأماكن المخصصة لها فإنه لا يستخدم حاسة البصر فقط بل يستخدم حاسة اللمس وحواس العضلات ، فهو يدرب على أن يمرر الأصبع الأصغر لليد اليمنى حول محيط القطعة ويكرر هذا حول محيط المسافة التي سيضع فيها القطعة ، وقد لاحظت منتسورى مراراً أن الطفل

الذى لا يستطيع أن يتعرف على الشكل بمجرد النظر إليه يستطيع أن يفعل هذا باستخدام حاسة اللمس .

ثم ينتقل الطفل إلى تمرينات أخرى يستخدم فيها حاسة النظر فقط فيطلب إليه أن يتعرف على الأشكال الخشبية الملموسة وأن يضاهيها بمثيلات لها مرسومة على الورق .

وممثل هذه التمرينات يعرف الأطفال الأشكال المختلفة كالدوائر والمثلثات والمستطيلات ، وإذ دعت الحاجة فلا مانع من أن يعرف الأطفال هذه الأسماء ولكن لا يصح أن نعطي أى تحليل لهذه الأشكال ولا أن تذكر أبعادها وزواياها لأن المقصود من الدرس تدريب حواس الطفل وليس تلقينه مبادئ الهندسة .

ثالثاً - التمرينات التعليمية

كان النجاح الذى لاقاه تطبيق الطريقة التعليمية للقراءة وللكتابة عند منتسورى أثر عظيم فى تحبيب هذه الطريقة إلى المربين ، ولكن يلاحظ أن هذه التمرينات لم تكن تحتل المكان الأول فى طريقة منتسورى بادئ الأمر ولكن النتائج الباهرة التى أحرزتها هى التى جعلت لها هذا المكان .

وطبقاً لهذه الطريقة بأتى تعليم الكتابة أولاً ثم تعليم القراءة ، ويقول منتسورى : « إنه فى الأطفال العاديين يمكن تدريب العضلات وتشكيلها بسهولة ولهذا فالمقدرة على الكتابة سهلة جداً فى هذه السن وليس الحال كذلك فى القراءة التى تحتاج إلى الكثير من التعليقات كما تحتاج إلى درجة كبيرة من التقدم العقلى فالقراءة قبل كل شئء تكيف الصوت على شكل مقاطع حتى تكون كلمات ذات معنى ، والقراءة عمل عقلى صرف ، بينما فى الكتابة يترجم الطفل الأصوات إلى علاقات مادية ويؤدى عدة حركات عضلية وبهذا كانت الكتابة أسهل على الأطفال وأحب إلى نفوسهم .

تعليم الكتابة عند منتسورى

لاحظنا أن منتسورى تقيم طريقته على أسس سيكولوجية مراعية في ذلك قدرات الطفل واستعداداته في تلك السن ، وهى في تعليم الكتابة تحقق وجهة النظر السيكولوجية أيضاً . ويظهر هذا في قولها : « المهم أن نفحص الفرد وهو يكتب لا الكتابة نفسها أى نفحص الشخص لا العمل نفسه » .

على أن طريقة تعليم الكتابة التى تقترحها منتسورى نشأت في بادئ الأمر من تجربة لتعليم الخياطة أجريت على فتاة كانت تقاسى نقصاً عقلياً . فقد لاحظت منتسورى أن نسيج الحصر قد أكسب هذه الفتاة مرونة يدوية استطاعت بفضلها أن تقوم بالخياطة مع العلم بأنها لم تكن تستطيع ذلك قبلاً . فاستخلصت منتسورى من ذلك أن « الحركات التمهيدية يمكن أن تستمر وتتحول إلى حركات ميكانيكية ، ولا يأتى هذا بتكرار التمرينات الخاصة بالعمل نفسه ولكن بتكرار التمرينات الممهدة له ، ويستطيع الأطفال أن ينتقلوا إلى العمل الرئيسى وأن يقوموا بأدائه دون أن يكونوا قد مارسوا هذا العمل من قبل » .

وتعليم الحروف في طريقة منتسورى يشابه تعليم الأشكال ، فكما أن الأطفال يتعلمون تمييز الأشكال الهندسية عن طريق اللمس أولاً ثم عن طريق النظر ، كذلك نجد منتسورى تنصح باتباع هذه الطريقة في تعليم الحروف ، فتصنع الحروف من خشب أو من ورق مقوى ، ويلمس الأطفال هذه الحروف ويتعلمون أسماءها الواحد تلو الآخر أثناء عملية اللمس ، فإذا أجاد التلاميذ هذا الدور الأول من التمرين فإنهم يجدون لذة كبيرة في التعرف على الحروف عن طريق اللمس (أى وعيونهم مغلقة) وبذلك يتعلم الأطفال الحروف عن طريق اللمس ، ثم ينتقلون إلى التعرف عليها عن طريق البصر فتعرض عليهم الحروف مكتوبة على الورق ، وهنا تأتى المرحلة الثانية من مراحل تعلم الكتابة وهى تعلم الحروف عن طريق حاسة النظر .

ويتعلم الأطفال مخارج الأصوات للحروف في نفس الوقت . والطريقة المنبئة هنا تتلخص في الخطوات الثلاث السابق ذكرها ، فيتدرب الأطفال على تحليل الكلمات المنطوقة إلى أصواتها ، فإذا أجادوا ذلك فقد حان ميعاد القراءة ، وتصف منتسوري محاولتها الأولى فتقول : « في يوم من أيام ديسمبر الجميلة حينما بزغت الشمس من خدرها مرسله أشعتها القرمزية على الكون ، وكان الجو كالربيع صعدت إلى السطح مع الأطفال ، وكانوا يلعبون بحرية تامة ، وكنت جالسة بجوار مدخنة ، وقد تجمع حولى عدد منهم ، فنادت طفلاً في الخامسة وطلبت إليه أن يرسم صورة للمدخنة ، وأعطيته قطعة من الطباشير فهض في التو ورسم رسماً كروكياً لهذه المدخنة على سطح المنزل ، وكما هي عادتي مع الأطفال شجعته وامتدحت عمله فنظر الطفل إلىّ باسمّاً ووقف لحظة قصيرة كما لو كان على وشك أن يعبر عن عبق سروره ، وبعد هذا إندفع قائلاً : « أنا أستطيع الكتابة - أنا أستطيع الكتابة » ثم ركع على ركبتيه ثانية وكتب على السطح كلمة " يد " وزاد حماسه فكتب " مدخنة " ثم " سطح " وبينما هو يكتب كان يردد صائحاً : « أنا أستطيع الكتابة - أنا أستطيع الكتابة » ولقد لفتت صيحاته أنظار زملائه فالتفوا حوله شاخصين بأنظارهم إلى ما كان يعمل في دهشة واستغراب ثم صاح اثنان أو ثلاثة من الأطفال : « اعطني قطعة الطباشير . إنني أستطيع الكتابة أيضاً » ، وبدأ الأطفال في الكتابة مبتدئين بكلمات أولية مثل " يد " و " مدخنة " . . . إلخ ، ثم تملك الأطفال الفرح فأخذوا يكتبون في كل مكان ، حتى لقد نقشوا السطح الذي كنا نسير عليه ، وقد علمت مما كان يقصه الأطفال أن هذه كانت حالتهم في المنازل ، ولكي تحافظ الأمهات على أثاث المنزل الذي كان الأطفال لا يفتأون يكتبون عليه اضطرون إلى تقديم هدايا من الورق ، وأقلام الرصاص لأطفالهن ، ولقد أحضر لي أحد الأطفال كراسة صغيرة وقد ملأها كتابة ثم علمت من أمه فيما بعد أن الطفل كان يكتب طوال النهار وشطراً طويلاً من الليل وأنه كان يذهب إلى مرقده والورق والقلم في يده .

تعليم القراءة عند منتسورى

نصر الدكتور منتسورى على عنصر الفهم فى القراءة ، بل إنها ترفض أن تعطى اسم القراءة لأى شىء خلاف هذا . وكما أن الكتابة ليست مجرد نقل الحروف والأسطر التى أمام الطفل ، كذلك القراءة عبارة عن تفهم الفكرة من الرموز المكتوبة ، وتقول منتسورى : إن عنصر الفهم هام فى القراءة لأنه بدونَه لن يستطيع الطفل أن يضع التشديد فى مواطنه المناسبة . وتبتدى دروس القراءة بأسماء الأشياء المعروفة أو الموجودة فى الحجرة ، وهذا يسهل على الطفل عملية القراءة فهو يعرف مقدماً كيف ينطق الأصوات التى تكون الكلمة . وتكون الخطوات كما يلى :

يعطى الطفل بطاقة قد كتب عليها اسم الشىء فيكون عمله مقصوراً على ترجمة العلاقات المكتوبة إلى أصوات فإذا قام بذلك بكيفية مرضية فليس على المرشدة إلا أن تقول : «أسرع قليلاً» . فيقرأ الطفل بسرعة أكبر وتتكرر هذه العملية عدة مرات ، وقد لا تكون الكلمة مفهومة لدى الطفل فى بادئ الأمر نظراً لتقطع مقاطعها ولكن عندما يقرأها الطفل بالسرعة المناسبة (تحت إشراف المرشدة) تذهب الكلمة إلى بؤرة الشعور مباشرة ، فإذا تم ذلك يضع الطفل البطاقة بجوار الشىء الذى تحمل اسمه هذه البطاقة ثم ينتقل الأطفال إلى قراءة الجمل فتكتب الجمل التى تصف الحركات أو التى تتضمن الأوامر على قطع من الورق ، ويختار الأطفال من هذه ويقومون بأداء ما يطلب إليهم عمله فيها ، ويجب أن يلاحظ أن الطفل لا يقرأ هذه الجمل بصوت مرتفع فههدف القراءة الأول أن يكشف الطفل المعانى من الرموز المكتوبة .

ويمكن الحكم على مدى نجاح هذه الطريقة مما ترويه منتسورى نفسها : « لقد أدهشنا طفل فى سن الرابعة كان يربى فى منزله على ونيرة خاصة . كان والد الطفل مستشاراً وكان يتلقى رسائل كثيرة ولقد كان يعرف أن ابنه علم بطرق تسهل عليه القراءة والكتابة ، ولكنه لم يكن يعا بهذا كثيراً ولعله

لم يكن يثق في هذه الطرق، وذات يوم بينما كان الأب جالساً يفحص بعض خطاباتهِ وكان الطفل يلعب بجواره دخل الخادم ووضع على المنضدة عدة خطابات كانت قد وصلت في تلك اللحظة ، فتناولها الطفل وأخذ يقرأ عنوان كل خطاب فأذهل ذلك والده . واقتنع بفاعلية الطرق التي تعلم بها ولده .

تعليم الحساب عند منتسورى

تستخدم منتسورى في تعليم الأطفال الأعداد ما يسمى بطريقة السلم الطويل ، وهذه عبارة عن مجموعة من عشرة حبال ؛ طول الأولى متر واحد ، والأخير طوله ديسيمتر ، وتقل الحبال التي في الوسط بالتدريج ، حتى تثبت هذه الحبال من طرفيها وكانت سلماً تسميه منتسورى بالسلم الطويل . وتقسم الحبال إلى أجزاء ديسيمترية وتنقش المسافات على الحبال بالأزرق والأحمر ، على التوالي ، وتستخدم هذه الحبال في تمرينات الحس لتعويد الأطفال التمييز بين الأطوال ، وتخلط هذه الحبال في هذه التمرينات وترتيبها المرشدة طويلاً موجّهة انتباه الطفل إلى الحقيقة التالية وهي أن السلم الذي يكون بهذه الكيفية أو تلك ذو لون واحد في كل طرف ، ويسمح للطفل بعد ذلك أن يتبين هذا السلم بنفسه .

وإذا ما تمرن الطفل على ترتيب الحبال طويلاً يطلب إليه أن يعد الأقسام الحمراء والزرقاء مبتدئاً بأقصر حبل ثم يعطى أرقاماً لكل حبل على سبيل التسمية فيستطيع الطفل أن يقول إن الحبل رقم (١) يحتوى على كذا وحدة من الوحدات الحمراء ، وكذا وحدة من الوحدات الزرقاء ، وهكذا في باقي الحبال . وبذلك يتعلم الطفل مبادئ الجمع .

ولقد ابتدعت الدكتورة منتسورى أجهزة مختلفة لتعليم القواعد الأربع الأصلية بطريقة حسية يقبل عليها الأطفال بشغف فيتعلمون أثناء اللعب ما يعجز عن تعليمه لتلاميذه مدرس الحساب بالطريقة التقليدية . ويستمر الأطفال في استخدام الأجهزة التي تعلم الحساب متدرجين من البسيط إلى الصعب حتى يتمكنوا من استخراج الجذر التربيعي والتكعبي للأعداد .

نقد طريقة منتسورى فى التربية والتعليم

لطريقة منتسورى حسنات كما أن لها عيوباً ، ولعله من الإنصاف أن نذكر المحاسن إلى جانب العيوب .

والحسنة الأولى التى لا بد أن نقف عندها هى مشكلة الحرية والنظام وأثرها فى التربية والتعليم والاقتراحات التى قدمتها منتسورى حلاً لهذه المشكلة ، فإذا ما رجعنا إلى الوراء فى تاريخ التربية ، نجد أن الطفل قد مر بعصور مظلمة حقاً حين كان يجلس على المنضدة المثبتة لا يتحرك يميناً أو يسرة فإذا فعل ذلك قرع بالعصا ، ثم تطورت الأمور شيئاً فشيئاً إلى أن جاء روسو الذى نادى بحرية الطفل ، ولكن منتسورى نادى بالحرية وبتنظيم هذه الحرية وتوجيهها فى القنوات أو الاتجاهات المثمرة ، وبذا مهدت للأطفال السبيل إلى إظهار فرديتهم وذاتيتهم ، لأن الفردية لا تظهر إلا إذا كان الشخص حراً ، وبناء على هذه العقيدة نجد الأطفال فى منازل الطفولة متمتعين بقسط وافر من الحرية يسمح لهم بنمو شخصياتهم ، ومع هذه الحرية نجد أن الأطفال يعيشون فى هدوء وسلام ، ويلاحظ أن الحرية عند منتسورى لا تتخذ مدلولها الواسع فتكون مجرد ترك الحبل على الغارب ، فهذه حرية موجهة لصالح الطفل وصالح الأطفال الذين يعيش معهم ، يقصد بها أولاً وقبل كل شيء أن يعتمد على نفسه كلما أمكن ، فالطفل الحر فى نظرها هو الذى يعتمد على نفسه ولا يلجأ للغير ، كذلك تفسر منتسورى الحياة على أنها النشاط الحر ، وهى ترى أن نمو الجسم والعقل لن يتم إلا إذا تركنا قوى الأطفال وغرائزهم وميولهم مقيدة . وعلى هذا نجد الأطفال فى منازل الطفولة ينتقلون بكراسيهم الصغيرة ليجلسوا حيث يحلو لهم الجلوس يتحركون ويتعلمون ويلعبون بكامل حريتهم ، والطفل فى تعلمه ولعبه يسير وفقاً للسرعة التى تسمح بها قواه الخاصة فى الحركة والإدراك . فالأطفال إذن لا يتعلمون مجتمعين بل كل يعمل بمفرده مستقلاً عن الآخرين وهم لا يجتمعون إلا فى الدروس

التي تتطلب اجتماعهم كالموسيقى والغناء والرقص . وفي الواقع أننا لا نجد في مدارس منتسوري تعليمياً بالمعنى الذي ألفناه في التعليم على يد مدرسين يتحكمون في التلاميذ ويملأون عليهم إرادتهم بل يقتصر عمل المدرس على الإرشاد والتوجيه فحسب . فحرية الطفل وتعويد الاعتماد على النفس وتشجيع ذاته من المميزات الأولى التي يجب أن تذكر عن طريق منتسوري .

والنقطة الثانية الجديرة بالبحث هي الخاصة بترية الحواس ، وأساس نظرية منتسوري أن الحواس هي الطريق إلى العقل والاستنتاج وهي في ذلك تتفق مع روسو الذي قال : « إن الحواس نوافذ المعرفة » .

Our first reasoning is sensuous.

ف تدريب الحواس لازم لتقوية العقل والقدرة على الاستنتاج وقد ذهبت منتسوري إلى أن تدريب الحواس يمكن أن يحقق عن طريق أجهزة خاصة عرضنا لها في مكان غير هذا . وتقول الدكتورة منتسوري إن تدريب الحواس أمر هام جداً من حيث إنه يعد الطفل إعداداً مهنيًا خاصاً ، فالذي يقوى من حاسة النظر عنده يصحح أن يكون رساماً بارعاً في المستقبل ، وكذلك الذي يربى حاستي السمع ودقة الملاحظة قد يكون فناناً بارعاً أو موسيقياً فذاً .

وعلى رغم التسليم بأهمية تدريب الحواس نلاحظ أن الأجهزة التي استعملتها منتسوري في هذا الغرض مملّة وجافة إلى حد بعيد ورغم محاولات منتسوري المتعددة لإبعاد هذا الملل عن الأجهزة . فلا شك أن الطفل الذي يعيش طول يومه مميّزاً بين أطوال مختلفة لحبال أو أحجام مختلفة لقطع خشبية ، أو لأصوات لا أثر للنغم الموسيقى فيها ؟ لا شك أن طفلاً كهذا سيعتريه السأم بسرعة ، ولا شك أن هذا الطفل لو وجه إلى الاشتراك في مباراة لكرة القدم أو كرة السلة سيقبل على هذه المباراة بشوق أكثر وسرور أعظم وهو في الرقت ذاته سيبدل نشاطاً حركياً أكثر

ومن الإنصاف أيضاً أن نقول إن النظام المنتسوري في تطور مستمر ، وإنه من التسرع أن نصدر عليه نقداً نهائياً . وقد لاحظت منتسوري بعض

أوجه النقص فأدخلت الرقص وعمل القماثيل من الطين ، على أن النظام لا يزال موضع نقد في أنه يهمل تربية الحاسة الأدبية وإحساس الخيال ، وعلى منتسوري أن تدافع عن نفسها ضد هذا الانتقاد في قبولها قانون التطور في التعليم فهي تقول : « يتبع الطفل الطريق الطبيعي لنمو البشر كله » ، ويفسر هذا على أساس أن الطور البدائي في حياة الإنسان كان طوراً عملياً فكان النشاط الحركي يحتل المكان الأول ، ولم يكن للنشاط الأدبي شأن يذكر ، وما دام تطور الطفل صورة مصغرة لتطور البشرية ، فإنه يتعين علينا أن يكون هذا التطور ممثلاً لأصله فيكون النشاط الحركي في حياة الطفل بارزاً على النشاط الأدبي ، هذا هو الاعتذار الذي يمكن أن يفسر على أساسه إهمال منتسوري للناحية الأدبية ، ولكن هذا لا يعفيها من النقد لهذا الإهمال .

وبينا يصح لنا أن نعتقد أن منتسوري كانت مخطئة حيناً أهملت الناحية الخيالية في تربية الطفل ، وحيناً ظنت أن الحقيقة شيء وأن الخيال شيء آخر مناقض للحقيقة وأنه لا يمكن الجمع بينهما ، حيناً تأخذ على منتسوري هذا النقص يجب ألا نغفل عن الخطأ الذي يقع فيه الطرف الآخر الذي يفرق في اتخاذ القصص الخرافية وسيلة لتنمية الخيال ، فلا شك أن كثرة القصص الخيالية ضارة بمعنوية الطفل الذي يحسن أن يعيش في عالم الواقع أكثر من عالم الخيال ، فالطفل معروف بمجموح خياله ، وقد تؤدي كثرة سماعه للقصص الخيالية إلى انفصاله عن عالم الحقائق ، ولعل أفلاطون قد نجح في التوفيق بين وجهتي النظر حين قال إن القصص التي تلقى على مسامع الأطفال يجب أن تتوفر فيها حقيقة المغزى ، ولو كانت التفاصيل والحوادث من نسج الخيال .

هذا ، وتستلزم طريقة منتسوري استخدام المدرسين الذين درسوا علم النفس الخاص بالأطفال ، والذين لهم المقدرة على العمل في العمل بخطوات منتظمة ، وتصر منتسوري على هذا فتقول : « كلما زادت خبرة المدرس في طرق علم النفس التجريبي استطاع أن يكشف الحياة بسرعة ، وأن يجد لذة فيها » . ثم تعود فتقول : « كلما زادت خبرة المدرس في طرق علم النفس العملي ، كان

أقدر على فهم كيفية إعطاء الدروس » . وخبرة المدرس بنفسية الطفل تمكنه من أن يعرف الأوقات التي يتدخل فيها في أعمال الطفل والأوقات التي يحجم فيها عن هذا التدخل ، ويمكنك أن تعرف مقدرة المربي الفنية من ملاحظة الظروف التي يتدخل فيها في عمل الأطفال .

ومهما تكن أوجه النقص التي تؤاخذ عليها منتسوري فإنه يكفينا أنها نادت بتشجيع ذاتية الطفل ، فكما يقول Charlotte : « إن العمل الذي قامت به « منتسوري » مثير للغاية فقد أكسب حركة علم النفس التربوي قوة ، وزودها بحافز يفوق ما ساهم به أي مرب آخر على قيد الحياة » .

The work of "Montessori" has been stimulating to an extraordinary degree and has imparted to the movement for the psychological improvement of Education and vigour and impetus far beyond that which owes to any other living educationist.

لقد خلدت منتسوري اسمها في صفحات تاريخ التربية فهي نصيرة الطفل والطفولة ، وقد عرف عنها تلك الجرأة في المناداة بحرية الطفل وتركه يربي نفسه بنفسه ، وكما يقول « كلثرون » : « إن حجر الزاوية في طريقة منتسوري إنما هو ترك الأطفال يعتمدون على أنفسهم واحترام شخصياتهم واعتقاد راسخ بأن فردية الطفل لا تنمو ولا ترعرع إلا إذا تسمت نسيم الحرية ، وصرحت منتسوري بأن التغاضي عن طبيعة الطفل وفرديته هو قتل لشخصيته بل هو خنق للحياة » .

ويقول « جون ديوي » في كتابه « مدارس الغد » : يرحب مربو الولايات المتحدة بمجهودات منتسوري في المحافظة على هذا القدر من الحرية الذي سيمكن المدرسين من أن يتعرفوا على مقدرة الطفل الحقيقية وميوله ، وبذا يحافظون على المادة الأولية لطريقة علمية في التربية .

ويقول « كلثرون » معجباً بهذه السيدة : « إن هناك فصولا كثيرة في كتاباتها لا يقرؤها الإنسان دون أن يشعر بإلهام يكشف عنها كأنها ملك قد

خصص نفسه لخدمة الإنسانية . فهي تخاطب الطفل بلغة المحبة وتعطف عليه فيشعر بأنه في جو يساعد على إظهار ميوله التلقائية » . ونستطيع بعد هذا أن نقدر متسورى حق قدرها وأن نتوجه إليها بعميق الشكر .

المراجع

1. R. Rusk : The Doctrines of Great Educators.
2. J.A. Adams : Educational Movements and Methods.
3. R.R. Rus : History of Infant Education.
4. Culverwell : The Montessori Principles and Practice.
5. Kilpatrick : The Montessori Examined.
6. Holmes : The Montessori Method.
7. Morgan : The Montessori Method.

ح - طريقة ماسون

تنسب هذه الطريقة إلى صاحبها « مس شارلوت ماسون Charlotte Mason » مؤسسة الاتحاد المعروف « بالاتحاد القوي للآباء في التربية » 'Parents' National Educational Union - أى إشراك الآباء في تعليم أولادهم ، ولذلك يطلق على هذه الطريقة P.N.E.U. ، وقد تأسس هذا الاتحاد لصالح الآباء والمدرسين .

وقد افتتحت « مس شارلوت ماسون » مدرسة في أمبليسيد « Ambleside » على هذا النظام ، وبوساطة المراسلات أمكن المدارس الأخرى فى غير هذه البلدة أن تستعمل المنهج والطرق والامتحانات التى تنظمها هذه المدرسة .

وسنلخص مبادئها فيما يلى :

يعتقد بعض العلماء أن الطفل يولد ونزعة الشر متأصلة فيه ويعتقد بعضهم الآخر خلاف ذلك ، ولكن الحقيقة أنه يولد وعنده الاستعداد لهذا أو ذاك ، فيجب أن ندرسه على الطاعة والضبط ، ولا تنادى التربية الحديثة مطلقا بفكرة ترك الحبل على الغارب ولكنها تؤكد ضرورة وجود عنصر الضبط . فأعمال الطفل وحركاته هو فى حاجة إليها ، ولكن الضبط ليس معناه تقييد الحركة ، ولا يلىق بنا أن نصل إليه عن طريق التخويف أو التأثير أو العقاب ، فهذا لا يلائم رغبة الطفل الطبيعية ، وكل هذه أدوات لا تقرها التربية الحديثة ولا تنادى بها ، لأنها لا تؤمن إلا بهذه الأدوات :

١ - خلق الجو الطبيعي البينى .

٢ - تنظيم العادة .

٣ - عرض الأفكار الحية .

فعقل الطفل لا يتسع لحشد شتى العلوم والمعارف التى لا تتصل بحياته ولا تلائم طبيعته ، ويجب أن يترك حراً فى اختيار ما يناسبه من المعلومات ،

فالمعلومات التي تقدم إليه يجب أن تكون متصلة بحياته وما يجري في بيئته . إذا نهجنا على هذا النهج وكانت المعلومات التي نقدمها له متنوعة غير منفزة ، فلا شك أن الطفل سيطلب منها المزيد ولن يكتفى بالقليل . وعقل الطفل لا يقل عن جسمه في الحاجة إلى القوت والمساعدة على النمو والتكوين ، وكما نمده بالغذاء الذي يمثل منه الجسم ما يصلحه ، كذلك يجب أن نغذي عقله بموضوعات شاملة سخية من واقع الحياة ، فيعمل الطفل ويمثل عقله ما يحتاج إليه من المعلومات .

ولعل أهم ما في هذه الطريقة هو تزويد المتعلمين بكتب كالكتب ذات الأسلوب الأدبي العالي ؛ لأنه من المعتقد أن الأطفال ينتهون إلى كل ما هو مصوغ في قالب أدبي جميل ، وهذه الطريقة تشدد في اتباع نظام القراءة الفردى ، وإذا درب الأطفال على هذا النظام فلا شك أنهم يصغون بالطبع ويركزون كل قواهم في العمل . وكذلك تنادى هذه الطريقة بإعادة قراءة الفقرات وشرحها وتلخيصها وإعداد الأسئلة على ذلك ، وبهذا يمكن إنماء القدرة الطبيعية للتركيز في الطفل ، كما تلقى هذه الطريقة عبء مسئولية التعليم على التلاميذ وتربيتهم على الاعتماد على النفس في التعليم والبحث تحت رعاية مدرس مرشد وهاد فقط لا يتوانى عن الشرح في إيجاز أو إسهاب إذا دعت الضرورة إليه . وفي هذه الطريقة يسمح المدرس لتلاميذه باختيار ما يروونه من الكتب .

وترى صاحبة هذه الطريقة أن الدرجات والمكافآت والعقاب والمدح والثناء والتوبيخ . . إلخ من البواعث ليست ضرورية لإحراز الانتباه ، فالانتباه طوعى إرادى وهو مفاجئ وسريع .

وكما تنادى هذه الطريقة وتشدد في مبدأ القراءة الفردية فهي من ناحية أخرى لاتأخذ بهذا المبدأ وذلك في الموضوعات التهذيبية كالرياضة مثلا أو القواعد « الأجرومية » ففيها لا بد للمدرس من أن يبذل قصارى جهده في مثل هذه الموضوعات ، وعلى مقدار ما يبذله من جهد يتوقف النجاح والفوز . ولما كان

التلاميذ قد تعودوا الإصغاء والانتباه كما أسلفنا فإن مهمة المدرس في هذه الحالة تكون سهلة ميسورة . وبالعامل بهذه المبادئ ومراعاتها وجدت « ماسون » أن قدرة الطفل على التعلم تكون في غاية القوة كما كانت تأمل ، وإن توقفت في بعض الأحيان على الوراثة والبيئة .

وتعمل هذه الطريقة على تدريب الطفل تدريباً مباشراً على مراعاة نفسه بنفسه من الناحية الخلقية والناحية العقلية . فمثلاً في الناحية الخلقية يدرّب التلميذ على استعمال إرادته في التمييز بين ما يريده وبين ما يعزم عليه ، فإذا حدث صراع بينهما لفت نظر التلميذ إلى أفضل طريقة في مساعدة رغبته للسيادة والفوز ، وهي أن يترك التلميذ الغرضين مؤقتاً ويلهى عقله بعمل يجلب عليه السرور أو التسلية ، ليستطيع أن يرجع بعد ذلك إلى مشكلته بقوة إرادية نشيطة جديدة ، وقد ينجح الأطفال في ذلك ولكن هذا شيء ضروري لتدريبهم ، وعلى المدرسين ألا يحاولوا منع الأطفال من هذه التدريبات باستعمال مساعدات دخيلة أو تقديم اقتراحات تشابهها فذلك مما يؤدي إلى تسفيه الأخلاق . أما من الناحية العقلية فنحن ندرّب الأطفال على استعمال العقل والحكم عند النظر في الأمور فلا يتعصبون لآرائهم ولا يسفّهون آراء غيرهم ، فقد يكون العقل مرشداً وعاصماً من الخطأ في حل مسألة رياضية مثلاً ، ولكنه قد يكون مرشداً وخيم العقاب عند البت في مشكلة أدبية . وماسون تنصح الأطفال بعدم التحيز وترى في تفهيمهم وتزويدهم بالمبادئ العامة للسلوك مساعدة لهم يجب أن تقدم إليهم ، وتفهمهم هذه المساعدة وهضمها جيداً ينتجهم من التفكير الضائع والعمل غير المقيد ، وهذا ما حرم الكثير منا من العيشة السعيدة التي كان يطمح إليها ودفعه إلى أقل منها .

د - طريقة دالتن

إن روح التربية الحديثة التي تسود هذا العصر هي مراعاة الاعتبارات السيكولوجية للتلاميذ ، والاهتمام بمقدرتهم العملية وباختلافاتهم في مستوى ذكائهم وقواهم العقلية كأفراد ، وقد أثبتت مقاييس الذكاء ومقاييس المواد المقننة أن الفصل المدرسي الواحد يحوى مجموعة من التلاميذ يختلفون قوة وضعفاً من حيث المقدرة والتحصيل العلمى ، فمثلاً نجد فى الفصل الواحد مجموعة من التلاميذ متفوقة فى مادة ما على باقى تلاميذ الفرقة . فطريقة التعليم الجمعى من شأنها أن تضع الأقوياء من التلاميذ مع الضعفاء فى كفة واحدة ، فعلى الرغم من تفاوتهم نجد أنهم يعاملون جميعاً معاملة واحدة . وينتج عن ذلك أن الأذكياء من التلاميذ فى فصل ما يسرون فى عملهم المدرسى بموجب النظام الجمعى ويرتبطون بعجلة غيرهم من المتوسطين والضعفاء ، ومن هنا يضع عليهم كثير من الوقت والمجهود . أما التلاميذ الذين هم دون درجة المتوسط فهؤلاء يتحايلون على الموقف بطرق شتى كالالتجاء إلى الدروس الخصوصية ، وهذا ما يكلف الآباء نفقات قد يعجزون عن الاستمرار فى تنفيذها ، وقد يخصص هؤلاء التلاميذ جزءاً كبيراً من وقتهم للمواد التي يتجلى فيها ضعفهم ، ويكون ذلك على حساب بقية المواد . فلا بد إذن ليم التوفيق بين أمثال هؤلاء التلاميذ وبين غيرهم من الأقوياء من تغيير هذه الطريقة المتبعة فى مدارس التعليم الجمعى بطريقة أخرى تسمح للتلميذ بأن يوزع وقته على المواد المقررة بالنسبة لصعوبتها فى نظره ، فيخصص وقتاً أطول للمواد التي يرى أنها صعبة ، وهذا ما حققتة طريقة دالتن - تلك الطريقة التي جمعت بين ثنائها كل المبادئ والأسس التي ترمى إليها التربية الحديثة وستضع لنا هذه المبادئ عند تحليلنا للأسس التي تقوم عليها هذه الطريقة ^(١) .

ويرجع الفضل في ابتداع طريقة دالتن أو طريقة المعامل إلى الآنسة « هيلين باركهurst Helen Parkhurst » ، وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى البلدة الصغيرة « دالتن » التي أنشأت فيها « باركهurst » مدرستها ، وهذه البلدة من أعمال ولاية « ماساتشوست » .

وقد بدأت هيلين عملها كمدرسة بمدرسة قروية صغيرة تضم أربعين تلميذاً موزعين على خمسة فصول ، ولم تكن هناك مدرسة أخرى تشاركها في تعليم هؤلاء التلاميذ فكانت تقوم بشرح درس في أحد الفصول ، وفي الوقت نفسه تراقب الفصول الباقية . ولما كانت هذه الطريقة متعبة دعاها هذا إلى التفكير في خلق طريقة تسهل عليها تسيير دفعة العمل في جميع المدرسة في وقت واحد ، فعملت على أن تكلف كل تلميذ أداء عمل من الأعمال ثم تراجع له هذا العمل بعد فراغه منه ، وتلك الفكرة جعلتها تسند إلى الكبار من التلاميذ بعض الأعمال مع تكليفهم أن يمدوا يد المساعدة إلى الصغار فيساعدوهم على فهم ما يغمض عليهم لفهمه دون أن يلجأوا إليها إلا عند الحاجة . وهذا التجديد الذي أوجدته « مس هيلين باركهurst » حجب إلى الأطفال عملهم الدراسي ، وظهر ذلك في إقبالهم عليه بشوق وانتباه .

وقد تنقلت « هيلين باركهurst » بعد ذلك في مدارس مختلفة ، ولم تكن في كل هذه التنقلات تقوم بدور المدرسة التي تعمل على تلقين الأطفال المعلومات المقررة ، بل كانت تفكر في تغيير هذه الطريقة الجمعية التي قرأتها ما كتبه « سويفت Swift » ^(١) عنها « من أنها طريقة عتيقة تخلفت عن القرون الوسطى وما زالت تسيطر على مدارسنا برغم تغير الظروف التي خلقتها ، وأعظم وسيلة للقضاء على هذه الطريقة هي توسيع مدارك المعلم الحديث ، فيتمكن عندئذ من دراسة تلاميذه ، وبذلك يصبح الفصل معملاً تربوياً ، ويقتحم النشاط اليدوي ذلك الحائل المنيع بين الأشغال وبين مختلف المعامل الدراسية لبقية المواد » ^(٢) .

وفي سنة ١٩١١ بدأت « هيلين باركهurst » تطبيق مبادئها على أطفال من سن ٨ - ١٢ سنة ، وجعلت تعليمهم في معامل تربوية ، وعمدت إلى إلغاء جدول الدراسة تدريجياً ، ونظمت الأطفال في مجموعات ، وتركت لهم حرية العمل فيما يروقهم من المعامل المتعددة ، وفي سنة ١٩١٤ زارت « باركهurst » إيطاليا حيث درست طريقة « منتسوري » التي كانت معجبة بها أيما إعجاب ، وكانت تأمل في نشر هذه الطريقة في أمريكا ، وفي سنة ١٩١٩ أتيت « لباركهurst » الفرصة لإعادة تجاربها على طريقة المعامل في إحدى مدارس الأطفال المقعدين ، وفي سنة ١٩٢٠ تمكنت من تطبيق طريقتهما في مدينة « دالتن » بإحدى مدارسها الثانوية . وكانت « باركهurst » تؤكد استخدام كلمة « معامل » في مدارسها فكتبت في ذلك تقول : « إنني أتمسك بهذه الكلمة على أمل أن تنتقل تدريجياً وجهة نظر التربية ، وتبتعد عن جو التحيز والنظريات الميتة التي تجرّها كلمة مدرسة إلى عقولنا ، فدعنا نفكر في المدرسة على أنها « معمل اجتماعي » يصبح فيه التلاميذ أنفسهم المجرّبين لا الضحايا لنظام بائد لا حول لهم فيه ولا قوة . دعنا نفكر في المدرسة على أنها مكان تسود فيه الظروف الاجتماعية كما تسود في الحياة خارجها » . ولكن لكيلا يسيء الناس فهم الغرض الذي تقصده « مس هيلين باركهurst » من كلمة « معمل » قررت أن تطلق على طريقتهما اسم « طريقة دالتن » ، ولم تقبل أن تطلق على هذه الطريقة اسمها لرغبتها في أن تجعلها طريقة حية دائماً ، ولأنها تود أن يشترك معها غيرها من المربين في تجربة الطريقة وإصلاح كل نقص يبدو لأي فرد بحرية تامة .

لقد كان ابتكار « هيلين باركهurst » لهذه الطريقة حلاً لمشكلة تكييف العمل المدرسي لحاجات التلاميذ : الاجتماعية ، والفكرية ، والجسمية ، وهذه الطريقة تقوم على فلسفة : هي أن المدرسة يجب أن تكون مجتمعاً يهيئ الخبرات التي تحرر ميول التلاميذ ودوافعهم ، وينتج عن هذه الخبرات المعرفة والقدرة التي تتطلبها الحياة ، ويجب على المدرسة أن تتيح الفرصة لمثل هذه الخبرات في وسط

اجتماعي . فلكي يصبح الفرد قادراً على تصريف شئون حياته يجب أن يتعود رسم الخطط وتنفيذها أثناء عملية التعلم . ولقد تأثرت « هيلين باركهurst » بفلسفة « جون ديوي » فاعتقدت أن الفرد يحتاج إلى الحرية لكي تنمو قدراته وتتكون شخصيته ، كما رأت أن الصفة الاجتماعية لا تتحقق في الفرد إلا عن طريق الحياة التعاونية مع الجماعة ، وأن قدرة الفرد على تصريف شئون نفسه تتكون عن طريق تعلمه كيف ينظم وقته . وعلى أساس هذه الفلسفة وضعت « هيلين باركهurst » الأسس التالية التي بنت عليها طريقها في التربية وهي : الحرية ، والتعاون ، وتحمل المسؤولية .

فتلاميذ مدرسة « دالتن » أحرار في إنجاز أعمالهم من غير أن يزعمهم صوت الناقد الذي يتحكم في الجدول الدراسي ، فيقطع عليهم حبل أفكارهم وتصوراتهم ، فيستمر التلميذ في العمل الذي يقوم به في أي مادة يكون منشغلاً بها ، وبذلك يكون أكثر إنتاجاً وتحصيلاً للعلم من زميله الذي يتلقى العلم على أساس الحفظ ، ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أنه إذا لم يتعلم التلميذ بالمقدار الذي تسمح له به قدرته الشخصية وما يصحب ذلك من شعوره بالشغف نحو المادة التي يعمل فيها ، فإنه لن يتعلم شيئاً بالدقة المطلوبة ^(١) . وقد قيدت هذه الحرية بقوانين تنظيمها ، وروعى فيها أن يشغل كل تلميذ وقته لا أن يشغل وقت غيره لأن هذا هو عين الاستبداد .

ولقد ألفت طريقة « دالتن » قدراً عظيماً من تحمل المسؤولية على عاتق الأطفال أنفسهم ، فهي تحدد لهم القدر المعين من المواد الدراسية التي يمكن دراستها في مدة معينة ثم تركهم أحراراً ، وفي نهاية المدة يكون كل تلميذ على أتم الاستعداد لإثبات كفاءته وجدارته فيما درسه . والتلميذ حر في متابعة دراسة أي علم من العلوم ، فقد يركز اهتمامه في علم واحد أو في علمين كما يترأى له . وتتطلب هذه الطريقة أن يقلع المدرس عن التدريس وتصبح

الحمد (١) محمد حسين الخرنجى : طرق التربية الحديثة .

وظيفته الإرشاد فحسب ، فيتعين عليه أن يبقى ساعات محدودة في معمله لتوجيه من يحتاج إلى إرشاد من الطلبة . وليس من المفروض مطلقاً أن يتدخل المدرس في شئون التلميذ الذي له مطلق الحرية في أن يلجأ إليه للإرشاد أو لا يلجأ . فكل تلميذ يتقدم في عمله الدراسى وفق قدراته وميوله مادام يسير بنجاح في هذا العمل . والأطفال أحرار في أعمالهم مدة ثلاث ساعات يومياً (من ٨ - ١١ صباحاً) ، أما بقية ساعات اليوم فكانت تترك للدراسة وفق الطريقة العادية ، وكان على المدرس أن يقوم بالمهام الآتية وهى :

- ١ - خلق جو دراسى داخل معامل الدراسة .
- ٢ - شرح تفاصيل بعض التعيينات .
- ٣ - تزويد الأطفال بطرق استخدام الأجهزة الدراسية .
- ٤ - مد الأطفال أو التلاميذ بالنصائح والإرشاد عند حل بعض المشاكل المعقدة .
- ٥ - يقوم المدرس إذا دعت الحاجة بشرح بعض النقاط الدراسية وعلاقتها بالمبدأ العام في مادة الدراسة .

ويدعى أنصار هذه الطريقة أنها نجحت نجاحاً تحسد عليه ، فالتلاميذ الذين تركوا لأنفسهم وأجهزتهم ولعاملهم ولطريقتهم الخاصة ، قد تمكنوا من النجاح وتزودوا بسلاح الثقة بالنفس في مواجهة المشاكل . وما لا شك فيه أن هذه الطريقة في البداية قد تعرضت لبعض الاضطراب ، وأنه أعوزها عنصر الربط ، وأن بعض الموضوعات الدراسية قد أبلى فيها التلاميذ بلاء حسناً ، ولكن وجد أنه بعد أن تستقر الأحوال يتمكن التلاميذ من أن ينظموا عملهم ، وينتهوا من التعيينات المقررة في المدة المحددة . وما يدعو إلى الدهشة حقاً أن بعض التلاميذ - أو جلهم بشكل عام - كانوا يفضلون البدء بأصعب المواد الدراسية وأكثرها كراهية إلى نفوسهم .

وطريقة « دالتن » يمكن تطبيقها على تلاميذ تتراوح أعمارهم بين الثامنة والثامنة عشرة ، وتهدف إلى تزويد الطفل أو التلميذ بالحرية ، وترى إلى تحويل

المدرسة إلى مجتمع تتمكن الجماعات فيه من الاحتكاك بعضها ببعض ، وهي طريقة تحل مشكلة التعليم من وجهة نظر التلميذ ، فتزوده بالمسئولية ، وتحببه في العمل ، وفي هذه الطريقة تصبح الفصول معامل دراسية تضم بين جدرانها الكتب والأجهزة المناسبة لهذه المادة ، أما التلاميذ فما زالوا مجتمعين في فصول لأهداف تنظيمية ^(١) . ذلك هو الوصف الذي أدلى به سكرتير «جماعة دالتن» ^(٢) عن هذه الطريقة .

وفي طريقة « دالتن » يلغى النظام المدرسي التقليدي ، وهناك ثلاث خصائص لهذا التنظيم الجديد الذي تقوم عليه هذه الطريقة .

١ - تنظيم المدرسة إلى « بيوت » أو « أسر » لا تقوم على بعض الفرق المدرسية ولكنها تتكون من مختلف فرقها .

٢ - تتحول الفصول الدراسية إلى معامل للمواد الدراسية ، وتخصص كل مادة بمعمل ، ويعمل في كل معمل من هذه المعامل تلاميذ من كل الفرق ، كل يعمل في التعيين الذي معه .

٣ - يلغى التنظيم المدرسي التقليدي لليوم المدرسي ، ويترك للتلاميذ تنظيم وقته على أساس التوجيه الذي يشتمل عليه التعيين .

من هذا الوصف يتجلى لنا بروز أهمية المجهود الشخصي وتحمل المسئولية الذي اتصفت به مدارس « دالتن » ، تلك الروح التي لم يكن لها أى وجود في نهاية القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين ، والتي عمل كل مصلح تربوي على إدخالها في المدارس . على أن قيمة حركة « دالتن » يمكن لمسها إذا ما لاحظنا أو درسنا حركة المقاومة السلبية التي قوبلت بها هذه الطريقة الجديدة ، وهناك كثير من الأسباب التي تدعو إلى مقاومة هذه الحركة وإلى رد اعتبار الفصل الدراسي إليه واتخاذ وحدة للتدريس ، ويمكن تلخيص هذه الأسباب فيما يأتي :

Evelyn Dewey : The Dalton Laboratory Plan, p. 75.

(١)

J. Adams : Modern Developments ... p. 166.

(٢)

أولاً - الاتجاه الرجعى الذى يلزم معظم المدرسين . فمعظمنا يكره بل يقاوم أى تغيير فى طرقنا التعليمية . وقد تحبذ طريقة عملنا وإعدادنا وعلاقتنا بالجمتمع هذا الاتجاه الرجعى ، فأولياء الأمور ، والدولة نفسها لا يحبون المدرسين ذوى الجرأة فى الابتكار initiative . ومعظم الآباء قانع ويرحب بأن تسير الأمور فى مجراها الطبيعى ، وكذلك الحال لدى غالبية المدرسين أولئك الذين يفضلون اتباع أسهل الطرق وأقلها مقاومة ، ويقنعون باتباع طرقهم المعهودة ويمجدون فى الدفاع عنها .

ثانياً - حب المدرسين للتدريس الفصلى وتمسكهم به . فالتدريس الفصلى جاذبية وحنين يجعلان المدرس العادى يلتجئ إليه ويفضله على طريقة التعليم الفردى ، وربما كان السر فى ذلك راجعاً إلى ذلك التعليل الذى يلجأ إليه جماعة أنصار التحليل النفسى . فمن الصفات المرذولة فى الإنسان رغبته الدفينة فى أن يظل دائماً فى موضع الصدارة The love of the lime light ، « فحب القوة » Love of power وإبراز هذه القوة من الدوافع القوية فى الحياة ، وقد نكون نحن جماعة المدرسين فى خطر من جراء ترك هذا الدافع يسيطر على أعمالنا المدرسية الفنية ، فنحن نولع دائماً بتعليم الغير ، ونشعر أنه من الأسهل بل من الأسير أن نزود الطفل بالمعلومات العامة مباشرة بدلا من الانتظار عليه حتى يصل إلى تلك المعلومات بنفسه ، فلا غرابة إذن أن يتطلع بعض مشاهير المدرسين إلى طريقة « دالتن » بشىء عظيم من الريبة . فهى طريقة تبعدهم عن موقف الصدارة وتحركهم إلى العمل فى المؤخرة ؛ طريقة تدفعهم إلى إنكار الذات Self-abnegation فى الوقت الذى تدفع فيه بتلاميذهم إلى إثبات الذات Self-realization .

ثالثاً - وثمة عامل ثالث يدافع به بعض المدرسين عن أهمية نظام التعليم الفصلى ، فبعض أجزاء عملنا تحتم علينا أن نهتم بحاجات الفرد كفرد، وبعضها الآخر يحتم علينا أن نهتم بحاجات الأفراد كأعضاء فى جماعة . ومن أجل هذا يجب أن يحتفظ الفصل بكيانه كوحدة للتدريس .

وليس هناك ما يمنع مطلقاً من أن يحتفظ بالفصل كوحدة للتدريس مع الانتفاع بروح « طريقة دالتن » وتشجيع العمل الفردى والسير بطريقة التعيينات أو بالاتجاه إلى طريقة الربط بين المواد التى يشجعها الفرنسيون .
 وخطة مدرسة « دالتن » تشتمل على جميع المواد الدراسية التى توجد عادة فى المنهاج ، وهذه المواد تنقسم إلى مجموعتين :

المجموعة الأولى هى مجموعة المواد الثقافية المسلم بضرورتها للإعداد للحياة : كالرياضيات ، والعلوم ، واللغة ، والتاريخ ، وما إلى ذلك .
 أما المجموعة الثانية فهى مجموعة المواد الأخرى التى تطلب لقيمتها فى إرضاء ميول الفرد وحاجاته وتنميتها : كالرسم ، والأشغال اليدوية ، والموسيقى ، والتربية البدنية ، والتدبير المنزلى .

وتدرس مواد المجموعة الأولى دراسة حرة عن طريق العقود والتعيينات ، أما المجموعة الثانية من المواد فتدرس بالطريقة الجمعية .

وفى المدرسة الدالتونية يقسم منهاج كل فرقة إلى أجزاء كثيرة يكون عددها بعدد شهور السنة الدراسية ، والعمل الخاص بشهر من الشهور فى كل العلوم يسمى واجبا Job أو تعييناً assignment ويقدم الواجب أو التعيين لكل تلميذ على شكل كراسة تعيينات تشتمل على أوراق مطبوعة أو تقاسم Allotment أو عقود ، كل منها يمثل عمل شهر فى مادة من المواد التى يطالب التلميذ بدراستها ، ويقسم كل تعيين أو كل عقد Contract إلى أقسام أسبوعية أو يومية لتساعد التلميذ على تنظيم وقته ووضع خطة لدراسته ، ويراعى الارتباط التام بين التعيينات الخاصة بكل علم من العلوم المختلفة .

والتلميذ « الدالتونى » يسير فى عمله بثبات ، ويتقدم فيه خطوة فخطوة فى حدود ما رسمه له المنهج ، وهو يتبع فى عمله خطة دقيقة تضمن حسن سير العمل ، والنقط الأساسية فى سير الخطة التى يتبعها التلميذ يمكن أن نلخصها فيما يأتى : يصرف التلاميذ الخمس عشرة دقيقة الأولى من اليوم المدرسى فى حجرتهم العامة والخاصة بالأسرة التى ينتسبون إليها ، وفى أثناء هذه الدقائق

يرسم كل تلميذ خطته لهذا اليوم تحت إشراف أستاذه Class-adviser وعلى التلميذ أن يرجع يومياً إلى لوحة الإعلانات بالمدرسة ليقرأ الإعلانات الخاصة بالاجتماعات التي يجب عليه أن يحضرها فيدرجها في خطة عمله اليومى ، ويتمكن التلميذ بعد ذلك من متابعة فترة العمل الحر في الصباح فيعمل ما يشاء تبعاً للخطة التي يرسمها لنفسه ، وهذا يعطيه الفرصة لأن يشتغل في أى نوع من العمل يفضله هو في أثناء الفترة الصباحية . وبعد انتهاء الفترة الصباحية ينحصر التلاميذ - بإشراف مدرّسهم - بأى عمل يختارونه كوضع خطة لمشروع جمعى أو وضع برنامج لاجتماع عام أو لسماع درس في موضوع خاص ، وفي نصف الساعة الأخيرة يعمل مدرسو المواد المختلفة مع التلاميذ . أما فترة ما بعد الظهر فتخصص لأوجه النشاط المختلفة : فى الموسيقى ، والفن ، والأشغال البدوية ، والتدبير المنزلى . ويتبين من شرحنا هذا لسير طريقة «دالتن» أن للتوجيه والمراجعة أثرهما ويتم هذا بواسطة ثلاثة أنواع من الخطوط البيانية :

أولاً - رسم بياني يوضح تقدم كل تلميذ في عمل كل شهر من شهور السنة ، وهذا الخط البياني خاص بالفصل ، ويعلق فيه حتى يمكن أن يعرف بسهولة التقدم اليومى لكل تلميذ . ويطلق على هذا النوع اسم الرسم البياني الخاص بمدرّس العمل : The Instructor's Laboratory Graph ، ويحفظ المدرّس لكل فرقة من فرق المدرسة ورقة من هذا الرسم خاصة بها ذات لون خاص . وقد عملت لذلك جداول خاصة ، ويخصص لكل تلميذ من تلاميذ الفرقة الواحدة قسم خاص به ، وأمام كل تلميذ توجد أربعة أقسام رئيسية تقابل الأسابيع الأربعة التي يتكون منها الشهر ، وكل أسبوع مقسم إلى خمسة أقسام كل منها وحدة من وحدات العمل البالغ قدرها عشرون وحدة والتي يتكون من مجموعها العمل الشهري في صحيفة كل مادة ، فإذا فرضنا أن ثلاثة تلاميذ أنجزوا في مادة ما عمل الأسبوع الأول المقرر للدراسة خمس وحدات من كل العمل الشهري لهذه المادة فما على كل منهم إلا أن يطلب من المدرّس الموجود في معمل هذه المادة أن يؤشر أمام اسمه في هذا الرسم البياني بخط أفق

في الخانات الخمس الصغيرة الموضوعة تحت الأسبوع الأول ، وهذا معناه أنهم أنجزوا خمس وحدات من العشرين وحدة المقدرة للعمل كله ، وإذا فرضنا أن تلميذاً رابعاً أنجز العمل المطلوب لإنجازه في بحر الأسبوع الأول ، فيرسم المدرس أمام اسمه خطاً أفقياً في الخانات الأربع الأولى الموضوعة تحت الأسبوع الأول ، وهكذا .

ولهذا الرسم البياني فائدة كبيرة للمدرس فبواسطته يتمكن من معرفة مقدار العمل الذي قام بتنفيذه كل تلميذ من تلاميذ فصله في إتمام العقد الشهري لمادته . كما أنه يتمكن أيضاً بعد الاستفادة من دراسة عقود المواد الأخرى الشهرية أن يعرف مدى تقدم أى تلميذ في مختلف المواد ، ويمكنه كذلك أن يحكم على مدى ميل التلميذ للمادة . كما أن هذا الرسم البياني يساعد المدرس في الكشف عن الصعاب التي اعترضت بعض التلاميذ في مادته ، وبذلك يمكنه أن يدعو تلاميذه (بإعلان يوضع في لوحة الإعلانات) للاجتماع به في الوقت المناسب لتقديم المساعدة اللازمة . على أن الرسم البياني يوضح للتلميذ مقدار العمل الذي أنجزه في كل مادة ، ويمكنه من أن يعرف مقدار تقدمه إذا ما قورن بتقدم غيره من الزملاء ، وبذلك يستطيع أن يكون فكرة صحيحة عن نفسه .

ثانياً — خط بياني خاص بالتلميذ : The Pupil's Graph ، وهو سجل لوحدة العمل التي يتمها التلميذ في كل يوم ، يسجله التلميذ بنفس الطريقة التي يسجل بها المدرس رسمه البياني السابق . وهذا السجل يبين للتلميذ في كل لحظة مقدار ما أنجزه من صحف المواد الشهرية ، والباقي عليه منها . وعن طريق هذا السجل يعرف التلميذ موطن ضعفه فيحاول بكل الوسائل التغلب عليه . ومن مزايا هذا السجل أنه يحتم على التلميذ أن يقدر دائماً قيمة وقته المخصص للعمل الحر ويشعر أنه مسئول عن حسن استغلاله . وهذا السجل بمثابة تقرير شهري عن تقدمه .

ثالثاً — خط بياني خاص بالمجموعة أو الأسرة : Form or House Graph

وهذا الرسم البياني قلما يستخدم في مدارس « دالتن » ولو أن « مس هيلين باركهurst » ذكرته في كتابها •

طريقة دالتن في ميزان النقد

(١) ميزات هذه الطريقة

١ - إن طريقة « دالتن » تمنح التلميذ الحرية الكاملة للتصرف في الوقت المخصص للعمل الحر وفق ماينبغي ، فهو يتقدم بسرعه الخاصة ، فهي طريقة من شأنها أنها تعطى ضعاف التلاميذ فرصة التقدم بالسرعة التي تناسب قدراتهم ، وبذلك نضمن إتقان العمل ونتجنب تثبيط همة التلاميذ بسبب الفشل ، كما أنها تمكن أذكاء التلاميذ من أن يتقدموا بالسرعة التي تتكافأ وقدراتهم ، فهي طريقة تحقق العدالة بين التلاميذ ، وتقضى على عنصر الظلم الذي قد يفرض على الطفل من الخارج .

٢ - إن طريقة دالتن تركز اهتمام التلميذ على عمله الخاص الذي عليه يتوقف تقدمه في المواد المقررة عليه ، فهو يوزع وقته على المواد بالنسبة لصعوبتها في نظره ، فيخصص للمواد التي يشعر بالضعف فيها وقتاً أطول من المواد التي يراها سهلة ، وبذلك يتسنى للتلميذ أن يلم بكل المواد المقررة عليه ، فالمواد الدراسية في نظره وحدة كاملة يهتم بها جميعاً جافها وشيقها .

٣ - إن طريقة « دالتن » تقضى على عنصر الخداع والكلفة في الحياة الدراسية ، فهي تقضى على سوء التقدير الناتج من افتراض المدرس أن تلاميذه قد قطعوا مرحلة من المقرر في حين أنهم سمعوا جزءاً منه ولم يستوعبوه ، كما تركز اهتمام التلميذ في إتقان المواد الدراسية بدلاً من محاولته إرضاء مدرسه بعمل كلفه به .

٤ - إن طريقة « دالتن » قضت على استبداد جدول الدراسة بالمدرسة وبالتلميذ، ذلك الجدول الذي لا يسمح لهم بالعمل الحر أو متابعة ميولهم الدراسية .

٥ - إن طريقة « دالتن » قد أحدثت تغييراً عظيماً في العلاقة بين المدرس والتلميذ ، فهي طريقة تحقق الاتصال الشخصي بين التلميذ والمدرس ، وتجعل التدريس فردياً مجدياً بدلاً من توزيع مجهود المدرس على الفصل كله بشكل عام . وهي طريقة تجعل التلميذ يشغف بعلومه ، ويحترم مدرسه ، ويشعر بالسرور عند إنجاز عمل من الأعمال ، كما أنها تضع المدرس في مركز ممتاز عن ذلك المركز الذي كان يظهر به المدرس القديم ، فهنا يقف المدرس من التلاميذ في منزلة الأخ الأكبر .

٦ - إن طريقة « دالتن » تقوى الروح الاجتماعية بين النشء فهم يجتمعون بين آن وآخر في معامل الدراسة يتناقشون ويتباحثون ويدرسون متضامنين ، فالدراسة بهذه الطريقة تكون مثلاً مصغراً للحياة العملية التي سيعيشها الفرد في المستقبل مع غيره من الناس ، فطريقة دالتن تهيئ الفرصة أمام التلميذ ليتعود هذه الحياة حتى إذا خاض غمارها لا تكون حياة غريبة عنه .

٧ - إذا انقطع تلميذ عن الدراسة لمرضه أو أي سبب آخر أمكنه أن يتابع دراسته من حيث انتهى هو لا من حيث انتهى زملاؤه ، أي أنه لا يتأثر مطلقاً بتقدم زملائه ، وبذلك يتحقق بعض العدالة .

٨ - طريقة « دالتن » تخلق في التلاميذ بعض الصفات الخلقية الجديرة بالذكر : كالاعتماد على النفس ، وتحمل المسؤولية واحترام العمل وإتقانه ، والوفاء بالوعد .

(ب) مواطن الضعف في طريقة « دالتن »

١ - يرى بعض النقاد أن إلقاء المسؤولية على التلاميذ من الصغر ومطالبتهم بمواد معينة في زمن معين مما يزيد قلقهم ، ولكن يؤكد الدالتونيون أن قلق الأطفال يقل تدريجاً ، لأن المدرس على صلة دائمة بالتلميذ يساعده وقت الحاجة ولم يغفل السير جون أدلر J. Adams^(١) الرد على هذا الاعتراض حين قال :

« وإني أصرح بأنني كنت من الذين خافوا على التلميذ زيادة الهم وقلق البال من إلقاء تبعة كبيرة عليه ، ولكن يسرني أن أقول إنه ليس هناك الآن من المهملين إلا قليل جداً ، وأقل منهم هؤلاء الذين يشتغل بالهم أو يقلق ضميرهم » .

٢ - إن عنصر المنافسة في طريقة « دالتن » عنصر واضح ظاهر وله خطورته ، فهي طريقة تقوم على المنافسة وموازنة التلاميذ بعضهم ببعض عن طريق الموازنة بين الرسوم البيانية .

٣ - يشك بعض النقاد في الأثر الأخلاقي الذي يعود على الأطفال إذا سمحنا لهم باختيار عملهم في الأوقات المناسبة لهم مع أنهم سيفضطرون في حياتهم الواقعية إلى أن يواجهوا أموراً معينة في أوقات معينة ، وعلى هذا الاعتراض تجيب « هيلين باركهurst » قائلة : « مهما يكن من أمر فحقيقة التربية الخالدة أن التعليم الذي يتيح للطفل حرية لينهض ويرتقي وقتاً ليفكر ويدبر لا بد أن يهيئ الفرص لتنمية الاستعدادات الطبيعية التي فطرت عليها نفس الطفل » ^(١) .

٤ - إنها طريقة توصف بأنها تدور حول استظهار المواد الدراسية دون الاهتمام بأهمية تطبيقها في الحياة ، فالدروس منفصلة عن مشكلات الحياة تمام الانفصال ، ومثلها في ذلك الطرق التقليدية .

٥ - يخشى بعض النقاد من طريقة « دالتن » تشجيعها الكسالى من التلاميذ والذين لا يميلون إلى العمل بطبيعتهم على أن يزيد كسلهم .

٦ - يؤكد النقاد أن طريقة « دالتن » تبالغ في أهمية الامتحانات والاختبارات وترتب كل شيء على النجاح فيها .

٧ - إن طريقة « دالتن » تحتاج إلى مدرس من نوع معين يتصف بالإلمام بأطراف المادة ويكون دارساً لجميع المقررات ، لأن كل مدرس في معمله مسئول عن تلاميذه من جميع الفرق يدرسون جميع الموضوعات ، ومثل هذا المدرس ليس من السهل إعداده .

(١) التربية على طريقة دالتن : تأليف هيلين باركهurst ، وترجمة الأستاذ زكريا ميخائيل

المراجع

1. J. Adams. Modern Developments in Educational Practice.
2. Evelyn Dewey : Dalton Laboratory Plan.
3. Harris (Dr. G. Brien): Towards Freedom.
4. Lynch : Rise & Progress of Dalton plan.
5. Lynch : Individual Work and The Dalton Plan.
6. T.P. Nunn : Education, its Data & First Principles.

٧ - هيلين باركهurst : التربية على طريقة دالتن ترجمة زكريا ميخائيل .

٨ - محمد حسين المخزنجي : طرق التربية الحديثة .

هـ - طريقة « وينيتكا »

« وينيتكا » اسم ضاحية من ضواحي « شيكاغو » على بحيرة « ميشيجن » لا يعدو عدد سكانها عشرة آلاف نسمة . ولكن هذه الناحية تتميز بميزة واضحة من الروح العالى فى التضامن الاجتماعى ، والتعاون على ترقية مدارسها وأحوالها . وكانت هذه الضاحية تحتضن المدرسة الوحيدة فى سائر الولايات المتحدة والتي أنشئت من تبرعات مواطنيها^(١) ، وكانت تفرض ضريبة خاصة على ملكية كل فرد فى هذه الضاحية ، وتصرف فى خير التعليم ورفاهيته ، وسواء أكان الفرد فيها من الطبقة الموسرة أم من طبقة الصناع فلأنهم يتعاونون جميعاً فى هذه الناحية ، ونرى آثاراً جميلة للتعاون فى هذه البلدة تتجلى واضحة فى مدارسها حيث يجلس الطفل الغنى المرفه جنباً إلى جنب مع ابن خادمه أو طاهيه ، على أن نسبة أبناء الأغنياء بارزة هنا أكثر منها فى الضواحي الأخرى ، وغاية ما يقال عن الروح السائدة فيها أنها روح ديمقراطية حقيقية . وكما يختلف أطفال « وينيتكا » ويفترقون فى أحوالهم المالية والاجتماعية ، فلأنهم يختلفون كذلك فى نسبة الذكاء ، فبينهم الغنى جداً الذى متوسط ذكائه ٥٠ أو ٦٠ والعبرى الذى يصل ذكاؤه إلى ١٩٠ .

وتنقسم مدارس « وينيتكا » إلى ثلاث مراحل : مرحلة الرياض ، ومرحلة التعليم الابتدائى (٥ - ١١ سنة) ، ثم مرحلة المدارس المتوسطة (وتقبل الأطفال فى سن الثانية عشرة ، ومدتها ستان) . ومن هذه المدرسة المتوسطة ينتقل الأطفال إلى المدرسة العالية أو الثانوية ذات الهيئة التعليمية المستقلة تمام الاستقلال ، بالرغم من وقوعها فى الجزء الجنوبى من « وينيتكا » .

وقد أقام هذه المدارس جماعة من رجال التربية يتزعمهم « كارلتون واشبورن » ، وقد بدأوا على نهج جديد يخالف الطريق الذى تسير فيه جاراتها من المدارس .

وبتلخص شعار هذه المدارس فيما يأتي :

- ١ - على كل طفل أن يسيطر على الأمور الواقعية ويمهر فيها قد يحتمل أن يحتاج إليه في حياته .
- ٢ - على كل طفل أن يعيش عيشة طبيعية سعيدة وأن يتمتع بطفولته الأولى على قدر الإمكان .
- ٣ - إن التقدم الإنساني يعتمد على نمو كل فرد تبعاً لطاقته ومقدرته .
- ٤ - إن سعادة المجتمع الإنساني تحتاج إلى شعور اجتماعي قوى لدى كل فرد^(١) .

وعلى هذا الأساس بدأ أصحاب هذه الطريقة يفكرون في إيجاد حل للتغلب على المشاكل التعليمية الآتية :

- أولاً - تحديد ما يجب درسه ، أي تحديد المنهج .
- ثانياً - تحديد طريقة تدريس هذه المواد .
- ثالثاً - تحديد الاختبارات الدقيقة التي يمتحن بها التلميذ نفسه ليقيس بها تقدمه ويصحح أخطائه أولاً بأول .

ويقسم العمل في المواد الأساسية بمدارس « وفتيكا » إلى وحدات وفقاً لاستعداد التلاميذ ليسير كل منهم حسب سرعته الخاصة ، فقد ألغيت الحصص المعتادة وجداول الدراسة الجامدة ، واستخدمت صحف الأعمال assignments ، كما هو الحال في مدارس « دالتون » ، ولكنها تختلف عن الصحف « الدالتونية » إذ أنها تسمح بروح الفردية بشكل أعظم مما في طريقة « دالتون » ، فلا يصح للتلميذ الدالتوني أن يواصل السير في مادة دون أن يتم تعيين الشهر كله في المواد الأخرى جميعها ، ولكن لا يوجد مثل هذا التقيد في مدارس وفتيكا . ثم إن طريقة « دالتون » تتقبل منهج الدراسة القائم في المدرسة ، ولا تعمل أكثر من تجزئته إلى تعيينات شهرية ، في حين أن مادة

الدراسة في مدارس « ونيكا » أعدت بعد درس طويل لكل ما هو أحدث في الأسلوب والمادة .

وفي مدارس « ونيكا » نجد أن أساس التقدم في المادة ليس هو التعيينات الشهرية التي ماهي في الواقع إلا تجزئة المنهج إلى فترات مختلفة . وإنما أساس العمل الدراسي في « ونيكا » هو المادة نفسها يتبعها الطفل جزءاً جزءاً دون نظر إلى إنجاز بقية المواد الأخرى ، ومن هنا كان من الجائز للتلميذ في « ونيكا » أن يقوم بالعمل في سبتين دراسيتين أو ثلاث في وقت واحد في مواد مختلفة . فالسنة الدراسية في « ونيكا » ليست سنة زمنية ، وإنما هي عبارة عن عدد من الوحدات في كل مادة ، فليست السنة الثالثة بالمدرسة معناها حتماً أن التلميذ قضى ثلاث سنوات بالمدرسة . ولكن معناها مجموعة وحدات العمل التي أتمها هذا التلميذ في المواد الأساسية العامة ، ونظراً لأن تقدم التلميذ في المواد الأساسية الهامة هو تقدم مبني على المجهود الفردي فمن المحتمل جداً أن ينتهي تلميذ من حساب السنة الرابعة في شهر مارس من السنة الدراسية ، ومن مطالعتها في شهر يونيو من السنة نفسها ، ومن اللغة في شهر سبتمبر ، على أننا قلنا نجد تلميذاً يشتغل بثلاث سنوات في وقت واحد ، لأن نظام مدارس « ونيكا » الدقيق لا يسمح بالتأخير غير العادي كما أنه لا يسمح بالتقدم السريع جداً فإذا كان متأخراً في فرع ما ركز اهتمامه على هذا الفرع ، وقصره على الفروع المتأخر فيها .

وتختلف وحدات العمل Coals بمدارس « ونيكا » عن وحدات العمل Units بالمدارس « الدالتونية » ، فهي في « ونيكا » خاصة بكل تلميذ حسب استعداداته وقواه الشخصية ، وتكتب هذه الوحدات (صحف الأعمال) بصورة مشوقة جذابة ، وبصيغة مختصرة ، وتسلم للتلميذ المخصصة له فيدون تاريخ بدء تسلمها على بطاقة خاصة ، ويدون عليها أيضاً تاريخ انتهاء التلميذ مما كلف به من وحدات ، ويكتب خلف البطاقة حالة التلميذ الاجتماعية وروحه العامة ، وميله إلى التعاون ، ومعاملته لزملائه ، وقدرته ، وميله إلى

الابتكار ، وترسل هذه البطاقات إلى أولياء الأمور ليقفوا على حالة أبنائهم ومدى تفوقهم .

المنهج : The Curriculum

أول المشاكل التي اهتمت بها هيئة التدريس في « وينيتكا » هي تحديد ما يجب وضعه في برنامج الدراسة ، وقد توصلوا إلى ذلك بأن قسم مدرسوهم أنفسهم إلى جماعات تقوم كل جماعة منها ببحث مشكلة من مشاكل البرنامج وتحديد ما لم تكن مهمتهم مقصورة على تعرف ما يجب أن يتعلمه كل تلميذ بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك ؛ فقد بحثوا أيضاً وتوصلوا إلى خير الطرق التي تستخدم في تدريس هذه المعلومات وأنسب الأوقات للبدء في تدريسها للتلاميذ ، وقد قسم المنهج في مدارس « وينيتكا » إلى قسمين رئيسيين :

أولاً — المواد الأساسية Common Essentials

ثانياً — أبواب النشاط الجمعية ، والجهود الابتكارية .

أولاً : المواد الأساسية Group and Creative Activities^(١)

وهذه تشمل المعلومات الضرورية والمهارات التي يحتاج إليها الفرد في حياته العملية مثل : إتقان العمليات الحسابية والقراءة والكتابة وبعض المعلومات الضرورية عن البلدان والأشخاص والحوادث الهامة والقدرة على مناقشة المشاكل المدنية والاجتماعية والاقتصادية والصناعية .

وأما الجهود الجمعية والابتكارية فلإنها تشتمل على الأشياء التي تختلف نتائجها باختلاف الأطفال : كتذوق الأدب والموسيقى والفن ، والألعاب الرياضية ، والاجتماعات ، والأشغال اليدوية على اختلاف أنواعها ، والمشروعات التي تعتبر غاية في حد ذاتها وليست وسيلة لغاية تتحقق منها ، وهي من هذه الناحية تخالف المشروعات في المدارس التي تسير على نظام المشروع أو في مدارس « دكرولي » نفسها . وإلى جانب أبواب النشاط هذه نجد التثيل

والمناقشات التي تدور في الاجتماعات المعقدة داخل المدرسة والتي هي أيضاً غاية لا يقصد منها تعلم المواد الأساسية العامة والأسس الأولية في الجغرافيا والتاريخ خصوصاً النواحي المشوقة للتلاميذ منها كما في التاريخ القصصى والجغرافيا التي تتعلق بالشعوب وبالهياثات^(١) .

أما المشكلة الثانية وهي تحديد طريقة تدريس هذه المواد فتتلخص في أنه لا يعلم بالطريقة الفردية في « ونيثكا » سوى القراءة والكتابة والحساب (3 R, S) إذ أن كل طفل في حاجة إلى أن يقرأ حسب سرعته الخاصة ، وحاجته إلى التفهم في الحساب غير حاجة زملائه ، وقدرته على الكتابة قد تختلف عن مقدرة الآخرين ، وقد حدد الحد الأدنى لكل مادة بعد دراسة دقيقة ، فمثلا قام قسم المباحث في مدارس إحدى المقاطعات الأمريكية بتحليل كل أمثلة جمع الكسور من حيث الصعوبة ، وكشفت الجمعية القومية لدراسة التربية بأمريكا عن أن التجارة والصناعة والعمليات العادية في الحياة لا يتطلب جمع أعداد مقاماتها أكثر من اثني عشر ، ووجد أن من الممكن حل أربعة تمرينات في ثلاث دقائق ، وبهذا كان التعيين في جمع الكسور هو أن يصير التلميذ قادراً على حل أربع مسائل في ثلاث دقائق كاملة بحيث تشمل التمرينات مقامات من اثني عشر فما دونها ، وبشرط أن تكون الكسور المجموعة ثلاثة ، وتكون قابلة للتحويل إلى مقام مشترك ، وقابلة للاختصار إلى أبسط الحدود . ومتى استعد التلميذ للبدء في الكسور أعطى كتاب التمرين على الكسور ، وهو كتاب مرشد بنفسه وباستعماله يكون ما يحتاج إليه الطفل من مساعدة معلمه أو زملائه أقل ما يكون ، فلا تؤخذ سوى خطوة واحدة في كل مرحلة ، ويعطى كثير من التمرينات على هذه الخطوة قبل السير إلى التي تليها . ففي تعلم جمع الكسور هناك تسع عشرة خطوة تبدأ بالعملية البسيطة وهي قطع دوائر من الورق المقوى ، وقطع كل دائرة نصفين يكتب على كل منهما $\frac{1}{4}$ ، وتنتهي الخطوات بتمرينات شتى مشتملة على كل صعوبة عملية في جمع الكسور ،

وقد أعدت كتب تمارين كهذه لكل الفرق الأولية في الحساب ، واللغة والتاريخ والجغرافية ، وباستعمال هذه الكتب يختبر الطفل نفسه في ورقة إجابة كلمة أتم خطوة ، وكلما أتم عملية معينة كجمع الكسور مثلاً يعطى نفسه اختباراً تدريبياً فيه ، وبعد ذلك يذهب إلى معلمه ليعطيه اختباراً حقيقياً ، وهذه الاختبار يكون وافياً تماماً ومرتباً بحيث يستطيع المعلم أن يتبين بسرعة أين نقطة الضعف في التلميذ ، ولا يسمح لأحد بالانتقال إلى الهدف Cool الثاني حتى يجتاز عمله الأول بنجاح .

وواجب التلاميذ الأول هو معرفتهم كيف يجمعون وكيف يطرحون ويقسمون في الحساب ، ولكن الذى يجب أن تتأكد منه المدرسة هو السرعة والدقة المطلوبة من كل تلميذ في إجراء هذه العمليات الحسابية ، ولعرفة ذلك طلب من كل تلميذ في المدارس الابتدائية والثانوية أن يسأل والده عن العمليات الحسابية التى احتاج إليها في أعماله اليومية في متجره أو مصنعه أو مكتبه ، ثم أخذت نتائج هذه المسألة وسجلت ، وأجريت بحوث أخرى مثلها في المحال التجارية وأعمالها الحسابية الصغيرة والكبيرة ، وعرف منها نوع العمليات الحسابية الأكثر استعمالاً في الحياة التجارية والعادية . وقد ساعدت هذه المعلومات على معرفة ما يجب أن يلم به كل شخص وما يجب أن يتعلمه كل تلميذ في المدرسة قبل أن يخرج إلى الحياة . كما أجريت البحوث العديدة لمعرفة ما يحتاج إليه كل تلميذ من المعلومات : اللغوية والتاريخية وغيرها ، وبذلك تمكنت مدارس « ونيثكا » من تحديد برامجها وموضوعات دراستها ، وأصبحت لا تدرس للتلاميذ إلا كل ما يحتاجون إليه في حياتهم اليومية أو ما سيحتاجون إليه في المستقبل .

وأخيراً المشكلة الثالثة وهى تحديد الاختبارات الدقيقة التى تقيس قدرة الطفل ، ويتعرف بها مواطن الضعف فيه . وتنجلي فيما يلى :

تلجأ طريقة « ونيثكا » إلى استخدام اختبارات تشخيصية تظهر ما إذا كان التلميذ قد أجاد الوحدات الدراسية أو لم يكن قد أجادها ، فهى إذن

تشخص ضعف التلميذ ، وتعطيه فكرة صحيحة واضحة عن حاله وقوته ، ولا تزال هذه الاختبارات في دور التحقيق والمراجعة ، وأول هذه الاختبارات أعد في سنة ١٩١٧ ، ١٩١٨ ، ١٩١٩ ، أعدها « فردريك برك » F. Burk في مدرسة معلمى ولاية « سان فرنسيسكو » ثم أعيدت تجربتها في مدارس « ونيثكا » ، وقد أنجزت فعلا الاختبارات الحامسة بالحساب واللغة في الفصول الثمانية الأولى ، وقد أجريت تجارب اختبارات من هذا القبيل في الكتابة والهجاء وفي الجغرافية والتاريخ . أما في القراءة الصامتة فيستعمل مقياس « برجس » Burges ، كما تستخدم اختبارات « ستانفورد » Stanford في المطالعة الصامتة . أما في المطالعة الشفوية فاستخدمت اختبارات قام بعملها الاستاذ « وليم جراى » W. Gray .

واختبارات « ونيثكا » لا سيما في مواد الحساب واللغة والتاريخ والجغرافيا صنفت تصنيفاً مرتباً ، وكاملاً بحيث يكون التصنيف وافياً شافياً يدرس كل نقطة حساسة في الموضوع ولا يغفل منه شيء ، ففي الحساب مثلاً تعد اختبارات الجمع الرأسى بحيث تشمل جميع الطرق المحتملة ، واختبار اللغة يشتمل على جميع علامات التنقيط والحروف الكبيرة والصغيرة التى تعلمها الطفل في كل فترة من الفترات . ولا شك أن كل اختبار معه وسائل إيضاحية مختلفة ، وهناك أجوبة الأسئلة والشروح المختلفة التى يرجع إليها الطفل بعد أن يعجز عن الحل الموفق .

ومن أجل هذا ألف مدرسو مدارس « ونيثكا » كتاباً خاصة تعلم الطفل الاعتماد على النفس ، وتشجعه على العمل والدراسة الفردية ، وهذه الكتب الموضوعية تشرح للتلميذ الموضوع خطوة خطوة في إيضاح وسهولة ، وفيها كثير من التمرينات والمسائل التدريبية والاختبارية تؤكد للتلميذ صحة معلوماته وفهمه لها فيسهل عليه معرفة خطئه ، وفي هذه الحالة يمكنه معالجة هذا الخطأ ، وتصحيح نفسه بنفسه ، وقد وضعت هذه الكتب مرتبطة نقطة فنقطة بحيث

تكون المواضيع مرتبطة بعضها ببعض الآخر ، في ترتيب منطقي سليم ، فيتمرن الطفل على كل خطوة حتى إذا أتقنها تركها إلى التي تليها ، وتساعد المدرسة الأطفال منفردين ، كما تساعدهم مجتمعين مع بعضهم البعض في ظروف خاصة ، فهي تقدم لهم المساعدة متى كانوا في حاجة إليها وترشدهم باستمرار إلى مواطن الضعف والقوة فيهم وفي أعمالهم ، فهي بمثابة « الحافز » لهم ، يدفعهم ويحركهم في طريقهم إلى الأمام وعلى الدوام . ولما كانت الأعمال اليومية فردية بحتة وتصحيحها من شأن التلاميذ أنفسهم ، فهي منقطعة الصلة بالنجاح والانتقال من مرحلة إلى أخرى ، وإنما غايتها أنها تعد التلميذ وتؤهله لأن يؤدي الاختبارات على خير ما يرام . ويقوم المدرسون أنفسهم بتصحيح البطاقات والاختبارات ، إذا وجد أنها مقبولة يكتب تاريخها ويسجل على بطاقة التلميذ وفي سجل المدرس الذي يحتفظ به لنفسه .

ثانياً - الجهود الابتكارية والجمعية

أما القسم الثاني من المواد الدراسية فهو أوجه النشاط الجمعية والجهود الابتكارية ، وتشمل الجمعيات المختلفة ، والمشروعات ، والفن بأنواعه ، والموسيقى والأناشيد ، والأشغال اليدوية على اختلاف أنواعها ، ويقضى التلاميذ في هذا القسم ٤٢ ٪ من اليوم المدرسي بينما يقضون ٣٢ ٪ منه في الأعمال الفردية كل بسرعه الخاصة ، وبحريته العامة ، و ١٥ ٪ من اليوم في الأعمال المشتركة ، و ١١ ٪ في الدروس التي يتلقونها في الفصل . وتختلف أعمال التلاميذ في أوجه النشاط الابتكارية والجهود الجمعية عن أعمالهم في المواد الأساسية العامة : فالوقت المعين للأعمال الجمعية محدد وليس فيها اختبارات أو مستوى خاص أو إعداد وحدات معينة لأن أبواب النشاط الابتكارية غاية في ذاتها . من أجل ذلك لا نجد هنا أهدافاً معينة ولا مبادئ علمية تتخذ مرشداً ، ولكن من الواضح - كما يقول « واشبرن » - أنه لكي يعبر الأطفال عن أنفسهم يجب أن يعطوا الحرية الكافية وتتاح لهم الفرص للتعبير عن كل ما يجيش

بخطوطهم ، وهذه الفرص تهيئ لهم فيما يدرسون من أبواب النشاط المتعددة الصور .

ويصرف التلاميذ في هذه الأعمال نصف الصباح ونصف ما بعد الظهر من كل يوم ، وتشمل أعمال التلاميذ فيها المسائل التي تهم الطفل فهي وليدة اهتمامه . وتشمل الأعمال والجهود الجمعية فيما يأتي (١) .

أولاً - المناقشات Discussion : وهي تختلف عن التسميع recitation في أنها تفتح مجالاً لا اختلاف وجهات النظر ، وتخلق مشكلة حقيقية تتحدى التفكير ولا شك أن الغرض من هذه المناقشات تربية الطفل على أن يتكلم بحرية كافية ، وأن يدلي بآرائه ، وأن يغلب رأياً على آخر ، وهكذا تثار المشاكل والمسائل الاجتماعية والسياسية لتعويد التلاميذ على الحياة الاجتماعية .

ثانياً - الحكم الذاتي Self-Government : وتهتم مدارس ونيتكا بتكوين الأطفال تكويناً وطنياً صحيحاً بمنحهم قسماً كبيراً من الحكم الذاتي والمسئولية الفردية ، ويتجلى هذا في نظام الجمعيات ، وفيما يقوم به التلاميذ من الأعمال المختلفة في جهودهم الجمعية في الجمعيات العديدة التي ينظمها التلاميذ ويديرونها على أحدث النظم الدستورية ، وبذلك يربون تربية وطنية عملية .

ثالثاً - التمثيل والنشاط المسرحي : وهو يبدأ من التمثيل في الفصل إلى إقامة الحفلات التمثيلية الكبرى ، وفضلاً عما في هذا النشاط من الفائدة التعليمية العرضية ، فإن الغرض الأساسي منه هو أن يتعلم التلاميذ كيف يتعاونون معاً ، وأن يعطوا فرصة للتعبير عن أنفسهم وعن نشاطهم الاجتماعي .

رابعاً - المشروعات Projects : وتختلف المشروعات في مدارس « نيتكا » عن طريق المشروع The Project Method فالأصل في طريقة المشروعات أنها وسيلة لغاية محدودة الأهداف ، فهي طريقة من طرق إيصال المعلومات إلى أذهان الأطفال ؛ أما المشروع في مدارس « نيتكا » فليس له أى غاية تعليمية أو تلقينية ، فإذا عرضت حقائق أو مهارات أو مشاكل للدراسة .

تناولها تلاميذ ونيثكا كل على حدة ، فمشروع مجلة المدرسة إذن ليس الغرض منه تعليم الكتابة أو النشر أو الطبع أو تعليم الإنشاء أو دقة قراءة الأصول وتصحيحها ، ومع أن هذه الأشياء تأتي عرضاً فإن الغرض من هذا المشروع هو إتاحة الفرصة للملائمة للتلاميذ للتعبير عن آرائهم ، وأن تصبح المجلة رمزاً للتعاون ، ومشجعة للتلاميذ في الاعتماد على أنفسهم ، وأما وجهة نظر المدرس في تحرير الصحيفة ، وقيام الأطفال بهذا العمل ، فهو تمرينهم على البحث والاكتشاف أثناء تقسيم العمل والجهود الجماعية التعاونية^(١) .

خامساً - الأشغال اليدوية Hand work : وتبذل الجهود في مدارس « ونيثكا » لتمرين الأطفال على الأشغال اليدوية سواء منها الساذج المصنوع من الصلصال والورق المقوى ، أو المعقد الذى يمارس في الفصول العليا مثل النجارة ، والطبع ، والحفر على المعدن ، والنقش ، وعمل الآنية ، والحياكة ، والطبخ ، وذلك كله تدريب لهم على إيجاد الروح الابتكارية وخلقها فيهم ، وليس هناك موضوعات خاصة تملئ إملاء وتفرض فرضاً على الأطفال في هذا السبيل ، وإنما يستعمل الطفل ما يحلو له ، وما يناسب استعداده ومواهبه ، ولكن هناك بعض الأعمال الفردية الموجهة في الأشغال ، والتي لها هدف خاص في الفصول العليا خصوصاً فيما يتعلق بالطبخ والحياكة ، ولا شك أن العمل هنا يعتمد على التعبير الذاتى لكل فرد فتصبح الفنون الابتكارية والإبداعية هى كل شيء .

سادساً - الفنون والموسيقى : يمكن أن نلخص أغراض تعليم الموسيقى في مدارس ونيثكا فيما يأتى :

- ١ - أن يعطى الطفل الفرصة للتعبير عن عواطفه ، وهواجسه عن طريق الأغاني .
- ٢ - أن يتعود الطفل سماع أكبر قدر ممكن من الموسيقى الجيدة المختارة ، وبذلك تقوى عنده القدرة على تقدير الجمال وتدوقه .

٣ - لخلق روح الجماعة التي تسود الأطفال في اجتماعهم وحينما يغنون مجتمعين ، ومعظم دروس الموسيقى يعتمد على الابتكار والتعبير الذاتي . ويعلم الأولاد شيئاً عن الموسيقى ، وأصولها ، وقواعدها Technique .

وأما تعليم الفنون ART فذلك يختلف عن طريقة تعليم الموسيقى في أنه فردي ويتمشى مع الأهداف التي تسير مع كل منهج من المناهج ، وكل مرحلة من مراحل النمو ، ثم إن الطفل فيه يعلم نفسه بنفسه Self-instructive ، كما هي العادة في المواد الفردية الأخرى . ويعطى الأطفال فرصاً للتعبير بالفن عن أفكار مختلفة ، ولذلك يرتبط القسم المخصص للرسم بالأقسام الخاصة بالجهود الجماعية والابتكارية الأخرى . فثلاً حينما يريد الأطفال القيام بتمثيل رواية أو مسرحية تاريخية فما عليهم إلا أن يهيئوا الجو الخاص بالمسرحية بواسطة رسوم ، وكذلك الحالة في الملابس التي تلائم جو المسرحية . ومن أهداف تعليم الرسم والفن في مدارس « وينيتكا » إعطاء فرصة حرية الابتكار ، والتعبير الذاتي ، ثم تمرين الأطفال على عمل الزينات وانسجامها وتوافقها ، وأخيراً تعويدهم تقدير الجمال .

وبالإضافة إلى المشاكل الثلاث الكبرى السالفة الذكر :

قد صادفت هيئة التعليم في « وينيتكا » مشاكل أخرى كثيرة ، وقد أخذت تقوم بعمل الأبحاث العلمية الدقيقة بمقارنة نتائج مدارسها بنتائج مدارس مختلفة منها ما يسير على نظام المعامل ، ومنها ما يسير على نظام الفصول ، وانتهت هذه الهيئة إلى أن طريقة وينيتكا أفضل الطرق جميعاً دون تحيز لنفسها أو إنقاص لحق غيرها من المدارس ، ووضعت نتائج أبحاثها في كتاب أخرجته يظهر هذه الحقيقة هو^(١) :

Result of Practical Experiments in fitting the Winnetka technique to Individuals.

ويمكن أن نلخص أهم المشاكل التي عرضت لحلها هيئة التعليم في وينيتكا فيما يأتي :

١ - هل نسبة التأخر الدراسي retardation في مدارس ونيثكا أكثر أو أقل منها في المدارس الأخرى ؟

٢ - هل مدارس ونيثكا تسبب تقدماً سريعاً لعدد كثير من الأطفال ؟

٣ - هل نظام التعليم الفردي يؤدي إلى تعطيل الطفل ، وتأخيرته عن نظام التعليم القديم أو يؤدي إلى العكس ، وإذا أدى إلى تقدم فهل هذا التقدم تقدم سريع مفاجئ ؟

٤ - هل يؤدي نظام التعليم كما وضع حسب الخطة المنظمة الفنية إلى إشباع رغبات كل طفل وحاجاته ؟ وهل تتمشى مواضع المنهج مع عقلية الأطفال ومع نسبة ذكائهم ؟

٥ - هل العلوم التي تلقن للطفل على الطريقة الفردية يستفيد منها الطفل أكثر مما لو لقنها على الطريقة الجمعية العادية أو العكس ؟ ويقصد بهذه العلوم على الخصوص القراءة الصامتة ، والقراءة الشفهية ، والهجاء ، والمحاطبة العادية ، والحساب ، سواء في السرعة أو الإتقان .

٦ - هل الأولاد الذين يتلقون دراساتهم الأولية أو الابتدائية في مدارس « ونيثكا » يمكنهم متابعة دراساتهم في المدارس الثانوية بسهولة ؟ وهل يتسنى لهم مناقشة الأطفال الذين تعلموا على الأسس الجمعية في الفصول المعتادة ؟

٧ - طلبة مدارس « ونيثكا » أكثر ارتكازاً وانتباهاً لأعمالهم من أولئك الزملاء في المدارس الأخرى ؟

٨ - هل يقضى أطفال مدارس « ونيثكا » وقتاً أكثر أو أقل من الوقت الذي يقضيه أطفال المدارس الأخرى في أوجه النشاط الجمعية والجهود الابتكارية ؟

٩ - ما هو العبء الملقى على عاتق المدرس في « ونيثكا » ؟ وهل هو أكثر منه في المدارس العادية أم لا ؟

هذا ولم تنس مدارس « ونيثكا » . العناية بالناحية الجسمية للأطفال فجعلت التريية البدنية جزءاً من الأعمال الجمعية إلا أن أكثر الألعاب في

هذه المدارس ترمى إلى تربية التلاميذ تربية اجتماعية وإلى بث روح التضامن والتعاون والتضحية فيهم ، وتعويدهم الصبر وغيره من الصفات الحلقية والاجتماعية .

وبالإضافة إلى ما سبق ذكره نقول لقد زودت هذه المدارس بإدارة خاصة بها طبيب ، وبأبحاث اجتماعي وإحصائي نفساني وخبير بالأمراض العصبية ، وهؤلاء يتخصصون جميعاً في دراسة المشكلين من الأطفال ، ويمدون المدرسة بسديد الآراء في علاج كل فرد حسب حالته الخاصة ، كما أنهم يتعاونون جميعاً في منع حدوث الإشكال بين الأطفال ، فالوقاية خير من العلاج . هذا ويتعاون مدرسو مدارس « وينيتكا » في بحث المناهج الدراسية وتحديداتها ، ولا تنحصر مهمتهم في معرفة ما يجب أن يتعلمه كل تلميذ ، بل يذهبون إلى أبعد من ذلك : فهم يبحثون ويمجدون في معرفة خير الطرق ، وأمثلها لتدريس هذه المعلومات ، ويختارون أنسب الأوقات للبدء في تدريسها للتلاميذ ، وهذا العمل مستمر على الدوام ، ولهذا كانت البرامج دائماً في تجديد مطرد حسب ما يطرأ من الظروف التي تدعو إلى تغييرها .

ويمكننا أن نلخص فضل هذه الطريقة للطفل ، وللتعليم الفردي فيما يلي :
أولاً — التمكن من المواد الفردية ، واستيعابها جيداً كما تقاس بالاختبارات التي تطبق تطبيقاً يختلف من طفل لآخر حسب قدرته .

ثانياً — ثبت أن الأولاد الذين يتعلمون بهذه الطريقة الفردية يكونون أصح للاستمرار في المدارس الثانوية والجامعات .

المراجع

1. Carleton Washburne : The Winnetka Public School.
2. C. Washburne : Adjusting the School to the Child.
3. C. Washburne : Better Schools.

٤ — ضحايا الأطفال تعريب الأستاذ عبد الواحد خلاف .

و- طريقة ساندرسون

كثير من المدارس والفصول لا تتبع أية طريقة فردية ، ولكنها تعمل على إدخال تحسينات قيمة ذات فائدة كبيرة في الناحية التربوية العملية . وهذه الحقيقة تتجلى بوضوح في عمل « ساندرسون » الذي كان ناظراً للمدرسة « أوندل » . وقد بدأ « ساندرسون » عمله كمدرس في مدرسة صغيرة ودرس بعد ذلك اللاهوت والرياضة في جامعة « درهام » Durham والرياضة والعلوم في جامعة « كمبرج » ثم أصبح أستاذاً للعلوم في « دولويش » Dulwich ، ولما بلغ الخامسة والثلاثين عين ناظراً للمدرسة « أوندل » حيث كان عدد تلاميذها إذ ذاك لا يزيد عن المائة ، وقد وصف « ويلز » H.S. Wells المدرسة في ذلك الوقت ولخص حالة العمل السائدة في معظم المدارس في قوله ^(١) :

« إن أولاد هذه المدرسة بعد أن يتمتعوا بالشمس المشرقة وينالوا حظهم من السباحة والتجديف أو لعب الكرة أو "الكريكت" .. بعد أن يفرغوا من ذلك يذهبون إلى فصول سيئة التهوية حيث يتظاهرون بالرغبة في علوم ليست ممتعة فحسب ، بل قد أثبت التقدم من جيل إلى جيل انحطاطها وانحلالها ، لذلك أصبح لفظ المدرسة مقترناً في ذهن التلميذ بهذه الذكرى الأليمة وهي الرجوع من الألعاب والمسرات والحياة الضاحكة المرحية إلى حياة الفصول المظلمة والهواء الفاسد والحماس الكاذب نحو أشياء بعيدة كل البعد عن نفوس الطلاب وبغضه كل البغض عندهم » .

ولقد أحدث « ساندرسون » أولاً إصلاحات في تدريس الرياضة والعلوم ، وبادى بالأى يكون التعليم على شكل سباق بين التلاميذ لمعرفة مجموعة متجانسة من المعلومات ، بل يجب أن يأخذ شكلاً آخر : بأن يجتمع التلاميذ في

مجموعات ويحاولوا حل المشاكل الجذابة الشيقة : فتدرس العلوم مثلاً في شكل محادثات فيها يظهر التلاميذ تجاربهم وتحصيلهم في ظلال المجموعات القائمة ، وهذا النظام الجمعى فى العمل قد امتد إلى جميع الحياة المدرسية. فالألعاب لا تقوم على دراسة النشرات المشروحة ولكن يقوم بها التلاميذ عن طريق التمثيل ، وهذه الأشياء تتطلب من التلميذ معرفة لغوية تمكنه من الترجمة والإجابة عن بعض الأسئلة ، ولأجل أن يساهم كل تلميذ فى العمل قسم التلاميذ إلى مجموعات تنفرد كل مجموعة بدراسة جزء معين ، فبعد أن يقوم التلاميذ بمناقشة تمهيدية تحت توجيه أستاذهم تنصرف كل مجموعة إلى المشكلة المقدمة إليها وتجدى حلها ودرسها ، ولهذا أصبحت مكتبة المدرسة مثل الورشة والمعمل للعلوم الرياضية .

وهذه الطريقة الجمعية فى العمل لم يدخلها « ساندرسون » فى مدارسه لجلب السرور أثناء القيام بالعمل فقط ، بل لأنها أيضاً تضم إلى ذلك فائدة عظيمة فى العمل الابتكارى والتعاونى فتمهد بذلك للحياة الحقيقية ، فهو يطلب إلى تلاميذه أن يعملوا بروح مشبعة بحب الإنسانية والمجتمع ، لأنه يرى فى المدارس صورة مصغرة للعالم كما يجب أن يكون ، ولهذا يوجب أن تكون روحها مستمدة من الحياة الحقيقية .

وقد اهتم ساندرسون اهتماماً عظيماً بالعلوم ونظر إليها لا على أنها معلومات مفيدة تحشى بها أدمغة الطلاب ، بل على أن تسود الروح العلمية فيهم فيشبع جوامع المدرسة بروح البحث والتجربة والابتكار والتعاون .

فالتربية كما يراها ساندرسون تحتاج إلى أبنية — ومهمات ولوازم ذات شكل جديد خاص ، ويجب أن تستبدل الفصول بورش فسيحة ومعامل متسعة وعلى غرار هذه المعامل تقوم المكاتب وحجرات الأشغال ، وأمكنة الموسيقى والتمثيل ، وهذا المشروع يمكن تنفيذه فى المدينة أو القرية فكل مدرسة ثانوية يجب أن تضم مجموعات من المدارس الأولية لاتفصل بعضها عن البعض الآخر النفقات الباهظة ولا حواجز الامتحانات .

ز- طريقة المشروع

لقد قامت طريقة المشروع على قواعد ومبادئ أساسية وضعها نفر من قادة رجال التربية الحديثة أمثال «كلباتريك» ، «تشارترز» ، و«كولنجز» «وستيفنسون» . وربما كانت طريقة المشروع أهم طريقة للتدريس تتميز بها الفلسفة العملية أو البراجماتية ، وتفترض تلك الطريقة وجود مشاكل عملية من الحياة تضعها أمام الطفل لتحدى تفكيره ، ويشرع في حلها بطريقة عملية أما التعليم فيأتى عرضاً في أثناء حل هذه المشكلات .

وقد أوجد «كلباتريك» طريقة المشروع كطريقة للتدريس عندما أراد أن يطبق فلسفة جون ديوى في التربية التى تقوم على فكرة . «أن التربية عملية نمو» عن طريق اكتساب خبرات جديدة بواسطة نشاط المتعلم نفسه في البيئة التى يعيش فيها سواء أكانت بيئة طبيعية أم بيئة اجتماعية — وقد ذهب «كلباتريك» إلى أن أساس المشروع هو الغرض الذى يستولى على المتعلم ويريد تحقيقه ، وكان غرض «كلباتريك» من طريقته أن يوجد موقفاً تعليمياً يجتمع فيه : وضوح الغرض ، والنشاط التعليمى ، ويمتزج فيه النشاط العقلى بالنشاط الجسمى فى وسط اجتماعى يشتمل على علاقات اجتماعية تحقق نمو التلميذ ، وتحويله إلى مواطن يتمكن من أن يعيش فى مجتمع ديمقراطى .

وعلى هذا الأساس يرى «كلباتريك» أن المشروع يجب أن يصدر عن حاجة حقيقية يعبر عنها الأطفال ، كما ينبغى أن يرمى إلى غاية خاصة . فالمشروع فى نظر «كلباتريك» تجربة لها غايات ونشاط يرمى إلى الإنتاج — ويعرفه «هارل دوجلاس» بأنه وحدة من النشاط يقوم بها المتعلم فى محيط يشبه المحيط الاجتماعى الذى يعيش فيه وتحت ظروف تشبه تماماً ظروف الحياة ، ويكون له غرض محدود واضح جذاب يريد أن يحققه من وراء النشاط .

أما الأستاذ « ستيفنسون » فيعرف المشروع بأنه عمل مؤسس على مشكلة يراد القيام به في وضعه الطبيعي والمهم في هذا التعريف هو ما يعنيه بقوله : الوضع الطبيعي . ومعنى هذا أن مشروعاً يأتي بطريقة صناعية متعلقة لا يمكن أن يكون مشروعاً حقيقياً وأن المشروع لا بد وأن يمثل الحياة العادية خارج جدران المدرسة ، وأن يكون مشوقاً للتلميذ يثير اهتمامه لحل مشاكله حتى يصل إلى نتائج حسنة ترضى ميوله وحب الاستطلاع فيه . ومن التعاريف السابقة يتضح لنا أنه لا بد وأن تتوفر في المشروع الشروط الآتية أو الخصائص الآتية :

- ١ - أن يكون شيئاً مرغوباً فيه أو تدعو إليه الحاجة .
- ٢ - أن يكون فيه قيام بالتزام .
- ٣ - أن يكون ذا قيمة تربوية عظيمة .
- ٤ - أن يسير التلاميذ في أدائه إلى النهاية .
- ٥ - أن يجري العمل فيه في ظروف طبيعية غير مصطنعة .

وعلى هذا يجب أن يكون المشروع مما يشعر التلميذ ، والمدرس كلاهما بالحاجة إليه . فالواجب حقاً أن يتطلب المشروع من التلميذ قيامه بأنواع مفيدة قيمة من النشاط الذي يتفق ومادة المنهج المقرر ، ومثله التي تهدف إليها ، وأن يشعر التلميذ بالحاجة إليه أو الرغبة في القيام به . ولكي يحقق المدرس الناحية الأولى ينبغي أن يكون عليمًا بالمنهج ، وأهدافه ، وملماً بالقيم التربوية ، ولكي يحقق الناحية الثانية ينبغي أن يعرف ميول الأطفال ، وكيف يوجهها ؛ وكيف يولد فيهم ميولاً أخرى ، فالمشروع وحدة تعليمية تستمد وحدتها من الترتيب المنطقي للمادة الدراسية كما وضعها الإخصائيون - والمشروع واجب يفرضه التلاميذ على أنفسهم عند طيب خاطر لشعورهم بأهميته ، ويقترن بالأهمية والشعور بالمسؤولية عند مواصلة النشاط إلى أن يتحقق الغرض منه ، فالأطفال في المشروع المثالي مثلاً يقومون برحلة محاولين الوصول إلى غاية ، وشعورهم بأنهم يرمون لهدف معين يحفزهم على العمل بجهد ويقظة ، حتى

يتغلبوا على كل ما يصادفهم من عقبات ، ومن الممكن التغلب على صعوبة الحاجة إلى المعلومات بقراءة الكتب المدرسية أو بعض المراجع في المكتبة ، والمشروع ينمو من خبرات التلميذ السابقة ، وعلى ذلك يمكنه أن يرسم خطة التنفيذ وينظم نشاطه — هذا ويستمد المشروع كيانه ومقوماته من حرية التلاميذ في مواصلة نشاطهم الجسمي والفكري ، دون أن يعوق الانفصال بين المواد المدرسية أو تخصص المدرس أو الجرس هذا النشاط . والمشروع يثير رغبة الطفل في بذل جهد حقيقي حتى يتحقق الغرض المرغوب فيه . والمشروع يؤدي إلى غايات قدرها التلاميذ ، وعلى ذلك فمن السهل عليهم أن يقوموا أو يقدروا بشكل موضوعي تقدمهم في سبيل تحقيق هذه الغايات .

من هذه الخصائص يتضح خطأ الذين يظنون أن المشروع هو نتائجه العلمية ، ومنتجاته المادية ؛ إذ أن المشروع وحدة ، والمهم فيه هو الطريقة التي يتم بها ، والتي تشمل على الاحتكاك المادي بالبيئة والاحتكاك الاجتماعي بالأفراد الآخرين بحيث يتشرب التلميذ طريقته .

الأساس السيكولوجي لطريقة المشروع

يقوم المشروع على أساس سيكولوجية التعلم التي تعتبر الفرد كائناً حياً نامياً ذا غرض يريد تحقيقه ، وأن قدراته ، ومعرفته وخصائصه الخلقية تنمو ، وتتكون خلال خبراته في البيئة التي يعيش فيها .

والنظرية الغرضية في علم النفس التي يتزعمها « ما كدوجال » تعرف بأن دوافع أعمالنا ، وسلوكنا في النهاية مغرضة ، ترمي إلى الوصول إلى أهداف طبيعية معينة ، هي إرضاء النزعات الفطرية العامة ، والخاصة ، أما اللذة والألم فمنتجات ثانوية تظهر أثناء سعيها للوصول إلى تلك الأهداف ، فنشعر باللذة إذا تحققت ، ونشعر بالألم إذا لم تتحقق ، وبناء على ذلك فإن هدفنا من التربية هو إعلاء الدوافع والغرائز ، والاستعدادات الفطرية بحيث يحدث فيها توجيه جديد ، وتوفيق ، واتزان بين عمل تلك الدوافع الفطرية — أي أن

التربية يجب أن تمكن الفرد من الوصول إلى أهدافه التي رسمتها له الطبيعة بطريق يستفيد منها من الناحية الشخصية ، والاجتماعية معا .

الأساس الفلسفي لطريقة المشروع

إن الفلسفة البراجماتية هي أساس طريقة المشروع ، تلك الفلسفة التي تعتبر الطفل خالفاً للمثل في بيئته ، فبدأ التربية في هذه الفلسفة هو الطفل ، وبيئته الطبيعية ، والاجتماعية ، والتفاعل بينهما هو الذي ينتج خبرته ، والفلسفة البراجماتية تترك الطفل يجرب ما شاء له أن يجرب ويتصل بالمجتمع ، وتحتم على المربي أن يتأكد دائماً أن الطفل معرض دائماً لهذا التفاعل الحريته وبين بيئته الطبيعية والاجتماعية معاً .

ويرى « البراجماتسي » أن التربية هي توجيه الدوافع ، والقدرات الطبيعية نحو تحقيق حاجات الطفولة في البيئة ونتيجة فعل هذه التربية هي تخرج عقل قابل للتشكيل ، نشيط منتج ، في جميع الأحوال ، والمواقف ، يستطيع أن ينشئ ويبتدع — فالتعليم عن طريق العمل هو أساس طريقة المشروع وأساس البراجماتية ، فالطفل يتعلم عن طريق النشاط أكثر من تعلمه عن طريق التلقين فيجب إذن أن يوضع الطفل في مواقف يصارعها ، وتصارعه حتى يصل إلى الحقيقة نتيجة هذا الجهاد ، وهذا هو ما يحدث فعلاً في طريقة المشروع إذا ما طبقت بروح البراجماتية الحقيقية .

المشروعات الفردية والمشروعات الجماعية

المشروعات إما : أن تكون فردية أو جماعية : ففي المشروع الفردي يقوم تلميذ واحد بعمل ما يسير فيه حتى نهايته ، فيكون بهذا قد اكتسب قدرة وجرأة تيسران عليه القيام بأعمال أخرى . أما المشروعات الجماعية فهي تسمى أحياناً « نشاطاً اجتماعياً » لأنها تقوى الروابط الاجتماعية بين التلاميذ ، وتدفعهم إلى تقسيم العمل بينهم وتشجعهم على تحمل المسؤولية أمام المجتمع المدرسي

عن رضا ، وطبيب خاطر ، فهو عمل نتيجة تجربة وتعاون ، وليس هناك شك أن المشروعات الجماعية إعداد جيد للتلاميذ ييسر لهم القيام بأدوار منتجة في المجتمع المعقد فيما بعد - ولهذا النوع من المشروعات فوائد ثلاثة ذات قيمة تربوية هامة :

(أولاً) المشروع الذي يشترك في أدائه جماعة من التلاميذ يكون بمثابة رباط اجتماعي قوى يوثق الصلات بين أفرادها .
(ثانياً) إن المشروع الجماعي من شأنه أن يجعل المدرس عضواً في جماعة التلاميذ ، وهذا يجمع بين المدرس وتلاميذه ويقارب بينهم .
(ثالثاً) والمشروع الجماعي وسيلة إلى توثيق الصلة بين المدرسة والمجتمع الخارجي .

وفي المراحل الأولى للتربية يمكن أن يقوم التلاميذ بالمشروعات إذا بثت فيها « روح اللعب » فيتقدم صغار الأطفال بتمثيل الأسرة وبأعمال البريد ، وفتح الحوانيت ، وإنشاء المزارع وما إليها من أنواع اللعب الإيهامي . وواضح أن هذه المشروعات لا يمكن أن تتم على أيدي أطفال أميين لا يستطيعون القراءة ، والكتابة ، وحل مسائل الحساب التي تتطلبها ومن هنا تأتي الحاجة لتعليم القراءة ، والكتابة ، والحساب .

أما في مراحل التعليم المتأخرة ، فقد يصعب تنفيذ المشروعات بدقة أو وضع مشروعات مناسبة لسن التلاميذ ، ولكن على الرغم من هذا فأنصار المذهب العملي يهتمون وجود مظاهر نشاط معين ، ويقولون : إن أبسط المشروعات مثل إخراج رواية تمثيلية أو مقطوعة موسيقية قد يتطلب إخراجاً ، وأدباً ، وموسيقى ، وفناً ، وأشغالات يدوية ، وأشغال إبرة ، كما أن الناحية التي يستفيد بها الطفل تلعب دوراً كبيراً في تعلم الأطفال مسك الدفاتر ، ويعرفون حساب الدخل ، والمنصرف ، وضبط الميزانية ، ويتعلمون بعض الفنون العلمية كإثارة المسرح وإعداداته .

وليس من المستحسن أن تقترح مشروعات تقوم بها المدارس ، لأن هذه

المشروعات تنشأ حسب الحاجة إليها ، ويجب أن تنشأ داخل المدرسة ، ولا تفرض عليها من الخارج ، وأى محاولة لوضع نظام خاص لمشروعات معينة سوف يؤدي بها إلى نوع من الشكلية الجامدة التي تخرج بها عن حقيقتها ، وطبيعتها ، بل إن الشكلية عدو تحاول طريقة المشروع أن تحاربه وتتجنبه على الأقل ، فهذه المشروعات يجب أن تنشأ من البيئة المدرسية ، ومن حياة كل فرد ومظاهر نشاطه ، وسنحاول أن نذكر بعض الأمثلة التي قامت بها بعض المدارس .

١ - قامت مشكلة بين إدارة مدرسة ثانوية ، وبين البلدية حول جلب الماء لرى حديقتها ففكر مدرس العلوم بهذه المدرسة في حفر بئر يمكن أن تستخدمها المدرسة في رى هذه الحديقة ، دون أن تلجأ إلى معونة المجلس البلدى ، ودون الخضوع لسيطرته في هذه المسألة وقد أقبل التلاميذ على هذا المشروع ، وبذلوا في سبيله كل جهد حتى تم ، ولا يمكن مطلقاً أن ننكر القدر الهائل الذى استفاده التلاميذ في العلوم العملية أثناء قيامهم بهذا المشروع ، كما لا يمكن أن ننكر القيمة الأخلاقية التي استفادها الأطفال من قيامهم به . وقد قابلت التلاميذ عدة مشاكل علمية . وكان عليهم حلها مثل الأسباب التي من أجلها كانت الأجسام الصلبة أخف وزناً وهي في الماء منها وهي في الهواء ، وقاعدة « أرشميدس » ، كما أنهم درسوا ما هو ضرورى من نظريات الميكانيكا ، والجيولوجيا ، والماء الباطنى . . . إلخ ، هذا مثل لمشروع ناجح ، كأنه هبط من السماء على مدرس العلوم في المدرسة .

٢ - وقد قام معهد « لودهام جرايخ بورستال » بمشروع نجح نجاحاً باهراً ، إذ أرادوا إصلاح فريق من الأحداث المجرمين عن طريق مشروع بناء الأبنية اللازمة لمساكنهم ، وقد أدى هذا إلى تعلم كثير من الفنون ، والصناعات ، وما يتبع ذلك عن طريق التعاون .

٣ - مشروع في التاريخ - حروب محمد على في البلاد المجاورة ، قرأ التلاميذ عنها قراءات واسعة في كتب ، ومراجع مختلفة ، وبعد مدة أسبوعين

أو أكثر انتهت هذه القراءة ببحث ومناقشة بين التلاميذ نتيجة لبحثهم وتفكيرهم الدائم خلال هذه المدة ، وقد لاحظنا أن ما عمله التلاميذ في مشروعاتهم هذا ليس مجرد جمع المعلومات ، بل جمع ، وتنظيم ، وإمعان النظر فيها .

٤ - مشروع في الحساب - عن المقاييس والمساحات ، وذلك بدراسة مشروع عن بناء منزل - وسنجد في هذا المشروع غالباً كل مسألة من مسائل المقاييس بصورة تطبيقية ، ونحن نصصح المدرس في مثل هذا المشروع بعدم المغالاة حتى لا يصبح اهتمام التلاميذ موجهاً إلى بناء المنزل نفسه أكثر من عمليات الحساب وحتى لا يفقد المشروع صفته باعتباره مشروعاً في الحساب .

بهذه الطريقة نتمكن من أن ندرب الأطفال على الاستقلال في البحث ، والاتصال بالناس ، ومعرفة كيفية إنجاز الأعمال والمشروعات ، ويهنا بعد ذلك أن نسأل : ما هي الخطوات التي يجب أن نخطوها عند تحقيق مشروع من المشروعات ؟ إن الخطوات التي وضعت لتحقيق المشروع تقابل الخصائص الأربعة التي وضعها « كلباتريك » للتعليم المثير أو العمل المغرض يتطلب العمل المغرض أربع خطوات هي :

- | | |
|--------------|----------------------------------|
| A. Purposing | (١) وجود الغرض |
| B. Planning | (ب) رسم الخطة |
| C. Executing | (ج) تنفيذ الخطة |
| D. Judging | (د) تقويم الخطة - أو مرحلة الحكم |

ويؤكد أنصار طريقة المشروع أن الوسيلة الوحيدة لنجاح طريقتهم هي عدم الحيدة عن اتباع القواعد ، وهم يؤكدون قيمة القاعدة ويقولون : إن القاعدة في العمل العقلي تعادل العادة في كسب المهارة فكلاهما يوفر الوقت ، والمجهود ، ويمكن أن نلخص خطوات المشروع فيما يأتي :

أولاً - اختيار المشروع وتحديد الهدف

وفي هذه الخطوة يبدأ التلاميذ بتحديد أغراضهم تحت إشراف المدرس ،

وتوجيهه ، وينتهى هذا التحديد باختيار المشروع ، وتحديد الأهداف التي يراد الوصول إليها من تنفيذه ، وتم هذه الخطوة بأن يقترح كل تلميذ أو كل مجموعة من التلاميذ مشروعاً جديداً أو مشروعات يزنها المدرس ، ويوجه التلاميذ إلى نقدها ، والتفضيل بينها ، واختيار أحدها وتحديد موضوعه ، وكتابته في صيغة تثير في الأطفال أو في التلاميذ الرغبة في البحث وحسب الاستطلاع ، والمهم أن يكون للمشروع قيمة تربوية كأن يحتوي على فرص يكتسب فيها التلاميذ مهارات ، وميولاً ، مرغوباً فيها ، وأن يكون ممكناً تحقيقها من حيث قدرة الأطفال ، ومطالب الزمن ، والمكان ، وأن يكون موصلاً إلى الهدف الذي رسمه التلاميذ ، وأن يكون مشتملاً على أنواع متعددة من النشاط تماثل مختلف القدرات الممثلة في التلاميذ ، وأن يكون المشروع متصلاً بحياة التلاميذ ، وبالبيئة ، وأن يكون مناسباً لمراحل النمو ، فبين الخامسة ، والثامنة ، أى في مرحلة الانتقال Transitional Period يجب أن تكون المشروعات مما يحقق إشباع ميول الأطفال إلى الملكية ، والتكوين ، والبحث بالأشياء . وفيما بين الثامنة ، والثانية عشرة أى في مرحلة التكوين Formative Stage يجب أن تكون المشروعات مما يسد حاجة الأطفال ويتفق مع ميولهم إلى اللعب ، والتثليل ، والاجتماع والميل الشديد إلى المعرفة ، والاستطلاع ، وفي مرحلة البلوغ يجب أن تحقق المشروعات الاعتبارات السيكولوجية التي يشد بها المراهق ، كالميل إلى الاجتماع ، وحسب المخاطرة والاستطلاع .

ثانياً - رسم الخطة Planning

وفي هذه المرحلة يعطى التلاميذ حرية وضع الخطة التي عن طريقها يمكن تحقيق أغراضهم ، فيتناقش التلاميذ في قيمة وجدوى كل الطرق التي تؤدي إلى تنفيذ المشروع ودراسة المشكلات التي قد تعترض تنفيذ المشروع ، ويختار التلاميذ أحسن هذه الطرق - وهذه المرحلة - مرحلة الدرس والبحث ، مرحلة هامة جداً إذ يجب أن توجه وترشد وتنبه القائمين بالمشروع إلى الصعوبات ،

والأخطاء ، وإذا كان لدى المدرس المشرف على المشروع عدة اقتراحات يجب ألا يملئها على التلاميذ أو يفرضها عليهم بل يعرضها ، ويتركها لهم ، ويجب أن يكون رأيه استشارياً فحسب ، يقبل أو يرفض على أساس جدارة الرأي لا على أساس سلطة المدرس ونفوذه . وعلى هذا الأساس يمكن تطبيق الروح الديمقراطية في طريقة المشروع .

ثالثاً - تنفيذ المشروع Executing

وهنا يلعب المدرس دوره في إرشاد التلاميذ لتنفيذ مظاهر النشاط التي رسموها في المرحلة السابقة ، ويكون التنفيذ عن طريق مواقف اجتماعية يقبل التلاميذ تنفيذ الواجبات التي رسموها ، وفرضوها على أنفسهم ، وفيها تعاون بين الجميع ، وتحمل للمسئولية المشتركة وواجب المدرس في هذه المرحلة تهيئة الظروف الملائمة والمساعدة ، حتى يتمكن التلاميذ من تنفيذ خططهم فيشجعهم ، ويلفت نظرهم إذا بعد نشاطهم عن غاياتهم ، ويمدهم بالمراجع ، ويمكن أن يعمل الفصل مجتمعاً في بعض نشاط المشروع ، ويمكن تكوين لجان لبحث بعض المشكلات ، ويشجع التلاميذ على إرضاء ميولهم ، واستخدام قدراتهم فيما يناسبها من نشاط المشروع

رابعاً - مرحلة الحكم Judging

وفي هذه المرحلة يمكن أن يرى الأطفال ثمرة جهودهم متبلورة واضحة فيعرض كل تلميذ ما ساهم به في المشروع أو يقوم التلاميذ بعمل جمعي يعرضون فيه ما حققوه من غايات ، كأن يقوموا بتمثيل رواية أو يقيموا معرضاً ، وبذلك يتسنى لهم أن يروا بأنفسهم مقدار ما حققوه من أهداف سبق لهم أن رسموها .

طريقة المشروع في بوتقة البحث

والآن نتساءل هل يجب أن تقوم التربية كلها على طريقة المشروع ؟ إن الإجابة على هذا السؤال تحتم علينا أولاً وقبل كل شيء أن نعرف محاسن هذه الطريقة ثم نتعرض لنقدها وأخيراً يمكن أن نصدر حكماً عليها .

أولاً - محاسن طريقة المشروع

١ - الاعتماد على النفس .

إن طريقة المشروع تخلق في الأطفال وفي التلاميذ روح الاعتماد على النفس ، وهي لا تؤدي إلى التربية السهلة اللينة Soft Pedagogy ، كما يدعى نقاد المشروع ، فكل مشروع من المشروعات يحتاج في تمثله وفي القيام به إلى مثابرة وجهد ، وسهر ، وعمل متواصل من الأطفال للتغلب على ما يصادفهم من المشكلات المختلفة فهو خير وسيلة لتكوين التلاميذ على الحياة الصعبة ، ومواجهة المشكلات بأنفسهم .

٢ - استثارة عنصر التشويق .

إن روح العمل في طريقة المشروع ليست مفروضة على الأطفال من الخارج superimposed from above ، فيفقدون التحمس للعمل ، والميل إليه ، بل هو نابع من أعماق نفوس الأطفال مرتبط بميولهم وأغراضهم . فكأن طريقة المشروع قد تمكنت من حل « مشكلة التشويق في التربية » . فيقول الأطفال أساس هذه المشاكل ، ففي تدريس الجغرافيا مثلاً يمكن اتخاذ الرحلات كأساس للمشروع ، وفي تدريس العلوم يمكن استخدام طريقة How it works كيف تعمل ؟

٣ - التعليم المصاحب Concomitant Learning

في طريقة المشروع فرص كثيرة لتحقيق التعليم المصاحب ، ففيها يكتسب التلاميذ ميولاً متعددة مفيدة ، كاتساع الذهن ، وقبول آراء الغير واحترامها ،

ومناقشتها على أساس قيمتها ، وتوقع النتائج من المقدمات ، وفيها يكتسب التلاميذ مهارات ، وعادات : كالعمل الجمعي ، والتعاون .

٤ - في طريقة المشروع حل لكثير من المشكلات العامة للتربية .

(أ) جعل الطفل مركزاً للتربية والتعليم .

(ب) الربط بين مواد الدراسة .

(ج) جعل الحياة في المدرسة مشابهة للحياة في الخارج .

(د) تأكيد الناحية العملية في التربية .

(هـ) علاج بعض العيوب النفسية عن طريق الاندماج والتعاون مع الغير ،

(و) اكتساب القدرات المختلفة ، وحل مشكلة الفروق الفردية .

(ز) اشترك التلاميذ الجدى في النشاط التعليمي من شأنه أن يقلل مشكلات النظام .

(ح) تهتم طريقة المشروع بالناحية الجمعية وتعود التلميذ على أن يعمل كفرد في مجموعة ، وأن يتعاون مع غيره في تحقيق غرض مشترك .

ثانياً - مساوئ طريقة المشروع

١ - طريقة محفوفة بالمخاطر

يرى بعض المربين أنها طريقة محفوفة بالأخطار كثيرة العيوب ، والمساوئ ، فهي في نظرهم تنمادى مع ميول الأطفال فتجعلهم يتبعون أهواءهم ورغباتهم الخاصة بما تمنحه لهم من الحرية المطلقة كما أنها تؤدي إلى التربية اللينة .

٢ - طريقة تجر التلاميذ إلى دراسات لاحد لها ولا نهاية :

إن المشروع الواحد كثيراً ما يجر إلى مشروعات أخرى ، وإلى مشاكل لانهاية لها ، وأنها طريقة لا تتفق مع تلاميذ الفصول الراقية ، كما أنها تحتاج إلى نفقات كثيرة ، وإلى وقت طويل للوصول إلى أبسط المعلومات ، وأنفهاها .

٣ - فيها ضياع لبعض الوقت الذي يصرف في المناقشة .

وهذا النقد يغفل القيمة التربوية للنشاط الذي لا يؤدي بشكل مباشر إلى تحصيل المادة الدراسية ، فكثيراً ما يستفيد التلميذ من المناقشة ومن الاتصال بالناس وجمع المصادر فائدة أعظم وأجدى من مجرد استظهار الحقائق .

٤ - طريقة يعوزها التنظيم في المعلومات ويصعب معها وضع المناهج : فهي تهمل^١ الترتيب المنطقي للمواد الدراسية ، ولذلك تؤدي إلى عدم تحصيل التلاميذ لكثير من المعرفة التي يجب أن يحصلوها - وعلى هذا يصعب عمل المناهج الدراسية المتماكة مع طريقة المشروعات .

٥ - طريقة تحتاج إلى^٢ مدرسين مدربين أكفاء :

لا يصلح كل مدرس لتنفيذ طريقة المشروع ولا بد وأن يكون هناك نفر خاص لتنفيذها .

وأخيراً وبعد أن تعرضنا لنقد طريقة المشروع نقول : إننا لانستطيع أن نطمئن إلى طريقة المشروعات وحدها لتعليم التلاميذ ما نريد أن نعلمهم إياه ، فإننا إذا اعتمدنا على طريقة المشروع وحدها ، لانستطيع أن نعرف بالضبط ما يجب أن يتعلمه التلاميذ ، والمشروع تطرف في النفعية قد لا يرضاه رجالها ، لأن التربية بهذه الطريقة ستنتج معلومات مفككة تفقد عنصر الوحدة ، فالتعليم العرضي ليس كافياً ، فنحن على حق إذا رجعنا إلى الطريقة القديمة لسد الفجوات وتنظيم المعلومات وتنسيقها ، لأن في ذلك توفيراً للجهد ، ولا بأس من أن نأخذ بقسط من التعليم المنظم ، فذلك أقرب للنفع .

على أننا سنحافظ على روح العمل بطريقة المشروع ، وهي جعل مادة الدراسة من الحياة الواقعية نفسها ، ونحن إذا لم نوفق إلى اتباع طريقة المشروع في مدارسنا ، فلا يضيرنا مطلقاً أن نستفيد من روحها التي يمكن أن تلخص فيما يأتي :

أولاً - تحديد غرض الدرس وجعله واضحاً أمام التلاميذ قبل الدخول فيه .
فثلاً عند تدريس مشكلة رياضية نضع أمام التلاميذ مشكلة ، قد لا تكون

حقيقية إذ يكفي أن تكون عقلية ، فالعقل يحدد المشاكل ويسرع في حلها ، وهذه هي روح المشروع .

ثانياً - يجب أن تكون ميول الأطفال أنفسهم أسس هذه المشاكل فنختار من المشاكل ما يميل إليها الأطفال من تلقاء أنفسهم حتى يشعروا بالغرض منها ، إذ أن هذا يقربنا أيضاً من روح المشروع .

ويحسن أن نختم هذا الفصل برأى الأستاذ « ريمونت »^(١) عن طريقة المشروع : « إن خير خدمة قدمتها طريقة المشروع هي أنها أشركت التلاميذ في العمل وجعلتهم ينهكون انهماكاً تاماً في عمل له غرض واضح ، بدلاً من سلسلة من الدروس العادية ، وليس أسوأ من تحريف هذه الفكرة والانهاء بها إلى شكلية جامدة ، وهي التي أريد بها بث الحياة في المدرسة ونقل جزء من نشاط الكبار خارج المدرسة في مهرجان الحياة إلى داخل أسوارها » .

المراجع

1. J. Adams : Modern Development in Educational Practice.
2. Ross : Groundwork of Educational Theory.
3. A.S. Hughes : R.E. Hughes : Learning & Teaching.
4. R.R. Rusk : Research in Education.
5. J. Callester : Growth of Freedom in Education.
6. McMurray : Teaching by Projects.
7. M. Stormzand : Progressive Methods of Teaching.
8. A. Stevenson : The Project Method of Teaching.
9. Kilpatrick : The Project Method.
10. Branon : The Project Method in Education.

تعليق

لقد حاولنا في هذا الفصل ، وفي حدود هذه الصفحات أن نقدم للقارئ وصفاً صادقاً عن بعض المبادئ ، والخطط الحديثة التي اندفع تيارها العملي في رحبات المدارس . وبقي علينا الآن أن نختم هذا الفصل ببعض الملاحظات : أولاً : يجب أن يعلم القارئ أن ما قدم له عن الطرق الحديثة لا يمدد في الواقع بفكرة مسهبة ومفصلة عن هذه الطرق ؛ لأننا لم نحاول بما قدمناه إليه إلا أن نفتح عينيه لتتبع دراسة مطولة في المراجع الخاصة التي تناولت هذه الطرق بالتفصيل والإطناب . على أننا ننصحه بأن يطوف بالمدارس التي تنفذ فيها هذه الطرق إن أمكنه ذلك .

ثانياً : يجب عليه أيضاً ألا يسلم بحداثة هذه الطرق في ميدان التربية والتعليم ؛ لأنها ليست وليدة العصر الحاضر أو بنت القرن العشرين ، ولكنها في الحق قديمة قدم التاريخ .

فقد نادى العلماء والفلاسفة والمربون قديماً ببعض هذه الأسس والمبادئ التي تفخر بها التربية الحديثة وتنيه عجباً واختيالاً وترى أنها من صنعها ومن عمل يديها . وإن هؤلاء الأقدمين بهذا الصنيع قد وضعوا بذور هذه الطرق في الماضي ، فأثت ثمارها الطيبة في الحاضر :

فمثلاً إدخال اللعب في ميدان التربية والتعليم قد يظن أنه وليد الحاضر ولكن في الحق هو من غرس الماضي ؛ فقد نادى بذلك من قبل كثير من قدامى المربين . فهذا أفلاطون (٣٤٨ ق . م) يتحدثنا قائلاً :

« إن المعلومات التي نتعلمها نتيجة الضغط لا تستقر في أذهاننا ؛ لذلك يجب ألا نستعمل طريقة الإكراه والإرغام في التعليم ، بل نجعل التربية كشياً ساراً ، فهذا يدفع الطفل إلى الدرس والعمل ملياً نداء ميوله الطبيعية ورغباته السارة » وهذا كونتليان (٣٥ م - ٩٥ م) قد نبه إلى قيمة اللعب الطبيعي

كوسيلة للمرونة وإظهار مزاج الأطفال وسلوكهم الخلقى، وإنه يجب ألا تكون دراسة الأطفال مقرونة بالعقاب والضرب، فهذا إذلال للطفل وسيلة وحشية، وفي رأيه أن العقاب المدرسى لا يرجع إلا إلى إهمال المدرس فى تدريسه. وهذا «لوك» (١٦٣٢ - ١٧٠٤) يؤكد أن الحاجة إلى تنمية الجسم والعقل تعين المرء على احتمال الشدائد والصبر عليها وهذا لا يتم بخط قاسية، ولقد كتب فى مقالة عنوانها Essay on Human Understanding «مقال عن الإدراك الإنسانى» :

«إن الذى يحافظ على روح الطفل ونفسيته ويجعلها فعالة حرة سهلة، وفى الوقت نفسه يجب الطفل عن الأعمال التى لا يرتضيها المجتمع الإنسانى ويوقفه أمام صعوبات ليتغلب عليها - الذى يوفق بين هذه المتناقضات يكون فى نظرى قد خبر التربية وألم بأسرارها الحقيقية» .

وفى كتاب آخر له يقترح تعلم القراءة عن طريق اللعب وتعلم اللغة الفرنسية بما نسميه الطريقة المباشرة Direct Method وهى التى تكون بواسطة المحادثة لاعن طريق القواعد النحوية .

فهؤلاء العلماء قد مهدوا الطريق للتربية الحديثة حتى أتى «فرويل» (١٧٨٢ - ١٨٥٢) فأظهر لنا المغزى الفلسفى للعب واقترح أيضاً كيفية الانتفاع بروح اللعب فى التربية والتعليم ولقد كتب يقول :

«إن اللعب نشاط تلقائى ونفسى وفى الوقت نفسه هو مثال للحياة البشرية فى مجموعها، لذلك كان مقروناً دائماً بالفرح والحرية والرضا والراحة النفسية والجسمية والسلام العالمى» .

وإنه لمن المفيد لطلاب التربية والمدرسين العمليين أن يراجعوا أحياناً قراءة العلوم التربوية تاركين جانباً الطرق والخطط الحديثة فى التربية، وأن يتناولوا الكتب التى تحمل انقلاباً تربوياً بالبحث والدرس .

ثالثاً : يجب أن نلفت نظر المدرسين إلى أنه إذا اطلع أحدهم على طريقة حديثة مكتوبة فى قالب حماسى يأخذ بمجامع القلوب يجب عليه أن يحذر كل

الحذر وأن ينظر إلى هذه الطريقة الجديدة نظر الباحث المتقرب الذى لا يعير اهتماماً كبيراً . فعليه أن يبحث ويكشف عن مزاياها كما يكشف عن عيوبها ، أى ينظر إليها نظرة محايدة تكشف له عن خفاياها .

رابعاً : يجب أن نميز هنا بين فئتين من المدرسين : فئة تتمسك بالقديم ولا تحيد عنه ، وأخرى تقبل على الجديد بحماسة الشباب . كما أنه يوجد نوعان من المدارس : نوع تعطل فيه النمو بسبب وقوفه عند القديم وتمسكه به ، وآخر أوقعه فى الإخفاق عناده وتمسكه بأذيال طريقة حديثة لا تلائم حالته وظروفه .

فإلى المدرسين الذين يسعون دائماً وراء كل جديد ومستحدث نوجه نداءنا وننصحهم بالتريث ونقول لهم :
إن التيار التربوى العملى وإن كان نتيجة لتجارب وخبرات كثير من المدرسين الموهوبين المفكرين ممن سبقوهم إلا أنه يجب ألا نتقبل آراءهم كما هى إلا بعد أن نرى فائدها العملية وهل يمكن تطبيقها .
وإلى المدرسين الذين يتمسكون بالقديم نقول :

إن الخطط التى يحتملها زمن ما قد لا تلائم غيره من الأزمنة ، فالتعليم بالأمس غير التعليم الآن ، فقد خضع تعليم اليوم لعوامل التطور والتغير جاءت بها السنوات المتعاقبة ، كذلك ما يستعمل فى فصل تلاميذه خمسون غير ما يستخدم فى فصل تلاميذه عشرون مثلاً . فالمدارس الآن تختلف عما كانت عليه منذ ثلاثين عاماً ، ومن المحتمل ألا تكون المدارس بعد ثلاثين عاماً مماثلة لما هى عليه الآن .

ونحن إذا ما تبصرنا الأمور بعين الحكمة والاعتدال من جهة . والاحتراس والنقد من جهة أخرى فلاشك أن هذا سيعيننا على حل الكثير من المشاكل التى تظهر فى المدرسة وخاصة المشكلة التى يتجلى فى الصراع القائم أحياناً بين مدرس حديث وآخر مسن يفوقه فى الخبرة وما يظهر فى ذلك من اختلاف وجهات النظر .

ونصيححتنا أنه يجب على المبتدئ أن يكون على استعداد للتعلم من سبقوه في التدريس والخبرة ، كما يجب على المدرس القديم أن يكون على استعداد مماثل للتعلم ولو من هو أقل منه سنّاً ودرجة ؛ فالناشي عموماً وفي معظم أحواله يكون متحمساً لمبادئه ونظرياته مستعداً للتغيير وللتبديل والابتكار ، فإذا ما تقدمت به السن أصبح ضيق الأفق محدود التفكير مصمماً أذنه عن سماع الجديد .

وأخيراً نختم هذا الفصل بأنه يجب ألا نتمسك بمبادئنا وتقاليدنا ونظرياتنا القديمة وألا تسيطر علينا النظريات الحديثة ، كما يجب ألا نسرع أو نتباطأ في تغيير معتقداتنا بل نسلك طريقاً وسطاً ونكون حازمين في تقبل هذه الآراء .

مراجع أخرى

1. Dewey : Schools of To-morrow.
2. Dewey : Democracy and Education.
3. Nunn : Education, its Data & First Principles.
4. Adams : Modern Developments in Educational Practice.
5. Bode : Modern Educational Theories.
6. Monroe : Text-Book in the History of Education.
7. Klapper : Contemporary Education.

الفصل الرابع

التربية الحديثة وسجل التلميذ

لم يكن من الخير أن تجمد طرق التربية والتعليم وألا ينالها التغيير بل كان لابد لها من أن تخضع للتطور، ذلك التطور الذى خضعت له الحياة بأسرها . هذا ولئن كانت طرق التربية الحديثة قد امتازت بشيء فإنها قد امتازت بميزة واحدة وهذه الميزة هى أنها أصبحت تدور حول الطفل بعد أن كان الطفل يدور حولها .

هذا وقد أصبح المربي الحديث بدل أن يرسم ويحدد ما يجب على الأطفال أن يتعلموه نجد أنه فى شيء من الأناة والرفق يعمل على ملاحظة الطفل ملاحظة دقيقة ويحاول أيضاً أن يدرس دوافعه وميوله وقواه ومواطن ضعفه وقوته ويتنهر الفرص للعمل على مساعدته على النمو فى الوقت المناسب . وهذا اتجاه صحيح لا تشوبه أية شائبة لأنه أمر فردى طبيعى وصحى وذلك لأنه مؤسس على عنصر الحرية .

ولا نقصد من ذلك أن نقول : إن اتجاه التربية الحديثة اتجاه فردى أو اتجاه إنسانى فى أضيق معانيه إذ أننا نرى أن لكل مدرسة وظيفتين هما :
أولاً - نمو المجتمع المدرسى ، وعن طريق هذا النمو تنمو مواهب وصفات كل طفل على حدة .

ثانياً - العمل على نمو الطفل فى مختلف نواحيه : الخلقية ، والعقلية ، والجسمية ويجب أن يتحقق هذا عن طريق المنهاج الذى نقدمه له وعن طريق البيئة التى يمتص منها المثل العليا والطرق التى نتبعها فى التدريس له وفى جميع مظاهر نشاطه فردية كانت أو جماعية .

على أن هذين الاتجاهين يجب ألا يتعارضا بل يجب أن يعمل كل اتجاه على تقوية الاتجاه الآخر فهما في الواقع متكاملان لا متعارضان . فالحياة الاجتماعية في أى مجتمع من المجتمعات تزهر وتغنى إذا ما عملنا على تشجيع ذاتية أفرادها إذ « لا خير يمكن أن يصيب هذا العالم إلا عن طريق النشاط المطلق » للأفراد رجالا كانوا أو نساء «^(١) : فليس للمدرسة من أهداف أكثر من أنها تعمل على تشجيع حيوية الروح الاجتماعى من ناحية وعلى بناء أخلاق الفرد من ناحية أخرى ، ولا تؤدي المدرسة رسالتها الحقيقية حتى تعمل على تحقيق هذين الهدفين .

إن ما نحتاج إليه لا يخرج عن إعادة النظر في أمر التعليم الذى تقدمه المدرسة لأطفالها . ولا نقصد بهذا إحداث ثورة في العمل المدرسى ولكن لابد وأن يكون هناك التغير : في القيم وفي الطرق المتبعة في التدريس وفي التنظيم فليس الغرض من التعليم المدرسى أن نعد الأطفال لا ستياع بعض المعلومات ولكن الغرض منه تزويدهم بأكبر قسط من التوجيه الصالح الذى من شأنه أن يفك عقال مواهبهم وأن يدرّب عقولهم على مواجهة الصعاب وأن يزيد من ثروة أخلاق الطفل كفرد . هذا هو الهدف الذى يرى « سجل التلميذ » إلى تحقيقه . ويجب أن نوجه الأنظار إلى أن طريقة استخدام « سجل التلميذ » مازالت حتى يومنا هذا في دورطفولتها ومع ذلك فقد أتت بأطيب الثمرات وقد كشف « سجل التلميذ » عن الكثير من المشاكل التى يصاب بها الطفل العادى كما يصاب بها الطفل المشكل : كعادات تدبذب الانتباه والكبت وعدم تكامل المواهب وعدم مقدرة الطفل على تكيف نفسه للنواحي المختلفة . ويحسن بنا أن نشير إلى حقيقة جديرة بالذكر وهى أن طرق التربية الحديثة التى نستغلها اليوم في تربية أطفالنا العاديين تأثرت إلى حد كبير بطرق تربيتنا لضعاف العقول . فقد وصلنا إلى مرحلة من مراحل التربية استفدنا فيها من النتائج القيمة التى وصلنا إليها من دراسة حالات الأطفال غير العاديين

ولما طبقت هذه الطرق على الأطفال العاديين كان لها من النجاح ما تهلت له نفوسنا بالبشر والطمأنينة .

وليس معنى هذا أن نعيد عن اتباع تلك الطرق التي ثبت نجاحها والتي وصلنا إليها في تعليم الأطفال العاديين والتي لا يمكن أن نطبقها على سواهم ، ولكن معناه ضرورة التفكير في تلك الطرق التي ثبت نجاحها مع العاديين من الأطفال كما نجحت أيضاً في معالجة بعض نواحي الشذوذ وذلك لأن الكثير من الأطفال لا بد وأن يبدو مشكلاً في طور من أطوار نموه . وليس معنى هذا أن نقف عن توجيه أصحاء الأطفال وأقربائهم إلى طريق الصحة والقوة ولكن معناه ألا نتجاهل تلك النتائج التي وصل إليها المحربون الذين عملوا واحتكوا بالكثير من الشخصيات . على أن قيمة هذه التجارب تبدو بجلاء عند زيارة بسيطة لبعض المعاهد ، والعيادات التي تختص بدراسة مثل هذه الحالات . ونحن لاننادي بأن تكون مدارسنا « عيادات سيكولوجية » ولكن نحتم أن تكون المدرسة مكاناً « للعلاج الوقائي » وهي في علاجها لعقول الأطفال ولأخلاقهم يمكنها أن تستفيد كثيراً من توجيهات الإخصائي النفساني بقدر ما تستفيد من الطبيب في علاجها لأجسام الأطفال .

والغرض الذي نهدف إليه من صرختنا لاستخدام « سجل التلميذ » ليس معناه معالجة نقائص الطفل على حساب غيرها من صفاته العادية ، ولكن هدفنا الذي نرمي إليه هو زيادة تقدم الطفل العادي من النواحي العقلية والصحية وذلك بطريق تقليل عناصر التلف وزيادة عناصر الإنتاج ورفع مستوى تحصيله وهنا فقط نضمن تقدم الطفل ونلمس تقدماً عظيماً في كفاية المدرسة .

وسأحاول في هذا الفصل أن أعطي فكرة شاملة عن « سجل التلميذ » في حدود ما تسمح به صفحات هذا الكتاب وكنت أود أن يكون لدى متسع يسمح بعرض التفاصيل عرضاً يليق بما لها من قيمة عظيمة ولكني أراني مضطراً إلى الإيجاز . والبحث في هذا الموضوع يتضمن النقاط الآتية :

أولاً — أهمية سجل التلميذ في التوجيه التربوي :

ثانياً — عمل السجل :

ثالثاً — فائدة السجل :

أولاً - أهمية سجلات التلاميذ في التوجيه التربوي

من المشاهد في جميع المدارس أن كل مدرس يحتفظ ببعض سجلات لتلاميذه ، ولكن معظم هذه السجلات يهتم بها جرياً وراء نتائج الامتحانات لا غير ، التي أصبحت هي كل شيء في المدارس . وقد ترك المدرسون الأطفال وراءهم ظهرياً ، لا يأبهون لأحوالهم الخاصة ومشاكلهم ، مع أنهم لو جعلوا مركز عنايتهم تسجيل ما يمكن جمعه واستقصاؤه من جميع أحوال التلميذ المدرسية والمنزلية لكان ذلك أجدى على التربية ، وأنفع مما لو انصب اهتمامهم على الامتحان فقط .

ما هو سجل التلميذ ؟ وما هو الدور الذي يمكن أن يقوم به في التربية ؟ سجل التلميذ هو عبارة عن وسيلة لتوجيه وتنظيم الجزء الجوهرى من عمل المدرسة بالنسبة للطفل كفرد . حتى يمكن فهمه ، وتكيف نظام المدرسة ، واستعمال طرق ملائمة بقدر الإمكان لحاجاته . وهذا ما تمتاز به التربية الحديثة ، وما يسهل دراسة الطفل بطريقة نظامية ذلك التقدم الحديث في علم النفس .

والنظام الحالى لسجل التلميذ يحاول أن يجمع بين خبرة المدرس وبين معلومات علم النفس الحديث الخاصة بالطفل ليدعم الدراسة المنظمة لتربية الطفل . وعلى هذا الأساس فالمدرس الجيد القدير يدرس تلاميذه دراسة مبنية على ملاحظاته لهم ، ويحاول أن يؤسس على نتيجة ملاحظاته علاج حالات الطفل وحوادثه ومشاكله ، بدون كل ذلك ويسجله في الجزء الخاص به من السجل كما سياتى . وفي حالة عدم العناية بشكل وتدوين ما يشاهد من ملاحظات فيه ، فإنه يكون غالباً كالملاحظات العارضة التي تنسى بسرعة ، ولا يكون لها أى قيمة . وحكم المدرس بناء على ذلك يبنى مبهماً ملتبساً في عقله . والواجب على المدرس أن يبين هذه الأحكام ويوضحها ويجعلها ثابتة ؛ وذلك لا يتأتى إلا بتسجيلها في السجل . والإهمال في تسجيل أى خطوة

من خطوات الطفل في أى مرحلة من تاريخ نموه التربوى يجعل من المستحيل الاحتفاظ بعنصر الاستمرار في توجيه نموه وتكوينه . ا

الأمور الرئيسية اللازمة لعمل السجل

١ - الملاحظة المنظمة : أول شيء في السجل الجامع أو الشامل أنه يجب أن يؤسس على الملاحظة المنظمة ، ولهذا كان من الضروري أن نعرف الأشياء التي نحتاج إليها في تعليم كل طفل إذا أردنا أن نؤسس التربية على حاجاته ، وهنا لا محالة سيكون فيه بعض اختلاف في الرأي بخصوص الأشياء الأكثر أهمية التي يجب أن نعرفها ، ولكن خبرة المدرسين ونتائج الدراسات تشير بوضوح تام إلى الهيئة الأصلية للسجل . فهناك اتفاق عام على أن السجل يجب أن يشمل أخباراً خاصة بالطفل ، ومشاكله المنزلية ، وحالته الجسمية ، وذكائه العام ، وميوله الخاصة ، ومزاجه العام ، وشخصيته ، وقدراته المدرسية بالمعنى الواسع الذي لا يقتصر على المهارة والتقدم في الموضوعات أو المواد المدرسية .

٢ - التسجيل المنظم هو الأساس الثاني لسجل التلميذ : إذ يجب أن نهتم بتسجيل نتائج الملاحظات والاستقصاءات التي عملت ، وهذا التسجيل يجب أن يعمل بطريقة يمكن أن تنتقل وتتحول من مدرس إلى آخر على السواء ، وذلك بأن يكون هناك اتفاق مبدئى عام على الإصلاحات والكلمات التي تستعمل في السجل ، وأن تكون هناك صلة دائمة بين المدرسين في عمل السجل ؛ الذى يستقل بعمله مدرس واحد لا يكون واضحاً ومفهوماً للمدرس الآخر ما لم يكن هناك اتفاق في معنى الاصطلاحات والعلامات التي تستعمل في السجل . ويمكن الوصول إلى درجة كافية لوحدة الغرض المطلوب من السجل بتوضيح الاصطلاحات التي تستعمل ، وذلك بوساطة الخبرة في عمل السجلات عن طريق المناقشة بين أعضاء هيئة التدريس .

٣ - التسجيل الجامع : الأساس الثالث هو أن يكون السجل شاملاً

أى يجمع كل ما يمكن جمعه من الأحوال والأخبار الخاصة بكل طفل في مراحل نموه المختلفة ؛ فنمو الطفل مستمر ، ولا يمكن أن نصف فرداً مرة واحدة يكون هذا الوصف ثابتاً معه ، ومنطبقاً عليه في كل حالاته وتغيراته . فالتربية يجب أن تسير وتتمشى مع تغيرات ميوله وحاجاته . ولهذا يجب أن يعمل السجل بحيث يمكن فهم الطفل في أى مرحلة في ضوء تاريخه السابق ، وإذا لم يراع هذا في السجل فإن مجهودات المدرسين المختلفين ، والمدارس المختلفة ونتائجها غير مناسب لحالات الطفل ، والسجلات ليست غاية في نفسها ، فن العبث أن تبذل الجهود في جمعها وتنسيقها ما لم يكن أساساً صالحة للتوجيه التربوى وما لم تكن خير مساعد للمدرسين على أن يدرسوا تلاميذهم بتفهم حالاتهم حتى يتمكنوا من أن يوجهوهم التوجيه التربوى الحقيقى .

فوائد سجل التلميذ

لقد سبق أن قلنا إن الغرض الأساسى من سجل التلميذ ليس إلا متابعة دراسة الطفل كفرد ، وتهيئة عمل المدرسة بحيث يتناسب مع حاجات هذا الفرد ولقد وجد أن عمل واستغلال هذه السجلات له عظيم الأثر في عمل المدرسة بوجه عام .

وبالإضافة إلى ما لهذه السجلات من أثر في توجيه عمل المدرسة فإن لها أثراً عظيماً في نواح مختلفة ؛ يذكر منها ما يأتى :

أولاً : إنها وسيلة من وسائل زيادة الصلة بين المنزل والمدرسة .

ثانياً : إن قيمتها عظيمة في نقل التلميذ من فرقة إلى أخرى أو من مدرسة إلى غيرها .

ثالثاً : كما تستخدم أحياناً عوضاً عن الامتحانات الحالية .

رابعاً : هى عظمة القيمة في تشخيص وعلاج بعض النواحي الشذوذ لدى الطفل .

خامساً : عظمة القيمة في التوجيه المهنى .

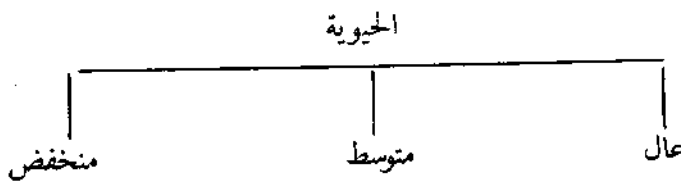
ب - عمل السجل

١ - مقياس التقدير

قبل البدء في شرح الأشياء التفصيلية اللازمة لعمل شكل السجل ومحتوياته ، نرى من الضروري أن نبدأ بشرح مقياس التقدير الذي تقدر به صفات الفرد وأعماله والذي رُئى من الواجب استعماله في الأجزاء المختلفة للسجل .

كثير من صفات الفرد كالحبوية والقدرة الاجتماعية لا يمكن أن تقاس قياساً دقيقاً .

وهذه الصفات ينظر إليها من حيث إنها وسائل مناسبة لتقسيم أحوال السلوك المميزة للفرد : وإن كانت تشترك في عنصر واحد ، بحيث نستطيع أن ندرجها تحت عنوان واحد . والتقسيم على هذا الوجه لا يتضمن أن هناك نظرية سيكولوجية معينة : وصفة أو مجموعة صفات مثل الحبوية تتغير من فرد إلى آخر ؛ فقد تكون موجودة بقدر كبير عند فرد بينما تكون ضعيفة عند آخر ، أو تكاد لا توجد بالمرة ، فيمكن إذاً أن يعمل مقياس لصفة الحبوية هكذا :



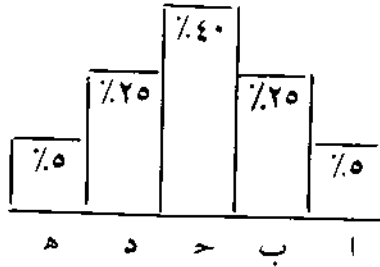
وهذا المقياس تقريبي محض ، وقابل للتدرج الذي لا حد له ، ولكن في الأغراض المدرسية العملية لا تحتاج للفرقة بين أكثر من خمس درجات مثلاً ، وهذه الخمس درجات للحبوية يمكن أن يرمز إليها بالحروف الآتية : ا ب ج د ه ؛ وعلى ذلك يكون المقياس كما يأتي :

التربية وطرق التدريس - ثان

الحيوية



ويمكن اعتبار هذا مقياساً تقريبياً للصفة التي نتعرض لقياسها . وقد وجد أنه إذا قيس الناس على وجه العموم بمقياس كهذا في صفات : كالدكاء أو الطول أو أى صفة أخرى ، وجد أن عدد المتوسطين فيها هو الغالب ، ووجد أن عدد الممتازين والمعوذين فيها قليل نادر ، وإذن يكون توزيع هذه الصفات عامة كالدكاء أو الطول كالاتي على وجه التقريب :



وفي مثل هذا الجدول أو الرسم يمكن الإشارة إلى اختلاف الصفة في الأفراد بالحروف : أ ب ج د هـ كما في الشكل .

فالفرد الذي درجته (أ) تظهر فيه هذه الصفة بدرجة لا يشاركه فيها سوى 5% من الناس الذين في سنه ، ومن جنسه . والفرد الذي يعطى (ب) لا يشاركه في هذه الصفة إلا 25% . وهكذا في بقية الجدول . والأفراد يوزعون بهذه النسبة في مجموعة غير مختارة . وفي المجموعات الصغيرة يتناسب هذا التوزيع مع الرسم البياني السابق تناسباً تقريبياً . وفي المجموعة المختارة من طبقة (أ) مثلاً يكون التوزيع مختلفاً عما هو هذا الشكل . ففي فصل متقدم مثلاً نجد أن الأطفال تكون درجاتهم أ ب ج لا أقل من ذلك . وفي فصل متأخر لا يتجاوزون أكثر من درجة د^(١) .

والتوزيع الذى وضع فى الرسم السابق لا يظهر إلا فى مجموعة كبيرة من التلاميذ ليست مختارة ومن واحدة فى أى صفة أو مقدرة . وهذه النسب المثوية التى أعطيت فى الرسم ليست سوى إرشاد تقريبي للتقدير ، ولا يجب أن تتأثر الأحكام من غير مناسبة بالرغبة فى التمشى تمشياً أعمى مع هذا التوزيع . هذا هو المقياس التقديرى الذى يقترح أن يستعمله المدرسون فى تقديراتهم .

٢ - التفاصيل الأولية

يجب أن يكون لكل تلميذ رقم خاص يستعمل بدلا من اسمه ، أو أى رمز يرمز إلى اسمه للأسرار ، وإبقاء على شعور التلميذ وحالته ، إذ ربما بل غالباً ما يكون لكل تلميذ حالات خاصة سرية ، لا يصح أن يعرفها إلا المدرسون ، فإذا اضطر الأمر إلى أن يطلع عليه أحد الذين لا يخول لهم الاطلاع على حالات التلميذ ، فإنه لا يعرف مدلول هذا الرقم .

ومن المهم أن تحفظ كل السجلات بطريقة مناسبة ، وتحفظ بسرية تامة بحيث لا يعلم ما بها سوى المدرس وحده لأنها تحوى أخباراً وأفكاراً كثيرة غير مرغوب فيها . وعلى هذا يكون المدرس هو المسئول عن حفظ هذه الأسرار الخاصة بالتلاميذ .

كذلك يجب أن تعطى الأخبار الكاملة الصحيحة عن الفصل كأن يوضح توضيحاً تاماً ، ويذكر كل شئ عنه ، ويسجل رقم سجل الطالب بالمدرسة وأول حرف من اسمه ومن اسم أبيه . . إلخ .

كذلك يسجل عمر التلميذ عند الدخول فى بدء السنة الدراسية ، ويوضح هذا بالسنين والأشهر ، فيكتب عمر الطفل بهذا الشكل $10 \frac{9}{12}$ ، $11 \frac{6}{12}$. . .

٣ - حالة الطفل المنزلية

(أ) يذكر فى هذا وضع التلميذ فى العائلة ، ويوضح على شكل كسر هكذا ، فمثلاً أكبر الأطفال الثلاثة يسجل مثل $\frac{1}{3}$ ، والطفل الوحيد يسجل هكذا $\frac{1}{1}$.
(ب) مهنة الآباء . وإذا كانت الأم تقوم بعمل فى المنزل فيجب إثباته

فى السجل ، وكذلك إثبات موت أحد الآباء أو كليهما ، أو انفصالهما فى الحياة الزوجية . ويرمز للأب بالحرف ب ولأم بالحرف م .
كذلك يجب إثبات ما إذا كان الطفل معتمداً على أى شخص آخر غير الأبوين ؛ فكل هذه الحقائق مهمة ويجب ملاحظتها .

(ح) حالة المنزل المادية : وهذه تشير إلى المصادر الاقتصادية للمنزل ، وإلى التدبير الحسن أو السيئ له ، ووجوه الإنفاق ، وتصريف الثروة المنزلية ؛ فحالة الطفل تتغير تغيراً ظاهراً ملموساً بتغير هذه الأشياء ؛ من : تغذية ، وملابس ، ولعب وغير ذلك من حاجات الأطفال .

كذلك هناك أخبار خاصة لها تأثير مهم على نمو الطفل وتكوينه مثل نوع النظام السائد فى المنزل ، ونوع المثل التى يحددها الآباء وأفراد العائلة الآخرون للطفل ، والتزعة الأخلاقية السائدة فى المنزل ؛ كل هذا له تأثير على الطفل ، ويجب تسجيله .

كذلك يجب تسجيل عمل الطفل فى المنزل قبل أو بعد ساعات المدرسة ، ومساعدته فى الواجبات المنزلية المناسبة . ومن المهم كذلك ملاحظة أى غرابة فى حالة أو معاملة أفراد العائلة الآخرين للطفل ، أو فى معاملة الطفل لهؤلاء الأفراد . وكذلك أى صورة غير عادية فى حالة التلاميذ الآخرين نحو الطفل . والحوادث التى تحدث فى تاريخ الطفل أو تاريخ عائلته والتى لها تأثير واضح على تكوينه ؛ كل ذلك يلاحظ عند عمل السجل .

٤ - الحالة الصحية للطفل

(١) ملاحظات المدرس : طبيعة عمل المدرس فى المدرسة تجعل لديه فرصاً أكثر من الطبيب لملاحظة بعض الدلائل والبراهين التى تبين حالة الطفل ؛ إذ أن ذلك يكون ظاهراً بوضوح فى قدرته على المجهود والنشاط العقلى والجسمى فى العمل واللعب . وعلى ذلك تكون ملاحظات المدرس على حالة التلميذ الجسمية أكثر أهمية لطبيب المدرسة . وكذلك من بين الأشياء التى يلاحظها

المدرس ويدونها : قوام الطفل وشجاعته ، ونظافته الشخصية ، وعنايته بنفسه . وبعض الصعوبات التي يشاهدها المدرس ويلاحظها في نظر التلميذ أو سمعه ، أو النوم غير الكافي ، أو التغذية غير الكافية من الدلائل التي تظهر أمام المدرس . وكل الدلائل التي تشير بقدر الإمكان إلى بعض الحالات غير الصحية ؛ كالإحساس والشعور بالتعب والأمراض التي تنسب من الغياب المستديم أو المتقطع ، والتي تضر بنمو الطفل ؛ كل هذه يجب ملاحظتها وتسجيلها في السجل في الجزء الخاص بها .

(ب) تقرير طبيب المدرسة ونصائحه :

وهذا يجب تدوينه وتسجيله في وقت الفحص الطبي ، ويجب على المدرس أن يكون حاضراً في وقت الفحص الطبي ؛ ليمد الطبيب ببعض المعلومات التي لاحظها ، وليأخذ منه بعض المعلومات والتعاليم والنصائح . وفي وقت الفحص الطبي يجب أن يكون المدرس قادراً على تدوين آراء الطبيب وتعاليمه . والمدرس يمكنه تحليل كل حالة مع الطبيب في فحص الفصل أو المدرسة بحكم خبرته واحتكاكه بالتلاميذ ، وملاحظته الدائمة لهم .

٥ - تقدير ذكاء الطفل

(١) تقدير المدرس : يجب أن يعتمد تقدير المدرس لذكاء التلميذ العام على اعتبار دقيق مضبوط ، وأن يشمل هذا التقدير نتائج اختبارات الذكاء ، والتحصيل المدرسي والسلوك العام ، والكفاءة والصلاحية . وعند ما يختلف تقدير المدرس عن نتائج اختبارات الذكاء يجب أن تعمل مذكرة بالأسباب التي تبرهن على أن نتائج الاختبارات ضعيفة أو واهنة أو غير حقيقية .

(ب) اختبارات الذكاء : من المقترح في هذا أن كل طفل يعطى اختبارات ذكاء في أوقات مناسبة من مرحلته المدرسية . ونتيجة اختبارات الذكاء جزء مهم ، ومفيد جداً في تكوين تقدير مناسب لقدرة التلميذ العقلية .

وبالطبع لا يمكن أن نجزم بأن الذكاء الناتج ينبثنا بكل ما نحتاج إلى معرفته بخصوص عقل طفل ما . وعلى هذا فنحن في حاجة إلى معرفة بعض المعلومات الخاصة بقدراته ، ومعارفه العقلية ، ورغباته ، ومزاجه ، وخلقه ، والذكاء الناتج يكون فقط جديراً بإعطاء تقدير أكثر دقة وضبطاً لقدرة التلميذ العقلية . وهناك أيضاً يوجد عدد من القدرات ؛ كالملاحظة ، والتذكر ، والتخيل . إلخ . ، فيلزم ملاحظة أى قوة خاصة أو ضعف في معاملة الناس أو الأشياء أو اللغة ، وربما يكون هناك عدم اعتدال في إظهار قدرة خاصة ؛ مثل الملاحظة أو التذكر ؛ إذ يكون الاعتماد في ذلك على نوع المادة ، التى تتمرن عليها القدرة ، فيجب تدوين ذلك أيضاً .

٦ - المزاج

إن وصف مزاج التلميذ من أصعب الأشياء في عمل السجل . وعلم النفس هنا يمدنا بمقدار محدود من المعلومات الخاصة بالمزاج ؛ ما هو طبعى فطرى فيه ، وما هو مكتسب ، والصور الأساسية للمزاج متعددة .

وتوجد صفتان للمزاج هما : الحيوية ، والثبات ؛ وهاتان الصفتان تشير كل منهما إلى مجموعة من الصفات لها أهمية أساسية :

(أ) الحيوية : والصفات التى تدخل تحت هذه الصفة مثل :

النشاط ، التوجيه ، الدافع ، العنف ، الغرضية ، الحماس ، القابلية ، التحمل . وفى تقدير حيوية التلميذ يلزم للمدرس أن يصل إلى مقدار كبير من كل هذه الصفات المترابطة . ويجب أن يقدر سلوك الطفل في مجال واسع ، وفى حالات متنوعة مختلفة .

(ب) الثبات : ومجموعة صفات المزاج التى تؤدى إلى تقدير الثبات هى :

الاتزان ، الثبات ، الضبط الانفعالى ، عدم التقاب .

وغير هذا : هناك الوجدانات الوصفية ، والعواطف ؛ فيجب أن يوصف الجانب الوجدانى لشخصية الطفل ، والدرجة التى يدخل بها الوجدان إلى

السلوك ، والأنواع الرئيسية للشعور ، ووصف هذا الجانب من شخصية التلميذ يجب أن يكون مطابقاً تمام المطابقة للطفل فيوصف الطفل بأنه هاش ، عبوس ، سريع التأثير ، خنوع ، سطحي ، عملي ، متفائل ، متشائم ، متحفظ ، ناقد ، حساس ، قانع ، مثالي ، مريح ، . . إلخ .

٧ - الرغبات والميول

الميول الممكنة في الأطفال فائقة الحد لا حصر لها ، ومن الصعب ترتيبها في مجموعات قليلة أصلية مناسبة لأغراض السجل . وعلى العموم فهناك اتفاق على ثلاث مجموعات :

(أ) الميول الاجتماعية .

(ب) الميول الإيجابية والعملية .

(ح) الميول الفنية والفكرية .

ومن الواضح أن كلا من هذه المجموعات يتضمن عدداً كبيراً من الميول الممكنة .

ويجب أن توجد مميزات لهذه الميول توافق الفروق ؛ فإنها تكون مفيدة عند محاولة تقدير كل تلميذ في كل من هذه المجموعات الثلاث . كما أن التقدير يجب أن يوضح الدرجة المتوسطة لرغبة الطفل في أنواع النشاط في المجموعة . ويحتاج المدرسون في عمل التقديرات إلى مقدار كبير من المعرفة لمدى اتساع رغبات الطفل داخل المجموعة ، وحدة هذه الرغبات أو ضعفها .

(أ) الميول الاجتماعية :

هذه المجموعة تتضمن الولوج والميل إلى مصاحبة الآخرين في العمل واللعب ؛ كفريق الكرة ، والجمعيات المدرسية ، والنوادي ؛ وعلى العموم فإنها تتضمن أى رغبة اجتماعية وكل ميل نحو الناس .

(ب) الميول العملية والإيجابية :

وهذه تتضمن كل رغبة في استعمال الأشياء بما في ذلك الجسم نفسه . وفي عمل التقدير يجب أن يصل المدرس إلى مدى الرغبة في عمل أشياء ، والرغبة في تمرينات المهارات الجسمية . والرغبة في مثل أنواع النشاط هذه يجب أن تتضمن : الأشغال اليدوية ، والمهن المتزلية ، والمشي ، والألعاب ، والسباحة ، وركوب الدراجات ، وفلاحة البساتين . . . وهكذا .

(ح) الميول الفنية والفكرية :

هذه المجموعة تتضمن كل ميل في أنواع النشاط التي تتوقف مبدئياً على تمرين وتدريب الوظائف الفكرية والجمالية للعقل . والتقدير يجب أن يبين متوسط درجة الشخص في مثل هذه الميول ؛ كالرغبة في القراءة ، والدراسة ، والمناقشة ، والفن ، والموسيقى ، والقصة . . . إلخ .

٨ - تحصيل الطفل المدرسي

إن سجل التحصيل المدرسي في دراسات المدرسة عادي جداً ، ومألوف للمدرسين ، ولكن يجب ألا تقتصر قائمة الموضوعات على تلك التي يمكن أن يوضع فيها الامتحان ، بل يجب أن تشمل أنواع النشاط المختلفة : كالموسيقى ، والعمل اليدوي ، والمهن المتزلية ، وفلاحة البساتين ، والتدريب البدني ، والألعاب المختلفة .

والتقدير يجب أن يبين مقدار التحصيل لا كما يظهر من نتيجة الامتحان فقط ، بل يجب أن يضم إلى ذلك عمل السنة من أولها إلى آخرها . ويجب أن يستعمل مع هذا جدول الملاحظات ليكمل الصورة المطلوبة ، وليوضح التقدم الحسن أو الرديء في كفاية الطفل وصلاحيته للموضوع مع توضيح الأسباب إذا أمكن .

وكذلك لتوضيح أي خطوة من خطوات الموضوع يكون التلميذ ضعيفاً

أو قوياً فيها . مثال ذلك : المطالعة الصامتة أو الجهرية ، العمليات والمشاكل الحسابية ، المقالات ، الرسم ، والنماذج الحشبية . . . وهكذا .
والتحليلات الوصفية لهذا النوع تكون قيمة ومفيدة في حالات التقاعس والتأخر .

العادات الشخصية :

تحت هذا العنوان في السجل تعمل ملاحظات رئيسية على : النظافة ، المظهر العام للطفل ، المواظبة ، العادات الطيبة : والدقة في الحفظ وما يشبه ذلك .
وتكوين عادات الكلام الجيدة أساس عظيم مهم للمدرسة ، فتعمل مذكرة تبين مقدار تقدم التلميذ في هذا الاتجاه ، وليس المهم في هذا هو النطق مثلاً ، بل يجب الاهتمام بملاحظة جمال الكلام والأسلوب ؛ فإن هذا هو المطلوب .

٩ - أهداف تربوية عامة

قد يلوح لأول وهلة أنه من المناسب أن ندرج اتجاهات الأطفال العقلية وموقفهم من الناس أو الأشياء والصفات الخلقية وما شابه ذلك في المقدرات التربوية ، ولكن بعد البحث يمكن القول بأن المدرسة لها علاقة كبيرة بنمو نواح معينة في الأطفال ، وصفات خلقية لديهم ؛ ويهمها ذلك كما يهمها المقدرات المدرسية . والحق أن في شخصية الطفل وأخلاقه عناصر مهمة موروثية . وعناصر تكوين الشخصية تتلخص في أمرين :

(١) ميول فطرية معينة ؛ مثل المحافظة على النفس ، والميل الاجتماعي ، واللعب ، وحب الاستطلاع ، والخوف .

(ب) بعض عوامل النمو ؛ كالإعلاء ، وتعقل الأشياء وتفهمها .

وبهذا يمكن أن ترتبط هذه الميول بعضها ببعض ، وترتبط بالبيئة والخبرة .
وكنتيجة لتطور الخبرة تتشابك هذه الميول ، وتكون شبكة معقدة هي الأساس الذي تبنى عليه الأخلاق والشخصية .

وعلى ذلك فالأخلاق والشخصية فيهما من العناصر ما هو مكتسب ، وما هو فطري . والعالم النفسى يجب أن يحلل نماذج الشخصية المركبة ، والأخلاق إلى عدد من الصفات الواضحة ؛ المصطلح على تسميتها عادة باسم : « الخواص والمميزات » ؛ ويكون من المفيد أن نحلل الشخصية والخلق إلى خواص ومميزات ، ونحاول أن نميز الأجزاء الفطرية والمكتسبة فيها ، وموقف المدرس ومقامه يظهر أكثر أهمية فى :

(أ) أنه يفحص تكوين الشخصية ، ويشاهدها فى الموضوعات العملية الواسعة ؛ وذلك أحسن وأجدى من التحليل النفساني .

(ب) أنه يعطى أهمية خاصة لخطوات الخلق التى يتدرب عليها الأطفال ، وفى الوقت نفسه يميز الدوافع الداخلية للعوامل الفطرية والمكتسبة .

وعلى هذا الاعتبار يكون تكوين صفات الخلق والشخصية من بين أغراض المدرسة . ومن الأشياء المهمة للمدرس أن يقدر إلى أى حد تنجح المدرسة فى تكوين صفات الشخص الذى يربى تربية خلقية اجتماعية .

ويمكن أن تلاحظ الخواص البارزة لشخصية طفل معين . ومن بين الخواص البارزة التى يمكن ملاحظتها فى شخصية الأطفال ما يأتى :
الزعامة ، والابتكار ، والاستقلال الفكرى .

ومن بين الصعوبات والمشاكل الخاصة بالشخصية التى تحتاج إلى تدوين الصفات الآتية :

الحمول ، والجبن ، والحجل ، والخنوع ، والقلق ، والإفراط فى أحلام اليقظة ، والتضايق ، والاضطراب ، والتغير الانفعالى السريع ، والبكاء فجأة ، والغيرة ، والميل إلى الاعتداء والتحرش . . . إلخ .

قيمة التعاون بين المدرسين وأهميته فى عمل السجل :

تكون قيمة السجل عظيمة وفائدته أعمّ لو تعاون كثير من المدرسين فى عمله . ومن الضروري أن يكون لدى كل مدرس الفرص التى تمكنه من معرفة نواحي شخصية أى طفل ، تلك النواحي التى تكون مخفية عن الآخرين

وغير ظاهرة لهم . ومن المستحسن أن يناقش مدرس الفصل كل حالة مع واحد أو أكثر من زملائه قبل إتمام عمل السجل .

كذلك اجتماع هيئة المدرسة جميعها مفيد وعظيم الأهمية في ضمان الوصول إلى الغاية المرجوة من السجل ، واستقامة أجزائه ، وإقامة محتوياته . وكذلك إثارة الرغبة والشوق لتعرف حاجات الأطفال كل على حدة ، والبحث في نمو كل وتكوينه ، والعمل على إصلاح عيوبه وحل مشاكله . . إلخ . وقد وجد من المستحسن أن يدون كل مدرس ملاحظاته الخاصة على التلميذ أو التلاميذ الذين يتصل بهم ، وبينهم وبينه رابطة قوية . ويمكن كذلك في اجتماع هيئة المدرسة أن تناقش وتحلل حالة كل تلميذ ، وأن تقارن خبرة المدرسين ، ويمكن الوصول أخيراً إلى الموافقة على السجل وتؤخذ المقاييس الفردية .

ح - تفسير السجل

عندما يكمل السجل سيكون لدى المدرس معلومات كثيرة واسعة ، مرتبة في شكل منتظم وسيكون لهذه المعلومات فائدة عظيمة لتكوين التلميذ وتقديمه التربوي . وتسجيل الملاحظات ليس غاية في نفسه ، بل هو وسيلة فقط لعمل تربوي أكثر تأثيراً وإنتاجاً . وهناك خطوات ثلاث في عمل السجل هي على الترتيب : الملاحظة ، وجمع المعلومات ، ثم تفسير هذه المعلومات ، ثم العمل .

ولهذا كان من الضروري بعد أن تجمع المعلومات الخاصة بكل طفل ، وتسجل في السجل ، أن تفسر هذه المعلومات تفسيراً تؤسس على ضوءه الطرق العملية المناسبة للطفل ، وما يمكن أن يعمل له .

وربما كانت خطوة التفسير أكثر صعوبة ، وأعظم أهمية ؛ فشخصية الطفل وحده من الرغبات ، والدوافع ، والقوى والميول والاتجاهات ؛ مكونة

تكويناً مترابطاً ، والمدرس يجب أن يعطى أهمية لحياة الطفل كلها . فكل جزء من أخبار السجل يجب أن يفسر ويوضح غير مستقل على حدة ، بل مع ما يتصل به في السجل ككل . وعلى هذا الأساس كان لا بد من أن تكون جميع أجزاء السجل مترابطة . وليس هذا كافياً في تفسير السجل فقط ، بل يجب أن يفسر سجل السنة نفسه في ضوء سجلات السنوات المتقدمة . وإذا أردنا أن تكون الدراسة التفسيرية للسجل مهمة بحيث تعطينا فكرة صحيحة لحياة الطفل يجب أن تكون تاريخية شاملة محيطية بكل شيء يتصل به ويؤثر في مجرى حياته ؛ إذ أنه من العسير أن نفهم الطفل في حالات كثيرة من وقته الحاضر إذا لم نستعن بأخباره التفصيلية لحوادثه الماضية .

حاجات الطفل

من تفسير السجل يحاول المدرس أن يكتشف الحاجات الأساسية للطفل ، وأن يكتشف أنواع الضعف في قدراته ، ورغباته ، وخلقه وشخصيته التي تحتاج إلى علاج .

وعند تفسير السجل يجذب انتباه المدرس مبدئياً عادة إلى التقديرات العالية والمنخفضة . والتقديرات المنخفضة تحت أى عنوان من السجل سوف تقود المدرس إلى معرفة أسباب ذلك ، وعمل كل ما يمكن من المساعدة الخاصة ، والعلاج الممكن لهذه الحالة .

نصيب المدرس في تشخيص المشاكل

يختلف عمل المدرس بالنسبة لمشاكل النمو عن عمل المتخصصين في الطب أو علم النفس ؛ فهو ليس مختصاً في استعمال الطرق الفنية للتشخيص أو العلاج النفساني . ومع أنه لا يحاول أن يحلل المشكلة إلى عمق أصولها ، إلا أنه يحاول أن يصل إلى فهم الأسباب النفسية وغيرها ، التي تكون من الصحة بحيث تعطى اتجاهاتاً صالحاً للمقاييس العلاجية . وحينما تكون أسباب المشكلة غير

مباشرة فمن المعقول أن يلجأ الباحث إلى النظر وراء الناحية الخاصة لحياة الطفل التي يشاهد فيها نواحي الضعف أو التأخر ؛ مثال ذلك : الفشل في النجاح في موضوع مدرسي ، فربما يعزى في حالات خاصة إلى تأثير انفعالي مرتبط بمشاكل في حياة المنزل ، ويعزى في بعض الأحيان إلى الضعف في قدرة الطفل وقابليته للتعلم ، أو عدم ملاءمة الطرق المتبعة في تعليمه .

وهناك صعوبة في تحديد أسباب الفشل أو أى عيب آخر ؛ وذلك في حالة وجود تأثيرات مختلفة لشيء واحد ، فتسبب أسباباً مختلفة ، فيكون من الصعب تقرير أى الأسباب أو العوامل تسببت في وجود الفشل ، وأى تأثير هو المهم . وعلى العموم فليس التشخيص مفيداً في حد ذاته ما لم يتبع بالعلاج النافع ، والمدرس بحكم خبرته الواسعة ، واتصاله بالأطفال ، واحتكاكه بهم ، وبحكم طول الوقت الذى يقضيه بينهم ، أقدر على التشخيص ، وتفسير المشاكل المختلفة التى تعرض للأطفال ، وإعطاء العلاج اللازم المناسب لكل حالة .

متى ، وأين نلاحظ الطفل ؟

في محاولة تسجيل نمو طفل وتكوينه يكون من الخطأ أن تقتصر في ملاحظتنا على سلوكه في أغلب أوقاته الرسمية من حياته المدرسية فقط ؛ كعمله وسلوكه مع المدرس ، ومع زملائه الأطفال في حجرة الدراسة ؛ بل يجب أن يلاحظ سلوكه من لحظة دخوله في أول افتتاح المدرسة ، كلامه ، وحركاته في الملعب ، والفناء ، والطرق المدرسية ، وحياته خارج المدرسة ، كما تظهر لنا في محادثته ، وأسلته ، وفي صداقته ، وفي أى صفة أخرى يحضرها معه إلى المدرسة .

وفوق كل ذلك نلاحظ مع الصغار : رغباتهم ، وميولهم ، وقدراتهم ، وإحساساتهم ، وعلاقاتهم الاجتماعية ، سواء في أوقات فترات النشاط الحر في الفصل ، أو في وقت اللعب في ملعب المدرسة ، أو في الشارع ، أو حديقة المدرسة أو المنزل .

فالطفل الصغير أثناء لعبه سوف تظهر نفسه على حقيقتها أكثر مما تظهر أثناء عمله أو في أنواع النشاط التي تنظم بواسطتنا ، وبحكم فيها الطفل بسلطتنا ؛ فاللعب بالنسبة له طريقة إلى الحياة ، وطريقة لفهمها ؛ ففي لعبه يربنا مخاوفه ورغباته ، وما يشغل به عقله ، وما يريد أن يسأله من الأسئلة عن الحياة ، وما يحاول أن يعمل أو يفهمه .

والطفل بهذه الطريقة التي يسلكها يزودنا بالمعلومات التي تمكننا من فهم ردوده ، وإجاباته ، وبذلك يمكن على ضوء هذا أن نعلمه ونوجه نشاطه .

التذبذب في السلوك والاتجاه

نجد في الطفل درجة عظيمة من التذبذب في السلوك والاتجاه بالنسبة للناس والأشياء المختلفة ؛ ففي لحظة ما يكون متفقاً مع الناس في سلوكهم واتجاههم ، وفي لحظة أخرى تكون عنده قابلية عظيمة للتغير بناء على خبرته العملية . ومن الملاحظ أن الطفل عند دخول المدرسة يكون غير أليف ، ولكن بمساعدة الحياة المدرسية الطيبة ربما يصير اجتماعياً والأطفال الصغار غالباً ما يسلكون سلوكاً يختلف تماماً باختلاف الأشخاص ، والأحوال ، والبيئات وسلوك الطفل العام في الفصل بل ربما غالباً ما يتغير إلى أحسن بدرجة عظيمة ، وذلك عندما نكشف ميوله الخاصة ونستعملها في تعليمه .

الضرورة إلى دراسة السجل ككل

إن التناقض بين مقدرات الطفل وذكاؤه يظهر بوضوح بواسطة الاختبارات وبتأثير المدرس في سلوكه العام . ويمكن فهم هذا عندما نعرف أن السبب قد يرجع إلى أن الطفل ضعيف التغذية أو أن أمه ترميه بالغباوة ، وتردد هذا على سمعه ، أو أنه غير ميال إلى أن يرى نفسه أحسن من أخيه الذي يكبره بسنة ، أو الذي هو أقل منه ذكاء ، أو أن سبب ذلك هو عدم الراحة ، وكل هذا مضر بالطفل .

وتفسير هذا كله يمكننا من علاج الطفل العلاج المناسب عندما تظهر الاختبارات أن ذكائه أقل كثيراً من العمل المنتظر منه في فصل معظمه أغبياء . ويجب أن تدرس أجزاء السجل المختلفة ، وتفحص بتؤدة وهذوء ، كأجزاء مترابطة تكون وحدة لاتتجزأ ، وتدرس صلة كل جزء بالآخر ، والتأثير المشترك بينهما .

وعند تفسير أى ضعف أو شذوذ في حالة من حالات الطفل لا يمكن الاكتفاء بأنه ضعيف فقط ؛ بل يكون ذلك مقدمة لبحث المشكلة والتساؤل . مثال ذلك : القول بأن الطفل غير اجتماعى يثير الأسئلة الآتية :
ما السبب الأساسى لعدم قابليته للاجتماع أو عدم ثقته بنفسه ؟
وما السبب الذى يحتمل أن يكون ؟ وما الذى يمكن أن نفعله لنساعد الطفل على التغلب على هذه المشاكل والصعوبات ؟
وعلى العموم يجب ألا نفكر فى الصفات أو القدرات أكثر من تفكيرنا فى الطفل ؛ وهذا يستدعى أن ننظر فى سجله ككل ، وأن ندرسه دراسة مترابطة لئلا نرى العلاقات الداخلية بين كل أجزائه ، وعلى الأقل ندرسه بوضوح وتأمل ، كما ندرس أجزائه المنفصلة كذلك جزءاً جزءاً

د - قيمة السجل وأثره فى التربية

أولاً - أثره فى التوجيه الفردى :

إن الوظيفة الرئيسية لسجل التلميذ هو أن يساعد على دراسة الطفل كفرد بالملاحظة والملاحظة ؛ حتى يمكن أن نكيف عمل المدرسة ، ونجعله أكثر ملاءمة لحاجاته الشخصية .

وهذه الحاجة للتوجيه الفردى مهمة جداً وعلى الخصوص مع الأطفال دون الثامنة . فمن المشاهد أن الأطفال الصغار يكونون أكثر اضطراباً وقلقاً فى الشعور ، وأكثر انفعالا وإحساساً ، وأكثر ميلاً إلى اتجاهات الآباء والمدرسين . وتخيلهم تكون حية جداً وقوية ، وهم لا يمكنهم أن يميزوا بين

الخيال والحقيقة ، وخبرتهم لا تزال محدودة ، ومعلوماتهم ضعيفة ؛ بحيث يكون الطفل سريع الخطأ في فهم الأغراض والغايات البعيدة . وقد تضرر المخاوف تعلمهم ، بل كل شيء في حياتهم بعد ذلك . فحينما يكون الطفل خائفاً أو مرتاباً ، غاضباً أو قلقاً ، مقدماً أو عنيداً شكساً ، غافلاً أو مرتبكاً ؛ فإننا لا يمكننا أن نعرف كيف نساعد ما لم نفكر معه ، ونشعر معه ونفهمه ، وحينما نفهمه فهماً حقيقياً من وجهة نظره هو ، يمكننا حينئذ أن نصصح أخطائه ، ونهدي ثوراته ؛ وهذه تحتاج إلى الدراسة الفردية .

ثانياً - أثره في دراسة حاجات الأطفال العامة :

إن سجلات التلاميذ ليست مساعدة للدراسة الفردية ومفيدة للتربية فقط ، ولكنها أيضاً تمكن المدرس من أن يعرف ويقدر قيمة حاجات الأطفال العامة بوضوح أكثر لأي عمر خاص . وحينما تفحص سجلات السنة وتدرس واحداً بعد الآخر تبدأ في الظهور والوضوح وترسم صورة عامة لنمو الطفل وتكوينه في هذه المرحلة أو تلك . هذه تكون أكثر وضوحاً وحياة ، وأعظم تفصيلاً مما يمكن أن يقرأ عن الطفل في أي كتاب .

ومن السجل يمكن معرفة : الأمثلة الفردية بصور عملية ، وما بينها من فروق وبهذا يكون من المستطاع أن نشيع حاجات الأطفال الشواذ بجانب إشباع حاجات المجموعة ككل .

ثالثاً - التعاون بين المدرسة والمنزل :

فلعمل السجل . وإتمامه ، وجعله شاملاً لكل حالات التلميذ ؛ لا بد من معرفة أحوال التلميذ المنزلية بالبحث والاستقصاء ، وتوجيه الأسئلة عن الحوادث ، والأحوال المنزلية لكل طفل . ولا يستلزم هذا أن يوثق المدرس الصلة المباشرة بينه وبين الآباء فقط ، بل سيجعله يتطلب الاستعانة بضابط المدرسة ، ومراكز رعاية الأطفال ، ومدارس الحضانة لإمداده وتزويده بالمعلومات الخاصة .

ويعطى السجل الآباء معلومات خاصة عن التقدم التربوي للطفل .
وفي العادة لا يراه الآباء منذ احتوائه على أخبار سرية عن الأطفال ترغب
المدرسة في معالجتها معالجة سرية من غير أن يعلم الآباء بذلك ، وفي هذه
الحالة ترسل بطاقة فيها نتيجة عمل الطفل إلى الوالد ، ليطلع عليها محتوية على
بعض المعلومات الأخرى غير السرية التي تبين تقدمه أو تأخره في بعض
النواحي .

يجب أن يكون التقرير الذي يرسل للآباء وسيلة لجعلهم يتعاونون مع
المدرسة في تنفيذ الأشياء التي هي خارجة عن نطاق المدرسة نفسها ؛ مثل
أوقات الراحة ، وتنفيذ الواجبات والعلاقات العاطفية للعائلة ، وتتبع أنواع
النشاط التي تعمل في أوقات الفراغ .

رابعاً - قيمته في الوقوف على أحوال المنزل :

من المهم مع الطفل الصغير في مدارس رياض الأطفال خاصة أن ندرس
أحواله المنزلية بأكثر ما يمكن من الدقة ؛ فالأطفال الصغار يحضرون معهم
إلى المدرسة مشاكل المنزل ، ومتاعبه واضطراباته . والجو الفعلي للمنزل يكون
ذا تأثير عظيم ؛ كالعناية بالجسم ، والتغذية ، والتشاحن بين الآباء بسبب
الفقر ؛ وهذا كله ينتج عنه الكآبة ، والنغم ، والنكد ، والإذلال للطفل ،
وغالباً ما يؤثر فيه تأثيراً بالغاً .

وخوف الآباء ، ومشاكل الطفل مع إخوته الصغار أو الكبار ، وكره
الطفل ، ومشاحنات الصباح ، وعدم التشجيع على اللعب . . إلخ ؛ كل هذه
الأشياء تؤثر في اتجاه الطفل وميله إلى الحياة المدرسية . وحينما نعلم شيئاً بخصوص
أحوال الطفل المنزلية ، فإنه يمكننا أن نفسر سلوكه تجاه مدرسته ، وزملائه .

وأكثر من ذلك ؛ فإن السجل يستعمل كأساس للنصيحة الطبية التي
تسدى للآباء ؛ ليستخدموها خلال هذه السنين المبكرة الأكثر حيوية بالنسبة
للطفل .

خامساً - التعاون بين المدرسة والناحية الطبية :

وذلك أن هذا السجل الشامل يأخذ مجموع الطفل ككل ؛ فيعنى بالجسم كما يعنى بالعقل تماماً وتقرير الطبيب عن حالة الطفل الصحية والجسمية على وجه العموم يصل إلى أحسن حالة ، وأضبطها إذا تعاونت المدرسة مع الطبيب في إعطائه معلومات عن أحوال الطفل المنزلية ، وحالته العقلية ، ومعارفه ، وبذلك يمكنه أن يشخص ما يراه من ضعف وعيوب ظاهرة ، ويرجعها إلى أسبابها ، ويصف لها العلاج . ومعلومات المدرس والطبيب يلتقى كل منهما ضوءاً متبادلاً على الآخر .

سادساً - قيمة السجل في نقل الأطفال :

تكون السجلات مفيدة حينما ينقل الطفل أو يحول من مدرسة إلى أخرى ! أو من مدرس إلى آخر . وعلى ذلك فالمعلومات التي تجمع بواسطة المدرس يمكن أن توضع تحت تصرف مدرس آخر ، فلا يحتاج هذا المدرس الآخر إلى أن يبدأ من جديد كل ما فات مرة ثانية . إذ أن السجل استقصاء لمعلومات جوهرية وضرورية ، لها تأثير في حياة الطفل . وعلى هذا يوفر الوقت الكثير فلا يذهب سدى ، وتستمر عملية إتمام السجل ، وكذلك تسير تربية الطفل في طريقها .

والمدرس العاقل يجب ألا يكتفى بالاحتفاظ برأى بعض زملائه فقط ؛ بل يجب عليه أن يباشر اكتشاف طبيعة الطفل من جديد ويفحص أعضائه ، ويتحرى ويستقصى ، ويحاول أن يكون لنفسه حكماً مستقلاً بالنسبة لحاجات الطفل .

وفي انتقال السجل من مدرس إلى آخر ، تخضع الأفكار للمقارنة والمناقشة . وعلى هذا الأساس ؛ فالسجل الشامل للآراء المتعاقبة للمدرسين يكون بالتدريج صورة أكثر وضوحاً وتعادلاً للطفل ، ويعطى أساساً قوياً للتربية الناضجة .

سابعاً - التوجيه المهني :

يجب أن يبقى سجل التلميذ حتى نهاية مرحلته المدرسية ، وبواسطته يكون المدرسون أكثر من يعتمد عليهم في إسداء النصائح للتلاميذ الذين يتركون المدرسة في اختيار المهنة التي تلائم كلا منهم ؛ ولأجل أن يعمل هذا بحكمة يجب أن تكون لدى المدرسين خبرة كافية ، ومعلومات صحيحة قيمة عن أخبار التلاميذ المنزلية ، وأحوالهم الطبيعية ، ومقدراتهم الشخصية .
وبالحصول على هذه المعلومات في السجل يكون وسيلة قيمة في التوجيه المهني .

ثامناً - فوائد أخرى للسجل :

كما أن للسجل أهمية كبرى في تشخيص ، وعلاج العيوب ، والمشاكل كما ذكرت . كذلك له أهمية كبرى للامتحان في نظر التربية الحديثة ؛ فهي تتخذ السجل الشامل لحالات التلميذ وسيلة للحكم عليه ، وانتقاله من سنة إلى أخرى ، والحكم على قدرته .
وهذا السجل في نظر المحدثين من رجال التربية خير ألف مرة من يوم امتحان يعقد للتلاميذ ، وأضمن متى كان ينفذ ويباشر بمهارة فائقة .

المراجع

“The Educational Guidance of the School Child”. By :

- a) T.P. Nunn.
- b) Keith Struckmeyer.
- c) H.R. Hamley.
- d) H.E. Field.
- e) Susan Isaacs.

الفصل الخامس

المنهاج الدراسي

أهمية المنهج

يعتبر موضوع المنهاج من أهم موضوعات التربية بل هو لب التربية وأساسها الذي تركز عليه ، ونظراً لا اختلاف آراء المربين في هذا الموضوع اعتبره البعض ساحة القتال التي يتقابل فيها جماعة المربين . والمنهاج هو النقطة الحيوية التي تصل الطفل بالعالم المحيط به . وهو الوسيلة التي يصل بها الشعب إلى ما يبتغيه من أهداف ، وآمال ، فإذا كان فساد التربية والتعليم أساسه المنهج عجزت عن إصلاحه أمهر طرق التربية ، والتدريس .

والمنهج كما أجمع المربون هو الأساس الذي تركز عليه بناء التربية والتعليم فإن كان قوياً متيناً ثابتاً صلح البناء فأصبح كالطود الراسخ ، وإن كان واهياً انهار البناء أمام أعاصير الزمن . ووضع المناهج من أدق المسائل التربوية ، وأعظمها خطراً ، بلى لعله المشكلة الرئيسية في التربية ، ومن أعقد المشاكل التي يواجهها المربون في العصر الحاضر في جميع أنحاء العالم . ووضع منهاج دراسي معناه تعيين نوع الثقافة وتحديد مداها لأبناء الأمة . وليس هذا بالأمر الهين . زد على ذلك أن في وضع منهاج للدراسة افتراضاً بأن نوعاً معيناً من الثقافة يلائم حياة الأمة حاضرها ومستقبلها ، والواقع أن حياة الأمم ، والشعوب في تطور دائم ، وتغير مستمر ، ولذلك وجب أن يكون منهج الدراسة مرناً يخضع لهذا التغير ، وهذا التبديل ، ومرونة المنهج يجب أن تكون كافية بحيث يستطيع أن يتمشى مع مطالب الحياة .

ويجب ألا نخطئ فنتصور أن تربية النشء تربية حقة عمادها مجرد وضع منهاج ملائم لأبناء الأمة بل إن المدار في تحقيق أهداف التربية الصحيحة يتوقف على الأسلوب الذي يعالج به المدرس منهاج الدراسة ، وليس المهم أن يلحق المدرس تلاميذه المعلومات ، بل المهم أن تعالج هذه المعلومات وهذه الحقائق بشكل يثير في التلاميذ الرغبة في البحث ، والاستزادة من العلم وهذا هو ما تهدف إليه التربية الحديثة .

وقبل أن ندخل في تفاصيل موضوع المنهاج يجب أن نفرق بين أمرين هامين (أ) « خطة الدراسة » وتطلق عل تعيين مواد الدراسة ، وتوزيع الزمن عليها توزيعاً يتفق وقيمتها في تربية الأطفال .
(ب) - « المناهج التفصيلية » وتشتمل تحديد الموضوعات التي تدرس في كل مادة من جهة النوع والحكم .

١ - الطفل والمنهاج

عرض المشكلة وتحليلها

إن العنصرين الأساسيين في عملية التربية هما :

أولاً - كائن حي لم يتم نضوجه بعد .

ثانياً - أهداف ، ومعايير ، وقيم اجتماعية تتمثل في الخبرات الناضجة للكبار .

والعملية التربوية هي التفاعل المناسب بين هذين العنصرين وكلما استطعنا أن نتصور كلا منهما بالنسبة للآخر تصوراً يسهل تفاعلهما تماماً ، كلما ازدادنا اقتراباً من لب هذه العملية . ولكن هنا يأتي إجهاد الفكر ، فلأن ننظر إلى كل منهما مستقلاً عن الآخر ومنفصلاً عنه ونؤكد اهتمامنا بواحد على حساب الثاني ونخلق بينهما التنافر - أيسر وأقل مثونة من أن نكشف عن حقيقة بنضوى الكل تحتها . ومن السهل أن نضع أيدينا على شيء في طبيعة الطفل أو على

شيء في عقل البالغ النامي ، ونصر عليه كحل للمشكلة : وبذلك نلقى عن كواهلنا عبء التعرض لمشكلة التفاعل - وهي مشكلة عملية لها قيمتها - إلى مشكلة نظرية لا أساس لها من الحقيقة ولا حل لها أيضاً .

فبدلاً من أن ننظر إلى الطفل المرئي مستقلاً ننظر إليه كطرف في وحدة متفاعلة الأجزاء فنجد حالتين من التعارض : الطفل ، والمهاج ثم طبيعة الفرد ، وثقافة المجتمع (١) :

عالم الطفل الضيق

أولاً - يعيش الطفل في عالم يحتك به احتكاكاً شخصياً ، وهذا العالم ضيق نوعاً ما ، فلا يدخل الأشياء ضمن خبرته حتى يكون لها مساس واضح ، وقريب بسلامته أو سلامة أسرته أو أصدقائه ، ويغلب على عالم الطفل أن يكون عالم أشخاص ذوي مصالح تهمهم فقط ، وليس بديناً من الحقائق ، والقوانين - فالحب ، والعاطفة مفتاح دنيا الطفل ، لا الحقيقة بمعنى مطابقتها للوقائع الخارجية ، وإذن فالمهاج في المدارس يتعارض مع حالة الطفل هذه ، إذا أنه يعرض من المادة ما يرجع بنا قروناً طويلة إلى الوراء ، وما يتسع إلى غير حد في المكان .

فالطفل يتزع من محيطه المادى المألوف الذى لا يتجاوز ميلاً مربعاً في المساحة ، ويلقى به في خضم كون زاهر لا تحده غير الأجرام ، فتثقل القرون الطويلة لتاريخ البشرية ذاكرة هذا المخلوق الضعيف التى لا تتعلق إلا بكل ما يهمها معرفته :

تكامل حياة الطفل

ثانياً - ثم إن حياة الطفل وحدة متماسكة الأجزاء فهو ينتقل بسرعة وبخفة من موضوع إلى آخر، ومن مكان إلى سواه دون أن يحس بهذا الانتقال. فليس هناك فصل محسوس ، ولا فرق ملموس ، ومن هنا تظل الأشياء التى

تشغل ذهنه في وحدة من المصالح الشخصية ، والجسمية التي تنطوى عليها حياته . والأمر الذي يسيطر على عقله في أى وقت هو الكون بأسره كما يبدو له . وهذا الكون متغير متحول ، تذوب محتوياته ، وتتشكل من جديد بسرعة فائقة ، ولكنه بعد كل اعتبار عالم الطفل . ووحده ، واكتماله من نوع وحدة حياة الطفل ، واكتمالها .

الموضوعات الدراسية مصنفة مبنوية

فإذا ذهب إلى المدرسة وجد أن دراسات كثيرة تقسم وحدة هذا العالم أشتاتاً ، فالجغرافيا مثلاً تنحيز ثم تقوم بعملية تجريد ، وتحليل نوع معين من الحقائق، من وجهة نظر معينة ، والحساب قسم آخر من هذه الأقسام ، وكذلك النحو ، وهكذا إلى ما لا نهاية؛ أضف إلى ذلك أن كل مادة من هذه المواد تصنف ، وتقسم تقسيمات ثانوية أخرى ، فتتزع الحقائق من موضعها الأصلي في الخبرة ، ويعاد تنظيمها وفقاً لمبدأ عام . وليس التصنيف من خبرة الطفل في شيء . والذي يجمع شمل خبراته الشخصية في الحقيقة إنما هو الوجدانات الحارة ، والأواصر الرابطة للنشاط .

وعقل البالغ قد ألف كثيراً ترتيب الحقائق ترتيباً منطقياً بحيث لا يمكنه أن يتبين مقدار العزل ، وإعادة التنظيم في الحقائق والمعلومات التي كان ولا بد للخبرات المباشرة أن تمر بها قبل أن تظهر كدراسة أو كفرع من فروع العلم . فالقاعدة لكي يعيها العقل لا بد وأن تميز عن غيرها ثم تحدد ، ويتختم بعد ذلك أن تفسر الحقائق طبقاً لهذه القاعدة لا كما هي في ذاتها . فتجتمع الحقائق لذلك حول مركز جديد ، وهذا المركز (أى القاعدة) معنوي غير مادي . وكل هذا معناه نمو اتجاه عقل من نوع خاص ، ومعناه أيضاً القدرة على النظر إلى الحقائق بعين مجردة ومعناه القدرة على التحليل ، والتركيب ومعناه عادات عقلية غاية في النضج ، وتحكم في طريقه معينة ، وجهاز معين من أجهزة البحث العلمي . والدراسات بالا اختصار مصنفة على هذا الأساس.

نتيجة لجهود العصور ومنتجات العلم وليست نتيجة لخبرات الطفل .
ويمكن أن نبالغ في هذه الفروق بين الطفل ، والمهاج ، ولكن لدينا من
الاختلافات الأساسية ما يكفي .

الاختلافات الأساسية بين الطفل والمهاج

١ - عالم الطفل المحدود الشخصي يجانب عالم الزمان ، والمكان الموضوعي ،
والذى لا يحد اتساعاً .

٢ - وحدة حياة الطفل إلى جانب التخصيصات ، والتقسيمات في
المنهج .

٣ - قواعد مؤسسة على تصنيف منطقي بجانب الروابط العملية والعاطفية
لحياة الطفل .

وينجم عن هذه العناصر المتضاربة مذاهب تربوية مختلفة (سنعود إلى
تفصيلها فيما بعد) : فمن المدارس ما تركز انتباهها في أهمية المادة مع إغفال
المواد المكونة لخبرة الطفل . وكأنهم يتساءلون : هل الحياة تافهة ضيقة جامدة ؟
وإذن تسفر الدراسات عن كون هائل شاسع يعجز بالمعاني المعقدة . وهل حياة
الطفل أنانية مركزة حول محورها ، وتدفع نفسها بنفسها ؟ إذن فالدراسات
تبرز عالماً من الحقائق ، والقوانين ، والنظم خارجة عن العقل البشرى .
وهل خبرته مشوشة وغامضة غير يقينية ترزح تحت رحمة الهوى والظروف
في كل لحظة ؟ وإذن تظهر الدراسات عالماً منظماً على أساس من الحقائق
الخالدة العامة ، عالماً كل ما فيه موزون محدد ، ومن هنا كان إغفال الأخلاقيين
وتحقيرهم من شأن الفروق والتجارب ، والتزوات الشخصية ، فهم كمرين
يهدفون إلى البعد عن هذه الأشياء وإطفائها ، وكبتها ، وإلى العمل على استبدال
هذه الأمور العرضية السطحية بحقائق ثابتة حسنة التنظيم ، وهذه تتحقق
في العلوم ، والدروس المنظمة .

التقسيم إلى دراسات

فليقسم كل موضوع إلى دراسات وكل دراسة إلى دروس ، وبالتالي كل درس إلى حقائق مخصوصة . ثم ليترك الطفل ليتقدم خطوة فخطوة حتى يتمكن من كل جزء من هذه الأجزاء المتفرقة ، وفي النهاية سوف تجده قد اكتسح الميدان بأسره . فالطريق طويل حين ينظر إليه في مجموعه ، ولكن يسهل قطعه إذا اعتبرناه سلسلة من الخطى المتتابعة ثم تعرض هذه الأجزاء في الفصل بطريقة متشابهة لهذه في التدرج . فالموضوع الدراسي (مادة الدراسة) يحدد الغاية ، ويرسم الطريقة ، والطفل ببساطة في عرفهم كائن حي غير ناضج يراد إنضاجه . هو كائن ضحل ، وواجههم نحوه هو التفتيش عن أعماقه وهو أخيراً يمثل لديهم الخبرة الضيقة وواجههم إزاءها توسيع مداها ، وعلى الطفل أن يتقبل ، وأن يقف موقفاً سليماً .

على أن المشكلة لا تبدو كذلك في رأى أنصار المذهب الثاني . فالطفل لديهم هو نقطة الابتداء ، والمركز ، والانهاء ^(١) ، وتطوره ونموه هو المثل الأعلى — وكل الدراسات تابعة لشيء واحد هو نمو الطفل ، وهي أدوات تقدر قيمتها بمقدار خدمتها لحاجات ذلك النمو . فالشخصية والأخلاق في نظرهم أهم من الموضوعات الدراسية ، فلا العلم ، ولا المعرفة هدف يتجهون إليه « وإنما هو تحقيق الذاتية » Self Realization هو أسمى ما تصبو إليه نفوسهم وعندهم أنه من نكد الحظ أن تكون ذا معرفة تملأ الدنيا سواء في التعليم أو في الدين وتكون في الوقت نفسه معدوم الشخصية . وفوق ذلك فالموضوع الدراسي لا يدخل على الطفل من الخارج مطلقاً . وإنما التعلم عملية إيجابية تتضمن اتساعاً في العقل ، وهضماً يتم في داخلته فيصبح بعبارة أدق هو الحكم في كيفية وكية التعلم ، ولا دخل للمادة في ذلك :

فالطريقة الوحيدة التي لها دلالة عند هؤلاء هي طريقة العقل في اتساعه ، وتمثيله للمعلومات ، وليست المادة الدراسية سوى غذاء روحيّ ، ولون من ألوان الطعام يمكن تناوله فهي لا تهضم ، لهذا كان مصدر الموات ، والآلية في المدارس إنما هو في إخضاع الطفل ، وحياته ، وخبرته للمناهج . ولهذا السبب أيضا أصبحت الدراسة عنواناً لكل ممل ، وارتبطت الدرس بالعبء ، وبالنفور . ويمكن أن نضعف هذا الصراع القائم بين الطفل ، والمناهج في حلقات لا تنتهى ، « فالنظام » هو شعار أولئك الذين يقدسون « مادة الدراسة » في حين أن الميل ، والاهتمام شعار أولئك الذين يعلنون من شأن الطفل . ووجهة نظر الفريق الأول منطقية ، أما وجهة نظر الفريق الثانى فنفسية ، والاتجاه الأول يحتم على المدرس المران الطويل ، والكفاية الدراسية ، بينما الآخر يؤكد الحاجة إلى مشاركة الطفل عاطفياً ، والإلمام بغرائزه ، ودوافعه الطبيعية . والفريق الأول ينادى بالإرشاد ، والمراقبة Guidance & Control في حين ينادى الفريق الآخر بالحرية . والقانون يفرض عند جماعة بينما تعلن التلقائية عند الجماعة الأخرى . وإحدهما تعنى بالقديم ، وبالحلقات ، والتراث الذى وصلت إليها العصور بعد كد ، وجهد . أما الأخرى فتتعلق بالتغير ، والتجديد . ويتم أنصار المذهب الأول بالموات ، وبالروتين بينما يتم الآخرون بالاضطراب ، والفوضى ، ويعاب على أنصار المذهب الأول إهمال سلطة الواجب المقدسة ، بينما يرى أنصار الثانى بالاستبداد ، والطغيان .

على أن الحاجة إلى تقريب الكلام النظرى ، والذوق السليم العملى توحى إلينا بالرجوع إلى افتراضنا الأصلى : وهو أن لدينا حالات وثيقة الارتباط فى العملية التربوية لأن هذه العملية على وجه التحديد عملية تفاعل وملاءمة . فما هى المشكلة إذن ؟ أليست هى محاولة التخلص من أى فكرة مؤداها أن هناك فجوة بين خبرة الطفل ، وبين المواد الدراسية أو المواد التى تكون المناهج ؟ أما من جانب الطفل فسرى كيف أن خبراته تحتوى عناصر — من الحقائق ، والمعلومات — من نوع مماثل لتلك التى تدخل فى الدراسات المنظمة .

وأهم من هذا نرى كيف أن خبرة الطفل تحتوي على الاتجاهات والدوافع ، والميول التي كان لها النصيب الأوفر في إنضاج وتنمية وتصنيف المواد الدراسية ، حتى أخذت المكانة التي تشغلها الآن . أما من جهة الدراسات فيمكن تفسيرها على أنها عوامل تعمل في حياة الطفل ثم هي أيضاً مسألة كشف الخطوات التي تتوسط بين خبرة الطفل الحالية وخبرته حين ينضج تماماً .

فلتناس إذن فكرة المادة الدراسية على أنها شيء ثابت جامد خارج عن خبرة الطفل . ولنبتل أيضاً التفكير في خبرة الطفل كشيء صلب لا يتأثر ، ولننظر إليها كأمر حيوي ، متغير ، ومتحول فسوف يظهر لنا أن الطفل والمنهاج طرفان لعملية واحدة . وكما أن النقطتين تحدان خطأً مستقيماً ، فكذلك مستوى الطفل الحالي والمادة الدراسية تحدان عملية التعليم . فالتعليم بناء مستمر يتبدى على أساس خبرة الطفل الحالية مرتفعاً حتى يصير كتلة من الحقائق والمعلومات المنظمة التي نسميها الدراسات .

وظاهر من هذا أن الدراسات المتشعبة من حساب ، وجغرافيا ، ولغات ، وغيرها هي في ذاتها خبرات لكنها خبرات الجنس البشري كله ، فهي تمثل محصول الجهود المتكاثفة لمحاولات ، وانتصارات الجنس البشري مجسمة جيلا بعد جيل ، والدراسات تمثل هذا لا كمجرد تكديس ، ولا كمجرد مجموعة متشعبة من خبرات متفرقة الأوصال ولكن بطريقة منظمة ومصنفة .

ومن هنا كانت الحقائق ، والمعلومات التي تنطوي عليها خبرة الطفل الراهنة ، وتلك التي تحتويها الموضوعات الدراسية هما طرفا البداية ، والنهاية لحقيقة كبرى واحدة . فلو جعلنا الواحدة تضاد الأخرى فإننا إنما نوجد تعارضاً بين مرحلة الطفولة ، ومرحلة البلوغ في حياة واحدة نامية ، ومعناه أيضاً أن تجعل الاتجاه الذي يتحرك نحو غاية ، وهذه الغاية ذاتها في عملية واحدة متعارضتين . ومعناه أيضاً الاعتقاد بأن طبيعة الطفل ومستقبله في حرب دائماً :

وإذا كانت المسألة كذلك فشكلة العلاقة بين الطفل ، والمنهاج تظهر لنا خلال النقاب . ما الفائدة عند الكلام على التربية من القدرة على معرفة

الختام من الابتداء ؟ وكيف يساعدنا في معالجة المراحل الأولى للنمو أن نتمكن من رؤية المراحل المتأخرة ؟ والدراسات كما أسلفنا تمثل احتمالات النمو التي نلمسها في خبرة الطفل الحالية التي لم تهذب بعد . ولكنها بعد كل اعتبار لا تكون أجزاء من حياة الطفل الراهنة . فكيف إذن ، أو ما السبيل إلى جعلها ضمن اعتباراتنا ؟

مثل هذا السؤال يوحى بجوابه . ففي معرفة النتيجة الختامية معرفة للاتجاهات التي تسير فيها الخبرة الحالية ، على شرط أن تسير سيراً عادياً مستقيماً . وإذن يصبح لهذه المسألة البعيدة « المنهج » دلالتها لأنها تفيدنا في تحديد الاتجاه الحالي للحركة . وإذا اعتبرناها على هذا النحو فلن تصبح غاية بعيدة المنال ، ولكنها تصبح طريقه ترشدنا في موقفنا إزاء الحاضر ، فخبرة البالغ المنظمة تنظيمياً منطقياً لها قيمتها في تفسير حياة الطفل كما تظهر أمامنا . ثم في إرشادها ، وتوجيهها .

الهدايا والتوجيه

دعنا نتمعن لحظة في هاتين الفكرتين : التفسير ، والإرشاد . إن خبرة الطفل الحالية لا تفسر نفسها بنفسها بأي حال من الأحوال وهي ليست تامة في ذاتها وإنما هي دلالة على اتجاهات معينة للنمو . فطالما قصرنا نظرنا على ما يقدمه الطفل من حين لآخر سنجر إلى الخطأ والخيرة لأننا لن نفهم مغزاه . فكل من الخط من قدرة الطفل الخلقية والعقلية ورفع شأن الطفل الناتج عن عاطفة الحب له يجران إلى خطأ شائع إذ أن منشأ كل منهما هو اعتبار بعض مراحل النمو أو الحركة شيئاً منعزلاً ثابتاً مقطوعاً عن بقية المراحل . فالفريق الأول مثلاً يفشل في رؤية ما قد يسفر عنه العواطف ، والأفعال التي لو اعتبرت منعزلة عن نتائجها لكانت منفرة غير مشجعة . والفريق الثاني لا ينجح في معرفة أن كل ما يعرض للطفل من أفعال ، وإحساسات جميلة سارة إنما هي دلالات أو مخايل ، وأن هذه الأفعال ، والإحساسات يعترها الفساد في اللحظة التي تعامل فيها كنتائج .

أما ما نرجوه فشيء يساعدنا على تفسير العناصر التي تتدخل في نجاح الطفل ، وفشله ، وفي إظهار القوة أو الضعف في ضوء عملية كبرى للنمو تدخل الأشياء السالفة الذكر فيها . بهذه الطريقة وحدها نستطيع التمييز . فلو أننا عزلنا ميول الطفل الراهنة وأغراضه ، وخبراته عن المكان الذي يحتله والدور الذي يمثل في خبرة متطورة فالكل يقف على قدم المساواة . الكل يتساوى في الحسن ، والكل يتساوى في القبح أو في الخير ، والشر ، ولكننا نجد في معمعة الحياة أن العناصر المختلفة لا تتساوى قيمتها تبعاً للمستويات التي توضع عليها هذه العناصر . فبعض أعمال الطفل علامة على اتجاه ذاول لأنها بقايا لوظيفة عضو قد قام بدوره ، وابتدأت فائدته الحيوية تزول . ففي توجيه اهتمامنا توجيهاً إيجابياً لمثل هذا النشاط إيقاف لعملية النمو على مستوى منخفض وفي هذا أيضاً اعتزاز بمرحلة أولية في النمو ، وتوكيد لها . أما بعض نواحي النشاط الأخرى فتدل على قدرات ، وميول تسمو شيئاً فشيئاً حتى تبلغ أوجها وشمها : مثل هذا النوع ينطبق عليه المثل القائل « اطرقت الحديد وهو منصهر » ، وسوف يصبح هذا المظهر من النشاط نقطة التحول في مجرى حياة الطفل كلها لو أنها استقلت ، وأكدت . أما لو أهملت فهي فرصة لن ترجع ، ولن تعوض وقد يأتي الطفل من الأفعال ، والإحساسات الأخرى ما يبشر بحسن النتائج . على أن هذه تمثل تلاًو النور عند مطلع الفجر ، وسوف يضيء هذا النور في المستقبل البعيد فقط . وليس لدينا شيء ذو بال نقوم به لإزائها ، وكل ما يمكننا عمله الآن أن نتيح لها فرصة كاملة ، وننتظر حتى نوجهها في المستقبل .

وكما أن التربية القديمة أخطأت في مقارنتها المحجفة بين نضوج البالغ ، وعدمه عند الطفل ثم اعتبارها نصيب الطفل من عدم النضوج أمر يجب التخلص منه بأسرع ما يمكن - كذلك تقع التربية الحديثة في الخطأ باعتبار قدرات الطفل ، وميوله الراهنة شيئاً له دلالة نهائية في ذاتها . لكن الحقيقة خلاف ذلك إذ أن كل ما يتعلمه الطفل ؛ وكل ما يأتيه من أفعال دائمة التحول ، والتقلب يتغير بين كل يوم وآخر ، وكل ساعة وأخرى .

وسوف يكون من الخطأ لو أننا قصدنا من دراسة الطفل أن نغلام معين في سن معينة استعدادات ، وأغراضاً ، وميولاً إيجابية يتحتم علينا رعايتها كما هي . فليست الميول في الحقيقة سوى اتجاهات نحو خبرات ممكنة ، فلو اعتبرنا الظاهرة التي تحصل في سن معينة مفسرة لنفسها أو كافية في ذاتها لتتج عن ذلك لا محالة تضليل وإفساد .

ومرة أخرى نقول : إنه إذا كان الاتجاه في « التربية القديمة » قد مال إلى تغافل العنصر « الديناميكي » المحرك أى القدرة على النمو المتأصلة في خبرة الطفل الراهنة ثم إلى ادعاء أن التوجيه ، والمراقبة هما مجرد قهر الطفل على اتباع طريقة معينة ، وإرغامه على السير فيها ، فالخطر من « التربية الحديثة » هو في أخذ فكرة « النمو » بصورة شكلية سطحية . فثلاً ينتظر من الطفل أن يستخرج هذه الحقيقة أو تلك ثم ينميها من تلقاء نفسه ، فيطلب إليه بأن يفكر في أشياء أو يعملها بنفسه دون أن يعتد بالظروف المحيطة ، واللازمة لتنبيهه وقيادته (لاشيء يستخرج من لاشيء) . ولا يمكننا أن نستخرج من الطفل وهو « خام » إلا كل ما هو « خام » ، « غير ناضج » . وهذا ما يحدث بالتأكيد حينما نترك الطفل ، وطبيعته ، ثم ندعوه إلى نسج أفكار جديدة عن الطبيعة وعن السلوك . وإنه لمن العبث أن نتوقع سواء من الطفل أم من الفيلسوف أن يخلق عالماً من عقله المجرد فحسب . فالنمو أو التطور ليس معناه مجرد الحصول على شيء من العقل . ولكن المطلوب تطور الخبرة ، وهذا مستحيل ما لم نجهز الوسيلة التربوية التي بواسطتها نستطيع أن نعد القدرات ، والميول المختارة ونمكنها من تأدية وظيفتها ، ولا بد أن تعمل هذه القدرات ، والميول عملها ، وسوف يعتمد هذا العمل كلياً على المؤثرات التي تحوطها والمادة التي تستغل بها . فمسألة التوجيه إذن إنما هي اختيار المؤثرات المناسبة أو الصالحة لاستثارة الغرائز ، والدوافع التي ترغب في استخدامها لكسب الخبرة الجديدة . ولا نستطيع التحدث عن الخبرات الجديدة المرغوب فيها أو عن المؤثرات التي نحن بصدددها إذا توفر فهم النمو أو التطور المنشود إلا باختصار إذا

نسجنا على منوال خبرة البالغ لأنها هي التي تنير الطريق المفتوح أمام الطفل ، والذي يجب أن يسلكه .

وربما كان من المفيد أن نحاول التمييز بين الوجه المنطقي في الخبرة ، والوجه النفساني لها ، وفصل أحدهما عن الآخر . فالأول يمثل الموضوع الدراسي في ذاته ، والآخر يمثله بالنسبة للطفل . والتحليل النفساني للخبرة يتبع نموها الفعلي فهو لذلك تاريخي . وهو يلاحظ الخطوات الفعلية الفاشلة ، والناجحة . أما وجهة النظر المنطقية فنفرض أن النمو قد بلغ مرحلة إيجابية معينة من التحقيق . فهي تهمل أو تتغافل العملية ، وتدخل في اعتبارها فقط النتيجة ، فهي تلخص ، وتنظم ، وترتب ثم تفصل النتائج الأخيرة عن الخطوات الفعلية التي كانت السبيل في الوصول إلى النتائج ويمكن أن نقارن بين وجهة النظر المنطقية ، ووجهة النظر النفسانية كما نقارن بين الملاحظات التي يدونها مكتشف أو مرئاد لأرض جديدة ، وبين الخريطة التامة التي عملت بعد أن تم كشف الأرض على وجه التمام . كلا الاثنين تابع للآخر ، ويعتمد عليه . فبدون الطرق التي خطتها المكتشف مصادفة لا يمكن أن يكون هناك من الحقائق ما يستفاد منها في عمل الخريطة الكاملة . ومع هذا فلا أحد يستطيع الاستفادة من رحلة المرئاد ، إذا لم تقارن ، وتصحح على رحلات مماثلة قام بها آخرون ، وإذا لم ينظر إلى الحقائق الجغرافية المدروسة كالأنهار التي عبرت ، والجبال التي صعدت تبعاً لحقائق ومعلومات أخرى مشابهة لها قد درست من قبل وليس كمجرد حادثات عرضية في رحلة هذه الرحالة . والواجب أن نصرف النظر عن حياة المكتشف الخاصة ، ومعنى ذلك أن ننظر إلى الحقائق نظرة موضوعية . فالخريطة تنظم الخبرات الفردية ، وتربط بعضها ببعض بصرف النظر عن الظروف ، والحوادث المحلية ، والزمنية لكشفها . ولكن ما فائدة هذا الترتيب المنظم للخبرة ، أي ما فائدة الخريطة ؟

يمكن مبدئياً أن نقول : إن الخريطة لا تغني عن الخبرة الشخصية أي لا يمكن أي تحليل محل الرحلة الفعلية ، وكذلك لا تقوم مادة العلم ، وفروع

الدراسات المصنفة على أساس منطقي مقام الخبرة الشخصية ذاتها ، فمثلا المعادلات الرياضية للأجسام الساقطة لا يمكن أن تحل محل الاحتكاك الشخصي ، والخبرة الشخصية بالجسم الساقط نفسه . على أن الخريطة ، وهي تلخيص منظم مرتب للخبرات الماضية تستخدم كمرشد لخبرات مستقبلية فهي توجه أو تحدد الاتجاه ، وتسهل التحكم ، وتوفر الجهد ، ويتجنب بوساطتها جولات لا طائل تحتها إذ هي تشير إلى الطرق المؤدية إلى الغاية المنشودة بسرعة ، بوساطة الخريطة يتمكن كل رحالة جديد أن يحصل على الفائدة التي وصل إليها المكشفون الآخرون بدون أن يضيق الجهد ، والوقت . الذي صرفه المرتادون في تجولاتهم . وقد يكون هو مضطراً لإعادة هذه التجولات بنفسه لو لم تكن المساهمة الناشئة عن ترتيب ، وتنسيق خبرات الغير تم تسجيلها بعد ذلك على خريطة . فما نسميه علوماً أو دراسات تعرض النتائج الخالصة للخبرات الماضية في شكل سهل التناول ، والتداول في المستقبل فالعلم يمثل ملخصاً نستطيع الحصول منه على الفائدة بسرعة . وهو يوفر على العقل أعماله في وجوه كثيرة . فعبء الذاكرة مثلاً أصبح خفيفاً لأن الحقائق والمعلومات مجموعة حول قاعدة أو مبدأ عام معروف بدلاً من أن تكون متناثرة كما كانت في الأصل عند كشفها ، وكذلك قد أعان العلم على الملاحظة لأننا نعرف ما نلاحظه ، وأين نلاحظه ، والفرق بين الملاحظة من قبل ، والملاحظة الآن ، بعد أن أصبح العلم على صورته الراهنة ، كالفرق بين البحث عن إبرة في كومة من القش ، وبين البحث عن ورقة معينة في حجرة مكتملة التنسيق كل ما فيها مصنف . أما تفكيرنا فيعد توجيهاً سليماً لأن هناك طريقاً ما معبداً يتبعه الفكر في سيره بدل أن يتخبط هنا ، وهناك .

وتنظيم الخبرة يعرض لنا خبرات الماضي في الشكل 'الخالص الذي يجعلها' أسهل تناولا ، وأكثر دلالة ، وأكثر خصوصية لإثبات الخبرات في المستقبل ، فلكل من التجديدات ، والتعليمات ، والتصنيفات التي يدخلها العلم ، فائدة على حدة .

فالنتيجة النهائية إذن لا تتعارض مع عملية النمو ، وليس هناك تعارض بين وجهتي النظر المنطقية ، والسيكولوجية إذ أن النتيجة المنظمة تشغل مكاناً هاماً في عملية النمو . فهي تمثل نقطة التحول ، وهي ترينا كيف يمكننا أن نحصل أو أن نجني فائدة الجهود السابقة لتحكم في محاولات المستقبل . ووجهة النظر المنطقية في أوسع معانيها سيكولوجية لها دلالتها كمرحلة في تطور الخبرة ، ونموها ، أما ما يبررها فهو العمل الذي سيبني عليها في المستقبل .

ومن هنا دعت الحاجة إلى إعادة موضوع الدراسات ، وفروع العلم إلى مكانها في الخبرة . فلابد وأن نرجع إلى الخبرة التي منها تجمعت هذه المعلومات وأن نصيغ الناحية المنطقية بالصيغة النفسية (السيكولوجية) ويجب أن نترجم إلى خبرة الفرد المباشرة الحاضرة ، الدراسات التي أخذت منه مصدرها ، ودلالاتها .

طبيعة مادة الدراسة

وعلى هذا الأساس فكل دراسة أو موضوع له وجهتان : وجهة للعالم (الباحث العلمي) كعالم ، ووجهة للمدرس بصفته مدرساً ، ولا تعارض مطلقاً بين هذين النحويين - ومع هذا فإنهما لا يتطابقان . فالموضوع الدراسي يمثل للعالم مجموعة من الأفكار ، والمعلومات تستخدم في حل مشاكل جديدة أو في إنشاء بحوث جديدة يتوصل منها إلى نتائج محققة صحيحة . والعالم يسعى وراء العلم لذات العلم إذ أن أهميته في نفسه ، ومهمة الباحث العلمي هي التوفيق بين أجزائه المختلفة ، والوصول منها إلى حقائق جديدة . وهو بوصفه عالماً غير مطالب بالخروج عن نطاق العلم الخاص . أما مشكلة المدرس فتختلف عن ذلك فليس من اختصاصه كعلم أن يضيف حقائق جديدة للعلم الذي يدرسه أو أن يفترض نظريات جديدة ، ويحفظها وإنما اختصاصه ينصب على موضوع من العلم يمثل مرحلة معينة من مراحل التطور في الخبرة . ففهمته إذن أن يبحث عن الطرق التي بها يصبح « الموضوع المعين » أو

« المادة المعينة » جزءاً من خبرة الطفل - البحث عما في حاضر الطفل .
 مما يمكن استخدامه لخدمة هذا « الموضوع المعين » وهو معرفة كيف
 تستخدم هذه العناصر ، وكيف يساعد علم المدرس بالموضوع في تفسير
 حاجات الطفل ، وحركاته ، وفي تقرير الوسط الذي يجب أن يوضع فيه
 الطفل لكي يتوجه بنموه توجيهها صحيحاً . وهو لا يهتم بالموضوع كموضوع في
 ذاته ، ولكن كعامل مشترك في خبرة كلية نامية ، ونحن إذ انظرنا إلى الموضوع
 هذا المنظار فإننا نصبغه بالصبغة السيكولوجية .

وفشلنا كمرتين في فهم الموضوع أو المادة على هذا الأساس أى من
 ناحيتيه المنطقية والسيكولوجية هو الذي سبب التعارض بين الطفل والمناهج .
 كما سبق أن عرفنا . « فالمادة » كما هي في نظر الباحث العلمي لا علاقة
 لها مباشرة بخبرة الطفل الراهنة لأنها فوق مستوى الطفل . أضف إلى هذا أن
 المدرس والكتاب المدرسي ، يتسابقان في عرض الموضوع للطفل كما لو كان
 متخصصاً في المادة ، وما يدخل على « المادة » من تعديل أو تغيير لا يعدو
 أن يكون مجرد إزالة لبعض الصعاب العلمية لتقريبها إلى عقل الطفل على أن
 المادة لا تترجم بصورة حية ، ولكنها تفرض على الطفل بدلاً من حياته الحاضرة ..
 وينتج عن ذلك ثلاثة أضرار :

أولاً - ففقر المادة إلى الارتباطات العضوية بكل ما يمت للطفل بصلة ..
 بكل ما يراه ، ويشعر به ، ويحبه ، وانعدام هذا الاتصال الحيوي يصنع
 المادة بصبغة شكلية رمزية .

ثانياً - والضرر الثاني لعرض المادة عرضاً خارجياً هو الافتقار إلى الدافع
 فليس هناك من الحقائق ، والمعلومات التي شعر بها الطفل من قبل ما يتناسب
 مع الحقائق الجديدة بحيث يساعد على هضمها . وليس هناك كذلك رغبة
 ملحة ، ولا حاجة ولا مطلب . فالحاجة تولد الدافع للتعليم . والهدف الذي
 ينشده الطفل يحمله على أن يعد نفسه بالوسائل لتحقيقه . ولكن عندما يجد
 أن المادة قد أعدت مباشرة في شكل درس يدرس له فمن الواضح أن تكون.

الحلقات التي تربط الحاجة بالهدف مفقودة . وما نعينه بالآلى ، وبالميت في التعليم إنما هو نتيجة للافتقار إلى الدافع . أما في حالة الاتصال الحيوى فهناك تفاعل ، وتقابل ، واشتباك بين الهدف العقلى ، والمؤونة المادية .

ثالثاً — والضرر الثالث هو أن المادة العلمية الصرفة المرتبة ترتيباً منطقياً للغاية عندما تعرض على الطفل بالطريقة السابقة ، لا بد وأن ينالها الكثير من التعديل والتغيير حتى يمكن استثناء الأمور التي يتعذر على الطفل هضمها . فماذا نعمل ؟ نحذف تلك الأجزاء التي لها أكبر الدلالة لدى رجل العلم ، والتي هي أكثر قيمة في منطق البحث العلمى ، وهكذا يفقد الموضوع صفته المنطقية، ويصبح مجرد حشو للذاكرة ، والطفل بذلك يخسر من الناحيتين ، فهو لا يحصل على فائدة من القواعد المنطقية لخبرة البالغ ، ولا من قدرته الضئيلة على الفهم ، والاستجابة ، ومن هنا يتعطل منطق الطفل ، ويتعثر .

وقد نتغافل عن الاعتبارات السيكلوجية حيناً ، ولكن لا غنى لنا عنها . لا بد وأن نستعين بالدافع في نقطة ما ، وفي وقت ما ، وأن ندعم الاتصال بين العقل والمادة ، وليس هناك سبيل إلى العمل قبل أن يصبح هذا الاتصال وثيقاً . غير أننا نتساءل هل هذا الاتصال يأتى من المادة ذاتها في علاقتها مع العقل أو يأتى من مصدر آخر ؟ فإذا كان موضوع الدرس من النوع الذى يحتل مكاناً ملائماً في عقل الطفل النامى كأن ينمو من أفعاله ، وتفكيره وآلامه الماضية ثم يتطور بحيث ينطبق على أفعاله المستقبلية البعيدة ، فلا داعى مطلقاً للبحث عن حيلة من حيل الطريقة لإقام الشغف أو الميل . إذ أن كل ما يتمشى مع نفسية الطفل فيه الميل ، أى أن له مكاناً في حياة الطفل العقلية بحيث يشاطر قيمة تلك الحياة في مجموعها . ولكن المادة التي تفرض فرضاً ، والتي تتطور ، وتولد من آراء واتجاهات بعيدة عن الطفل ، وتسيرها دوافع غريبة عليه ليس لها مكان في حياته العقلية . ومن هنا يلجأ بعض الناس إلى مستوى مرتفع لدفع الطفل نحوه وإلى رشوة مصطنعة لإغرائه بها .

وأخيراً وبعد هذا العرض لتلك المشكلة نقول إن قدرات الطفل الراهنة

هى التى تقرر ذاتها ، فواهبه هى التى تتدرب ، وميوله هى التى تشبع ، غير أنه إذا لم يكن المدرس على علم تام بخبرة الجنس البشرى كلها التى يحتويها المنهاج فلن يعرف ما نوع هذه القدرات ، والمواهب ، والميول الراهنة للطفل ، ولا حتى الطريقة التى تقرر ، وتدريب ، وتحقق بها .

هذا ويمكننا أن نلخص الفرق بين عالم الطفل ، وعالم المنهاج فيما يأتى :

عالم المنهاج	عالم الطفل
١ - عالم معنوى بعيد كل البعد عن الناحية الحسية التى يعيش فيها الطفل	١ - عالم حسى ، أى أن الطفل يعيش فى عالم المحسوسات . فهو يفكر ويفهم بعينى رأسه أو بسمعه أو بشمه أو بذوقه
٢ - عالم متشعب many-sided	٢ - عالم مباشر : immediate ومحدود
٣ - عالم أساسه المنطق والمعقولات المرتبة المنظمة	٣ - عالم أساسه دوافع الطفل ، واحتكاكه الشخصى
٤ - عالم آلى راكد	٤ - عالم عضوى organic حركى dynamic
٥ - يشبهه البعض بأرض عشبية مملوءة بالحشائش	٥ - يشبهه البعض بحديقة زهراء فيحاء .

التنظيم السيكولوجى والتنظيم المنطقى لمواد المنهاج

نقصد بالتنظيم المنطقى لمواد المنهاج تنظيم المادة لذاتها لا لأى اعتبار آخر ، وهو إما أن يكون قياسيا فى بعض المواد كالطبيعة مثلا ، أو زمنيا وتطوريا فى مواد أخرى كالتاريخ ، وهذا التنظيم هو الذى نجده فى كتب العلماء ،

وفي الكتب الدراسية القديمة . فعالم الطبيعة مثلاً يبدأ في عرضه لعلم الطبيعة بتعريفات لبعض المصطلحات : كالمادة ، والقوة ، والطاقة . بينما المؤرخ يتتبع الترتيب الزمني مبيناً خطوة خطوة علاقات العلية التي منها يتبين لنا أن الحاضر ينشأ على أكتاف الماضي ، وعالم الجغرافيا يبدأ بالأرض ككرة ثم ينتقل بالتدريج إلى التفصيلات كتعاقب الليل ، والنهار ، وتعاقب الفصول ، واختلافها . . . إلخ .

والحقائق والقضايا ذات الأهمية القصوى في التنظيم المنطقي للعلوم هي تلك التي تربط مجموعة من الحقائق بعضها ببعض لتسهيل الاستنتاج القياسي مثل كروية الأرض ، وقانون الجاذبية ، ومبدأ التطور ، وهذه المبادئ ، وهذه القضايا ذات أهمية عظمى للعلم ورجاله : وعلى ذلك فنحن نتفق مع الأستاذ Bode^(١) في كتابه « النظريات التربوية الحديثة » الذي يؤكد أن التنظيم المنطقي هو وسيلة ضرورية لتقدم العلوم واتساعها ، وإذن فهو أحسن التنظيمات الممكنة بالنسبة للعلم ذاته وبالنسبة للعلماء ، ولكنه ليس كذلك بالنسبة للطفل ، وعلى ذلك إذا أردنا أن نجعل الطفل مركز اهتمامنا فيجب أن نبحث عن نوع آخر من التنظيم . هذا ، وقد كانت معظم المواد في المناهج القديمة منطقية التنظيم كما أسلفنا ، فأول شيء كان يتعلمه الطفل في الجغرافيا هو كروية الأرض ، وأول شيء كان يبدأ به في التاريخ هو التاريخ القديم ، أي أنه كان يتعلم أبعد الأشياء عن تجاربه وإدراكه .

أما التنظيم السيكولوجي لمواد المنهاج فيختلف عن التنظيم المنطقي سابق الذكر إذ ليس فيه صفات الموضوعية ، والمعرفة البحتة ، والعلم لذاته ، بل إن المركز الذي يدور حوله هو المتعلم أو بعبارة أخرى الطفل فغاية هذا التنظيم هو مراعاة الميول الغالبة عند الطفل . وإعطاؤه ما يستطيع أن يفهمه في كل مرحلة من مراحل نموه . فالجغرافيا مثلاً لا تبتدئ بشكل الأرض الكروي وبالنواحي الفلكية ، بل تبتدئ بالبيئة المحلية التي يعيش فيها الطفل ، وبذلك

يكون التعليم حسيًا لا قياسيًا ، ويكون بصورة تجعله متصلًا بتجارب الطفل ،
 باعثًا على شوقه واهتمامه . وفي التاريخ يتبع نظام زمني مقلوب كما يقول
 « ثورنديك » لأن تجارب التلميذ يجب أن تكون المحور الأساسي للدراسة ،
 أما « جون ديوى » فيقول إن نقطة البدء الحقيقية للتاريخ هي دائماً موقف
 من المواقف الحاضرة المتعلقة بمشاكله .

والتنظيم السيكولوجى للمواد والمنهج هو وليد التربية الحديثة ومن أهم
 مميزاتهما . فالمناهج أصبحت تدور حول الطفل ، وليس الطفل هو الذى يدور
 حوله ، أى أن الطفل أصبح مركز التغيرات البيداغوجية والمناهج المدرسية .
 ولكن برغم ما للتنظيم السيكولوجى من عظيم الأهمية فى تربية الأطفال إلا أنه
 يحسن تكميله بالتنظيم المنطقى إذا أمكن ذلك ، وكلما أمكن ذلك . فالواقع
 أن هناك قوتين يجب التوفيق بينهما وهما الحاجات المنطقية للمواد والحاجات
 السيكولوجية للأطفال . والتنظم الحديثة فى التربية تراعى الحاجات السيكولوجية
 للتلاميذ ، ومن هنا كانت قيمتها ، ومن هنا أيضاً كان نقصها إذ لا بد من
 التنظيم المنطقى . وهذه الحاجة إلى التوفيق يختلف الشعور بها شدة وضعفاً ،
 فمثلاً نجد أن كثيراً من المربين الذين يقبلون طريقة المشروع وحتى دعاة
 هذه الطريقة ، وزعمائها المتحمسون يعترفون بوجوب تكميلها بنوع من تنظيم
 المعرفة أى أنهم يجعلون محلاً للتنظيم المنطقى ؛ فمن معاييب طريقة المشروع
 التى يجب معالجتها بشئ من التنظيم المنطقى أن المبادئ والقوانين التى يتوصل
 إليها التلاميذ تكون مرتبطة فقط ببعض الحالات الخاصة والأمثلة . وبذلك
 ينقصهم التعميم اللازم فى التطبيق فى المواقف الجديدة . فقيام التلاميذ
 بالمشروعات يجعلهم يلمون ببعض المعلومات مثلاً - فى علم الطبيعة - ولكنهم
 لا يعرفون المبادئ العامة لهذا العلم . ومن عيوب طريقة المشروع أيضاً أنها
 تجعل المعلومات التى يعرفها التلاميذ فى المادة الواحدة غير مرتبطة بعضها
 ببعض يخللها هوات أو مسافات خالية ، فمثلاً قيام التلاميذ بتمثيل بعض
 الروايات التاريخية يجعلهم يلمون ببعض أجزاء خاصة من المنهج التاريخى ،

كما لو كان جزءاً من حياتهم ، ولكن ذلك لا يغنيهم تماماً عن الدراسة المنهجية المنظمة ، وإذن فيجب ملء هذه الهوات والمسافات الخالية ، وبذلك يقترن التنظيم السيكولوجي بالتنظيم المنطقي ونكون قد وفقنا بين الحاجات السيكولوجية للتلميذ ، والحاجات المنطقية للمواد .

ويهمنا وقد فرغنا من التحدث عن وجهات النظر المختلفة في تنظيم مواد المناهج ، أن نستعرض المذاهب الفلسفية ، التي تختلف فيما بينها اختلافاً جوهرياً ، من حيث ما ينبغي أن تكون عليه دراسة المنهج ، وسيتبين لنا أثناء ذلك العرض أى هذه المذاهب أكثر وفاقاً مع روح التربية الحديثة ؟ وأيهما أبعد أثراً في نجاح العملية التربوية ؟

دراسة المنهج في ضوء المذاهب الفلسفية المختلفة

إن المذاهب الفلسفية المختلفة ، مهما تباينت وجهات نظرها ، تتفق جميعاً على أن المعرفة وسيلة التربية ، أو بعبارة أخرى على أن المدرسة وجدت كي تزود الطفل بالمعرفة والخبرة اللتين لا نستطيع الاستغناء عنهما ، فعلى إذن أن نبحث نوع المعرفة أو الخبرة التي لا بد أن يلقاها النشء في المدرسة فكيف نختار مادة المنهج ؟

نحن لا نتظر من فلسفاتنا المختلفة أن تتفق على إجابة هذا السؤال ، ولكننا نأمل أن نستطيع استخلاص نتائج نظمت إليها من هذه النظريات المتعارضة في ظاهرها وأن نجد بعضها يكمل بعضاً .

١ - المذهب الطبيعي

تهتم التربية الطبيعية أولاً وقبل كل شيء بطبيعة الطفل ، فالتربية يجب أن يكون أساسها طبيعة الطفل التي يعتقدون أنها خيرة ، فهم يميلون عادة إلى الاعتقاد مع « وردزورث » Wordsworth بأن الطفل هبط إلى العالم في حالة من المجد والمربون الطبيعيون يهتمون به كما هو كائن فعلاً ،

أكثر من اهتمامهم به كما يجب أن يكون ، فلا يعتبرون التربية عملية إعداد للمستقبل ، ولكنها إعداد للحاضر ، يتوقعون من الأطفال أن يكونوا أطفالاً قبل أن يكونوا شيئاً آخر ، طبقاً لعبارة « روسو » الشهيرة : « إن الطبيعة تتطلب منهم أن يكونوا أطفالاً قبل أن يصبحوا رجالاً » ، ويتألمون ألم « روسو » حين يقول : « نحن نضحى في تربيتنا الحالية بحاضر الطفل المحقق من أجل مستقبل غير محقق » نحن نعمل على أن نحمل الطفل مالا طاقة له به ونبدأ بإتعاسه من أجل إعداد له لمستقبل وسعادة بعيدة التحقيق قد لا يصل إليها في المستقبل مطلقاً .

ويجب أن يكون المربي في نظرهم حريصاً فلا يتدخل في عمل الطفل ويمنعه من استخدام أى طريقة من طرق التعلم . ومفروض عليه ألا يؤثر في الطفل بطريق مباشر ، ولكن يعمل من وراء ستار ، فهو شاهد محايد فقط وعليه أن يلاحظ نمو الطفل وأن يتجنب استهواءه والإيحاء إليه بالأفكار أو المثل العليا أو نظريات الأخلاق ، فتلك أمور موكول إلى الطفل بحثها من جميع النواحي بنفسه : متى يتعلمها ؟ وكيف يتعلمها ؟ فتربته نمو طبيعى لميوله ودوافعه ، لا نتيجة مجهود صناعى يفرضه عليه المربي ، بل إن بعض المربين الطبيعيين يغالون أكثر من ذلك ، ويقللون من قيمة المربي ، ويعتقدون أن وظيفته مقصورة على إعداد المسرح ، وتهيئة الفرص والظروف الملائمة لنمو الطفل الباعثة له على البحث والنشاط . ولذلك نجد أن الدكتور « منتسورى » تحبط الطفل بسياج من الأجهزة التى من شأنها إرهاف قواه ، وتربية حواسه ، وإغراقه على أن يرى نفسه بنفسه .

ويتفق أنصار المذهب الطبيعى على أن تكون تربية الطفل بين سن الخامسة والثالثة عشرة سلبية لا يعلم شيئاً ، ولا نفرض عليه قراءة أى كتاب ، بل يجب وقف هذه الفترة على تربية جسمه ، وتقوية أعضائه وإرهاف حواسه . أما روحه فيجب أن تظل هادئة في إغنائها ، ولا يرى أى تربية خلقية خارج قانون العقاب الطبيعى .

نستطيع إذن أن نلخص آراء التربية الطبيعية بأنها التربية التي تتجه إلى الطفل أكثر من اتجاهها إلى المربي أو المدرسة أو الكتاب أو مادة الدراسة . بل هذه جميعاً على هامش الصورة . ويركز المذهب الطبيعي اهتمامه في خبرة الطفل الحالية ، وفي ميوله الحاضرة ، فهذه وحدها هي التي ستقر عمل المدرسة ، فدفع الطفل حراً في خبرته الخاصة ، ولا تعطل نشاطه ، ولا تعترض نموه ، بل لا تتدخل فيه ولا توجهه — أما المنهاج أو الهدف الذي يرى إليه فهو النمو الطليق النشيط السعيد لكائن حي متفق تماماً مع البيئة ، أما ما عدا ذلك فلا قيمة له .

أما طريقة التدريس عند جماعة الطبيعيين ، فإننا نجدهم يؤمنون بأهمية الخبرة ويتخذون من قول « روسو » الآتي شعاراً لهم : « لا تعطه دروساً شفوية مطلقاً ولكن يجب أن يتعلم عن طريق الخبرة » — فأنت ترى أن هذه الزعة قد حذرت المربين والمدرسين من استخدام الطريقة الشفهية وحدها في التدريس ، ووجهت أنظارهم إلى ضرورة الاعتماد على الخبرة الحقيقية عند الإطفال ، فلا يقتصر مثلاً على الكتب والكلام والالتجاء إلى السبورة فحسب عند شرح المواد العلمية ، بل يجب أن نشرك التلميذ في العمل والتجريب في المعامل ونهئ له دراسة الظواهر الطبيعية مباشرة كلما أمكن . ولا تدرس الهندسة عن طريق البرهان النظري — مهما كان معقولاً — بل يجب أن تدرس بشكلها الطبيعي ، ويجب أن تكون الرحلات المدرسية وسيلة لتعلم دروس الجغرافية بدلاً من الكتب « والأطالس » وحدها . ومجمل القول : إن المربي الطبيعي لا ينظر إلى نفسه على أنه مصدر المعرفة ، بل ينظر إلى تجربة الطفل نفسه على أنها ذلك المصدر .

ويهتم الطبيعيون بقيمة الخبرة الاجتماعية ، فيتدرب الطفل عندهم على حقوق المدنى المستنير وواجباته ولا يتلقاها كلاماً يتدفق من شفاه المدرسين ، بل يقوم — هو وزملاؤه — بتنظيم مجتمع طبيعي فيه تظهر مواهب كل تلميذ حيث يكون كل فرد منهم ، قائداً في ناحية مقوداً في ناحية أخرى . ولا بد

من إلغاء النظام القديم القائم على السلطة العليا ، وأن يحل محله نظام الحكم الذاتي ، القائم على الانتخاب الحر . أما عن المدرس فيجب ألا يكون مركزه مركز الملك المستبد بل مركز رئيس الجمهورية يعتبر نفسه مدنياً عليه واجبات المواطن ، وله حقوقه التي تخولها سلطته غير العادية بحكم مركزه .

(ب) المذهب العملي أو « البراجماتى »

يرفض الرجل العملي أن يكون الطفل تحت أقدام أستاذه مهما كان مركز هذا الأستاذ عظيماً ، ويأبى أن يكون الطفل فى موقف سلبي يقبل آراء غيره ونتائج تفكير الناس — بل يتطلب من الطفل أن يقف موقف الباحث المنقب عن الحقيقة يفكر ويحرب بنفسه ليكتسب دراية بمواجهة مشاكل الحياة ومعالجتها ، فليست التربية تعليم الطفل ما لا بد له أن يعرفه ، ولكنها تشجعه ليعرف بنفسه نتيجة نشاطه العقلي والتجربى ، فالمعرفة الحقيقية ليست معرفة جافة مستمدة من الكتب ، ولكنها قوة لمواجهة المواقف الجديدة .

والتعليم عن طريق العمل هو أساس المذهب العملي وعدته ، وهو ينصف المدرس الذى لا يثق بالكتب ثقة عمياء ، بل يعتقد أن الطفل يتعلم عن طريق النشاط أكثر من تعلمه عن طريق التلقين ، وهذا المذهب لا يؤكد قيمة الناحية العملية فى تدريس المواد وحدها ولكنه يطالب بأن يوضع الطفل فى مواقف يصارعها وتصارعه حتى يصل إلى الحقيقة نتيجة لهذا الجهاد .

ومن ثم يهاجم هذا المذهب التقسيم التقليدى للمناهج إلى علوم ومواد مختلفة . بل إنه لا يرى فارقاً كبيراً بين مادة وأخرى إلا أنها جميعاً نواح من نشاط إنسانى يقصد بها حل مشاكل البيئة التى لا تنقسم . ولا بد من أن يطالب الطفل بدراسة المواد وموضوعاتها منفصلاً بعضها عن بعض ، يجب أن تجعل المعرفة وحدة نشاطية كما هى فى الطبيعة ، وأن تكون دراستها .
أجل مشاكل حيوية يسعى الطفل إلى حلها ، وينظر إليها من وجهة نظر عملية . فالطفل لا بد وأن يتعلم الخبرات اللازمة له حتى يستطيع أن يحافظ على

كيانه في العالم ، فيجب أن يشتمل المهارج على أنواع المعرفة والمهارات التي يحتاج إليها الطفل في حياته الحاضرة والمستقبلية معاً ، ولذلك يجب أن يتعلم كل طفل كيف يتحدث لغته القومية ، وكيف يكتب بها ويقرأ ، كما أنه محتاج لبعض المعرفة عن الرياضة والقياس ، ولا يمكن أن نحذف من المهارج الأولى علم الصحة ، والتربية البدنية أو التدريب العملي .

ويهم « ديوى » - وهو من أشياع هذا المذهب - بالطفل أكثر من الكتاب أو موضوع الدراسة أو المدرس ، ويذهب إلى أن الطفل إذا نال خبرة واسعة النطاق فإنه يحصل على أحسن تهيئة ممكنة للمستقبل ، ولما كان النشاط الحر هو أبرز مميزات الطفولة ، فيجب أن يكون الطفل نشيطاً ولا بد من أن تلتزم المدرسة منتهى الدقة في تأسيس عملها على ميول الطفل الطبيعية ، فإذا فعلت ذلك أمكنها أن تستغل نشاط التلاميذ ، وأن تبعث فيهم رغبة صادقة في العمل فيقبلوا عليها فرحين ، ويعارض « ديوى » التعليم الشكلي وينتهى إلى أن التعليم عملية نشيطة لا مجرد تقبل للحقائق .

ويحلل ديوى ميول الطفل إلى أربعة أنواع :

١ - ميل نحو المحادثة أو الاتصال (الاجتماعى) .

٢ - ميل نحو البحث واقتناء الأشياء .

٣ - ميل للعمل أو الأشياء .

٤ - ميل نحو التعبير الفنى .

هذه هى المنابع الرئيسية التى إذا استثمرت إنما الطفل نمواً طبيعياً ، على أن القراءة والكتابة والحساب تدخل ضمن هذه الميول المختلفة ، فهى وسائل تعين على تحقيقها لا غايات فى حد ذاتها .

والمشكلة التى يجب أن نعالجها هى :

١ - كيف نرود الطفل بقدر كبير من الخبرات ؟

٢ - ثم كيف نوجه هذه الخبرة المباشرة توجيهاً يشعر الطفل بحاجته

إلى التراث الاجتماعى التقليدى ؟

إننا إذا وصلنا إلى حل هذه المشكلة لم يعد تعلم القراءة أو الكتابة أو الحساب ذا أهمية كبرى ، ولم تعد تفسد هذه الأدوات علينا جهادنا في سبيل توفير نواحي النشاط للتلميذ — أى أن المنهاج عند « ديوى » يصل طبيعة الطفل بالحياة فيختار مواده من نواحي الحياة الحقيقية المختلفة ، ويهتدى بمبدأ جوهرى هو ميل الطفل الطبيعية في مراحل نموه المختلفة .

(ح) الفلسفة المثالية

لا يهمها الطفل ، حاضره أو مستقبله ، ولكن تهمها المثل العليا ، ويهمها عالم الفكر ، فهي تهتم بتجارب الجنس البشرى بأجمعه لا بتجارب الطفل . وهى تهتم بمجموع المعرفة الإنسانية ، وتحاول أن تنظمها وتركزها وتقدمها للطفل . كما أنها ترى أن هدف المدرسة هو أن تمثل الحياة المدنية كاملة فيها . إذن فالتربية ترى إلى تركيز وتنظيم الخبرة البشرية التى يساهم الطفل فى استمرارها وتجديدها .

وهؤلاء المثاليون يحللون الخبرة البشرية ويبدأون بتقسيمها إلى قسمين :

١ — ما يختص بالبيئة الطبيعية . ٢ — ما يختص بالإنسان .

وهذا يؤدي إلى تقسيم المنهاج إلى قسمين كبيرين :

(أ) العلوم (ب) — الإنسانية

وكل منهما يمكن أن يقسم بدوره أقساماً عديدة بحيث تشمل على كل أنواع الدراسات .

أما القراءة فتنقسم إلى :

(أ) إدراك أو معرفة . (ب) نزوع أو عمل .

(ح) وجدان وهو ما يشعر به الشخص نفسه نحو عمل ما

ولو أننا اتبعنا هذا التقسيم فى المنهاج لوجدنا أن ينقسم إلى الأمور الآتية :

(أ) دراسات خاصة بما يعمل به الإنسان أو يتزع إلى عمله ، وهذه يجب

أن تشمل الصناعات الرئيسية كإعداد الطعام والشراب والمأوى ، وهذا يؤدي

بطبيعة الحال إلى استعمال الآلات، وإلى الفنون الجميلة التي تظهر لها حاجة عملية .
 (ب) ما تعرفه الإنسانية — فيجب أن يكون في المنهاج ما يمثل الطرق
 الرئيسية للتفكير فيشمل : الأدب ، واللغة ، والعلوم ، والرياضة ، والتاريخ ،
 والجغرافيا — الدراسات الفكرية التقليدية بوجه عام ، وأخيراً يجب ألا تغفل
 المدرسة .

(ج) طرق الوجدان عند الإنسان أو التعبير عن هذا الوجدان ، وبعبارة
 أخرى : الفن ، والشعر ، والموسيقى — ولقد نادى أفلاطون ، وهو ذلك المربي
 المثالي « بضرورة تعليم التلاميذ حب ما ينبغي لهم أن يحبوه وكره ما ينبغي
 لهم أن يكرهوه » .

(د) رأى « سير برسي زن » : بمدنا بتقسيم أكثر تفصيلاً للمنهاج فهو
 يقسم مظاهر نشاط الإنسان إلى مظهرين عظيمين :
 أولاً : مظاهر النشاط الاحتفاظي التي من شأنها الاحتفاظ بالحالة الراهنة ،
 وبمستويات الفرد والجماعة ، كالاتمام بالصحة العامة ، ورشاقة الجسم ،
 والتقاليد ، والنظام الاجتماعي ، والأخلاق ، والدين .

ثانياً : مظاهر النشاط الابتكاري ، وهو النوع الذي تقيم عليه المدنية
 صرحها ويشمل النشاط الإبداعي الذي يشمل الجانب المادي من الحضارة ،
 ويمكن أن نقف على هذا النوع بسهولة ، وما على القارئ إلا أن يتصور
 مدنيّتنا ، وقد عدم منها نتاج الفن والأدب ، فما أشقى هذا العالم وأقصره إذا كف
 الشاعر عن شعره وأغانيه وشت يد الصانع عن صناعته .

إن جميع مظاهر النشاط السابقة الذكر يجب أن تتمثل في المنهاج ، فما
 هي إلا المظاهر الكبرى للنفس البشرية ، وفي هذه المظاهر تتلخص الطاقة
 الابتكارية . لكل جيل ، وتتخذ أشكالها الخاصة بها ، وإن لم يحدث ذلك فعلى
 المدنية السلام . ولنبداً الآن بمظاهر النشاط الابتكاري ، فكل منهج تربوي كامل
 يجب أن يضم المواد الآتية :

أولاً : الأدب أو على الأقل عيون الأدب القوي .

ثانياً : بعض أنواع الفنون بما فيها الموسيقى .
 ثالثاً : الأشغال اليدوية إما لناحيّتها الفنية كالنحت والنسيج ، أو لناحيّتها العملية كالنجارة وأشغال الإبرة .

رابعاً : العلوم بما فيها الرياضة أعنى ؛ علوم الكم والزمان والمكان .
 على أن مظاهر النشاط الاحتفاظى لا يمكن معالجتها كمواد قائمة بذاتها ، وكلما كان تدريسها عرضياً في ثنايا المواد الأخرى كان ذلك أفضل - فالتربية الصحية ، ورشاقة الجسم مثلاً لا يمكن أن يتعلمها الطفل كما يتعلم اللغة الفرنسية ، ولكن من الممكن جداً أن يتعلم التلميذ مبادئ الصحة من المثل العليا الصحية التي يراها أمامه ، كذلك يمكن معالجتها في ثنايا دروس العلوم .
 وأما الرشاقة الجسمية فيجوز أن يكون هناك دروس خاصة للألعاب الرياضية .
 وبالمثل يتمكن الطفل من أن يفهم تنظيم المجتمعات ويدرس المثل العليا وذلك عن طريق تأديته واجباته كعضو صالح في المجتمع المدرسى . أما التربية الوطنية فيمكن أن يتعلمها الطفل في ثنايا دروس التاريخ .

أما الدين فيجب ألا تقل العناية به عن أى مادة أخرى ، ويجب أن تشترك المؤسسات الاجتماعية المختلفة في بث روح الدين إذ أنه من الظلم أن نلقى على أكتاف المدرس والمدرسة وحدهما عبء بث هذه الروح ، فإلى المدرسة إلا أحد الميادين التي ينعكس فيها صدى هذا الاضطراب وتلك الحيرة التي أضعفت النشاط الروحى لشعوب العالم المتمدين .

وفي تدريس الدين يجب أن نميز بين شيئين هامين هما :
 أولاً : روح الدين .
 ثانياً : تعاليم الدين أو نظرياته .
 وأول ما يجدر الاهتمام به هو إيقاظ الروح الدينية وتقويتها في المنزل ، وفي المدرسة وفي المجتمع الأكبر ومتى قويت أقبل الطفل على تعاليم الدين وعلى نظرياته .
 وفيما يلي سنلقى نظرة على المواد التي تنتظم المنهج ، نهدف من ورأها إلى بيان الاعتبارات المختلفة التي يمكن أن تراعى في اختيارنا لهذه المواد ، حتى تعود بالفائدة المرجوة منها على الأطفال .

اختيار مواد المنهج والاعتبارات التي يجب أن تراعى

والآن نتساءل أى المواد نختارها لأبنائنا ، وأى المناهج ننتقيها لهم ؟
لما كانت المناهج هى الأسس التى بواسطتها يمكن أن تتحقق المثل العليا
للترية كان على القائمين بأمر التربية أن يعنوا عناية خاصة باختيار المواد
التي تلائم الأطفال ، وتناسب سنهم ، واستعدادهم ، وبيئتهم ، ومطالبهم ،
وأن يوفقوا بينها وبين مطالب المجتمع الذى يعيشون فيه حتى يكونوا أعضاء
عاملين ينفعون المجتمع ، وينتفعون منه .

والآن هل نترك للتلميذ الخيار فى أن ينتقى من المواد ما يتفق وميوله الخاصة ،
ويترك ما عداها ؟ إذا كان الأمر كذلك فهل تنقلب التربية فوضى لا يقرها
العقل السديد لأنها تساعد على هدم الأخلاق أكثر من تكوينها كما يرى
البعض ؟ ! ليس من شك فى أن ميل الطفل له أكبر الأثر فى إقباله على
المواد وفهمه لها ، ولكنه إذا نما وكبر بعض الشيء تدخلت بعض العوامل
الأخرى فى هذا الإقبال ، فقد يدفعه الى الإقبال على المواد خوفاً من أن يتهم
بالجهل ، كما قد يدفعه إليه رغبة فى الظهور على أقرانه أو أصدقائه ، وقد
يدفعه إليه ميله لإرضاء مدرسيه ، والأخذ برأيهم : هذا كله يحدد بنا إلى
القول بأن الطالب الثانوى قد يسهل عليه أن يحدد ميوله ، ويوجه نفسه الوجهة
التي يرضاها ، أما الأطفال فليس فى مقدورهم أن يتخيروا ما يلائمهم من
القروع والأبحاث التي تناسبهم من كل فرع وليس فى إمكانهم أن ينظموا
ما وقع عليه اختيارهم ، بل إن المربين هم الذين يختارون مواد الدراسة ، ويوزعونها
على مراحل التعليم . وسنرى الدراسة مراعين الاعتبارات الآتية :

أولاً - الاعتبارات السيكولوجية ، أو حاجات المتعلمين .

ثانياً - الاعتبارات الاجتماعية أو حاجات المجتمع .

ثالثاً - الأهداف العامة التي ترى إليها التربية .

الاعتبارات السيكولوجية

إن فكرة احترام طبيعة الطفل من الأفكار الحديثة في التربية - وهي - كما سبق أن ذكرنا مراراً - أهم مميزات التربية الحديثة - فإعادة ميول الطفل الحاضرة ، وحاجاته هي الضمان الوحيد للنتائج الحسنة في التربية والتعليم ، فلا يصح أن يتعلم الطفل ما لم يتهيأ له بعد . ولكن التربية القديمة لم تراع هذا المبدأ مطلقاً ، فهي تبتدئ بمعرفة البالغين ، وتعلم الطفل كل ما بهم الرجل أن يعرفه الأمر الذي لا يتلاءم مع ميوله واستعداداته بحجة أن ذلك ينفعه في مستقبله ، ونتج عن ذلك أن ازدحم المنهج بالمواد ، وتكدست فيه جميع أنواع المعرفة الإنسانية ، ولقد قام هذا المنهج الذي لا يتفق وحاجات الطفل على أساسين هامين : أولهما فلسفي خاطيء خلاصته أن متانة المجتمع وتماسكه هي أهم قيمة يجب مراعاتها ، وعلى هذا الأساس الفلسفي الخاطيء لم تعمل محاولات لتنمية قدرات الأفراد ، وانحصر الاهتمام في صيهم جميعاً في قالب واحد ، وإخضاعهم للتقاليد والسلطان ، وأداء ما يطلب منهم من أعمال ؛ وثانيهما سيكولوجي خاطيء أيضاً إذ اعتبر النشاط العقلي مستقلاً عن النشاط الجسمي ، واستخدم المواد الدراسية لتنمية العقل ، وأهمل أنواع النشاط الأخرى ، وأهمل الاحتكاك بالشئون العملية للبيئة .

ويصح هنا أن نورد ما ذكره الأستاذ « رايغونت » Raymon فهو يقول بأن الغرض الذاتي Subjective من تعليم الطفل هو تنمية بعض ميوله الفطرية وهو يميل إلى الطبيعة كما يميل إلى الإنسان ، أما الغرض الموضوعي فهو تفهيمه علاقاته ببيئته التي يعيش فيها ، وهذه البيئة تشمل البيئة الطبيعية المادية كما تشمل البيئة الاجتماعية أو الإنسانية وعلى هذا الأساس يجب أن نغني عناية خاصة بميول الأطفال واستعداداتهم وبمجاراة الطبيعة في هذا الاتجاه . فالسير ضد الطبيعة له ضرران : أولهما : كراهية الطفل للعمل . وثانيهما : أننا نحصل على نتيجة لا تتناسب مع المجهود الذي يبذل ، وأن نغني أيضاً

بدراسة البيئة التي تحيط بالطفل فهم مولعون بها : أشكأها هيئتها ، لونها ، كيفية تسخيرها واستخدامها . . . إلخ ، منهمكون فى خلق عالمهم الخاص المصغر .

الاعتبارات الاجتماعية

يجب أن يضع واضع المناهج نصب عينيه حاجة المجتمع ؛ فالترية الحديثة تنادى بأن تكون مناهج الدراسة ملائمة لحاجات الزمان والمكان ، أى لحاجات المدنية الحديثة وحاجات البيئة المحلية ، فيجب أن يقوم المناهج على أساس هذه الحاجات بشكل يساعد الطفل على اكتساب القدرة كى يعيش كفرد نافع فى المجتمع ، وأن يحترم هذا المجتمع عن طريق المساهمة فى حل مشكلاته والهوض به .

هذا ولقد تمخض القرن الماضى عن نوعين من التغييرات غيراً عادات الناس المعيشية وأساليب تفكيرهم . وهما نمو المثل العليا الديمقراطية ، وتقدم العلوم الطبيعية، والبيولوجية على الخصوص ، وما نشأ عنها من الاختراعات، وتقدم الصناعة . وهذه التغييرات كانت تتطلب دائماً تغييراً مناسباً فى مناهج الدراسة .

ومناهجنا الحالية متأثرة إلى حد بعيد بالمدنية اليونانية الأرستقراطية وبسائر المدنات القديمة الأتوقراطية ، ولكنها لا تتناسب مع المدنية الحديثة الديمقراطية . فالمدنية اليونانية كانت مدنية أرستقراطية ، وكانت الأعمال اليدوية كلها من اختصاص طبقة العبيد والطبقة الدنيا . لذلك كان ينظر إليها وإلى القأئمين بها بازدراء واحتقار ، وكان فلاسفة اليونان يعلنون من شأن الحياة العقلية والثقافية ، ويرفعون من أهمية موادها الدراسية ويقللون من شأن المواد العملية ، وكانوا يعتقدون بأن المرء لا يستطيع أن يخدم سيدين وهما : العلم ، والصناعة . ولذلك كان اليونان يعتقدون أن إدخال الأعمال اليدوية فى المدارس معناه إعداها لتخريج خدم لا سادة ، فالعمل كان عندهم هو العبودية ، والضعفة

الاجتماعية . وعلى هذا الأساس كانت مواد الدراسة عندهم نظرية ، وبجودة ، وبعيدة عن الحياة العملية ومسائل الحياة الشخصية ، فكان التعليم لا يؤدي إلى كسب العيش لأنه كان مقصوراً على طبقة أرستقراطية ليست في حاجة إلى ذلك . ومازالت مناهجنا متأثرة بهذا الاتجاه ؛ فنظرة عميقة إلى مناهجنا الحالية ترينا أنها متخلفة عن الأحوال الاجتماعية وعن حاجات المجتمع فهي لا تهتم - في الوقت الحاضر - بالمشكلات التي يواجهها التلاميذ أو التي يحتمل أن يواجهوها عندما يتم رشدهم ؛ كما أنها لا تزود التلاميذ بالقدر الكافي من الخبرة الذي سيمكنهم من العيش في مجتمع سريع متغير . فالمنهج الحالي لا يعد التلاميذ للحياة الكاملة أو الاشتغال بمهنة أو المحافظة على الصحة أو القيام بواجبات معينة ، أو حسن استخدام أوقات الفراغ .

ويرى « جون ديوى » أنه ليس مما يناسب الديمقراطية الحديثة أن توجد مدارس خاصة بأبناء الأغنياء ، وأخرى مقصورة على أبناء العمال . على أن تقدم العلوم الطبيعية والبيولوجية كان شيئاً مباشراً في رقى الصناعة وفي كل مظاهر المدنية الحديثة ، لذلك كان طبيعياً أن تنبؤ هذه العلوم مكاناً رفيعاً في المناهج التي كانت مزدحة من قبل بالثقافة الأدبية واللغوية وجميع أنواع المعارف اللفظية . وبالإضافة إلى هذه المواد يجب ألا تقتصر وظيفة المدرسة على تزويد التلاميذ بهذه المواد الحديثة ، بل يجب أن تثير اهتمامهم بالمسائل والمشاكل العديدة التي تضعها أو تثيرها الظروف الاجتماعية الحاضرة ، وأن تعودهم ربط المعارف التي يحصلون عليها بجميع أنواع النشاط الموجودة في الحياة .

فناهج الدراسة إذن يجب أن تخضع للتطور ، ذلك التطور الذي خضعت له الحياة بأسرها ، يجب أن تتمشى (مناهج الدراسة) مع تغيرات الحياة لتسد حاجات الأمة ، وتشبع مطالبها الاجتماعية والاقتصادية ، يجب أن تخضع للتغير على ضوء ما يتناول المجتمع من تغيرات ، وعلى هذا الأساس يجب أن تصبح المدرسة وسيلة لإحداث التغيرات الضرورية في الأحوال الاجتماعية عن

طريق التطور البطيء . فشاكلنا الاجتماعية يجب أن تتبوأ مكاناً هاماً من مناهجنا الدراسية ؛ هذا إذا أردنا أن نعد فرداً صالحاً للعيش في المجتمع بخدمة ويساهم في حل مشاكله .

أغراض التربية

إن المناهج الدراسية هي وسيلة لتحقيق أغراض التربية ، فإذا اعتورها نقص أو اضطراب كانت الغاية ناقصة مضطربة ، ومن هنا يتبين لنا مدى العلاقة بين أهداف التربية وبين المناهج الدراسية ، والحقيقة أن أكبر موجه للمناهج وعملها هي الأهداف العامة للتربية ، فالمناهج جزء من فلسفة التربية لأن تعيين الأغراض دون تحديد الوسائل فيه خطورة ، فالغرض المهني مثلاً يترع بالمواد إلى الناحية المهنية على حساب الناحية الثقافية ، وقل مثل هذا في العكس : وأغراض التربية تؤثر في المنهج بالشكل الآتي :

- ١ - تساعد على تحديد فروع الدراسة والمواد الخاصة بكل .
 - ٢ - تساعد على بيان قيمة العلاقات المختلفة لفروع الدراسة وموادها .
 - ٣ - تساعد على تحديد أهداف فروع الدراسة المختلفة والمواد التي تنطوي تحت لواء كل منها .
 - ٤ - توضيح طريقة معاملة فروع الدراسة ومواردها .
- ولا نطن وقد فرغنا من الحديث عن الاعتبارات المختلفة التي يمكن مراعاتها في اختيار المادة التي يتكون منها المنهاج - أن ذلك يعفينا من الحديث عن الأسس التي يمكن أن يستند عليها المنهاج ، حسب ما تقول به الآراء المختلفة .

الأسس التي يستند عليها في عمل المنهاج

توجد ثلاثة أسس يمكن أن نستند إليها في عمل المنهاج .

أولاً - الطفل كأساس في عمل المنهاج .

ثانياً - المعلومات » » » »

ثالثاً - المجتمع » » » »

١ - الطفل كأساس في عمل المنهاج

أنصار هذا الرأي ينقسمون إلى قسمين :

(أ) فريق ينظر إلى الطفل على أنه كائن حي ينمو من الباطن (وهذا الفريق يؤمن بقيمة الوراثة) .

(ب) فريق آخر ينظر إليه على أنه كائن حي خاضع في نموه للمؤثرات البيئية (أى ينمو من الخارج) .

وأنصار القسم الأول يؤمنون بمبدأ الحرية كعامل هام من عوامل النمو ، ويؤكدون بأن « الحرية نمو » Freedom is growth كما أن « التربية نمو » أيضاً Education is growth ومن المتحمسين المتطرفين من أنصار هذا الرأي « جان جاك روسو » الذى يمكن بحق أن نعتبره نصير الطفل ، وحامى حى الطفولة - ذلك الرجل الذى كان بطبيعته ثائراً على كل الهيئات الاجتماعية ، والنظم القائمة ، والذى تظهر ثورته بوضوح في عبارته : « سيروا ضد ما أنتم عليه ، تجدوا أنفسكم دائماً في طريق الصواب » ، وقد قال في مناسبة أخرى : « إن كل الهيئات الاجتماعية ليست إلا كتلة واحدة من السخافة والمتناقضات » ولذلك نجده يطالب بأن نبعد « أميل » عن أبويه وعن المجتمع وعن مدرسيه كى يربيه وفق الطبيعة وبين أحضانها على يد مؤدب أو مرب خاص ، والله لا يخلق إلا كل ما هو خير ، ولكن لا يلبث الإنسان أن يتدخل في كل ما خلق حتى يفسده .

و« روسو » وأتباعه يهتمون بالطفل كما هو كائن فعلاً أكثر من اهتمامهم به كما يجب أن يكون ، فلا يعتبرون التربية عملية إعداد للمستقبل ولكنها إعداد للحاضر . هم يتوقعون من الأطفال أن يكونوا أطفالاً قبل أن يكونوا شيئاً آخر ، طبقاً لعبارة روسو الشهيرة : « إن الطبيعة تتطلب منهم أن يكونوا أطفالاً قبل أن يصبحوا رجالاً » ويتألمون ألم روسو حين يقول : « نحن نضحى في تربيتنا الحالية بحاضر الطفل المحقق من أجل مستقبل غير مضمون » نحن نعمل على

أن نحمل الطفل مالا طاقة له به ونبدأ بإتعبه من أجل إعدادة لمستقبل وسعادة قد لا يصل إليها في المستقبل مطلقاً .

من ذلك نرى أن اهتمام « روسو » بطبيعة الطفل ماهو إلا اهتمام بغامل نموه الطبيعي . ولا يهم الطبيعي المتحمس أن تبني التربية على أى مبادئ نفسية مهما كانت نتائجها صحيحة ، ولكن هدفه الحقيقى هو أن يطلق العنان لطبيعة الطفل وأن يفك عقاقها ، فالتربية فى نظره اتساع المجال للنمو الطبيعي وتتم إذا سمح لطبيعة الطفل وقواه وميوله أن تنمو نمواً سريعاً بأقل تدخل أو إشراف ممكن . والمدرسة فى نظرة بيثة مثالية تنساب بين زواياها روح الحرية التى تساعد على نمو الطفل ، ويكره الطبيعي المتحمس الجدول الموضوعة التى تفرض على الأطفال الاستماع للمدرس واحد فى وقت واحد .

فالتطبيعى المتحمس إذن يركز اهتمامه فى خبرة الطفل الحالية وفى ميوله الحاضرة فهذه وحدها هى التى ستقرر عمل المدرسة ومنهجها ، فدع الطفل حراً فى خبرته الخاصة ، ولا تعطل نشاطه ولا تعترض نموه بل لا تتدخل فيه ولا توجهه . أما المنهاج أو الهدف الذى يرى إليه فهو النمو السعيد لكائن حى متفق تماماً مع البيئة .

أما الفريق الثانى فينظر إلى الطفل على أنه كائن حى خاضع فى نموه للمؤثرات البيئية (أى ينمو من الخارج) وهم يعتقدون أن البيئة تلعب دوراً كبيراً فى نمو عقل الطفل كما تلعب دوراً هاماً فى نمو جسمه ، فنحن نغذى العقل بالمعرفة كما نغذى الجسم بالطعام فكما أن جسمه يعتمد فى نموه على « فيتامينات » البيئة الخارجية فكذلك عقله يجب أن يعتمد على المعارف التى يكتسبها من تلك البيئة .

وهذا الفريق متأثر فى أحكامه بنظرية علمية قديمة هى نظرية التدريب الشكلى Formal Training . وقبل أن ندخل فى تفاصيلها يحسن بنا أن نرجع رجعة سريعة إلى الوراء لنرى الأساس الذى تمخضت عنه تلك النظرية .

إن نظرية التدريب الشكلى، وليدة نظرية الملكات ، وأنصار هذه النظرية يعتقدون أن المعلومات تسن العقل ، وتكسبه قدرة على التفكير ، وقدرة على مواجهة المواقف الجديدة فى الحياة ، وقد صرح سقراط « بأن كل من درس الهندسة أسرع فى الفهم من غيره » ، ويقال إن أفلاطون لم يكن يقبل أحداً من طلاب الفلسفة إذا كان على جهل بعلم الهندسة . أما شكل العقل فهو مجموعة من الملكات أو القوى مثل الذاكرة ، والتفكير . والتخيل ، والحكم ، والملاحظة وغيرها ، ووظيفة التربية شحذها وصقلها حتى تصبح قادرة على الاستعمال فى أى اتجاه ، وتذهب النظرية إلى أبعد من ذلك فتعلن أنه لا قيمة لما يتعلمه الفرد فى حد ذاته بل القيمة كل القيمة فى الأثر المتخلف عنه .

وعلى ذلك الأساس يقسم العقل إلى مناطق ، فالرياضة تدرب ملكة التفكير ، والحساب يعلم الحذر والانتباه ، وتؤدى الآداب القديمة إلى وضوح التعبير وتهذيب الذوق ، أما التاريخ فيقوى ملكة الحكم ، والعلوم تقوى ملكة الملاحظة ، والحفظ يدرب الذاكرة ويقويها . ولما كان « الميسن » يجب أن يكون صليداً حتى يشحذ السكين فإن المواد الدراسية يجب أن تكون صعبة حتى تشحذ القوى العقلية ؛ لذلك لا بد فى اختيارها من مراعاة الشدة والصعوبة .

ومثل هذا رأى فى التربية يصعب الأخذ به ، وعلى ذلك ، فنظرية « الميسن » هذه يمكن أن نعتبرها مرحلة سفسطة وتفضيل فى التربية . ومن هنا نرى أنه لا ضرورة للتمسك بصعوبة المواد المختارة .

زد على ذلك أن « نظرية » الملكات التى يقوم عليها مذهب « التدريب الشكلى » قد أصبحت موضعاً للشك إذ يجب أن ننسى أن العقل وحدة غير قابلة للتقسيم ، وأنه — على ذلك — لا يمكن ولا يصح أن نعتبره مجموعة من الملكات .

ولم يقتصر فى نقد هذه النظرية على ذلك بل دخل علماء علم النفس التجريبى فى هذا الميدان ، وقالوا إنه إذا كانت هذه النظرية صحيحة ، فإن تدريب ملكة فى ناحية من النواحي يجب أن يقوى تلك الملكة فى ناحية أخرى .

إذا دربت الذاكرة في حفظ الشعر فيجب أن يكون هناك انتقال لآثار التدريب بحيث يظهر تحسن أيضاً في تذكر أى مادة أخرى كالتواريخ ، والقواعد ، والرياضة مثلاً - ولكن نتائج التجارب التى تدل على انتقال أثر التدريب

كانت سلبية لدرجة كبيرة ، ويخلص «سانديفورت» هذه النتائج فيما يلى :
أولاً - إن انتقال أثر التدريب قد يكون سلبياً أو إيجابياً أو صفراً وهو عادة إيجابى ، ولكن مقادير الإيجاب أقرب إلى الصفر منها إلى ١٠٠ ٪ .

ثانياً - إذا كان انتقال أثر التدريب ظاهراً فإنه يدل دائماً على وجود قدر مشترك من العناصر بين الموضوعين اللذين انتقل الأثر من واحد منهما إلى الآخر : ضرورة وجود عناصر مشتركة Identical Elements .

ثالثاً - لا يوجد دليل قوى يعزز الاعتقاد بأن تدريب أى ناحية من العقل تدريباً خاصاً يؤدي إلى تدريبها تدريباً كلياً شاملاً .

وعلى أى حال فإن «لونجدين» و «بتس» ، لم يجدا أى انتقال يذكر لأثر التدريب حتى لو كان هناك اشتراك فى العناصر بين مادتي التدريب ، وقد وصلا إلى هذه النتيجة بعد إجراء تجاربهما التى توخيا فيها منتهى الدقة ، فقد استعانا بمجموعة لم تتلق أى تدريب وثبتنا من أن أفرادها يتفقون مع أولئك الذين دربوا فى كل ناحية فيما عدا التدريب ، وقد كان عدد المفحوصين كبيراً بحيث يعطون نتائج إحصائية دقيقة ، تحت هذه الظروف جميعاً ، وبعد هذا الاحتياط البالغ ، كانت النتائج سلبية .

وقد تلا ذلك استقصاء وبحث قام به «كوكس» «Cox» ودفعه إليه فرمر «Wyermer» بين مجرد التمرين ، ومجرد التدريب فإن الأول آلى ، والثانى فيه عنصر الفهم والبصيرة ، وهذا ما يساعد على عملية التدريب ، وانتقال أثر التدريب لا يأتى من اشتراك المادتين فى بعض العناصر فحسب ، إنما يأتى من اشتراكهما فى طريقة البحث ، ولا سيما إذا استرعت هذه الطريقة الانتباه ، وهذه النتيجة تتفق مع دراسات «روديجير» «Rudiger» فقد وجد أن التدريب على النظافة فى نوع واحد من العمل المدرسى قد ينتقل أثره إلى

الأنواع الأخرى إذا ما بذلنا في أثناء التدريب محاولات لجعل النظافة مثلاً أعلى بين التلاميذ في كل الكراسات .

كما أنها أيضاً تؤيد وجهة نظر « باجلى » Bagley وهى أن أهم عامل فعال في انتقال أثر التدريب هو إقامة المثل العليا ، وتقويتها عمداً ، وتشجيعها عن قصد في أثناء التدريب ، « فثلاً التفكير الدقيق الذى درب التلميذ عليه في دراسة الرياضيات ، قد يستفاد منه أيضاً في نواح أخرى ، في الاقتصاد السياسى أو علم النفس ، أو في الأعمال اليومية ، على شرط أن يكون التلميذ قد اكتسب تقديراً خاصاً ، وحباً عميقاً للطريقة الرياضية الواضحة القاطعة » .

والخلاصة أنه إذا تكونت « عواطف » نحو تلك الموضوعات فإننا في هذه الحالة ننتظر انتقالاً في أثر التدريب ، لأن العواطف هى التى تكون اتجاهنا العام نحو المشاكل العديدة التى تقابلنا في حياتنا اليومية ، وتحديد طرقنا العامة في معالجتها . ومن المؤكد على أى حال أن نمو العواطف حول المادة يتوقف على العلاقة بين المدرس والتلميذ أكثر مما يتوقف على موضوع المادة نفسها .

٢ - المعلومات كأساس في عمل المنهاج

وينقسم أنصار هذا الرأى فيما بينهم إلى فريقين :

(١) الفريق الأول : يدين بمبدأ الإحاطة التامة بجميع المعلومات Comprehensive Form of Knowledge ، فهؤلاء هم أنصار فكرة دائرة المعارف التى تتحرك على قدميها ، فهم يودون تلقين الطفل كل ما هب ودب ، يريدون تلقينه جميع الخبرات الاحتفاظية منذ أن بدأت الخليقة حتى الوقت الحاضر .

ومن الواضح جداً أن في هذا الرأى غلوّاً ظاهراً ، فإذا كان احتمال وعى العقل البشرى لجميع المعلومات الإنسانية ممكناً في وقت من الأوقات ، فإنه أصبح مستحيلاً في الوقت الحاضر لاتساع ميادين العلم المختلفة .

(ب) الفريق الثانى : يؤمن بمبدأ الاختيار Selective Form of Knowledge فهم يؤمنون بفكرة التبسيط ، فبدلاً من أن يفرضوا على الطفل خبرات السلف بحذافيرها نجدهم ينادون باختيار ما هو صالح لهذا الطفل من كل الميادين ، فيأخذون من كل نبع قطرة ، ومن كل بستان زهرة . ولهذا المذهب أنصار كثيرون فى الوقت الحاضر ، ففكرة الاختيار تجد لها سوقاً رائجة فى المجتمعات المعقدة ، وأكبر مثل لذلك هو تقسيم مواد المنهج إلى : إجبارية يشترك فيها الجميع ، وإلى اختيارية ينفرد فيها من كان له ميل نحوها . ويوجه إلى أنصار هذا المبدأ نقد جوهرى وهو أن تعليم الطالب بهذا الشكل لا ينتج عنه إلا فرد ضحل المعلومات مهوشها .

٣ - المجتمع كأساس فى عمل المنهاج

وينقسم أنصار هذا الرأى فيما بينهم انقساماً داخلياً إلى فريقين :

(١) فريق ينظر إلى المجتمع بمنظار المحلل الواقعى Analytic Realist فهم يطالبون بتحليل المجتمع كما هو موجود فعلاً إلى عناصره الأولية ، ثم يطلبون منا تمثيل هذه العناصر فى مدارسنا على أساس نسبة تكرار حدوثها فى العالم الخارجى ، فالقياس الذى يتخذونه هو عنصر التكرار Repetition فثلاً قد حددت طريقة ونيثكا الحد الأدنى لكل مادة من المواد التى تدرس للطفل بعد دراسة دقيقة ، إذ قام قسم المباحث فى مدارس إحدى المقاطعات الأمريكية بتحليل كل أمثلة جمع الكسور من حيث الصعوبة ، وكشفت « الجمعية القومية للدراسة التربية بأمريكا » أن التجارة والصناعة والعمليات العادية فى الحياة لا تتطلب جمع أعداد مقاماتها أكثر من ١٢ ، وبما لاشك فيه أن أنصار هذا الرأى يرون أن واجب التلميذ الأول هو المعرفة والإلمام بمبادئ الحساب ، ولكن الذى يجب أن تتأكد منه المدرسة هو السرعة والدقة المطلوبة من كل تلميذ فى إجراء العمليات الحسابية ، ولمعرفة ذلك طلب من كل تلميذ فى المدارس الابتدائية والثانوية أن يسأل والده عن العمليات الحسابية التى

احتاج إليها في أعماله اليومية في متجره أو مصنعه أو مكتبه ، ثم أخذت نتائج هذا الاستفتاء وسجلت ، وأجريت بحوث أخرى مثلها في المحال التجارية وأعمالها الحسابية الصغيرة والكبيرة ، وعرف منها نوع العمليات الحسابية الأكثر استعمالا في الحياة التجارية العادية . وهذه المعلومات ساعدت على معرفة ما يجب أن يلم به كل شخص ، وما يجب أن يتعلمه كل تلميذ قبل أن يخرج إلى الحياة - كما أجريت البحوث العديدة لمعرفة ما يحتاج إليه كل تلميذ من المعلومات اللغوية والتاريخية وغيرها ، وبذلك تمكنت مدارس « ونيكا » من تحديد برامجها وموضوعات دراستها ، وأصبحت لا تدرس للتلاميذ إلا كل ما يحتاجون إليه في حياتهم اليومية أو سيحتاجون إليه في المستقبل . على أن نقطة الضعف البارزة في هذا الرأي هو أن التكرار لظاهرة من ظواهر المجتمع لا يسوغ اتخاذه دليلا على أهمية هذه الظاهرة ، كما أن اتباع هذه الطريقة وتطبيقها في المدارس إنما ينتج عنه أفراد لا يصلحون إلا لهذا المجتمع كما هو كائن فعلا ، وهم يهملون أمر المجتمع كما يجب أن يكون .

(ب) فريق ينظر إلى المجتمع بمنظار الناقد المثالي Critical Idealist وأنصار هذا الرأي لا يدينون بفكرة أخذ المجتمع كما هو موجود فعلا ، ولكن يؤمنون بإعداد الأطفال لمجتمع أحسن حالا من مجتمعنا الحالي ، والمعيار الذي يتخذونه هو معيار قيم الأشياء ، وهدفهم الذي يرمون إليه هو إخراج جيل من الأجيال يمكنه أن يهيئ نفسه للمدنات المتغيرة ، كما يمكنه أن يعيش في مدينة مستواها أرقى من المدنية التي نعيش بين ظهرانيها ، ويكون تمثيله لمظاهر النشاط الاجتماعية الموجودة خارج المدرسة بمعيار قيمتها المثالية ، فهو لا يدخل في المنهج مظاهر النشاط بحسب قيمة تكرارها ، ولا يدرس هذه المظاهر إلا باعتبار ما يجب أن تكون عليه ، أي بعد تطهيرها من عناصر الرذيلة التي ربما يكون المجتمع الحالي قد ألصقها بها .

تلك هي الأسس التي يجب اتخاذها في الحساب عند عمل منهج من المناهج . فتناهج الدراسة يجب ألا تغفل حقوق الطفل ، ومقدرته العقلية ،

وكفايته العقلية ، ونزعاته الفطرية ، فليس من الحكمة أن نفرض على الأطفال طائفة من المناهج تكدر عقولهم ، وتتجاوز طاقتهم وتتنافر مع طبائعهم . كما أن المعلومات التي تقدم للناسي يجب أن تتفق ومراحل النمو ، وعلى واضع المنهاج مراعاة ألا ينتقل بالأطفال انتقالاً فجائياً من طائفة من المعلومات إلى طائفة أخرى بل عليه أن يسلك سبيل التدرج . وأخيراً من الخطأ أن ينتزع المنهاج الطفل من بيئته فموضوعات الدراسة يجب أن تكون شديدة الاتصال بحياة الأطفال ووثيقة الارتباط بالبيئة التي يعيشون فيها ، فالطفل كالنبات لا ينمو ويتزعر إلا في البيئة الصالحة ، فإذا أردنا أن ننزعه من هذه البيئة وجب أن نهني له بيئة أخرى تشبه البيئة التي نما فيها . ومن هنا تنتقل إلى تنظيم المنهاج :

تنظيم المنهاج

والآن نسأل : كيف ننظم المنهاج ؟

إذا أردنا أن نحقق جميع أهداف التربية فلا بد وأن نعمل على صيغ جميع خبرات المتعلم بالوحدة والتكامل ، وبعبارة أخرى أن ننظم كل خبرة من خبراته بحيث يشيد من مجموع لبنات تلك الخبرات كل شامل متناسق تواز فيه كل لبنة أختها .

وتنظيم المنهاج من الأمور الهامة جداً في التربية ، فإذا أمكن تحقيق هذا التنظيم تحققت أهداف التربية ، كما تتحقق به ثقة المجتمع وأمانه ، وإذا لم يمكن ذلك تضاعفت قيمة مظاهر النشاط التربوي في شتى نواحيه . ونقصد بعبارة « تنظيم المنهاج » هنا ، بناءه ، وتشكيله ، فهذه العبارة تتضمن مجال المنهاج وتتابع أجزائه .

وتنظيم المنهاج من الموضوعات التي تختلف فيها المربون اختلافاً كبيراً وطالما كان المنهج هو المحور الذي تدور حوله الأمور التربوية ، وطالما كان المنهاج هو الحفنة التي تنصهر فيها الآراء فلا غرابة بعد ذلك أن ترداد اختلافات الآراء حوله وحول تنظيمه : وسنحاول أن نحدد مدلول بعض المصطلحات العلمية

التي سنضطر فيما بعد إلى استخدامها في معالجة هذه المشكلة : « الخبرة » ؛
« التكامل » ؛ « النشاط » .

الخبرة

من المصطلحات الكثيرة الاستخدام في التربية الحديثة ويتضح معناها بالمقارنة بين منهج الخبرة ومنهج المادة •

فمنهج الخبرة يؤكد خبرات المتعلم ، أما منهج المادة فيهتم بالمادة المنظمة تنظيمًا منطقيًا ، فبينما يؤكد منهج الخبرة خبرات الأطفال ويتغاضى عن المادة نجد أن منهج المادة يهتم بها ولا يحفل بالنشاط •

ومما لا شك فيه أن كل منهج لا بد أن يتطلب خبرة ، وكل خبرة لا بد أن تتطلب مادة ، ومن المستحيل أن نكون منهجاً من غير التجاء إلى هذين المظهرين فكلاهما أمر هام في ذلك ، على أن قيمة وأهمية أى خبرة يتأثران بشكل واضح بالمادة المستخدمة في تكوينها . ومعنى أهمية المادة لا يعدو أن يكون وظيفة مباشرة للخبرة التي تستغل فيها هذه المادة ، ولذلك قد يبدو أنه من الخطأ أن نتكلم عن « منهج الخبرة » كما لو كانت المناهج بعيدة عنها ، كما أنه من الخطأ أن نتكلم عن « مناهج المادة » كما لو كانت بعض المناهج منعزلة عن المادة . والمهم في هذه المشكلة هو نوع الخبرة التي يقدمها المنهج للأطفال .

وهناك من الأدلة ما يثبت أن المنهج الذي ينشد منه أن يستوعب بعض المواد لا ينتج هذا الهدف المطلوب إذا بنى على تنظيم خبرات أولئك الأطفال فقط ، ولا بد من الاثنين معاً . فقراءة درس من الدروس ، وتسميع حقائق هذا الدرس خبرة من الخبرات لا تقل في أهميتها عن القيام بعمل رحلة ، أو تقديم تقرير من التلاميذ عن مشكلة تواجههم ؛ فشكلة تنظيم المنهج إذن لا يمكن أن تحل بالتفرقة بين الخبرة وبين المادة •

فمحور اهتمامنا يجب أن يدور حول الاثنين بحيث لا يحدث أى تعارض مطلقاً بينهما .

التكامل :

إن هذا الاصلاح يستخدم كثيراً ، في موضوع تنظيم المناهج في المدارس الابتدائية والأولية ، فمن المستحسن أن نفهم مدلول « التكامل » وعلاقة هذا المدلول بتنظيم المنهج :

إن اصطلاح « التكامل » يشير إلى الشروط التي تمكن الكائن الحي من أن يعمل « كوحدة » في تحقيق أهدافه ، فهذا الاصطلاح يتضمن مظاهر : جسمية ، ووجدانية ، وعقلية من مظاهر السلوك ، وإذا كان التكامل تاماً انعدم الصراع الباطني ، واتجه الكائن الحي بأقصى قوته إلى التفكير في الأمور الملائمة لحل المشكلة التي أمامه ، أما إذا لم يكن هذا العنصر تاماً فإنه يفسح لذلك الصراع ، وتكون تلبية الكائن الحي في حل مشكلة متعثرة ، غير مثمرة ، فإن لم يحدث تكامل مطلقاً ، تعرض الكائن الحي لاضطراب عقلي ، وعدم ثبات وجداني ، واضطراب جسمي . « فالتكامل » إذن أمر يتعلق بالكيف كما يتعلق بوظيفة الكائن الحي .

فأي خبرة من الخبرات إما أن تهدف إلى زيادة تكامل الفرد أو تعرقله . وإذا كان الأمر كذلك فالمنهج الدراسي إما أن يساعد على تقدم أو تأخر « تكامل » الأطفال . وقد أثبتت التجارب أن هناك من المناهج ما يساعد على تحقيق عنصر « التكامل » أكثر من غيره ، وتكامل الطفل أمر حيوي ، وهام جداً ، فيجب أن يضعه واضع المنهاج نصب عينيه عندما يشرع في تخطيطه ، فالمنهج الذي لا يعمل على « التكامل » ، والذي ينتج عنه صراع الشخصية ، وتشتيت المعلومات منهج حقير لا قيمة له .

النشاط :

إن فكرة النشاط من الأفكار الهامة التي تستغل الآن في تربية صغار الأطفال وتعليمهم ، وقد لعب « النشاط » دوراً هاماً في صبغ مناهج الأطفال بالصبغة الإنسانية ، وكثير من المدارس قد اعتنق تلك الفكرة كمبدأ من مبادئ التربية الحديثة ، وبناء على ذلك نظمت مناهج خاصة تعرف باسم :

مناهج النشاط ، وربما كانت ولاية « كليفورنيا » أول من سلكت هذا الاتجاه حوالى سنة ١٩٣٠ ، وتبعها فى ذلك ولايتا « نيويورك » ، « ونيوجرسى » ، وفى حوالى سنة ١٩٣٥ بدأت مجموعة أخرى من المدارس التابعة لولاية « نيويورك » تجرب هذا المنهج ، وفى سنة ١٩٤١ بحث عن نتائج هذه التجارب ، ولما ثبت نجاحها ، اتخذ منهج النشاط « كأساس لجميع مدارس ولاية " نيويورك " ، وحذا حذوها فيما بعد عدد كبير من المدارس الأخرى » .

ولقد اختلف فى مدلول « منهج النشاط » : فالبعض ينظر إليه على أنه منهج عماده الأعمال الجسمية والعصبية ، والبعض الآخر يخلط بينه ، وبين التربية التقدمية . ومن ذلك نرى أنه بالرغم من أن هذا المنهج قد أصبح له تأثير خطير على المدارس الأولية بالولايات المتحدة إلا أنه مازال موضع خلاف . ومن التقارير المختلفة التى كتبت عنه يمكن أن نصل إلى أن المقصود « بمنهج النشاط » أنه منهج مدرسى يقدم مظاهر نشاط مختارة اختياراً حسناً للأطفال فى مختلف مراحل النمو . ويمكن أن نستخلص المبادئ الآتية من تقرير كتب عنه وقامت به هيئة التربية فى ولاية « نيويورك » سنة ١٩٤٢ :

- ١ - جعل المادة ملائمة للطفل .
- ٢ - تعاون الأطفال والمدرسين فى اختيار المادة وتخطيط مظاهر النشاط .
- ٣ - تحقيق حاجات وميول الأطفال والعناية بها .
- ٤ - مرونة خطط الدراسة .
- ٥ - التعليم منتج من نتاج الخبرة .
- ٦ - صبغ المدرسة والفصول الدراسية بالصبغة الاجتماعية .
- ٧ - تكملة « الطريقة التقليدية » التقليدية بالمؤتمرات ، والرحلات ، والأبحاث والتمثيل . . . إلخ من مظاهر النشاط المدرسى .
- ٨ - جعل النظام ضبطاً للنفس بالنفس بدلاً من أن يكون أمراً مفروضاً على الفرد من الخارج ، وبذلك يسلك الفرد سلوكاً اجتماعياً صحيحاً ، ويسود جو التعليم روح الديمقراطية التى سرعان ما تنتقل من الفصل إلى المدرسة فالمجتمع . .

- ٩ - زيادة الاهتمام بالصحة العقلية عن طريق اعتناق مبدأ : « الوقاية خير من العلاج » .
- ١٠ - أن يعمل المدرس على تشجيع البدائية initiative لدى الطفل ، وتحمله مسئولية عمله .
- ١١ - تحويل عمل المدرس إلى إشراف وتعاون .
- ١٢ - كثرة زيارة أولياء الأمور للمدرسة للاشتراك مع المدرسين في دراسة مشاكل الأطفال ، والتطوع في بعض الخدمات للمدرسة كالمساهمة في القيام بالرحلات ، أو تقديم مادة للدراسة والتعليم ، أو شرح بعض الألعاب والعادات ، أو تفسير بعض الأغاني .
- ١٣ - زيادة استخدام المتاحف والمعارض ، وكثرة الاهتمام بعنصر الابتكار والإنتاج في الفن والأشغال اليدوية :
- ومن دراسة المبادئ السابقة يتبين لنا أن « منهج النشاط » لا يعدو أن يكون :
- ١ - ثورة ضد مظاهر النشاط المحدودة التي يدور حولها المنهج التقليدي .
 - ٢ - الاهتمام بميول الطفل ، وجعلها كأساس لجميع المواقف التعليمية .
 - ٣ - زيادة تأكيد مظاهر النشاط الكبرى التي من شأنها أن تجر إلى دراسة موضوعات كثيرة كمثلاً ، وكيفاً .
 - ٤ - صرخة قوية لتحقيق أوسع مدى من الحرية للأطفال ، وإعطائهم الفرصة لتوجيه أنفسهم بأنفسهم .
 - ٥ - زيادة الاهتمام بميول وحاجات الطفل كفرد .
- ويؤخذ على هذا المنهج أنه يدور حول الطفل في أضيق معاني هذا الدوران ، وأنه لا يعترف بأهمية الثقافة ، ولا بوظيفة المثل العليا الاجتماعية ، ولا يحدد الاتجاه الذي يجب أن يسلكه المنهج التربوي :

طرق مختلفة لتنظيم المنهج

هناك عدة طرق لتنظيم المنهج نذكر بعضها فيما يلي :

١ - منهج المادة

لما كان « المنهج التقليدي » المتبع في مدارسنا الحالية يدور حول المادة سنة فأخرى فقد أضيفت مواد دراسية ، وذلك نتيجة لضغط جماعة الإخصائيين في ميادين العلم المختلفة ، وكان معيار اختيار المادة في مثل هذا المنهج هو التبسيط والتنظيم المنطقي بغض النظر عن أى اعتبار آخر يتصل بالطفل ، وكان من نتائج ذلك أن زاد عدد المواد التي تدرس للأطفال ، وأصبح الكثير منها عديم المعنى بالنسبة لهم كما أصبح الاستظهار هو المظهر السائد في المدارس التقليدية .

وما لا شك فيه أن مثل هذا المنهج التقليدي القديم أصبح أمراً لا يقره رجال التربية ، على أنه يوجد نفر من المربين يؤمنون به وإن كانوا ينظرون إليه نظرة أخرى ، ولذلك كان من الإنصاف أن نطلق على منهجهم « المنهج العلمى » للمادة The Scientific Curriculum تمييزاً له عن المنهج التقليدى الضيق .

« والمنهج العلمى للمادة » هو منهج منظم لا على أسس منطقية ولكن على أسس علمية لخدمة المواد الاجتماعية كما أنه مؤسس على طريقة استخدام الأطفال لتلك المواد . وقد نظم أنصار هذا المنهج مادتهم بشكل يجعل هذا التنظيم تنظيمًا سيكولوجيًا واجتماعيًا بما يدخلونه من مواد تمس هذه الناحية .

والفكرة الجوهرية في المنهج هو أن لكل مادة منطقاً وتنظيماً خاصاً ، وأن ما يدرس من هذه المواد يجب أن يكون مما يسهل على الطفل إدراكه ، فهم يؤكدون حينئذ المادة كأساس لتنظيم خبرة المتعلم ، ويشجعون العلاقة بين المواد . والهدف الأساسى للمنهج العلمى للمادة هو تمكين الأطفال من التربية وطرق التدريس - ثان

مواجهة المشاكل العامة ، وطريقتهم في ذلك هي المادة المنظمة لفروع الدراسات المختلفة .

وقد هوجم « المنهج العلمي للمادة » من نواح كثيرة :
فبالرغم من مراعاته للتنظيم السيكولوجي للمادة المدروسة ، فإن المعارضين له يؤكدون أن هناك كثيراً من الخبرات التي تقدم للطفل عن طريق هذا المنهج عديمة المعنى بالنسبة له فكثير من الحقائق التي يدرسها تكون بعيدة عن حاجاته المباشرة ، وفي مثل هذه الحالة سيفضطر إلى الاستظهار ويهمل عنصر الفهم .

وهناك نقد آخر وهو أننا في مواجهتنا لمشاكل الحياة سنرى أن هذه المشاكل لا تعلن عن نفسها وفقاً لما يدرس من مواد كالتاريخ ، أو الحساب ، أو الهندسة ، أو العلوم ، فمن أهم الصعوبات التي تعترضنا عند مواجهة هذه المشاكل العادية كيفية تهيئة مظاهر النشاط ، والمادة المناسبة لمثل هذه المواقف المعقدة ، وهذا ما يحقق « المنهج العلمي للمادة » في تحقيقه وفقاً لرأى هؤلاء النقاد .

وثمة نقد ثالث موجه إلى تقسيم العمل والمعتقدات أقساماً متباينة ، وهذا وضع غير حقيقي في هذه الحياة .

والنقد الأخير نقد عملي ينادى بأن المواد قد تعددت وكثرت بمضي السنين ، فمنهج المواد اللازمة لمعالجة مشاكل الحياة العادية يجب أن يشتق من كثير من هذه الميادين ؛ فإذا أردنا أن ننظم المنهج في مواد معينة وجدنا أن عدداً كثيراً منها لا بد أن يدرس مثل : الفن والموسيقى ، والحساب ، والهندسة ، والكتابة ، والقراءة ، واللغة ، والصحة ، والتربية البدنية ، والعلوم ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والتربية الوطنية ، والفنون الصناعية ، والتدبير المنزلي ، وأن إدماج هذه المواد في خطة المنهج يتطلب تجزئته إلى وحدات بسيطة بعيدة عن أن ترتبط بعضها ببعض ، وهذا هو ما يحدث فعلاً في مدارسنا التقليدية ، ونتاج مثل هذه التربية معروف لنا جميعاً .

٢ - منهج المجالات المتسعة The Broad Fields Curriculum

إن « منهج المجالات المتسعة » المستخدم في المدارس الأولية الأمريكية يستمد أسسه من المواد الاجتماعية ، ففي خلال القرن العشرين بذل مجهود جبار في محاولة الربط بين الكثير من المواد الاجتماعية : كالتاريخ ، والاقتصاد والجغرافيا ، والاجتماع ، وكان محور الربط موضوعات مناسبة للدراسة لدى تلاميذ المدارس الأولية والثانوية ، وبذلت الجهود لتكوين وحدة جديدة من المادة مشتقة من مختلف المواد الاجتماعية . ولقد عارضت هذه الفكرة معارضة شديدة ، وكان مصدر المعارضة جماعة الإخصائيين في المادة ، ولكن سرعان ما قضى على هذه المعارضة وكثر التأليف في موضوع الدراسات الاجتماعية .

على أن هذه التزعة لم تلبث أن ظهرت في بعض الميادين الأخرى ولو لم يتوفر فيها عنصر الدقة كما توفر في مجال المواد الاجتماعية ، ففي كثير من المدارس وجدت مظاهر النشاط اللغوي ، وبرز من هذه الوحدة منهج في آداب اللغة ومشاهد الطبيعة ، ونتج عن هذا منهج متسع في العلوم العامة . وإذا كانت هذه الارتباطات متنوعة ، وكانت العناية بها مختلفة من مدرسة إلى أخرى ، إلا أن « منهج المجالات المتسعة » يضم عادة خمس أو ست مواد من مواد المناهج التقليدية ، فهو يضم المواد الاجتماعية ، والعلوم ، والصحة ، والفنون ، والحساب ، والتربية البدنية ، ومواد الترفيه .

على أن الفكرة التربوية التي قام عليها منهج المجالات المتسعة « هي أن الفرد يتربى عن طريق الدراسة المنظمة لبعض حقائق المعرفة » ، وتبذل عناية عظيمة للأسس السيكولوجية في هذا التنظيم بحيث تتناسب المعلومات مع الطفل المقدمة له ، كما تبذل الجهود أيضاً للربط بين المواد المختلفة .

ويمكن تلخيص ميزات هذا المنهج فيما يأتي :

- ١ - أنه بواسطته يمكن التغلب على تجزئة مادة المنهاج ، فبدلاً من أن يزود الطالب باثنتي عشرة أو أربع عشرة مادة نجد أنه يزود بخمس أو ست

مواد فقط ، وهذا من شأنه أن يترك وقتاً متسعاً للتعيينات ولوحدات من الدراسة أكبر ، وكلاهما أمر هام .

٢ - أن موضوعات الدراسة في منهج المجالات المتسعة تتخذ صبغة عامة ، ومثل هذا المنهج يستلزم تنظيم مادة الدراسة حول مشكلة معينة ، أو محور مركزي ، وبذلك يمكن تجنب تلك التجزئة التي هي من منتجات منهج المادة . ويؤخذ على « منهج المجالات المتسعة » نقط الضعف الآتية :

- ١ - أنه يبتعد كل البعد عن مناهج المادة وهذا رأى أنصار منهج المادة .
- ٢ - أنه غير شاف لأن أنصاره يجعلون « مجال الدراسة » في المرتبة الأولى من الأهمية بينما يضعون الطفل في المرتبة الثانية .

٣ - منهج الخبرات الحية Areas of Living Curriculum

إن تنظيم المنهج في شكل « خبرات حية » هو في الواقع ثورة على الأوضاع التقليدية التي ترى في المادة أساساً لعمل المنهج ، وتختلف « مناهج الخبرات الحية » بين المدارس التي اتخذت هذا الأساس في تقسيم مناهجها وبنائها . وبالرغم من هذا الاختلاف فالفكرة الأساسية موجودة . والموضوعات المختارة في مثل هذه الحالات هي : المحافظة على الصحة ، وبناء المنزل ، وتشجيع الطفل بالمسئوليات المدنية ، والترويح ، واكتساب القوت . . . إلخ . وتختلف طريقة تخطيط المنهج من مدرسة إلى أخرى ، فالفكرة الأساسية هي : الوثوق من أن الطفل قد حصل على الخبرة التي تتناسب مع نضجه في هذه الميادين المختلفة ، والهدف الذي يرمى إليه هذا المنهج هو التأكيد من اتساع خبرة الطفل ، ذلك الاتساع الذي من شأنه أن يزود الفرد بالقدرة على المساهمة ، والتعاون في جميع مظاهر الحياة الاجتماعية الهامة . وعمل مثل هذا المنهج يتطلب تحليلاً مستمراً لكل من : الطفل ، والمجتمع ، وأهمية التحليل الاجتماعي تبصر المدرس بالاعتبارات الاجتماعية الخاصة بالتربية ، وأهمية تحليل المشاكل وحاجات الأطفال كأفراد هي الأساس المباشر الذي يمكن أن ينهض أو يبنى عليه المنهج .

وعملية وضع المنهج الذى يحقق الاتجاه الاجتماعى فى التربية ليست بالأمر الهين لأنه لا بد أن يراعى فيه التقريب بين وجهات نظر أولئك الذين يؤكدون أهمية المادة وبين الذين يؤكدون أهمية الطفل ، فصنع المنهج بالصيغة الاجتماعية يقرب بين حاجات الأطفال ومواطن اهتمامهم وبين التراث العلمى للثقافة ، وذلك بأن تدرس ميول الأطفال وما تمتاز به من اتساع وأهمية ، وما تقدمه لهم من خبرة ، وبالمثل يختار من المادة ما ترتبط أشد الارتباط بالمشاكل الاجتماعية ، وبذلك تصبح المادة المستخدمة فى الدراسة وسيلة إلى هدف لا هدفاً فى حد ذاتها .

وهذا النوع من المناهج ما زال فى المراحل التجريبية الأولى ، ويتخذ أساسه من المجتمع ومشاكله ، ويقابله تلك المناهج التى تتخذ من الطفل أو من المادة أساساً لها .

ويوجه إلى هذا المنهج نقد لاذع لا سيما من أنصار « منهج المادة » ، ومن أنصار المنهج البارز The Emerging Curriculum فأنصار منهج المادة يؤكدون بأن المادة كأساس فى عمل المنهج لا تعوزها القيمة الوظيفية "Functional Value" فى المجتمع ، فإهمال المنهج ينجم عنه خطر عظيم ، وذلك لأن المادة نظام من نظم المعرفة ثبت أنه أمر حيوى للجنس البشرى طيلة العصور المختلفة ، وبذلك ينعنون « منهج الخبرات الحية » بأنه لا أساس له فهو منهج واه . The Areas of Living Emphasis is apt to be charcteized . as upst art Critical Idealist .^(١)

أما أنصار « المنهج البارز » فيدعون بأنه لا يوجد ثمة فرق جوهري بين منهج الخبرات الحية وبين منهج المادة ، وأى منهج من المناهج لا يراعى الطفل كأساس فى تنظيمه يعد فى نظر هؤلاء متتمياً إلى منهج المادة . فمنهج الخبرات الحية لا يهتم - كما يدعى البعض - اهتماماً مناسباً بحاجات الأطفال المباشرة . هذا ويمكن أن نقول إن تنظيم « منهج الخبرات الحية » يقف فى طريق تحقيقه على الوجه الأكمل نوعان من أنواع القصور :

(أ) قصور المادة المرتبطة بالمشاكل الحيوية ، تلك المادة التي هي في الواقع أساس عمل هذا المنهج .

(ب) قصور في إعداد المدرسين ، المشبعين بروح المادة العلمية التي تخصصوا فيها ، والتي لا تمدهم إلا بقسط ضئيل لمعالجة المشاكل الناشئة عن تحليل المناطق الحيوية .

٤ - المنهج البارز The Emerging Curriculum

إن التعليم - في أمريكا - ظل موضعاً لصراع عنيف بين أولئك الذين يؤكدون أهمية المادة ، وبين أولئك الذين يؤكدون أهمية الطفل ، ومنذ صرخة « روسو » إلى العصر الحاضر نجد اهتماماً عظيماً حول ميوله وحاجاته التي يشعر بها ، ودوافعه الباطنية واتخاذها جمعياً كأساس للمناهج التربوية . وكان من نتائج هذه الحماسة أن تحسنت تربية الطفل ، وبرزت في سنة ١٩٢٠ مناهج تدور حوله لتحقيق هذه النزعة ، وتبع هذه المناهج منهج آخر معروف باسم « المنهج البارز » ومنهج ثالث يعرف باسم « المشاكل الشخصية للمنهج » الحى . Personal problems of living curriculum .

وهناك أساسان هامين يتحكمان في تنظيم المنهج البارز :

أولاً : ميول الأطفال المباشرة .

ثانياً : حيث إنه لا يمكننا أن نتنبأ بحاجات الأطفال وميولهم المباشرة قبل حدوثها فيجب إذن أن يكون المنهج نتيجة للاحتكاك التدريجي بين الطفل والمدرس .

وأنصار هذا المنهج يؤكدون أن التعجيل بتحديدده قد يكون ضرباً من ضروب التعسف بالطفل لا من قبل تقديم المساعدة إليه ، ومن هنا تألق اسم هذا المنهج ونعت بالبروز لظهوره تدريجياً نتيجة للاحتكاك بين الطفل والمدرس . وإذا كان هؤلاء يهتمون عدم تخطيطه قبل الأوان فإنهم لا يغفلون

ضرورة اجتماع هيئة التدريس ومناقشتهم جميع المشاكل في بدء العام الدراسي ، وعمل المدرس في مدارس « المنهج البارز » إنما هو تبادل الخبرات المستمر والتعاون الدائم بينه وبين من يقوم بتعليمهم من الأطفال ، وبهذا يتاح له عمل منهج يقوم على حاجات الطفولة المباشرة وبذلك يكون موضوع المنهج في هذه المدارس من عمل المدرس والتلميذ معاً .

ومن المسلم به أيضاً أنه يجب عند البدء في عمل منهج من هذا النوع أن يجتمع المدرس بتلاميذه عند افتتاح المدرسة أول العام لبحث أهم المشاكل في نظر الأطفال ، ووضع الخطط لمعالجتها ثم يتابع دراستها من ساعة إلى أخرى ومن يوم إلى آخر ، وبذلك « يبرز » المنهج ويتضح ويعلن عن نفسه من غير أن تقف في سبيله عقبة أو مشكلة . ومثل هذا المنهج يتصف عادة بأنه :
منهج لا خطة له "planless" وليس من العدالة أن نصفه بهذا الوصف ، لأن المدرس ، والتلميذ يبذلان فعلاً الجهود الجبارة لتشكيله وتخطيطه .

وإذا وضعنا هذا المنهج في بوتقة البحث وجدنا أنه من الناحية السيكولوجية يمكن أن يكسب الطفل خبرات ذات معنى أساسها الحاجة المباشرة لهذا الكائن الحي النامي . ولما كان المدرس هو الشخص الوحيد الذي يمكنه الكشف عن هذه الحاجات كان هو الوحيد الذي يمكنه أن يلعب دوراً كبيراً في وضع المنهج بالاشتراك مع تلاميذه ، وقد قيل : إن أحسن ضمان لتحقيق النتائج الاجتماعية في أي وقت من الأوقات هو أن نلبي حاجات الطفل في ذلك الوقت « حقق حاجات الطفل المباشرة في الوقت الحاضرة وترك المستقبل فهو كفيل بتحقيق ذاته » ، فإن أي حاجة من الحاجات الشخصية لا بد أن ترتبط كل الارتباط بالمشاكل الاجتماعية . ولقد قامت في وجه هذا المنهج عدة اعتراضات تذكر بعضها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر :

أولاً : أنه بالرغم من تسليمنا بحاجات الطفولة الملحة كأساس في عمل المنهج إلا أن تحديد هذه الحاجات ، واختيار بعضها هو من عمل المدرسة ، وهذا من شأنه أن يقلل من فاعلية المبدأ الأساسي الذي قام عليه هذا المنهج .

ولذلك فالمدرسون في حاجة إلى اتخاذ أساس آخر مناسب لعمل المنهاج بدلاً من هذا الأساس الذي يستمد من حاجات الأطفال المباشرة .

ثانياً : لقد قيل أيضاً : إن هذا المنهاج لا يحقق للطفل اتساعاً في الخبرة فخبرات الطفل يجب أن تزداد من عام إلى آخر ليزداد فهماً للعالم المحيط به ويعرف مكانته من هذا العالم .

وأخيراً وبعد أن استعرضنا الأشكال المختلفة لبعض المناهج المقترحة يهمننا أن نذكر بعض الإرشادات التي يمكن أن نهتدى بهديها عند عمل المنهاج أو تنظيمه :

أولاً : يجب أن يساهم جميع أعضاء هيئة التدريس بالمدرسة في وضع خطة عامة ومرنة لمنهج الدراسة بها .

ثانياً : بعد أن يتم الاتفاق بين أعضاء هيئة التدريس على الخطوط العريضة في المنهاج يجب أن يتحمل مدرس المادة بالاشتراك مع تلاميذه الذين يدرسون لهم مسئولية تفاصيل الخبرات التي يجب أن يتعلمها التلاميذ .

ثالثاً : إن تنظيم المنهاج يجب أن يضم جميع الخبرات التي يتعرض لها الطفل ، وأن يحقق مبدأ الاتزان بينهما جميعاً .

رابعاً : إن المنهاج يجب أن ينظم بشكل يلفت الاهتمام إلى المشاكل والحاجات ذات القيمة الاجتماعية التي يهتم بها الأطفال اهتماماً مباشراً .

خامساً : يجب أن ينظم المنهاج بشكل يضمن تزويد الطفل بخبرات متسعة وذات معنى بحيث يمكن استخدامها كقوة كبرى للتكامل بين مظاهر النشاط المختلفة التي ينغمس فيها الطفل .

سادساً : يجب أن ينظم المنهاج بشكل يحقق تعليم الطفل بطريق مباشر للفن ، وطرق العمل كما هي قائمة فعلاً .

سابعاً : إن تنظيم المنهاج يجب أن يحقق النمو لميول الأطفال واتجاهاتهم العقلية .

وبقى علينا وقد فرغنا من الحديث عن عمل المنهاج وتنظيمه ، أن نشير

إلى الروح التي يجب أن تسود المدرسة عند تطبيق هذا المنهاج ، حتى يؤتي ثماره المرجوة ويحق آمال الأمة ورجاء المعلمين ، ومصاحبة الناشئين .

تقد المناهج الحالية

إذا أردنا أن نفهم الأسس الحقيقة التي يجب أن يقوم عليها منهاج من المناهج فسوف نجد أن أحسن نقطة للبدء هي أن ننظر بعين الناقد إلى خبرتنا الدراسية الماضية . فلماذا حملنا على أن ندرس المواد التي تلقيناها بالفعل ؟ وعلى أى أساس اعتبرت تلك المواد أحسن المواد الدراسية بالنسبة لنا ؟ وهل نظر عند اختيارها إلى أهداف التربية الحقيقية ؟ وكم مما طلب منا أن نعيه ونحفظه من تلك المناهج كان له أثره التربوي الحقيقي ؟ وهل كان من الممكن ترتيب منهاج الدراسة بحيث يتاح لنا الوصول إلى قيم تربوية أعظم ؟

إن الاجابة عن مثل هذه الأسئلة ليست بالأمر السهل ، لأنها تتوقف إلى حد كبير على نوع المدارس التي تتكلم عنها (أولية كانت أو ابتدائية أو ثانوية أو عليا) كما تتوقف أيضاً على الطريقة التي بنيت على أساسها تلك المناهج . فطبيعى أن كل مدرسة تختلف عن الأخرى ، وليس هنا مجال البحث في هذه الفروق . ومع ذلك فيمكننا أن نجيب إجابات عامة عن معظم الأسئلة السابقة نخرج منها بأن في المناهج الحالية عيوباً ، وهذه العيوب تتضح لكل من يدرسها بعين تربوية حقيقية ، وبذلك يتبين لنا أننا لم نستفد كثيراً من مجهوداتنا التي بذلناها في حياتنا الدراسية . فالحالة إذن تستدعى الإصلاح العاجل .

يجب أن نفهم أولاً وقبل كل شيء أن دراستنا السابقة اشتملت على عدة مواد ، لا لأى اعتبار خاص سوى مكانتها التقليدية في منهاج الدراسة . فمناهجنا الحالية يمكن أن نرجعها إلى أصولها التاريخية بسهولة ، كما يمكن أن نرجعها إلى أصولها الرومانية ، والإغريقية حيث يبرز طابعها اللغوى ، فالرجل المثقف في تلك المدينيات القديمة هو الرجل الحر الذى يجيد فن الكلام وفن

الخطابة ، وبمرور الزمن تحولت تلك الدراسات الأدبية إلى دراسات ظاهرية تهتم بالشكل والقواعد اللغوية أو النحوية . وفي القرون الوسطى كانت أهم المواد الدراسية قيمة هي النحو والمنطق . أما في عصر النهضة فقد بدأ رجال التربية يهتمون بإحياء العلوم والآداب اليونانية القديمة . ولم تلبث هذه الحماسة أن لحقها الزوال وجمدت تلك الدراسات وتحولت إلى دراسة شكلية للقواعد اللغوية . ففي إحدى المدارس الشهيرة من مدارس القرن السادس عشر كان الطالب يقضى عشر سنوات في دراسة « اللاتينية » ، ولا غرابة بعد ذلك أن يطلق على بعض المدارس حينئذ اسم « مدارس النحو Grammar Schools » . فاللغة ودراستها كانت أعظم ظاهرة تربوية في مناهج الدراسة .

وبظهور القرن التاسع عشر بدأت المواد الدراسية تتنافس ، في احتلال مكان في مناهج الدراسة . ومن ثم وجدنا اللغات القومية ، والآداب القومية ، والتاريخ الحديث والعلوم تحتل مكاناً فيه ، ولكن بعد جهاد وعنف ، وظلت اللغات القومية حتى عهد قريب جداً تدرس بنفس الطريقة التي كانت متبعة في تدريس اللغات اللاتينية واليونانية . وظلت دراسة المواد العلمية بعيدة عن الارتباط بالحاجات الاجتماعية مدة ليست بالقصيرة ، وقد طبقت عليها التقاليد اللغوية . وما لا شك فيه أن مواد دراسية جديدة أضيفت إلى المنهاج ، ولكن على الرغم من ذلك بقي التأكيد القديم للنواحي اللغوية سائداً في مدارسنا .

إن الكثير من المواد الدراسية التي تدرس بالمدارس لا يرجع وجودها في المنهاج إلى أن بعض كبار رجال التربية درسوا أهميتها ونصحوا ببقائها ، ولكن يرجع بقاؤها حتى اليوم إلى وجودها في خطة الدراسة منذ أمد طويل ، وإلى أن جماعة المحافظين قد تمسكوا ببقائها . فالقائمون بأمر التعليم في المدرسة خاضعون بحكم طبيعتهم البشرية للمحافظة والاحتفاظ بما هو سائد بينهم فمعظم الناس يقاومون التغيير خصوصاً إذا كان لا يتفق ورغباتهم ، وهذا الميل إلى المحافظة يجعل القائمين بأمر التعليم راضين عن نظام الحياة الذي ألفوه ، ومن السهل عليهم أن يعتقدوا أن وظيفة المدرسة الحالية هي تكييف التلاميذ

للمدينة القائمة ، وهذا الميل إلى المحافظة هو وحده المسئول عن جمود المنهاج في الوقت الحاضر فمع أن التغيرات الاجتماعية تستلزم أنواعاً جديدة من المنهاج إلا أنه بقي كما هو منذ قرون . وفي هذا يتجلى لنا أعظم مثل واقعي للفصل أو للبون الشاسع بين المدرسة وبين الحياة .

فناهجنا الحالية إذن منتج من نتاج التقاليد ، وليست وليدة عنصر الابتكار والبصيرة ، ولذلك برز فيها عيبان عامان جدير بنا أن نذكرهما قبل أن ندخل في تفصيل عيوبنا وهذان العيبان هما :

أولاً — إساءة الاختيار II-Chosen

ثانياً — إساءة التنظيم III-Organized

١ — فناهجنا الحالية أسىء اختيارها وذلك لأنها بعيدة كل البعد عن الاتصال بمقائق الحياة : فكل ما حولنا يتضح أثراً وقيمة وأهمية في صلب حياتنا . فالعوامل الاقتصادية اليوم تلعب دوراً هاماً في تشكيل مصائر الأفراد والأمم ، وعقولنا دائبة التفكير في إعادة تشكيل المجتمع . والاستكشافات العلمية تجدد في إبراز الكثير من العوامل ، التي إما أن تؤدي إلى رفع شأن الإنسانية أو تقضي عليها . ولذلك نجد أن المنحدرين من التقاليد القديمة يرون أن المدرسة يجب أن تنبّه وأن تتيقظ وأن تنفث من هذه الروح داخل جدران المدرسة حتى يتشبع بها أطفال اليوم ورجال الغد ، وحتى يتمكنوا من هضم هذه التغيرات في المستقبل : فهل للتربية الحقيقية من معنى آخر سوى هذا ؟ وهل هذا المعنى يتحقق إذا كانت الدراسات اللغوية — تلك الدراسات التي كانت في يوم من الأيام هي الغذاء الروحي أو الغذاء الأساسي للجماعة السفسطائيين من اليونان — مازال لها الأثر الأكبر على تلاميذ مدارسنا في العصر الحاضر ؟

وفيما يختص بمدارسنا الأولية والابتدائية نجد أن مناهجنا قد أخفقت تماماً في أن تصل إلى تحقيق تلك الأهداف ، ففيها الكثير من العيوب ، ونذكر بعضها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر :

أولاً - نحن نعلم الأطفال الكثير من الحقائق العامة قبل أن يعرفوا شئون بيئتهم الخاصة . جغرافية كانت أو اجتماعية أو تاريخية . ونحن نعطهم النحو مثلاً في الوقت الذي لا يفهمون فيه كل معاني ما يستعملونه من الألفاظ والتراكيب ، بل ونحن نعلمهم الإنجليزية في الوقت الذي لا يجيدون فيه اللغة القومية .

ثانياً - إن محور دراستنا بهذه المدارس نظرى محض ، فالناحية العملية مهمة إلى حد كبير ، مع أن التجارب الشخصية ، والرحلات ، والزيارات أوقع في نفوس الأطفال من الكتب . فالتعليم عن طريق العمل Learning by doing يكسب المتعلم عناصر حيوية ، ويدخل في المناهج عناصر مادية تدفع الأطفال إلى الإقبال على الدراسة والتحصيل ، وتسهل عليهم الفهم وتذوق قيم الأشياء ، كما تمهد للدخول في دروس أخرى تالية ، فأين نحن من هذا كله ؟

ثالثاً - إن مناهج المدارس الأولية أو الابتدائية الموجودة في أحضان الريف المصرى لا تهتم مطلقاً بالزراعة التى على أساسها تقوم الحياة الاقتصادية والاجتماعية في القرية المصرية . وهذه المواد الزراعية أو المتصلة بالزراعة فوق فائدتها العملية تشعر أبناء اليوم باحترام الفلاح وتقدير عمله . وربما يؤدي هذا الشعور في المستقبل إلى تقليل التهالك على الوظائف ، وتخفيف حدة تيار الهجرة الداخلية التي تذهب باستمرار من القرى إلى المدن المزدهجة بالسكان .

رابعاً - إن حياتنا المدرسية تهمل الحياة الاجتماعية ومطالب المجتمع الذي نحيا فيه التلاميذ ، فتهمل الحرف ، والصناعات ، والآلات ، والأعمال التي يحتاج إليها الأفراد في حياتهم ومطالبهم ، وتطالب التلاميذ بأعمال لا تتصل بحياتهم ولا تمت إليهم بصلة .

خامساً - ومناهجنا في تلك المدارس ليست وحدة متماسكة ، فالطفل فيها يدرس مواد متنافرة متباعدة لا يميل إليها لأنها لا تتصل بحياته ولا ترتبط بالبيئة . التي يعيش بين ظهرانيها ولا بالأشياء التي يقوم بها .

سادساً — وزيادة على ذلك فالمواد الدراسية تدرس من ناحية ترتيبها المنطقي ،
فالتاريخ القديم مثلاً يدرس أول الأمر ثم يليه تاريخ العصور الوسطى فالتاريخ
الحديث ، وبالمثل تدرس الجغرافيا النواحي الفلكية قبل هضم نواح خاصة
بالبيئة التي يعيش فيها الحدث الصغير . وهذا الترتيب المنطقي عقيم بالنسبة
للطفل .

سابعاً — إن المواد الفنية كالرسم والأشغال والموسيقى يجب أن تتبوأ مكانها
المناسب في مناهج مدارسنا ، ويجب أن يرباها نظار المدارس هي والنشاط
الرياضي بالعناية والرعاية ، ويجب ألا تحول حصص هذه المواد في نهاية العام
إلى مواد أكثر أهمية للامتحان في نظر نظار تلك المدارس .

أما فيما يتعلق بالمدارس الثانوية فما زلنا نجد أن طلاب ، وطالبات هذه
المدارس ، مشغولون بدراسات بعيدة عن أن تتصل بحاجاتهم ، فهم يدرسون
قدراتاً عظيمة من العلوم الكلامية التي تتجلى في اللغة القومية وفي اللغات الأجنبية
وفي المواد الإنسانية ، وإن قدراتاً عظيمة من المناهج الموجودة فعلاً سوف لا ينتفع
به الشاب في مستقبل حياته بعد الانتهاء من المدرسة ، وما زالت الرياضة مثلاً
تدرس لهدف إعداد الشاب لتقبل رياضة أرقى ، وما زال الشاب يدرس
حقائق التاريخ الطبيعي من وجهة نظر الإحصائي فحسب ، وما زالت الدراسات
التاريخية مقصورة على دراسة حوادث ومواقع وتواريخ ، وما زال الأسلوب
الجامعي هو المسيطر على الدراسات المتنوعة ، هكذا قل ما شئت عن بقية المواد ،
والخلاصة أن الكثير من الدراسة التي تدرس بمدارسنا قيمتها التربوية ضئيلة ،
كما أنها أبعد ما تكون عن أن ترتبط بالحياة التي نعيش بين ظهرانها .

ومناهجنا بالمدارس الثانوية تفصل بين نوعين هامين من أنواع النشاط
البشري ، تفصل بين الناحيتين : العملية والثقافية ، فيخصص للناحية الأولى
مدارس معينة ، تجارية ، زراعية ، وصناعية ، ويخصص للنواحي الثقافية
المدارس التقليدية الثانوية . وهذا ميراث يوناني قديم ورثناه عن مجتمع يخالف
مجتمعنا الحالي ؛ مجتمع يتكون من طبقتين : طبقة الأحرار وطبقة العبيد ؛

مجتمع كان يقصر النواحي العملية على طبقة العبيد ، ويخص الأحرار بالناحية الثقافية ؛ مجتمع أقر الثنائية التي لا تجيزها الديمقراطية الحديثة ، مجتمع فصل بين العلم وبين العمل ، وقد أثبتت الدراسات السيكولوجية خطأ هذا الاتجاه .

ومناهجنا الحالية تتكون من عدة مواد مستقل بعضها عن بعض ، وتهمل العلاقة بين المعارف الإنسانية ، كما أنها بعيدة كل البعد عن حاجات الشباب النفسية ، وعن ميولهم .

٢ - إن مناهجنا الحالية أسوأ تنظيمها بوجه عام وهذا عيب ثان نتج من أساسها التقليدى لا عن أساسها المنطقى . فقديماً عندما كانت مواد الدراسة قليلة العدد كان من السهل تنظيمها ، وكانت مشكلة التنظيم أيسر منها في وقتنا الحاضر ، هذا ولكن موضوعات دراسية جديدة بدأت تزحف على مناهج الدراسة ، وكان زحفها بطريقة عرضية Haphazard دون أن يكون هناك أساس يوحد بينها . ونحن إذا نظرنا إلى تعدد هذه المواد لأول وهلة لا سيما تلك المواد التي تدرس بمدارسنا الثانوية ، ربما حكمنا مبدئياً بأن تعددها أمر لا يخلو من الفائدة ، لأن هذا يتفق والمبدأ القائل بأن مناهج الدراسة يجب أن تكون متسعة وشاملة بقدر الإمكان . ولكن الباحث المدقق يجد أن هذا التعدد يسبب الحيرة للتلاميذ والمدرسين والمشرفين على شئون التعليم . وإذا كنا نريد أن نربي طفلاً بشكل يبعث على الارتياح فإن أول ما يجب التنبيه إليه هو مساعدته وحمله على أن يختار عدة مواد منتظمة اختياراً حكيماً ، وهذا أمر لا وجود له في مدارسنا ولا في امتحاناتنا فالمواد مفروضة على كل طالب ويحكم النظام صب جميع الطلبة في قالب واحد وفي صورة واحدة .

ومناهجنا الحالية قد نمت وزادت ثروتها ، إلا أن هذا النمو وهذه الزيادة قد سلكت مسلكاً خاطئاً ، فقد تكدس لدينا الغذاء العقلى ولم نوفق حتى الآن في تنظيم الوجبات ، وبهنا بعد ذلك أن نتساءل : ما الذى نحتاج إليه ؟ إننا دون شك في حاجة إلى مناهج مؤسسة على بصيرة بأهداف التربية . فنحن أخرج ما نكون إلى منهاج يتعد عن التقاليد السائدة وحشو الأذهان بالمعلومات .

نحن في حاجة إلى منهاج يصبح وسيلة تربوية هامة لتحقيق أهداف نسطلح عليها ونحدددها للتربية في هذا البلد الذي ظل يتعثر ويجاهد حتى منتصف القرن العشرين ولا تنضج الثمرة بعد . هذا ولقد آن الأوان لتوحيد الجهود لتحقيق ما يهدف إليه كل وطني مخلص لهذا البلد في ظل ديمقراطية حقيقية تعمل على تشجيع مواهب الأفراد ورفع شأن الدولة .

ماذا يجب أن تكون عليه روح المدرسة ؟

أولاً : يجب ألا تعتبر المدرسة مكاناً يعلم فيه قدر من المعلومات ، ولكنها مكان يهذب فيه الصغار بأنماط مختلفة من النشاط ، وهذا يتفق مع تقرير لجنة المعارف البريطانية الذي يقول : « يجب أن نفكر في المنهاج على أنه نشاط يبذل لا مجرد حقائق تعطى ومعلومات تحتزن » . فمثلاً لا تدرس الرياضة كمجموعة من النظريات ، والتمارين ، ولكن باعتبارها أنها نمط خاص من التفكير والعمل أو طريقة من طرق التعامل مع العالم . فلا ينبغي أن نقنع بإعطاء الأولاد نتائج التفكير الرياضي . وما يصدق على الرياضة يصدق على كل العلوم الأخرى . نعلمها على أنها طرائق تنشأ عنها القدرة على الابتكار ، يجب أن نجعل التلميذ في موقف الكاشف للحقائق يشعر بحيرته ويشعر بفرحته إذا ما وصل إلى الحقيقة .

ثانياً : يجب أن نذكر أن نمو المعرفة يتم في موجة ذات ثلاث مراحل مرتبة على النحو الآتي :

١ - دور الدهشة ، والإعجاب Romance

٢ - دور الدقة Precision

٣ - دور التعميم Generalization

وهذه الأدوار الثلاثة تظهر في ميدان المعرفة في أثناء التعلم من الطفولة إلى الصبا إلى الشباب أو في أثناء تعلم مادة واحدة بعينها ، تتعلمها أولاً في دهشة وتعجب ، ثم تحاول الدقة فيها ، ثم تحاول أن تعميم في دراستك ، وتستخرج

القوانين العامة لها . ففي الدور الأول دور الدهشة والإعجاب لا تتم المعرفة في عملية منظمة موضوعة بل إن عقل الطفل يكون في حالة دهشة ، تثيرها غرابة الموضوع فيتخبط خبط عشواء وسط عوالم جديدة من صنوف المعرفة ، وعندما تزول روعة الإعجاب يبدأ في الدقة رويداً رويداً ثم يجد نفسه مدفوعاً نحو التدقيق في التعبير المضبوط فيذهب نحو الحقائق قدماً ، ومن أقرب طريق ، عاملاً على توسيع مدى معرفته ومهارته ، وأخيراً في دور المراهقة والشباب تأتي الرغبة في التعميم وهذا الدور الأخير ينهى بالمتعلم إلى رغبة في استخلاص المبادئ الشاملة وينزع إلى محاولة الوصول إلى النظرة الواسعة التي قد تشمل الدنيا بأسرها . وعند تمام المراهقة يأتي ذلك الدور من الحياة الذي يشعريه الفرد بجاذبية كبرى نحو النظرة الواسعة الشاملة .

وهذه الطريقة — طريقة مراحل النمو — التي تتقدم من مرحلة الدهشة إلى مرحلة الدقة أو المنفعة إلى مرحلة التعميم — تجعلنا نصل إلى تعميم في الطريقة لم يصل إليه أسلافنا — ولذلك يجب ألا نغفل هذه المراحل في عملية التعليم — لاتفاقها مع مراحل النمو — حتى تصبح المعرفة لدى أطفالنا معرفة صحيحة . فالدهشة وحسب الاستطلاع تغذي الجانب الانفعالي في الطفل ، وتمده بقوة يستطيع بها أن يصل إلى حقائق واضحة مضبوطة يمكنه تطبيقها ، والاستفادة منها ، وما ينبغي لنا أن نقف عند حد الفائدة ، بل يجب أن نصل بالطفل إلى آخر المراحل ، التي يستطيع عندها أن يصل إلى المعرفة الواسعة الشاملة أو إلى الآراء العامة التي تميز قوى العقل وتحشدنا في مواجهة المشاكل ، تلك القوى التي تصبح وسيلة العقل في تناول الأمور وحلها .

فتدريس التاريخ مثلاً يجب أن يبدأ من الأساطير ، والقصص ، والخرافات قبل أن يصل إلى مرحلة الدقة في اختيار الحقائق التاريخية ، ومعرفة ما حدث بالضبط ، ثم إلى تلك المرحلة التي تحتاج إلى حشد التفاصيل الحقيقية لحوادث التاريخ حتى يمكن الاستفادة منها باستخلاص عبر الماضي التي تضيء لنا طريق الحاضر ، والمستقبل وأخيراً تتمخض هذه التفاصيل عن قواعد تاريخية

عامّة تعيننا على فهم الحاضر ، إذ أن الغرض الأسمى لدراسة التاريخ هو فهم الحركات البشرية الهامة التي وجهت تاريخ الإنعمان على ظهر البسيطة حتى نستطيع أن نفهم عالمنا المعقد الحالي .

مراجع للمنهاج

1. J. Dewey : The School & the Child.
2. T. Raymont : Modern Education, its Aims & Methods.
3. Sturt & Oakden : Matter & Method in Education.
4. Irving Elgar Miller : Education for the Needs of Life.
5. I.L. Kandel : Conflicting Theories of Education.
6. H.L. Jacks : Total Education.
7. B. of Ed. : Handbook of Suggestions for Teachers.
8. Ruediger : Principles of Education.
9. Hopkins : Curriculum Principles & Practices.
10. Briggs : Curriculum Problems.
11. E.A. Irwin & L.A. Harks : Fitting the School to the Child.
12. Caldwell : Play way.
13. J. Dewey : The Child & the Curriculum.
14. Handbook of Suggestions : New Edition 1937.
15. T.P. Nunn : Education, its Data & First Principles.
16. Caswell : Education in the Elementary School.

الفصل السادس

التربية الحرة والتوجيه المهني

سنحاول أن نقسم هذا الموضوع إلى قسمين هما :

أولاً — مشكلة العلاقة بين المواد الثقافية والمواد المهنية .

ثانياً — مشكلة العلاقة بين التربية الحرة وبين التوجيه المهني .

أولاً : مشكلة العلاقة بين المواد الثقافية والمواد المهنية

والآن نتساءل هل يضم المنهج مواد يمكن أن نعتبرها ثقافية ، ومواد أخرى يمكن أن نعتبرها عملية ؟

من الأخطاء الشائعة في التفكير التربوي التفرقة بين المواد الدراسية واعتبار بعضها ثقافياً ، والآخر عملياً أو نفعياً ، فهذه أسطورة خرافية احتج عليها معظم كبار المفكرين من رجال التربية على أن هذا لم يمنع من وقوع بعضهم في هذا الخطأ . فأنصار الأفلاطونية الحديثة — Neo Platonists — أتباع أفلاطون كانوا يحتقرون المواد العملية ويقيمون وزناً عظيماً للمواد النظرية ويهدفون دائماً إلى تحصيلها . وفي العصور الوسطى اشتمل منهج المواد الحرة على النحو والخطابة والمنطق والهندسة ، والموسيقى والفلك والحساب . ولقد تحدد هذا المنهج في القرن السابع عشر ، واقتصر على اللغات الكلاسيكية مع زيادة تأكيد النحو .

وما زالت التفرقة بين التواحي الحرة ، وبين النواحي العملية تحيا بيننا حتى الوقت الحاضر ، فما زالت مدارسنا الثانوية مقسمة إلى مدارس ثانوية تقليدية

ومدارس تجارية ، ومدارس صناعية . وما زالت الجامعة تقفل أبوابها في وجه خريجي المدارس العملية ، وما زال المتخرج في الكليات النظرية ينظر إلى زميله الذى تخرج في المعاهد العملية نظرة استصغار واحتقار .

أما نحن فن أنصار الفكرة التى تنادى بأن الهدف من المواد الدراسية بالمناهج هو تزويد المتعلم بمصدر عقلى يمكنه من أنه يكيف نفسه أحسن تكييف للوسط المحيط به . وربما كان هذا هو التعليل الوحيد المقبول لإدخال المواد الدراسية المختلفة منذ الأيام الأولى لليونان حتى الوقت الحاضر . فإذا لم تكن الدراسات عملية فلنبعدها عن المناهج ، وبالمثل إذا لم تكن الدراسات تثقيفية فيجب إبعادها أيضاً . وأخيراً يجب ألا نفرق بين المواد النظرية والمواد العملية مطلقاً .

ولكى نفهم مدى ما يعود على القيم التربوية من خسارة عظيمة نتيجة لتفرقة بين المواد النظرية والمواد العملية دعنا ندخل فى شئ من تفاصيل المشكلة . ولنأخذ عدداً من المواد الدراسية التى تدرس بالمدرسة ، وسنجد أنه إذا كانت هناك مادة من المواد الدراسية تدرس على أنها مادة ثقافية فحسب أى أنها بعيدة عن أن تكون عملية ، أو على أنها مادة عملية فحسب أى أنها بعيدة عن أن تكون نظرية فإن هذه المادة تفقد قيمتها ، وتبتعد عن أن تكون ذات معنى . فاللاتينية مثلاً ، لماذا ظهرت فى مناهج الدراسة كلفة تدرس ؟ لقد كانت تلك اللغة وسيلة التخاطب لمدينة قديمة عظيمة ، وظلت تعلم حتى بعد أن زالت مدنيّتها من الوجود ، ولكن مع فارق واضح بين العهدين إذ أنه بعد زوال مدنيّتها نجد أن تعليمها اصطبغ بالصبغة الشكلية النظرية ، وأصبحت أبعد عن أن تكون مادة عملية إذ أن قليلاً ممن يتعلمونها يمكنهم أن يستخدموها فى حياتهم العملية ، ولذلك لم يظهر التلاميذ براعة فى هضمها والسيطرة عليها . ومن تمكن من هضم حقائقها لا يعدو النفر القليل ، وحتى هذا النفر لم يتمكن إلا من كتابتها ، ولكنه لم يتقن الكلام بها . وأما تبرير وجودها فى المناهج فيرجع إلى أعداء بعضها مقبول ، وبعضها غير مقبول ، فالبعض كان يؤمن بأنها مادة تهذيبية

أو تدريبية ، وأن وجودها في المنهاج لا يرجع لقيمتها التربوية بقدر ما يرجع إلى حاجة بعض مواد المنهاج إلى عونها أو مساعدتها ، وإذا استغنت عن وجودها بعض المواد أصبحت كالعملة الزائفة في وسط الأسواق التجارية . وربما كان ذلك لأن المنهاج الدراهمي اعتبر « اللغة اللاتينية » مادة نظرية ، وإن ما يجب أن يعمل هو أن ندرس اللاتينية لقيمتها الحقيقية كوسيلة من وسائل التخاطب ، ولتكن النتائج ما تكون ، فأسوأ النتائج هو أن يقف تعلمها على نفر قليل ولكن هذا النفر سيحصل قطعاً على ما لهذه اللغة من قيمة تربوية .

ولنأخذ العلوم كمثل آخر . وسنجد أن النزعة التقليدية تؤكد ناحية « العلوم البحتة » . فتهتم بدراستها كمجموعة من النظريات المنقطعة الصلة عن الناحية العملية للحياة . سل مدرس « الكيمياء » مثلاً عن الفائدة العملية التي تعود على البنت من هذه المادة في ناحية التدبير المنزلي فستجد الإجابة بالنفي . فمدرس الكيمياء يهتم بالنظريات ، يهتم بالفرقة بين العنصر والمركب ، يهتم بتدريس الوزن الذري للأكسجين ، يهتم بالمعادلات الكيماوية ، يهتم بالتفاعلات المختلفة ، والواقع أن « العلوم » تصبح عديمة القيمة ما لم تدرس لما لها من قيمة اجتماعية .

ولنتنقل الآن إلى مادة الأشغال اليدوية وسنجد أنفسنا أمام مادة تدرس عملياً . مادة جمدت لأن أنصارها اقتصروا في تدريسها على الاتجاه العملي البحت فحسب . لقد اقتصرت هذه المادة حتى عهد قريب على هدف واحد هو المهارة في استخدام العدد والآلات ، دون أي اعتبار للقيم الاجتماعية . أما الآن فلقد أصبح لاستخدام آلة من الآلات في الاقتصاد البشري أهمية لا تقل مطلقاً عن معرفة حل المعادلات الرياضية . فقد أصبح ذلك عنصراً هاماً من العناصر العقلية لمدينتنا الحالية . وإذن فقيمة هذه المادة إنما هي في مدى مساعدتها للفرد على ملاءمة نفسه لمواقف الحياة المختلفة . فيجب أن تدرس في مواقف حيوية ، وذلك بربطها بمشروعات تتطلب بعد النظر ، والبداية ، وقوى التنظيم . ويجب أن ننظر إليها على أنها جزء هام من نمو الطفل . فالهدف

الأساسى من تدريس الأشغال اليدوية هو خلق اتجاه عقلى مستمر نحو هذه المادة يظل مدى الحياة حتى ولو لم يتجه الإنسان اتجاهها عملياً فى مستقبل حياته .

ومادة التدبير المنزلى « Home Economics » مثل آخر يوضح ما يجب أن تكون عليه العلاقة بين النواحي النظرية والنواحي العملية . إن الناظر لأول وهلة إلى هذه المادة لا بد أن يتصور أنها مادة عملية تقتصر على إعداد الطعام ، وفن تنظيف الملابس وكيفية إلخ . على أن أولئك الذين يقومون بتدريس هذه المادة قد نجحوا نجاحاً عظيماً فى توسيع حدودها حتى شملت اعتبارات جمالية ونفسية وخلقية . ولقد أصبحت هذه المادة مادة نظرية وعملية وبذلك زادت قيمتها التربوية .

مما تقدم يتضح لنا أن مواد الدراسة يجب ألا تكون مواد عملية بحتة ولا نظرية بحتة . فهذه التفرقة خاطئة فى أساسها ، وإذا تمسكنا بها ضعفت قيمة المواد . فالمواد التى تدرس بالمدرسة يجب أن تهدف جميعها إلى هدف واحد هو تنوير الحياة ، وتحسين عنصر التكيف .

All subjects studied have but one common end, the enlightennment of living and the improvement of adjustment'.^(١)

والتربية فى حد ذاتها يجب أن تكون مهنية فى اتجاهاتها الشعورية وفى نتائجها . وهذا أمر لا يمكن إنكاره لأن الحياة مهنية . على أن التربية يجب أيضاً أن تكون ثقافية ، وذلك لأن حياة الفرد يجب أن تكون مستنيرة ، ومن هنا نتقدم إلى تفصيل تلك المشكلة : مشكلة التربية الحرة ، والتوجيه المهني .

ثانياً : مشكلة - العلاقة - بين التربية الحرة والتوجيه المهني :

كانت التربية فى بدء تاريخها عملية ترمى إلى إعداد الناشئ لمهنة خاصة بأدق معنى الإعداد ، فقد عرفت العصور القديمة التدريب على الخطابة التى شجعها شيشرون ، وكان لها مبادئ وطرق خاصة وضعها كونتيليان Quintilian

وقد شرح أفلاطون في جمهوريته الطريقة المثلى لإعداد طبقات الصناع والجنود والفلاسفة على الترتيب ، وفي العصور الوسطى كان الشاب يعد للمهن المختلفة وكانت معاهد أوربا (الأكاديمية) حتى عهد قريب تعد أفراد الطبقة الحاكمة وذلك بأن تتسلم أبناء الطبقة العليا ، وتتناولهم بالتهذيب والتثقيف كي تعدهم لشغل وظائف القصر ، أو السلك السياسى أو الجيش .

وقد كانت إنجلترا في الجزء الأخير من القرن السابع عشر ، وفي أوائل القرن الثامن عشر تعد ربانة السفن وملاحيا في مدارس قائمة على شواطئ البحار حيث يتلقى الشبان تدريباً قوامه الرياضة الجغرافية وفنون الملاحة .

إن المنطق السليم لا يشير إلى التربية (النوعية) الخاصة إلا إذا أعوزته نظريات التربية ، ولكن فلسفة التربية لا طرق التدريس هي التي استطاعت أن تفند مذاهب القدماء ، في هذا النوع من التربية ، فأظهرت أنها لم تكن في طبيعتها سوى التربية لفريق خاص من الناس ، ومن ثم لا نستطيع أن نقبل فكرة العموم التي تقول بها التربية الحرة ، بل إن التربية المهنية أيضاً تربية خاصة (نوعية) ، والواقع أن التفرقة بين التربية الثقافية وبين التربية المهنية لا وجود لها إذا فهمنا الألفاظ على عمومها ، ولكننا نفضل أن نتبع « آدمز » في تمييزه بين التربية المهنية Vocational Ed. وبين التربية النوعية أو الخاصة Specific Ed. فالأولى تطلق على معنى التخصص الضيق لمهنة واحدة ، والثانية على التخصص الواسع الذي يعد طرازاً معيناً من الناس ؛ فالتخصص في العلوم بالجامعة نوع من التربية الخاصة (النوعية) لأنه يخرج طرازاً خاصاً من الناس ، والتخصص في الهندسة نوع من التربية المهنية لأنها تهى لمهنة واحدة ، وإذن فليست التربية الخاصة أو النوعية مهنية ، ولكن كل تربية مهنية خاصة ونوعية . ولما كانت التربية المهنية ، وما يسمونه بالتربية العامة تربية خاصة ونوعية ، فإننا لم نحدد بعد نصيب الثقافة فيها .

اشتقت التربية « الحرة » (Liberal) من الحرية ، لا من الكتاب (١) ،

فليس المقصود منها ذلك النوع من التربية الذى يعتمد على الكتب والمكتبات ، كما كان بعض الناس فى يوم ما يعتقد ذلك ، ولكنها تطلق على الثقافة الجديرة بأحرار الرجال الذين يمتازون عن العبيد ، فلا يتعلمون أنواع المهن والمهارات ، ولا يسلبون الحقوق السياسية ، إنها تربية جديرة فى نظامها وروحها بالرجل الحر تعده للفضائل وتروضه على العمل بمقتضاها ، وقد وردت كلمة « التربية الحرة » فى أول الأمر فى كتابات الإغريق الذين قدسوا حقوق الفرد ، وهىأوا له فرصة الحياة المجيدة ؛ فقد كان هدف التربية حينذاك الحياة السعيدة الجميلة ، وكانت التربية الحرة تقدم كل ما هو « جميل لائق بالرجال الأحرار » وقد أينعت هذه التربية وأثمرت فى عصر الإغريق الذهبى ، ووجدت من كتابهم من وضع لها أصولها وحدد أهدافها وحسبك منهم الفيلسوفان : أفلاطون وأرسطو .

ونلاحظ عابرين أن هناك تفرقة ظاهرة بين الثقافة والنفع ، والواقع أن هذه التفرقة واضحة لا لبس فيها وأنها ترجع إلى عصور تاريخية مضت ، وإلى ظروف وملازمات اجتماعية خاصة ؛ فقد نشأت فى بلاد الإغريق حيث كان المجتمع يتكون من طبقتين : السادة الأحرار ، والعبيد الإماء ، فالسادة هم الجديرون بالحياة الحقة السعيدة فى فراغ بهيج وراحة ناعمة ، وطبقة العبيد تؤخذ بالعمل البدوى ، وتكد فى سبيل العيش لتوفر أسباب الترف والنعيم للسادة ، ومن ثم كانت تلك التفرقة بين التربية الحرة التى تهتم بالحياة وتجميلها وتنظر إلى وقت الفراغ وكيف يتمتع به ، وبين التربية المهنية التى تكب على التدريب العملى فى الأعمال الآتية ، بعيداً عن كل ما يربى العقل ويهذب الذوق وينمى الإحساس بالجمال .

وقد تصور المربون التربية الحرة فى العصور الوسطى على أنها دراسة الفنون السبعة الحرة ، التى كانوا يزعمونها شاملة لكل أنواع الثقافات ؛ ولا شك أن رقم سبعة كان له سحر خاص عند رجال الكنيسة فى ذلك الوقت ، وقد قسمت هذه الفنون إلى قسمين : قسم ثلاثى ويشمل الفنون العليا ، وهى : النحو ، والبلاغة ،

والمنطق ، وقسم رباعى ويشمل : الهندسة ، والموسيقى ، والحساب ، والفلك ، وهذه كانت تشمل الحقائق الطبيعية ويجدر بنا أن نذكر أن هذه المواد كانت أشمل من مدلولاتها في الوقت الحاضر ؛ فالنحو كان يشمل الأدب ، والبلاغة كانت تشمل التاريخ ، والهندسة كانت تشمل المعلومات الجغرافية حينذاك ، وكان خريج الجامعة في العصور الوسطى يفخر بلقب أستاذ في الفنون الحرة [Artium Liberealium magister ولا تزال الجامعات القديمة تمنح خريجها هذا اللقب ، ولا يزال لقب أستاذ البلاغة يطلق على أستاذ الأدب الإنجليزي في جامعات إسكتلندا ، كما أن فكرة الفنون السبعة التي تضم أنواع المعارف جميعاً لا تزال سائدة في جامعة « سانت أندروز » إذ أن خريج الآداب فيها يجب أن يكون ملمّاً بخمسة موضوعات « على الأقل تشمل : (أ) اللغة اللاتينية أو الإغريقية ، أو مادة مشابهة يختارها مستشار الدراسات وكلية الآداب ، ويوافق عليها مجلس الجامعة . (ب) الفلسفة أو الرياضيات . (ج) ما لا يقل عن موضوعين ، ولا يزيد على ثلاث مواد لغوية . (د) مادة واحدة على الأقل ، وما لا يزيد عن مادتين من المواد العلمية ، ولا شك أن هذه الخطة الدراسية القديمة كانت تساعد الطالب على الانصال بنماذج من أنواع الثقافة الإنسانية ، وإن لم تستطع أن تصل إلى هدف الثقافة الشاملة الكاملة ، ومن المؤسف أنه لم تبدل أية محاولة للاقترب من هذا الهدف في سبيل التخصص المبكر الفعّ .

لقد كان للتربية الحرة ، التي تحرر النفس والعقل من عمق الأثر ، ونبيل القصد ما لا نستطيع معه أن ندرجها في أكفان التاريخ ، وقد قام هكسلي ، يدافع عنها مرفعاً عن الجدل القديم الذي كان مستعراً بين الدراسات القديمة ودراسة العلوم في ذلك الوقت ، وأعلن :

أن الرجل الذي تربى تربية حرة هو ذلك الرجل الذي تدرب في شبابه على أن يكون جسمه خادماً لإرادته ، وأن يكون مسيطراً على نفسه ، قادراً على القيام بكل ما يؤهله جسمه لأن يقوم به ، صاحب فكر واضح ومنطق هادئ

مع اتران العقل وتناسب المواهب فلا تطفئ فيه موهبة على موهبة ، بل تتعاون كلها كأجزاء الآلة الدقيقة على القيام بأى عمل يوكل إليها دون اضطراب ؛ ذلك الرجل الذى اختزن فى عقله رصيذاً كبيراً طليئاً من الحقائق الخاصة بالطبيعة ونواميسها ، والذى لم يتطرف إلى زهد الزهاد فيصرف عن الدنيا ، ولم ينحرف إلى شهوات المحبان فيعب منها فوق طاقته ، ولكنه يؤدى ما تفرضه الحياة فى حكمة وضبط نفس وقوة لإرادة ، هو الذى تعلم كيف يحب الجمال أين وجده ، فى الطبيعة أو فى الفن ، وكيف يكره الرذيلة ، وكيف يخدم غيره كما يخدم نفسه .

ذلك هو الرجل الذى اعتبره « هكسلى » قد نال تربية حرة لا سواه ، لأنه متسق مع الطبيعة يستغلها جهد طاقته وهى تستغله قدر طاقتها فيظهر أحسن ما فيها ، كما تظهر هى أحسن ما لديه ، إنهما يسيران معاً ؛ هى أمه العطوف ، وهو ابنها البر ، وذاتها الشاعرة ، وسيدها وخادما . هذا وإذن نستطيع أن نقبل الحرية كالمهدف الأسمى للتربية جملة وتفصيلاً ، فهى التى تستطيع أن تخلص الإنسان من ربة غرائزه الدنيا . واستعداداته البهيمية التى انحدرت إليه بالوراثة عن آبائه الأول وترفعه إلى عالم الحرية الفسيح ، فالإنسان بلا إرادة قوية عبد رغباته الفطرية ، وربما خيل له الوهم أنه متحرر من القيود الخلقية ، والواقع أنه يرسف فى الأغلال ، وقد رأينا أن الحرية الحقيقية هى تهذيب النفس بالنفس Self discipline حتى يكون المرء حراً فى استخدام مواهبه العقلية ، وطاقاته الشعورية ويرى أنه فى مركز يجعله فى الآفاق كالطير الطليق فى طلب الحق والخير والجمال ، بيد أنه لكى يصل الإنسان إلى هذه الحرية الفكرية يجب أن يكوى حراً من الناحية الاقتصادية فلا ينبغي أن يوقف جهوده كلها فى كد العيش ، بل يدخر ما فاض منها ليستخدمه فيما هو أسمى وأجل فى الحياة ونستطيع أن نقول — فى ذلك الزمن الذى تطاردنا فيه الدعايات فى كل مكان بأساليبها المتنوعة — إن علامة الرجل الحر أن يكون متحرراً من أسر الجهل والتعصب والحمود ، وأن يفكر تفكيراً مستقلاً ، وقد وصل تقرير سبنسر إلى

تعريف التربية الحرة بأنها « تلك التربية التي تمكن الرجال والنساء من فهم العالم الذي يعيشون فيه ومن المشاركة في حل مشاكله » .

والآن نبحث في معنى « الإنسانية » كمعيار من معايير القيم الثقافية ، وهذه الفكرة تتصل بوجه خاص بعصر النهضة ، عندما تحمس الناس للدراسة الآداب القديمة فوجدوا في حياة الأقدمين معيناً فياًضاً للحياة الإنسانية الواسعة المترامية الأطراف ، كما وجدوا أن دراسة الأدب — باعتباره نقداً للحياة — دراسة للإنسانية نفسها في أجلى معانيها ، فكأن عصر النهضة قد اعتبر دراسة الحياة الإنسانية ممثلة في حياة الرومان ، والإغريق أجدى من دراسة الحياة التي يحياها الناس في عصر النهضة ، وكأنما وجد الناس في تلك الحياة القديمة ما يساعدهم في حل مشاكلهم إذ ذاك . ويجب أن نتذكر أن دراسة الآداب القديمة لم تكن إلا وسيلة لاستكمال معاني الإنسانية في الإنسان ، وقد أصبح وصف « إنسانى » ذائعاً في ذلك الحين ، لأن الإنسان وحده كان موضوع الدراسة مما قوى كل دفاع تقدم به رجال الأدب . ليسوغوا دراسة الأدب ، ووضعه في المنهاج فهو يساعد على خلق « عالم تشيع فيه الحياة » فما من مادة أخرى يمكن أن تتسع آفاقها حتى تشمل العالم برمته .

الحق أن دراسة الأدب أو « الإنسانيات » في ذلك الوقت كانت تمثل الفلسفة الواقعية ، ولكن هذه الدراسة لم تلبث أن انتكست ، وأصبحت مجرد دراسات لغوية . . .

ولهذه الأسباب التاريخية أطلق على مدرسة أكسفورد للغة اللاتينية اسم مدرسة الآداب الإنسانية ونقشت حروف كلمة إنسانيات على باب مدرج اللغة اللاتينية في « جامعة أدنبرة » ، كما أن دراسة الآداب اللاتينية في الجامعات اليوم ، هي الأثر الباقي لذلك المعنى القديم .

هذا ولا نستطيع أن نفضل قيمة الدراسات الإنسانية على أنها مجموع الدراسات التي تهتم بالإنسان ، وتركز حوله ، بل كما أشرنا إليها في الفصل السابق حين قلنا : إن المنهاج يجب أن يلخص أحسن ما وصلت إليه الروح

البشرية ، أعنى الإنسانية ، ولا يصح أن ننسى هذه الفكرة ، لا سيما في وقت تضطرب فيه مصائر الشعوب ، وتئن فيه الإنسانية ، وتتعرض لأشد الأخطار .
والآن نبحث : هل تصبغ التربية المهنية بالصبغة الثقافية ، بمعنى أنها تستلزم الحرية والإنسانية ؟ وهل هناك تعارض بين التربية المهنية ، وبين التربية الحرة ؟ .

جاء في تقرير «سبتر» أن المدارس الثانوية مهنية ؛ فطالما كانت مرحلة إعدادية لا بد منها للمهن الحرة ، أى أنها مدارس مهنية ما دامت تعد للجامعة ، وإحدى المهن المعروفة — كخدمة الدين ، أو القانون ، أو الطب ، أو التدريس أما الصبغة الحرة التي اكتسبتها بإدخال الثقافة العامة الحرة فيها ؛ بتدريس الآداب وما إليها فإنها صبغة جاءت في تاريخ متأخر ، وعلى ممر الأيام ؛ إذ لم يكن هناك حد فاصل بين المدارس الثانوية ونظام الإعداد المهني في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وإنما نشأ هذا الفارق في قانون نظام المدارس الثانوية الإنجليزي سنة ١٩٠٤ ، ذلك القانون الذي فصل هذه المدارس وجعل لها صبغة ثقافية حرة ، وفصل المدارس الصناعية وجعل لها صبغة مهنية ، بالرغم من أن المدارس الثانوية كانت مهنية لأنها تعد الطلاب لتعلم المهن الحرة الراقية ، ولا شك أن هذا القانون تقع عليه تبعة التفرقة بين التعليمين : العام والصناعي .

أما وقد لا حظنا أن الاعتبار التاريخي وحدها هي المسئولة عن التفرقة بين التعليم المهني والحر ، وعن إبعاد الثقافة الحرة عن التربية المهنية ، فإننا نقول إنه لا يمكن أن تنصف التربية بالحرية إذا لم تستطع أن تمكن الطالب من كسب قوته بنفسه ، ومن المحافظة على كيانه الاقتصادي في المجتمع ، فالرجل الذي يعتمد على مجهود غيره دون أن يبذل من جانبه أى مجهود معادل له ، لا يمكن أن يكون حرّاً .

ومن هنا كانت التربية المهنية عاملة على التحرر . ولكن هل من الحق أن التربية المهنية ليس لديها ما تقدم للإنسانية وللحرية بمعناها العام ؟
إن «هوايتهد» يلاحظ :

« أن التفرقة بين التربية الصناعية " المهنية " والتربية الحرة ، تفرقة باطلة ، فكل تربية صناعية معتدلة تستلزم نصيباً من التربية الحرة ، وكل تربية تستلزم تعلم صنعة ، أى أنه لا توجد تربية مادام هناك تفرقة بين العمل والفكر » (١) .

« فهو يتهد » يرى أن التربية الصناعية يجب أن تكون معتدلة . ويفرق تقرير « سبتر » بين المدارس الصناعية التي تعد لمهنة واحدة كالطباعة ، والنسيج ، وأعمال الكي والتنظيف وغيرها ، وبين التي تعد لعدة مهن ، ويعتبر هذا التقرير أن النوع الثاني قريب من التربية الحرة ، ومن الممكن أن ينظم تنظيمياً يقربه من المدارس الثانوية ، والأمر كله يتوقف على طبيعة الحرفة ، فإذا كانت الحرفة بسيطة ضيقة الأفق ، فإنها لا تحتاج لإعداد طويل ، وإن كانت المهنة معقدة فإنها تحتاج لإعداد طويل ومن ثم إلى ثقافة خاصة بها .

فهذه التدريس مثلاً لا بد لها من تربية إنسانية طويلة الأمد ، وهي تخالف في ذلك المهن اليدوية كقيادة الترام ، أو الكتابة على آلة ؛ فلكي يصبح الشاب مدرساً من المحيدين يجب أن يكون إنساناً مثقفاً ثقافة عقلية ، وأخلاقية ، وروحية ، لأن لكل من هذه النواحي اتصالها المباشر بالمدرس لا سيما وأنه محدود الحظ في دراسته بالرغم من أنه سيحتاج إلى كل هذه الثقافات الواسعة وسيحتاج فوق ذلك إلى أن يوالى تربية نفسه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، ولهذا السبب المزدوج لم تكن تربيته تربية إنسانية واسعة عديمة الجدوى ، ولكن القائم على أمر آلة يدير مفاتيحها أقل حاجة إلى الثقافة من المدرس ؛ لأنه لا يحتاج في عمله اليدوي إلى قدر كبير من الثقافة ؛ ليستطيع أن يقوم على أكمل وجه ، وقد يبرع من غير أن يكون له قدر وافر من الثقافة ونصيب كبير .

وهناك عدد من المهن مثل : الهندسة ، والتجارة ، والبناء ، والفلاحة — قد يشغل محلاً أساسياً في حياة المتمدنين ، فأصبح له تقاليد خاصة ، وصار لأربابه صفات وأخلاق خاصة ، وصار النجاح فيه رهناً بكثير من المهارة والحنكة ، مما جعله ميداناً لإبراز كثير من المواهب ، ومجالاً لإظهار روح

الاقتنان والابتداع في نواحي القوى العملية . ومثل هذه المهن لا يمكن أن تنجح بلا أساس من المعرفة العلمية ، أو المواهب العقلية ، والقدرات الفنية المدربة ، فتدريب التلميذ في إحدى هذه المهن معناه إهمالها كما فيها إذا وافقت ميوله الخاصة ومعناه كذلك أنه قد طبع من الناحية العقلية والخلقية بطابع معين ، وليس من الإنصاف أن نزعهم أن التدريب في مثل هذه المهن خال من الحرية الحرة ، فإن هناك من النفوس مالا يستثير طاقتها سوى العمل المباشر في أثناء تدريب مهني ، ولنا أن نقول إن الحرية المهنية حرة بأوسع معاني الكلمة^(١) .

فالروح الإنسانية والثقافية تظهر في التربية المهنية بمقادير متفاوتة حسب صلة المهنة بالحياة العامة ، فإذا كانت مهنة الرجل هي لب كيانه كله فإذن تصبح التربية المهنية ثقافية ، إنسانية حرة . والآن نصل إلى نتيجة يتلاقى عندها الواقعيون وأنصار الثقافة الإنسانية حيث يفسر كل فريق نظرية الفريق الآخر تفسيراً طبيعياً واضحاً لا لبس فيه ، وليس لنا بعد ذلك أن نضع الفروق الدقيقة بين التربية الحرة ، والتربية المهنية ، فالأولى تصبح مهنية إذا هيأت لوظيفة خاصة في الحياة ، والأخيرة تصبح حرة إذا كانت ذات تقاليد خاصة ، أو كان إتقانها يتطلب قدراً من الثقافة ، وإنا لننظر بإعجاب إلى صورة « هانزساخ » التي يظهر فيها الصبي جالساً إلى معلمه الصانع الذي لا يعلمه صناعة الأحذية فحسب ، بل يعلمه إلى جانب ذلك الشعر ، والأدب ، والموسيقى ، والأخلاق ، وهنا نجد الصانع نفسه رجلاً مثقفاً ، حمل على عاتقه ثقافة صبيه ثقافة كاملة .

نظام التلمذة في الصناعات

لقد أنهار هذا النظام في أوائل القرن التاسع عشر وكان السبب في القضاء عليه نشوب الثورة الصناعية في إنجلترا ؛ إذ أن إدخال الآلات في الصناعة جعل إشراف المعلم سطحيًا ، بل جعل سلطانه الشخصي على صبيان

ضئيلاً ، وإنا لتتحسر على تلك الأيام التي كان الصانع فيها يقضى أياماً في إبداع زوج جميل من الأحذية ، تلك الأيام التي عفت عليها أيام الآلات ، وقضت على تمنن الفرد وإبداعه تمام القضاء ، إذ أصبحت الآلات تنتج في اليوم ما كان ينتجه آلاف الصانع في عدة أيام ، ولم يقف ضرر الآلة عند القضاء على الناحية الإبداعية للفرد ، بل لم تبق هناك حاجة ملحة إلى ثقافة مهنية ، فلا غرو بعد ذلك أن زال عن معلم الصناعة ما كان له من فضل التثقيف المهني ، فلم يعد كعهده بالأمس مصدراً للثقافة المهنية ، وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، بل إن الآلة - التي لا تحتاج إلا لإشراف يسير ، مع سرعة العمل ، ووفرة الإنتاج - قد هيأت للعامل جزءاً كبيراً من الفراغ لا يعرف العامل كيف يقضيه ، على أن مشكلة الفراغ ليست حديثة العهد ، بل إن أرسطو ذكرها في بعض ما كتب ، ولكن الفرق كبير بين فراغ القدماء ، وفراغ العامل في الوقت الحاضر . كان أرسطو يتحدث عن الفراغ الذي يتمتع به الرجل الحر المترف ليقضيه في التفكير ، والتأمل الفلسفي ، أما الفراغ في ديمقراطية حديثة ، فهو جزء العمل وحمل المسؤولية (فلأن يكون راحة أولى من أن يكون عبثاً يضاف إليه)^(١) .

ولذلك كان من أشق أعباء التربية تدريب الشعب على المهارة العامة ، وتكوين ميول متنوعة ، تجعل الفرد قادراً على أن يعرف كيف يستغل وقت الفراغ ، دون تركه للشيطان يعث به ، وتشغل كل فرد بهوايات تضاف إلى عمله الأصلي ، وتستغل فيها قوته الإبداعية .

وبالرغم من أننا على استعداد لأن نقبل رفض أغلبية القراء إدماج التربية الحرة في التربية المهنية ، لا نود أن نستهلك قوات تلاميذنا وطاقاتهم في تدريب مهني مبكر ، في الوقت الذي تحتاج فيه تربيتهم الحرة لهذه الطاقات ، وعلينا أن نذكر أن « فن الحياة مهنة تحتاج لتدريب نوعي مثلها مثل أية مهنة يراد

بها كسب القوت » وأن الكفاية سلعة غالية الثمن لا يعدلها إلا الرجولة الكاملة^(١) ، حتى إذا كان معظم أولادنا سيقومون على مفاتيح الآلات في حياتهم المستقبلية فإنهم سيكونون أحوج إلى التربية الحرة في المدارس قبل مغادرتهم إلى المصانع ، وقبل أن تفوت فرصة التربية الحرة ، ولكننا — إذا تمسكنا بالتربية الحرة — فإننا نقصد التربية العامة ذات الاتصال المباشر بالحياة الحاضرة ، فقد عفت تلك الأيام التي كانت تفصل بين التربية العامة في المدارس وبين الحياة الخارجية في المجتمع الأكبر ، إنما في سبيل الوصول إلى فكرة واضحة عن التربية التي نريدها ، إنما نريد نوعية (خاصة) فكأننا نعود من حيث بدأنا إلى التربية النوعية (الخاصة) فهي التي لاءمت مجتمعاً أسهل من مجتمعنا الحالي ، ولانشك في أننا بحاجة إليها الآن ، ولذلك نوجه أنظار المربين كي يضعوا خطط تربية نوعية ملائمة لمجتمعنا المعقد الحالي ، فلا بد أن يلائم التدريب النوعي في يومنا ذلك الأسلوب من الحياة التي يحياها التلميذ في المستقبل ، وإذا كان التلميذ سيعمل في الصناعة فلا بد من تدريبه على قضاء وقت الفراغ ، وهي مشكلة سيواجهها في المستقبل .

والنتيجة التي وصلنا إليها أننا نود لو اتحدت وجهتا النظر ، الحرة (الثقافية) والمهنية في المدرسة ، فإن لم يكن ذلك ممكناً فلا بد من أن تقف التربية الحرة جنباً إلى جنب مع التربية المهنية ؛ لأنه إذا لم تكن الثقافة ضرورية للمهنة ، فهي ضرورية لوقت الفراغ . إنما نود ألا يجبر شخص على الاختيار بين تربية دون مهنة ، ومهنة دون تربية ، فالمدارس الفنية التي تعد للمهنة لا تهمل الثقافة ، والمدارس الثقافية لا تغفل الاعتبارات المهنية ، ومن ثم لا نرى مسوغاً للحملة على المعاهد الصناعية ما دامت ترضى النزعة الثقافية في منهاجها ، إلا أن تقرير سبتر يذهب إلى أبعد من هذا ، فهو يرى « أن الإعداد للمهنة جزء هام من التربية . . وأن أي إعداد أو تخصص مهني يجب أن يتأخر إلى نهاية الحياة الدراسية » . ومن هنا كانت مدارسنا الثانوية المتوسطة بعيدة عن

الاصطباغ بالصبغة المهنية ، إلا أنها أصغت إلى التزعة الواقعية في تقرير هادو Hadow فجعلت التربية فيها متلائمة مع البيئات المختلفة التي تقع فيها المدرسة ، إذ أن المدرسة يجب ألا تغفل المهنة التي سيخرج إليها التلاميذ في البيئة التي هم فيها ، ولذلك كانت مدارس لندن المتوسطة ذات صبغة تجارية أو فنية ، ولكن نزع المدارس الثانوية الأخرى إلى جانب « سينتر » فجعلت دراساتها أكثر اتصالاً بمشاكل الحياة العملية « وقد اهتمت تلك المدارس بتخريج تلاميذها وقد اكتسبوا حكمة العامل في الأرض مع إعدادهم بجانب ذلك لكل عمل آخر يتصل بشئون الزراعة » ومن هنا أصبحت المدارس الأكاديمية مصطبغة بصبغة واقعية ملموسة .

على أن تقرير « سينتر » يذهب إلى أبعد من مجرد إدخال التزعة الواقعية في المناهج ، فهو ينصح « بإنشاء مدارس فنية عالية مختلفة تمام الاختلاف عن المدارس الثانوية الأكاديمية »^(١) ولذلك يجب العمل على تحويل المدارس الصناعية المتوسطة الحالية التي تهتم بصناعات الهندسة والبناء ، أو التي كانت تعد لعدة صناعات إعداداً عاماً - إلى مدارس فنية عالية يكون من أهدافها ؛ (١) الحرص على تدريب الطالب تدريباً عقلياً بغض النظر عن قيمته المهنية . (٢) ألا تكون المهنة واحدة بل عدة مهن متصلة بعضها ببعض ، وبذلك تكون قد اقتربت - في روحها من المدارس الثانوية الأكاديمية (بمعنى أن هذه المدارس الأخيرة تعد الطالب إعداداً عاماً راقية حرة كالطب والحاماة . . . إلخ) أما التدريب العقلي المطلوب لهذه المدارس ، فلا بد أن يصطبغ بصبغة تطبيقية لعدة مبادئ علمية متصلة ، تكون بحيث تستطيع أن تستثير مواهب التلاميذ ، وقدراتهم ، وتستجيب لها ، أي تقدم لهم أحسن ما تستطيع أن تقدمه الثقافة ، حتى ولو لم يعملوا في تلك المهن ، أما من حيث المناهج فإنها فيما يختص بالتلاميذ من سن ١١ إلى ١٣ لا بد أن تكون واسعة عريضة ، من نوع المناهج الثانوية الأكاديمية ثم تصطبغ بصبغة علمية تطبيقية لمن هم فوق الثالثة عشر .

هذا النظام الذى توسط بين المهنة والثقافة أدنى إلى الصواب ، والاعتدال من رأى كاتب أمريكي متطرف ، يدعى دافيدسون Davidson .

حمل بغضاً شديداً للمعلومات التى تختزن ولا تستعمل ، فدعا إلى التربية المهنية المطلقة ، تربية مهنية بمعنى الكلمة ، فلا يحتاج التلاميذ فيها إلى الجلوس على المقاعد ، بل يتعلمون مباشرة فى الورش والمصانع ، بل لا بد من أن يعامل التلاميذ معاملة العمال الحقيقيين فيعملون فى ساعات عمل خاصة ، ويتقاضون أجوراً على هذه الأعمال التى يؤدونها ، أما التربية العامة فيتلقاها التلاميذ فى بدء حياتهم الدراسية ، ثم ينهمكون فى تخصص مهنى تام ، أما التربية الثقافية لوقت الفراغ فيتلقونها فى وقت فراغهم أى فى المساء أما تقرير سبتر فإنه لا يوافق على هذا التطرف ، بل يكتفى « بأن يكون رجال هيئة التدريس على اتصال وثيق بدوائر الأعمال فى الخارج » وهو لا يجد مانعاً أن تتحول المدرسة الصناعية العليا إلى مصنع يساهم فى الأعمال الصناعية الكبرى ، وقد كثر الجدل بين رجال التربية عن رجال هيئة التدريس فى تلك المدارس الفنية ، هل يكونون من الصناع الذين يميلون للتعليم ، أم من رجال التدريس الذين يميلون للصناعة ؟ ويميل تقرير سبتر إلى الأخذ بالرأى الأول ، فهو يحتم أن يكون المدرسون قد قضوا وقتاً معيناً فى التدريب على أعمال الهندسة الميكانيكية ، على أن المدارس الفنية العالية تتسع ولا ريب للمدرسين من الطرازين السالى الذكر .

أما فى التربية الجامعية ، فإننا لا نجد جدالاً عنيفاً بين المربين حول إدخال الدراسات المهنية فى مناهجها ، فالحاجة أوجدت كراسى جامعية للهندسة والتربية والطب ، وجعلت الجامعة مكان إعداد لعدد مهن حيث تسنح الفرصة دائماً لطلابها للاتصال بدوائر الأعمال خارج الجامعة ، التى يجب أن تستجيب لحاجة تلك الدوائر ، ولحاجة المجتمع بصفة عامة ، ولذلك لا بد من وجود فاصل يفصل بين الطلبة الذين سيتخصصون فى مهن مختلفة ، فالشبان الذين يريدون التخصص فى مهنة التدريس لا بد من فصلهم عن غيرهم من الذين

سيخصصون في مهنة أخرى ، عند ذلك في عهد مبكر ، فيسأل الطالب لبدى بدء حياته الجامعية ، عما إذا كان يريد التخصص في التدريس أم لا ، فإن أجاب بالإيجاب أخذ بنظام تدريبي خاص ينتهى به ، بعد أن ينال درجته الجامعية ، إلى مهنة التدريس ، وهذا أفضل من أن يترك هذا الاختيار إلى ما بعد نيله الدرجة الجامعية ، ثم يؤخذ بنظام تدريبي — بعد هذا العهد الطويل — كى يصبح مدرساً (١) . وقد سمعنا النقد ينهال علينا من جراء هذا النظام ، إذ قيل إن معاهد التربية التى تختطف الطلبة وهم في بدء العهد بالجامعة ، أشبه بالأديرة ، تخرج مدرسين لا يعرفون شيئاً عن العالم الخارجى الذى سيدرسون شئونه للتلاميذ ، ولكن هذا النقد خاطئ لأن الطلبة يمارسون في الجامعة أنواعاً مختلفة من الاتصالات الاجتماعية ، في الفرص التى تهيئها الجامعة لطلابها .

لا نستطيع أن نترك موضوع التربية المهنية دون التعرض لمسألة الاختيار المهني . والمثل الأعلى في التوجيه المهني ، هو ألا نضع المكعبات في الثقوب المستديرة ، ولا الكرات في الثقوب المكعبة ، لأن سوء اختيار المهنة لا يقلل فقط من الكفاية ، بل يسلب سعادة الفرد . ولا يشك أحد في أن الأطباء والمدرسين مثلاً لا بد أن يكونوا متحمسين بالمواهب الخاصة بمهنتهم ، وأن تكون عندهم الميول والاتجاهات العامة اللازمة لنجاحهم في مهنتهم ، ولكن مما لا شك فيه أيضاً أن حياة الصانع البسيط أجلب للسعادة والبهجة له ، إذا كانت ملائمة لما هيأته له الطبيعة .

إذن لا بد أن يكون للميول الطبيعية القول الفصل في الاختيار المهني ، فما هو أساس هذه الميول الطبيعية المهنية ؟ إن الفتيان كثيراً ما يقتبسون عواطفهم وحماسهم للأعمال المختلفة من محيط بهم من الكبار الذين في بيتهم ، ولكن الدكتور «أرنست جونز» يتعمق أكثر من ذلك فيصل إلى الأصول العميقة التي تدفع حياتنا في مسالكها الحالية ، فيعلن أن دراساته في التحليل النفساني قد

(١) النظام الثاني هو المعمول به في مصر ، فيعد دراسة الجامعة بعد الطالب لمهنة التدريس في معهد التربية .

هدته إلى أن الرغبات التي نكبتها في الأعماق ، هي التي فرضت علينا اختيار المهنة التي سترافها في حياتنا المستقبلية ، فظروف النفس الداخلية هي صاحبة الكلمة الأخيرة في اختيارنا المهني ، وليست ظروف الحياة الخارجية وما يتورها من تقلبات ، وليست هذه الظروف الخارجية سوى الفرصة السانحة للقوى اللاشعورية كي تطفو فوق مستوى الشعور وتملي إرادتها عليه .

إذن فنحن في اختيارنا المهني نجد مخرجاً لما نكبته في ظلمات اللاشعور منذ أيام الطفولة المبكرة ، ولكن ليس معنى تسلمنا بأحكام مدارس التحليل النفسي التي ترجع كل أعمالنا ، حتى اختيارنا لمهنتنا ومستقبلنا إلى أصول في النفس البشرية ، أننا نسلم بأحكامها ، ونلغى حكم المنطق السليم الذي يرجع هذا الاختيار إلى عبادة الأبطال في دور المراهقة ، فنحن عادة نحاول أن نرسم خطأ الأبطال الذين نعشقهم ونعجب بهم في هذا الدور ، ونختار المهن التي يزاولها هؤلاء الأبطال ، لنكون أقرب إليهم ، ومهما يكن من شيء فلا بد من حساب الميول الطبيعية ، والاتجاهات الذهنية للأفراد عند توجيههم توجيهاً مهنياً .

ليس هذا فحسب بل لابد من قياس درجة الذكاء ، والميول الخاصة عند الفرد قبل توجيهه توجيهاً مهنياً ، ولحسن الحظ ، كانت الميول المكتسبة ، والميول الطبيعية عند الأفراد متفقة اتفاقاً غريباً ، ويمكن التنبؤ بالعوامل الخاصة عند الأطفال منذ عصر مبكر إذا كانت العين التي تراقبهم حريصة دقيقة نفاذة . ويعرف المؤلف صبيّاً في العاشرة من عمره ، استطاع أن يضع قانوناً دقيقاً لعصابة من الأولاد في مثل سنه ، هذا الغلام الذي لعب دور موسى صغيراً أصبح طالباً متفوقاً في دراسة القانون بالجامعة ، وإذا لم يستطع المراقب العادي أن يكشف عن تلك القدرات الخاصة فلا بد من الاستعانة بالمتخصص ، وقد استطاع الأستاذ سييرمان أن يكشف عن وجود قدرات خاصة إلى جانب العامل في الذكاء ومنها القدرة اليدوية ، والقدرة على رشاقة الحركة ، والحركة الحسابية وقوة التذكر ، وقوة الحفظ ، والقدرة اللغوية ، والقدرة الموسيقية والقدرة

الرياضية ، كما وضع الاختبارات الخاصة لقياس هذه القدرات الخاصة ، بل أن « مستبرج » من جامعة « هارفارد » قد وضع تصميم آلة يستطيع بها قياس القدرات الخاصة اللازمة للقيام بالأعمال الفنية المختلفة مثل قيادة الترام . وبالرغم من أن هذه الآلة بعيدة عن الصواب ، ظاهرة التصنع إلا أنها دليل على اتجاه التفكير في مسألة التوجيه المهني ^(١) .

ويقوم المعهد القوي لعلم النفس الصناعي في لندن بإسداء نصائح في التوجيه المهني ، قائمة على نتائج قياس الذكاء والقدرات الخاصة ، بعد إجراء اختبارات شخصية وبعد مقارنة تقارير أولياء الأمور ونظار المدارس ، وقد استطاع هذا المعهد أن يحل مشكلة التوجيه المهني ، للأولاد والبنات ، مما قضى على سوء الاختيار المهني ، ووضع حداً للكثير من الشقاء والآلام .

ربما كان الأوفق الاستعانة بنصائح عالم نفساني تخصص في قياس الذكاء لأن المدرسين لا يستطيعون إجراء الاختبارات إجراء دقيقاً كما أن آراءهم مثل آراء الآباء تحتاج إلى التصحيح والتكميل ، والواقع أنه لا بد من تصفية آراء مختلف الجهات - الآباء وأولياء الأمور والمدرسين ونظار المدارس والإخصائيين النفسيين - حتى يستطيع أولياء الأمور القلقون على مستقبل أولادهم ، أن يقرأوا عيناً ، وعلى نظار المدارس أن يجمعوا آراء زملائهم المدرسين عن التلاميذ المختلفين ويثبتوها في سجلاتهم ويكونوا رأياً عاماً عنهم ، حتى يهدوهم سواء السبيل ، ويرشدوهم إلى الطريق الذي خطته لهم الطبيعة دون تقريط أو إفراط ، وهم إذ يضيفون هذا العبء إلى أعمالهم إنما يؤدون جزءاً من الأمانة التي وضعها المجتمع في أعناقهم .

الخلاصة : إن التوفيق بين التربية الحرة وبين التوجيه المهني يحتم علينا الأمور الآتية :

١ - تجاهل تلك التفرقة القديمة بين الثقافة ^٤ والنفع ، أو بين الناحية النظرية والناحية العملية - أو بين التفكير والعمل - تلك التفرقة التي لا تقرها

الديمقراطية الحديثة، ولا علم النفس الحديث .

١- صبغ التربية الحرة بالصبغة المهنية To Vocationalize Liberal Education

٣- صبغ التوجيه المهني بالصبغة الحرة To Liberalize Vocational Education

المراجع

1. Adams : Evolution of Educational Theory.
2. Adams : Modern Development in Educational Practice.
3. Adamson : The Individual and the Environment.
4. B. of Ed. : Hadow Report Chap. 5.
5. B. of Ed. : Spens Report Chap. 8.
6. T.P. Nunn : Education, its Data and First Principles.
7. Monroe : Text-Book in the History of Education.
8. James L. Mursell : Principles of Education.
9. Ross : Groundwork of Educational Theory.

الفصل السابع

التربية الخلقية

اتفقت الديانات والمبادئ على اختلاف أنواعها على أهمية الأخلاق ، فحينما يمدح الله رسوله عليه السلام يمدحه بسمو أخلاقه فيقول : « وإنك لعلی خلق عظیم » وحينما يقف الرسول لتوضيح صلب دعوته يعلن أنه بعث مؤدباً فيقول : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ثم يجعل المتخلفين بالأخلاق الفاضلة أحب الناس إليه وأقربهم منه درجة في قوله : « إن أحبكم إلىّ وأقربكم مني منازل يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطأون أكتافاً الذين يألفون ويؤلفون » . ذلك هو الدين جعل دعامته الأولى الأخلاق المتينة . ولا شك في ذلك فالأخلاق دعامة كل نهضة ، وتقدم ، وحضارة ، بل هي الحارس الوحيد الذي يحمي الأمم وبقائها من الانهيار والضياع . وها هو ذا الأستاذ ولز H.G. Wells يتحدثنا عن أهمية الأخلاق فيقول : « لو بذل الإنسان في سبيل السيطرة على كبح جماح نفسه بعض ما يبذله من الجهد في السيطرة على قوى الطبيعة لكان عالمنا اليوم عالم طهارة وسعادة » .

فالتقدم الإنساني بالرغم مما يبذل في سبيله من نبوغ وعبقريّة من الناحية المادية ما زال غير منسجم ولا متزن من الناحية الخلقية ، ولو أننا قسنا التقدم الخلقى بالتقدم المادى لتجلى لنا الفرق شاسعاً ، والمدى بعيداً بينهما . وإذا أردنا خيراً لتلك الإنسانية المعذبة فلا بد من إيجاد حالة اتزان بين الناحيتين : المادية ، والأخلاقية ، فما دمنا نعتقد أن الكون الذى نعيش فيه تسيره نعمة إلهية ، وتربطه وحدة أخلاقية ، فلتكن طرق المعيشة التى نسير عليها ، وننشدها النجاح مسيرة للقوانين الأخلاقية .

ولا تقل أهمية الأخلاق في الحرب عنها في السلم وحسبنا في ذلك ما أدلى به المارشال «مونتجمري» إذ يقول : « إن قضية الجيش الثامن تطوى على مغازروحية عظيمة إلى جانب مغزاها العسكرية » فقد دلت تلك القضية على أن أهم عوامل الانتصار في الحرب هو العامل الأخلاقي ، فلا يمكن لقائد ما أن يدفع رجاله إلى بذل أقصى جهودهم في العمل إلا إذا كانت ضمائرهم مرتاحة إلى ما سيقومون به . ويقتضى أن الجيش إذا سار بدون مرضاة الله فقد سار إلى غير هدى . والأناية تخالف تعاليم الدين ، والجنودية . وإن الكنيسة ، والجيش معاً لا يقرانها في الإنسان فتتقضى التعاليم الدينية ، وتؤازرها في ذلك التعاليم العسكرية . بأن يؤدي كل رجل واجبه بإخلاص وأمانة مهما كان نوعه ، وإن الانحطاط الخلقي في صفوف الجيش أشد خطراً عليه من أعدائه ، فعلى الجيش أن يشن حرباً داخلية لتنظيم صفوفه قبل أن يفكر في شن حرب خارجية ضد أعدائه ، لذلك لا نستطيع أن نتصر في أى معركة إلا إذا انتصرنا على أنفسنا قبل كل شيء »^(١) .

فعلى التربية أن تقود الناس إلى الطريق الصحيح حيث يشع من وراء السحب ذلك القبس العلوي المنير ممثلاً كل ما هو حق ، وكل ما هو عدل ، وكل ما هو جميل . ومن هنا تتجلى حاجة التربية الملحة إلى الدعامة الخلقية لتشييد صرح المدنية الشامخ ، ووقف تيار البربرية المتدفق الذي يكاد يطوح بالمثل العليا ، والمبادئ الأخلاقية السامية . ولتتخذ التربية إذن من الأخلاق صخرة قوية توقف هذا التيار العاشم ، وتهيئ للنشء حياة أحفل بالسعادة ، وللإنسانية المعذبة الطمأنينة ، والاستقرار .

معنى الأخلاق

هذا وقد انقسم العلماء شيعاً ، وأحزاباً من حيث طريقة تناول موضوع الأخلاق ، فقد خلطوه بالشخصية حيناً ، وبالوجدان آنأ ، وبالذكاء أحياناً ،

وزعم البعض أنه يستطيع دراسة الأخلاق عن طريق الكيمياء ، وتحليل عناصر الجسم مدعياً أن لبعض المواد الكيميائية التي يتركب منها الجسم أثراً واضحاً في أخلاق الفرد . كما رأى آخرون إمكان دراسة الأخلاق عن طريق دراسة تقاطيع الوجه أو شكل الجمجمة . كما لم يحجم أنصار علوم التشريح والإحياء ، والوراثة عن الإدلاء بدلوهم في هذا الموضوع زاعمين أن لهذه العلوم القدر المولى فى اكتشاف حقيقة الأخلاق . ولكن عندما بزغ علم النفس ، وسطع نجمه ، وأصبح مستقلاً بنفسه قائماً بذاته أسدى يداً بيضاء إلى قضية الأخلاق وذلك بمعونة علم الاجتماع .

وقد قامت مدارس تتنازع هذا الموضوع ، فذهبت مدرسة الوجدان أو العاطفة إلى أن الأخلاق مستمدة منها ، كما ذهبت مدرسة الإرادة إلى أن الأخلاق منتج من نتائجها ، وزعمت مدرسة العقل أو الذكاء أن الأخلاق نتيجة التفكير ، والعقل ، ولكل مدرسة من هذه المدارس أنصار ، وزعماء . ولقد شاهدت السنوات الأخيرة زيادة الاهتمام بدراسة الأخلاق . فكثرت المؤلفات الحديثة فى ألمانيا - وفى أمريكا بذلت محاولات جبارة لقياس الصفات الخلقية قياساً علمياً وقد اتفقت معظم هذه المؤلفات على أن الأخلاق جزء هام من الشخصية ، وأنها تشمل تنظيم النواحي الوجدانية ، والتزوعية منها وإليك بعض التعاريف :

أولاً - تعريف الأستاذ ماكدوجال^(١) :

“Well-developed character, is an integrated system of sentiments, a system that is a hierarchy dominated by a single master-sentiment and integrated by that dominance.”

الخلق القويم : هو نظام تصاعدى متكامل من العواطف تسيطر عليه سيدة العواطف ، وتكامله نتيجة لتلك السيطرة . فالخلق فى نظر « ماكدوجال » وجهة خاصة فى الشخصية النامية تؤدى بالشخص إلى :

١ - التماسك - Consistency ، فالخلق يجب أن يكون سجية للنفس يصدر عنها السلوك عفواً في جميع المواقف ، والحالات المماثلة أو المتشابهة فليس بخلق أن يعد الرجل كريماً إذا بذل أو أغدق في موطن ثم بخل وأمسك في موقف مماثل أو مشابه ، وليس بتحقيق أن يوصف المرء بالشجاعة إذا استقبل الهول ، واستعذب الموت لطارئ من الطوارئ ثم أحجم في موطن آخر يتطلب الإقدام والتضحية .

٢ - العزيمة ، الصلابة - Firmness : وليس معنى هذا اندفاع المرء في نوع من السلوك في ضلالة وغباء ، فإن فضائل المرء قد تستحيل بهذا إلى رذائل ، ولكن معناه أن يتدبر الإنسان الموقف ثم يعترم العمل وفق ما تقتضيه الحال . فمثلاً إذا أردت نجاحاً آخر العام فلا بد من العزيمة الصادقة للاستدكار والمثابرة .

٣ - ضبط النفس - Self-Control : فإذا حدثتني نفسي أن أحميد عن عن طريق الفضيلة ، والشرف ، كى أصبح من الأغنياء فيجب أن يكون لدى من القدرة ما يكفي لضبط النفس ، وإبعادها عن هذه الرغبة التي لا تتفق ومبادئ الأخلاق .

٤ - التوجيه - Self-Direction :

وقدرة الإنسان على توجيه نفسه ، وعلى الاستقلال في الشخصية وعدم الاعتماد على الغير أمر لازم في تكوين السلوك الخلقى فالفره يجب أن يكون قادراً على أن يوجه نفسه الوجهة التي يرى أنها تتفق مع المبادئ القويمة فالسجايلا لا بد منها ، ولكن يجب أن توجه كلها إلى الخير العام ، وصالح الجماعة . والفضائل لازمة ، وألزم منها التوجيه إلى نفع الناس وخير المجتمع .

ثانياً - تعريف باجلي Bagley :

يرى « باجلي » أن الخلق عبارة عن كثير من العادات الصالحة النافعة ، فأساس الخلق في نظره هو العادات النافعة وهذه إما أن تكون :

١ - عادات نافعة ، ومفيدة ، كالمشى باعتدال ، وتنظيف الأسنان .. إلخ .

٢ - منع النفس ، وضبطها عن الإتيان بعمل أو إظهار رغبة لا تسمح بها الحياة المتحضرة .

ومن تحليل تعريف « باجلي » ^(١) نرى أنه يتخذ نفع العادات للمجتمع كأساس للسلوك الخلقى ، ومن استخدامه كلمة « عادة » كأساس للسلوك نفهم أنه يقصد وصف هذا السلوك بالثبات ، والتجاسد ، وأن هذا السلوك لا بد وأن يكون نتيجة لرغبة أو لتحقيق مبدأ .

على أن هذا التعريف يوحي إلينا بأن الخلق شئ آلى طالما يتخذ من العادة أساساً له . كما أن هذا التعريف قد أهمل أهمية العواطف فى تكوين السلوك الخلقى .

ثالثاً - تعريف روباك :

إن الخلق حالة أو ميل نفسى يتحكم فى الغرائز ، ويمنعها من تحقيق أهدافها ، وذلك بمقتضى مبدأ منظم لتلك الغرائز . وهذا التعريف يوقفنا على تحكم الخلق فى الغرائز ويغفل أهمية العادات ، والعواطف ، والمثل العليا كعناصر أساسية فى تكوين الخلق .

رابعاً - رأى هادفيلد .

الخلق هو قيمة النفس المتزنة ، والنفس المتزنة هى تلك النفس التى تنسقت فيها الميول الطبيعية ، والعواطف ، وتضافرت هذه الميول ، وتلك العواطف على غاية واحدة ، فالخلق صفة النفس ، والإرادة سلاحها . وهذا تعريف يمكن أن يتصف بالشمول ، والاتزان .

خامساً - رأى جون ديوى :

الخلق هو كل ما ينطوى عليه العمل من عمليات الإمعان أى الموازنة والتروى والرغبة ، أو الدافع سواء أكانت هذه العمليات قريبة أم بعيدة . ومن تحليل هذا التعريف نرى أن « جون ديوى » راعى أن يذكر فى تعريفه « الدوافع » التى تدفع الشخص إلى العمل ، وهذه تكون ناتجة عن

مبادئ الشخص كما راعى أيضاً أن العمل الذى سيصدر عن الشخص لن يصدر اعتباطاً ، ولكن عن روية ، وإمعان وتحليل ، واختيار فهو أبلغ فى إظهار الناحية الخلقية . زد على ذلك أن هذا التعريف يتضمن سجايا الشخص النفسية التى تدفعه فى النهاية إلى العزم والعمل ، وأخيراً لو أننا تأملنا جيداً هذا التعريف لوجدنا أنه يتضمن تكوين عواطف إذ أن الرغبة فى شىء تؤدى إلى تكوين عاطفة نحوه .

سادساً — تعريف كلباتريك :

يرى كلباتريك أن هناك ثلاثة أشياء هامة فى كل عمل خلقى هى :

١ — الحساسية ، لما يحتمل أن يتضمنه موقف ما .

٢ — الروية ، والإمعان فيما يجب عمله .

٣ — الرغبة ، الملحة فى تنفيذ العمل .

فالحساسية نحو موقف من المواقف تتضمن إدراك الموقف ، ورؤية العوامل التى يتضمنها والعواقب الممكنة أن تنتج عنها ثم اتخاذ قرار معين وهذا القرار يتوقف على معلومات الشخص ، وتجاربه ، ومعرفته ، كما يتوقف على نوع تفكيره ، وذكائه ، وأما الروية فيتطلب من الفرد أن يكون لديه هدف معين ، وأن يكون قادراً على التبصر فى الأمور ، وأن يكون لديه مقياس مكون من المادى ، والمستويات التى كونها لنفسه أثناء حياته عن طريق تجاربه الشخصية ، ومعلوماته ، وتجارب المجتمع .

ومن التعاريف السابقة نلاحظ أولاً أن الكتاب حينما يتكلمون عن الخلق لا يجيدون بيان ما هيته بقدر ما يجيدون التكلم عن وظيفته فى الحياة البشرية ويمكن أن نستنبط أن معظم الكتاب يتفقون على أن الخلق يؤدى إلى الوظائف الآتية :

(١) يجعل سلوك الإنسان متصفاً بالثبات ، والتماسك ، والتوافق والاضطراد فثلاً : عواطف الإنسان نحو أسرته لا تتصادم مع عواطفه نحو وطنه بل إن عواطفه جميعاً تعمل بشكل منسجم ومتوافق .

(ب) يمكن التنبؤ بتصرف الشخص ، وسلوكه في المواقف المختلفة ، فإذا عرفت خلق فرد من الأفراد يمكنني أن أتنبأ بما سيعمله في وقت معين .
 (ج) إن الخلق يؤدي بالشخص إلى أن يتجه بانتظام ، وباستمرار نحو غاياته العظمى فهو يبذل جهده لكي يصل إليها ، ويضع نصب عينيه المثابرة سبيل تحقيقها سواء أكانت هذه الغايات في العمل أم في اللعب .
 (د) الخلق يعطى قوة في الإرادة ، وفي العزيمة ، فهو يمكن الشخص من أن يحدد اختياره للمسلك المستقيم في أى موقف من المواقف مهما يكن الاختيار قاسياً ، والمسلك صعباً ، كما أن الخلق يزود الفرد بالقدرة على الثبات والتمسك بالعزيمة .

(هـ) أن الخلق نظام معقد للغاية ينمو ببطء ، ويتألف من تأكيد عوامل كثيرة في الحياة ، وتدخل فيه مركبات متعددة هي :

- ١ - الغرائز . وهذه يجب أن تخضع لمبدأ يسيروا ويتحكم فيها .
- ٢ - العادات ، ويجب أن يراعى في تكوينها منفعتها للصالح العام .
- ٣ - العواطف وهذه يجب أن تكون في أساسها عواطف حب لكن ما هو حق ، وكل ما هو خير ، وكل ما هو جميل . كما يجب أن تكون في أساسها عواطف كراهية لكل ما هو قبيح ، وكل ما هو شر ، وكل ما هو باطل .
- ٤ - انتظام العواطف نفسها في نظام وهيئة عليا بحيث لا تتصادم - وبحيث تندمج كلها في عاطفة اعتبار الذات .

هذا ، ويجب أن نزيد القارئ علماً بأن تعريفنا للأخلاق تعريفاً علمياً أو سيكولوجياً يفقدها حيويتها وتأثيرها وتلك الحيوية ، وهذا التأثير هما ما يهمننا من الأخلاق ، فوق كل شيء آخر وهنا نجد أننا مضطرون إلى التزوع بالأخلاق منزعاً اجتماعياً ، وفي هذا المترع سنعر على قوتها ، وفاعليتها التي ضاعت عندما عهدنا بها إلى العلوم البحتة ولما كان الإنسان اجتماعياً بطبعه كانت أخلاقه لا تظهر إلا في وسط اجتماعي ، فالأخلاق تؤثر ، وتتأثر بالوسط الاجتماعي ، والنظم الاجتماعية ، وإذن نستطيع أن نقول : إن الخلق هو نشاط

الفرد في المجتمع البشري ، وميوله اللازمة له نحو نظم الجماعة ومشآئها ، واتجاهاته الفكرية نحو من يحيط به من الناس ، سواء أكانت هذه الاتجاهات مما يفيد أو يضر بالجماعة البشرية .

ولو أننا تناولنا الأخلاق من حيث وظيفتها أو أردنا أن نعرف الخلق الفاضل قلنا : إنه الذي يرى إلى أفضل الحالات الاجتماعية ، وفي الوقت نفسه يدفع صاحبه إلى أن يسعى ويعمل بعقل وروية على تخير الوسائل التي بها يدرك هذا الغرض الأسنى . ويقول جون ديوى : « لا نستطيع أن نغير الأخلاق بالوعظ والإرشاد دون أن نغير نظمنا العملية والسياسية لأن هذا الزعم يناقض مبدأنا في أن الأخلاق ما هي إلا ميول مؤثرة في الحياة الاجتماعية » ويقول أيضاً : « إن الأخلاق هي مجموع رغائب الفرد وميوله الفعالة التي تجعله دائماً على استعداد للإتيان ببعض الأفعال ، ومغرمًا ببعض النتائج ، وفي الوقت نفسه كارهًا لبعض الأفعال والنتائج الأخرى » فالأخلاق إذن هي حياة الفرد في الجماعة ، أو هي السعى إلى غاية معينة لها علاقة بالغير ، أو هي ميول تتحول إلى نتائج وأغراض ، لا بل هي تغيير للحالة الاجتماعية أيًا كان نوع هذا التغيير ومقدار أثره في المجتمع وإذن : هي السلوك وهي الحياة ليس غير ، وإلا فإذا عساها أن تكون إن لم تكن كذلك ؟ .

السلوك والأخلاق

يقول ديوى : « إن أول ما يجابهنا في بحثنا هذا هو الفضيلة العرفية التي تقسم الحركة أو النشاط إلى قسمين متقابلين بسميان في كثير من الأحيان بالداخلي والخارجي ، أو الروحي والجسدي ، ففي الفضيلة تتطور هذه النظرية إلى عراك عنيف بين الدافع للعمل ونتيجته أو بين الخلق والسلوك » فالخلق هو شيء باطنى في الإنسان لا علاقة له البتة بالبيئة إلا عن طريق شيء آخر وهو السلوك . والناظر إلى الإنسان لا يرى الأخلاق ، وإنما يشاهد العمل أو الفعل ، فالأخلاق هي السبب والسلوك والعمل هو النتيجة وهذا التقسيم من صنع الفلسفة الثنائية التي ابتدعها ديكارت .

الأخلاق والغايات والوسائل

إن غاية الأخلاق هي صالح الجماعة ، ولكن ما الوسيلة إلى تلك الغاية ؟ وهل يسمح الخلق الشريف باستعمال وسائل قد لا تكون مرضية في سبيل الوصول إلى غايات سامية ؟ أى هل تبرر الغاية الوسيلة بأى حال من الأحوال ؟ وهل يستطيع إنسان على خلق عظيم أن يكذب مثلاً لغاية شريفة عنده ؟ أم نزع أنه متى كذب فقد أنهدم ركن أساسى من أخلاقه ، وهل يحل للإنسان أن يريق دم أخيه في الإنسانية في سبيل القومية أو الديمقراطية أو العدل ، أو أى مبدأ إنسانى شريف أو يظن أنه شريف ؟ وبمعنى آخر هل يمكن التخلق بالأخلاق الفاضلة في حضارة معقدة كل التعقيد كحضارتنا هذه ؟ ولقد تناولت الفلسفة الثنائية الغاية والوسيلة فيما تناولت وزعمت أن الغاية هي شىء موضوعى قائم بذاته وأن الوسيلة هي الطريق إليها أو أنهما شيان منفصلان ، ومن هنا ظهر التضارب بينهما . . . وأخذ الفلاسفة يبحثون في هل تبرر الغاية الوسيلة التى يستعملها الإنسان في الوصول إليها . . . ولو صدقت تلك النظرية الفلسفية الثنائية العتيدة لكان لكل إنسان أن يدعى أن الغاية تبرر الوسيلة أياً كانت درجة الأخيرة من الأخلاق والفضائل .

وقد يعترض البعض على أن هذا الزعم مقبوض للفضيلة . ولكن ماهى الفضيلة ؟ أليست هي غاية سامية ؟ أليست هي شيئاً واقعياً في مستوى الحياة العادية ، أم في خيال حالم ؟ فإذا كانت - وهى كذلك - أمراً في مستوى الحياة العادية ، وإذا كنا قد اتفقنا على أن نستمسك بالأخلاق العملية فقد وجب علينا أن نسعى وراء غايات ليس غير ، وأن نفترض الوسائل أموراً ثانوية لا تهتم بها . وعلى هذا فالإنسان الفاضل يستطيع أن يكذب دون أن يمس ذلك أخلاقه في شىء ، لا ، بل يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك فيخدع غيره ويغش ويسرق ويرتكب ، كل هذه المحرمات إذا كانت هذه هي السبيل الوحيد إلى غايته الشريفة . هذا إذا صدقت نظرية الفلسفة الثنائية . . ولكنها لم تصدق فنظرية

فلسفة التوحيد هي الجديرة بالاتباع ففيها الغاية والواسطة شيء واحد . . . ويمكننا أن نقول إن الفعل الحسن لا يصح أن يكون وسيلة لشيء ما . كبناء الأخلاق مثلاً . ثم إن قول الصدق ليس وسيلة للحق الأعلى مثلاً . لأن الفعل الحسن غاية في نفسه ، وقول الصدق هو الغاية التي ليست وراءها غاية . . . ويقول الأستاذ « ديوى » عندما يطلق الإنسان بندقيته ، على غرض ما ، فهل إطلاق « البندقية » هذا هو الغرض في ذاته ؟ أم إصابة المرمى هو الغرض ؟ ثم أيهما الوسطة لذلك الغرض ؟ والحق أن إصابة الهدف هو الغرض من إطلاق « البندقية » فالهدف هو الغرض والإطلاق هو الوسيلة ، ولكن يجوز لنا أن نقول في الوقت نفسه إن إصابة الهدف هي الوسيلة لحسن إطلاق البندقية فكلاهما إذن غرض ووسيلة في الواقع ونفس الأمر ، ويقول الأستاذ « كلباترك » يحدث كثيراً أن نطلب الغاية لأنها وسيلة لغاية أخرى . ويحدث أيضاً أن نطلب الغاية لنفسها ، لا لأنها وسيلة لشيء آخر ، فقد يكون المال هو الغاية التي لا يمكن أن تكون وسيلة لشيء آخر ، أو يكون إطفاء شهوة ملتبه كتكديس المال هو الغرض ، فالمال إذن وسيلة أو هو غاية ووسيلة في وقت واحد ، وهذا رد على قول كلباترك . وفي هذا يقول جون ديوى : « الغاية هي حلقة في سلسلة الأفعال ترى عن بعد ، والوسيلة هي نفس الحلقة ، ولكنها ترى عن كثب ؛ فالغاية هي آخر عمل يفكر فيه الإنسان فقط ، والوسائل هي الأفعال التي تسبق ذلك الفعل في الترتيب الزمني » ويقول أيضاً : « الغاية والوسيلة اسمان لشيء واحد — فهذان الاصطلاحان لا يدلان على تباين في مسمياتهما ولكن يرميان إلى التباين في قدرهما أو قيمتهما » ويقول أيضاً : « في الحق أن الغاية البعيدة ماهي إلا وسيلة في الزمن الحالى . والفعل في الزمن الحاضر ليس سوى وسيلة لغاية بعيدة » .

وإذن فالخلق ليس وسيلة إلى خير الجماعة البشرية فقط ، ولكنه غاية في نفسه . وأيضاً إن خير الجماعة بدوره وسيلة للخلق الحسن . وعن هذا فوزن الأخلاق بميزان الحق يتطلب منا أن نوجد بين الدافع للفعل ، والغاية التي وراءه . لأن كيفية العمل وما هيته وحدة لا تقبل التجزئة .

المشكلة الخلقية

يقصد بالسلوك الخلقي تطبيق مستويات السلوك التي يقبلها مجتمع من المجتمعات ويعتقد أنها عنصر أساسي لحياة الجماعة ، ولكن في خضم هذا العالم المتغير الذي يتحرك بسرعة ، ويعتريه التغير بين آن وآخر ، نجد أن الكثير من مستويات السلوك التي كانت مقبولة في وقت من الأوقات تعرضت لنقد لا ذع نظرياً ، ورفضت أن تطبق عملياً . وهذا هو سر المشكلة الخلقية .

ففي المجتمعات البسيطة التي لا تتغير أنماط الحياة فيها من جيل إلى جيل أو من قرن إلى قرن - تغييراً محسوساً يتمكن كل فرد فيها من أن يعرف الخير من الشر في بساطة ومن غير تعقيد . على أن هذا الموقف يلحقه التغير في المجتمعات المتمدينة ولنضرب للقارئ مثلاً لتوضيح ذلك بعائلات المهاجرين المستوطنة في « ولاية نيويورك » . فالآباء في هذه العائلات خضعوا أثناء تربيتهم لقوانين أخلاقية هي أكثر ملاءمة للمجتمعات البسيطة . فهم يعتقدون مثلاً أن البنات يجب أن يرجعن إلى منازلهن في وقت مبكر في المساء ، كما أنهم يؤمنون أنه من الخطأ أن يختلط البنات بالبنين . على أن مثل هذه المستويات للسلوك قد تكون مناسبة لمجتمع لا يعج بمظاهر المدنية الحديثة ، مجتمع خال من وسائل اللهو خال من وسائل المواصلات السريعة ، مجتمع ينزل فيه بيت العائلة عن غيره من البيوت ، مجتمع فيه يكسب الرجل قوته ويقوم المرأة برعاية البيت ، مجتمع يقوم فيه زواج الأبناء بعد مفاوضات يقوم بها الآباء ، وكلنا يعلم كيف ينظر أهالي المجتمع الصاحب إلى مثل هذا السلوك بنظرات ملؤها الاحتقار ، والاشمئزاز . فالموقف في الوقت الحاضر يتطلب مستويات جديدة للسلوك . وأن ما يحدث عادة لا يخرج عما يأتي : يتمسك الآباء عادة بأهداب التقاليد ، وبعد صراع . وأخذ ورد نجد أن الأبناء يتحررون من هذه التقاليد ويتركون الآباء وشأنهم .

ولقد كانت التربية الخلقية قديماً لا تعدو تنشئة الفرد على المبادئ الخلقية
التربية وطرق التدريس - ثان

الشائعة أو المعروفة بطريق القدوة والمثل الصالح أو بطريق التلقين . ولكن هذا أصبح غير كاف في وقتنا الحاضر . وما لا شك فيه أنه لم تنقطع صلتنا بالماضى مطلقاً فلا زال مجتمعنا متأثراً ببعض المبادئ الخلقية القديمة ، ولا يزال الطفل يتأثر بها خلقياً بطريق غير مباشر . ولكن الجزء الأعظم من تلك المبادئ الخلقية أصبح لا يناسب العصر الحاضر . وسبب ذلك ما لحق المجتمع من تغيير ، ومن استخدام الآلات لخدمته ففي عصر جنون السرعة نجد أن شرب الخمر مثلاً يثير مشاكل لم تدخل في يوم من الأيام في عقل الناس في العصور الوسطى . وفي عصر الإنتاج الآلى يجد العامل نفسه وقد توزع ولاؤه بين اتحاد المهنة الذى يأمره بالإضراب عن العمل ، وبين صاحب العمل الذى هو ولى نعمته . فأين مواطن الخير ، وأين مواطن الشر في مركز الزوجة الحديد ، عند ما يضيق منزلها إلى حجرات أربع وعندما يتناول جميع أفراد الأسرة طعامهم في المطاعم خارج المنزل ؟ وهل يخضع طفل المدرسة الابتدائية اليوم ذلك الخضوع الأعمى الذى كان يدين به الطفل في القبال التى تقيم وزناً كبيراً للأب ؟ تلك بعض المشاكل الخلقية التى نقابلها في مجتمعنا الحديث في الوقت الحاضر ، وقد امتلأت بها الروايات وهذه المشاكل لا يمكن مطلقاً أن تجد حلاً لها في مستويات الأخلاق التقليدية .

وعلى الرغم من ذلك فهذه المشاكل لا بد من أن تحل ، فلا بد من أن يكون لنا نظام مستنير نحيا في ظله . ولا بد وأن يكون لنا مستويات في السلوك يقبلها كل فرد . وهذا أمر ضرورى لحياتنا وإذا أخفقنا في تحقيق ذلك فعنى هذا إخفاقنا القاطع في مدنيّتنا الحديثة — وهدفنا الذى نرى إليه هو أن نعمل لتحقيق مثالية أخلاقية تهدف لا إلى جمود اجتماعى ، بل إلى استنارة اجتماعية . ولا بد وأن تعمل التربية على تنوير الفرد بهذه الاتجاهات الاجتماعية المتغيرة التى يعيش في خضمها ، ويجب أن تعمل التربية على أن تخلق في الإنسان اتجاهات عقلية اجتماعية يمتاز بالمرونة والابتكار ، والتقدم عماده البصيرة النافذة للمشكلات الاجتماعية التى نعيش بين ظهرانيها ، وأن نبتعد كل البعد عن أن نجعله يستسلم

لمجموعة من الآراء التقليدية عن الخير ، والشر . ومن هنا يجدر بنا أن نتنقل بالقارئ إلى دراسة مستويات السلوك .

مستويات السلوك

لو أننا نظرنا إلى سلوك الأشخاص المختلفين لوجدنا هذا السلوك يتغير من شخص لآخر ويختلف مهما كان الموقف واحداً بالنسبة لهؤلاء الأشخاص . وإن اختلاف هذا السلوك وتعددده مما جعل « مكدوجال » يحاول أن يجعل هناك مستويات يختلف السلوك بالنسبة إليها . وقد بدأ في تقسيمه هذا من المستوى الأولى البدائي إلى أرقى مستويات السلوك ووجد أن هذه المستويات يمكن إجمالها في أربعة مستويات متتابعة المراحل ، من الضروري لكل فرد أن يرقى في سلمها متدرجاً في الصعود ، فلا بد أن يمر بالمرحلة الدنيا قبل أن يصل إلى العليا ، وبالمستوى الراقى قبل أن ينتقل إلى ما هو أرقى منه وهذه المستويات هي :

١ - المستوى الأول : ويشمل مرحلة السلوك الغريزي الذي يتعدل فقط بتأثير الألم واللذة pain & pleasure اللتين يحصل عليهما الفرد أثناء النشاط الغريزي .

٢ - المستوى الثاني : ويشمل المرحلة التي يتعدل فيها السلوك الغريزي بتأثير الثواب والعقاب اللذين يمنحهما الوسط الاجتماعي .

٣ - المستوى الثالث : ويشمل المرحلة التي يتحكم فيها المدح والذم الاجتماعي في تعديل السلوك الغريزي .

٤ - المستوى الرابع : هو تلك المرحلة العليا التي ينظم فيها السلوك بواسطة مثل عليا تمكن الإنسان من أن يعمل ما يراه حقيقياً وخلقياً بالعمل في نظره ، دون اعتبار للمدح أو الذم من الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه .

وسنحاول أن نذكر مثلاً يوضح ذلك :

فنحن بصدد طفل صغير (حوالي الخامسة من عمره) شعر بدافع الجوع ، فدفعه هذا الدافع إلى البحث عن الطعام فساقته قدماه إلى المطبخ ، وعن طريق

المصادفة يجد «كرسيًا» بجوار «الغلمة» . فيتسلق فيجد نفسه أمام ما لذ وطاب من الطعام ، فيمد يده ويتناول ما شاء ثم يترك المكان دون أن يتكلم وينهمك في مهام حياة الطفولة : من لعب ، وحركة . . إلخ .

وفي اليوم الثاني يتكرر الموقف ، ويدفعه دافع الجوع إلى البحث عن الطعام ، وتشجعه الارتباطات الشبيهة التي ارتبطت بطعام الأمس . وفي هذه الحالة يدفع الكرسي أمامه إلى حيث يوجد الطعام ثم يتسلقه ، ويهم بتناول ما يحلو له . وهنا وفي هذه اللحظة تفاجئه أمه ، وتكشف ما كان من أمره . ونظراً لأنها تحافظ على مستويات السلوك ، وتريد تنشئة الطفل تنشئة خلقية صحيحة ، نجدها تبدأ في عقابه ، وتذيقه طعم الألم فينصرف عن الطعام باكياً ، مهموماً .

وفي اليوم الثالث يتكرر الموقف ، ويصبح الطفل بين دافعين . دافع فطري هو الجوع ، ودافع تربوي هو الخوف من ألم العقاب . ونظراً لأن الدوافع الفطرية قوية ، وعميقة في النفس عمقاً عظيماً ، يتقدم الطفل إلى حيث يوجد الطعام غير عابئ مطلقاً بما كان من لون العقاب ، ويهم بتناول بعضه . وتفاجئه أمه للمرة الثانية ، وتصب عليه جام غضبها .

وفي اليوم الرابع قد يتكرر الموقف ، ولكن في هذه الحالة نجد أن عمق ألم العقاب يتغلب على دافع الجوع ، ويجعل الطفل يعدل سلوكه فيتقدم إلى أمه في أدب وحياء راجياً إياها أن تنفحه ببعضه : وفي هذه الحالة تقول : إنه قد حدث تغيير في سلوك هذا الطفل أي أن سلوكه قد تعدل ، وانتقل من مرحلة إلى أخرى إذ انتقل من مرحلة السلوك الغريزي الذي يعدله مبدأ اللذة أو الألم إلى المرحلة الثانية وهي مرحلة السلوك الغريزي التي يعدلها الثواب ، والعقاب . وهكذا يستمر الطفل في طفولته الثانية مسيراً بهذين المبدئين على التوالي إلى أن يدخل المراهقة ، والشباب وفي هذه الحالة ينتقل إلى المستوى السلوك الخلقى الذي يعدله المدح أو الذم .

وينخفض الشباب للمستوى الثالث ، ويهمه حكم الرأى العام فيه ، فإذا

كان فتي أو فتاة أصبح حساساً لرأى الناس فيه ، يود أن يعدل من سلوكه بحيث يحصل على مدح المجتمع ، وأن يبتعد عن مواطن الردى حتى لا يقع فريسة لنقد المجتمع . والمجتمع الذى يخافه على درجات فقد يخاف من مجتمع الأصدقاء أو من المجتمع المدرسى أو من المجتمع الأكبر .

وإذا ما اشتد عصب الشاب ، ودخل فى مرحلة الرجولة ، وكان ذا مثالية خلقية عظيمة نجده ينتقل من المرحلة السابقة إلى مرحلة المثل الأعلى : فهو لا يعبأ مطلقاً بمدح المجتمع أو ذمه ، ولكن يعمل نتيجة صرخة الضمير أى يسيره ضميره . فلا يقوم بعمل إرضاء للزعماء أو الرؤساء ، ولكنه يعمل الخير من أجل الخير - وكذلك لا يقدر الجمال من أجل النفع ، ولكن يقدر الجمال من أجل الجمال ، ولا يصل إلى هذه المرحلة إلا كل من كان متين الخلق ، ثابتاً على المبدأ كسقراط الذى فضل أن يشرب كأس السم مترعة حتى الثمالة على أن يغير رأيه . وكذلك لم يصل إلى هذه المرحلة إلا الأنبياء ، وبعض الزعماء الذين تعرضوا لجميع أنواع الأخطار ، والأذى ، والاحتقار ، ولكنهم تمسكوا بعقيدتهم بالرغم مما وقع عليهم من آلام .

فالنمو الخلقى إذن يسير فى مراحل أربع هى :

أولاً - مرحلة الحذر The Prudential Stage

ثانياً - مرحلة السلطة The Authoritaian Stage

ثالثاً - المرحلة الاجتماعية The Social Stage

رابعاً - المرحلة الشخصية The Personal Stage

مراحل النمو الخلقى

أولاً - مرحلة الحذر :

نحن لا نطلب من الحداث الصغير أن يكون قويم الخلق ، فسلوكه كما سبق أن عرفنا تتحكم فيه دوافعه الغريزية ، كما أن أعماله لا يمكن أن تقاس بمقياس الصواب أو الخطأ فهو ليس بالأخلاقى ولا

بغير الأخلاقي he is neither moral nor immoral بل هو كائن حتى تسيره دوافعه . وسرعان ما يتعلم أن بعض الأفعال لها نتائج ضارة ، فالنار تحرق ، والموسى تعرج ، وبذلك يأخذ في السيطرة على دوافعه الغريزية . وفي اللحظة التي تبدأ فيها هذه السيطرة يمكن أن يقال إن نموه الخلقى قد بدأ — فالطفل بذلك يصل إلى مرحلة بدائية من مراحل السيطرة الخلقية يمكن أن نطلق عليها اسم مرحلة الحذر . في هذه المرحلة يسيطر الطفل على سلوكه خوفاً من النتائج الطبيعية .

ثانياً — مرحلة السلطة :

ويصل الطفل إلى المرحلة الثانية من مراحل النمو الخلقى عندما يتمكن من التفرقة بين الناس ، وبين الأشياء في بيئته فبعض أفعاله سيجد أنها تسبب رضاء الناس ، وهذا يصحبه عنصر من عناصر السرور . كما أن بعض الأعمال الأخرى تسبب سخط الناس وهذا يصحبه عنصر من عناصر الألم . وهكذا يتحكم في أفعاله سلطان البالغين حوله — وهنا يمكن أن نقول : « إن الطفل قد وصل إلى مرحلة السلطة » .

ثالثاً — المرحلة الاجتماعية :

وباتساع دائرة الطفل الاجتماعية ، يصبح شاعراً بنفسه كعضو في جماعة ، وسرعان ما يكتشف أن أفعاله يجب أن تكون مسايرة لما يراه الرأي العام ، هذا إذا أراد أن يحتفظ بعنصر السرور الذي يشعر به من عضوية الجماعة . وهذه هي المرحلة الاجتماعية ، وهي أرقى مرحلة من مراحل النمو الخلقى يصل إليها بعض الناس فدوافعهم تتحكم فيها العناصر الخارجية كالحكمة ، والسلطة ، قوة الرأي العام . على أن عامل النمو لدى هؤلاء لم يصل إلى تمامه .

رابعاً — المرحلة الذاتية أو المرحلة الشخصية :

وهي أرقى مراحل السلوك الخلقى ، ولا يتمكن المرء من الوصول إليها حتى يصبح قادراً على التحكم في دوافعه ومعنى هذا أن سلوكه يخضع لمثل أعلى كونه الفرد لنفسه . والفرد الذي يصل إلى هذه المرحلة من مراحل السيطرة الخلقية

(مرحلة السيطرة الشخصية) لا بد وأن تسيره قوة باطنية، تلك القوة التي خلقها ذاته المثالية، فأفعاله ستكون متفقة مع أفعال تلك الشخصية التي اتخذها مثلاً أعلى له، وإذا احتاج الأمر نجد أنه لا يعبأ بالرأى العام، ويهمل عناصر السلطة ويحتقر جميع أنواع النتائج المختلفة^(١) :

على أن هذه «المرحلة الرابعة» يجب أن تصبح الهدف الأسمى الذي يتحرك نحو تلاميذ مدارسنا، والجماعة المدرسية يجب أن تكون خلاصة مثالية أو نموذجاً للعالم الخارجي — An idealized epitome or model of the world .

ولكى نزيد القارئ تفصيلاً لتلك الحقائق الخاصة بنشأة السلوك الخلقى لدى الطفل، وتطوره نسوق له هذا المثل الآتي^(٢) :

«أيمن» طفل في السابعة من عمره قدر له أن يزور مدينة صاخبة لأول مرة في حياته وأن يؤخذ في رحلة قصيرة راكباً الترام، فيعجب أينما إعجاب بما يقوم به السائق وبائع «التذاكر» من الأعمال ويوجه إلى أمه سيلاً من الأسئلة عنهما مما يسبب لها ارتباكاً غير قليل وحيرة شديدة، والآن وقد انتهت الرحلة وشربت العائلة «الشاي» بدأ «أيمن» يمثل المشاهد التي رآها بعد ظهر ذلك اليوم، وسرعان ما يتخذ من حجرة الاستقبال تراماً، ومن أمه وعماته ركاباً

(١) ويمكن أن نبين ذلك برسم تخطيطي يوضح المستويات الأربعة المتقابلة للمراحل الأربع الأساسية لتطور السلوك وهي :

أولاً : مستوى السلوك الغريزي وعماده الفرائز الآتية : البحث عن الطعام — التركيب — التملك — الاجتماع — الجنس — الوالدية — الاستطلاع — الضحك — السيطرة — الخضوع — الشعور بالضعف — التفزز — الغضب — الخوف .

ثانياً : مستوى العواطف الحسية — كمواطف الحب (للمنزل — للأم — للعقل — للزوجة) وعاطفة الكراهية نحو العدو .

ثالثاً : مستوى العواطف المعنوية : كحب العدل . والكرم . وتقدير القوة، كراهية الجبن ، والقسوة . رابعاً : المستوى المثالي وهو مستوى عاطفة احترام الذات . (انظر الرسم)

(٢) آثرنا أن نأخذ بآراء «سير برسي زن» في هذا الموضوع لأهميتها ووضوحها عن كتاب «التربية» مادتها، ومبادئها الأولية ترجمة صالح عبد العزيز .

له ، أما هو فقد كان يقوم حيناً بدور بائع التذاكر واضطر إلى القيام بمهام السائق أحياناً نظراً لعدم وجود زميل له يساعده في مهام عمله ، وقد جهز نفسه بحقيبة تشبه حافظة نقود الكمسارى كما استعان بجرس المائدة ليحل محل الجرس الكهربى ، ثم بدأ يجمع النقود ، ويبرز التذاكر المسننة بعناية ، ويوقف الترام مرة ثم يسيره أخرى ، وتارة يسرع في القيادة وطوراً آخر يندفع نحو « فرامله » ليقف بها القاطرة أو يستخدم آلة التنبيه ليحذر بها المارة الذين يعترضون طريق الترام ، وفى وسط هذه الحماسة الشديدة تهبط عليه الخادم لتأخذه قسراً إلى الحمام أو للنوم وسط موجة عظيمة من الاحتجاج والمعارضة .

وقد يظل الطفل على هذه الحال يومين أو ثلاثة ، ثم سرعان ما يتصور عظمة الفرسان أثناء سيرهم في الاستعراضات العسكرية بحرابهم ودروعهم البراقة ، وقد يمر بمخيلته صورة اللبان وهو يقوم بدورته اليومية بمعداته ومنتجاته ، وعلى هذه الحال يصبح عامل الترام فارساً أو لباناً أو . . . إلخ .

دعنا الآن نستعرض حقائق هذه القصة في ضوء معرفتنا : إن أول ما نلاحظه في مثل هذه القصة هو أنها تبدأ بدافع غريزة معينة هي غريزة حب الاستطلاع ولكن هذه الأدوار التي قام بها « أيمن » - دور عامل الترام ، والفارس ، وغيرهما - لم تمر أمام عينيه كأحداث جديدة تافهة تجذب انتباهه ثم تنقشع ، ولكنها ذات تأثير فعال ، وفى الوقت نفسه لم تكن شاملة وعسيرة النفوذ بحيث تسلمه إلى العجز أو تثير فيه الخوف أو تشعره بالاستكانة ، ولكن فيها من القوة ما يثير لديه الرغبة في تعديل نفسه وتكييفها والتي تقوم بعمل أو تستجيب لشيء لا يمكن إغفاله ، واللعب الذى يعقب ذلك ما هو إلا تنبيه لهذا المثير . تلك هي الناحية الإيجابية للسلوك التى تتبع وتكمل الناحية السلبية السابقة والتي يقويها عنصر الشعور بالسيطرة الذى قد يصل فى وقت من الأوقات إلى مستوى الغرور أو الاعتداد بالنفس الزائد عن الحد .

يحسن بنا بعد ذلك أن نلاحظ أنه فى الوقت الذى يتجه فيه « أيمن » للتعبير عن ذاته فى شكل سائق الترام مثلاً فإن جميع التزعجات الفردية والمبول

الوجدانية التي تتناوب تأخذ اتجاهاتها من ذلك المظهر للتعبير عن الذات ، كل على حسب أهميته واتصاله بالموضوع ، فغريزة حب الجمع يتجلى في بيع التذاكر ، وغريزة الحل والتركيب تعرب عن نفسها أثناء فحص التذاكر ولا يثور « أيمن » غاضباً إلا إذا تدخل أحد في عمله ، ولكن يلحقه الغم والحزن إذا فشلت تجربته أو ضاعت منه الفرصة هذا فضلاً عن أن الرغبة تحفزه دائماً للعمل كما أن الأمل يحدوه إلى تكراره وتجديده .

وقد نطلق على هذا النوع من اللعب اسم بناء الشخصية التجريبي (الذاتية) وذلك لأنها لا تختلف عن العملية الحقيقية في بناء الذاتية إلا من حيث عدم الثبات النسبي في نتائجها ، وفي مرحلة اللعب الإيهامي تصبح غريزة لدى الطفل كالإبرة المغناطيسية الحائرة فتارة تتجه اتجاهات خاصة ، وتارة أخرى تنتهي ناحية مخالفة متأثرة بغريزتي السيطرة والخضوع حاملة معها الميول الوجدانية الأخرى التي تتجه نحو تحقيق الأهداف التي ترمى إليها تلك الغرائز . إن « أيمن » في سن السابعة قد كان حراً يولع بكل شيء ولعاً مؤقتاً غير مستمر وما أن يصل إلى سن الثانية عشر حتى يبدأ اهتمامه يتركز في شيء واحد وينتهي للدخول في حياة عملية محددة تبشر بأنه سيكون مهندساً كهربائياً مثلاً ، وهو في هذه السن لا يهتم مطلقاً بعمل « كساري الترام » أو بائع اللبن ويقنع بأن يترك للأخزين فرصة بناء مجدهم سواء أكان ذلك في الجيش أم في غيره دون أي تدخل منه في شؤونهم ، أما هو فقد اتجهت غريزة السيطرة عنده وجهة الهندسة الكهربائية ولا يمكن تحويله عن هذا الاتجاه إلا في أوقات العطلة ، وأما فيما عدا هذا فإنه لا يوجد هناك من حيث المبدأ فرق مطلقاً بين شخصية « أيمن » هذا وهو ابن العشرين وبين الشخصيات المتعددة التي يتمصصها وهو في سن السابعة ، فميزاته الرئيسية لا تزال موجودة ، فحياته الغريزية والوجدانية ما زالت سائرة في طريقها ذلك الطريق الذي رسمته نزعة « إثبات الذات » فالدوافع الدفينة في غريزة حب السيطرة والحل والتركيب كلها تحدم ميل « أيمن » الغلاب وتنظم في اتجاه علمي ومهارة فنية ، وتتعاون

معها تلك الوجدانات التي تتصل بالذات كالغضب والانفعالات الأولية والثانوية لتساعده في توجيه نموه الرئيسى ، وقد لا يمضى وقت طويل حتى تتمكن العين المجربة من أن ترى أن هيئة الطفل ولباسه قد كشفتنا عن شخصية مهندس كهربائى وقد يكون من الصعب عليه أن يخفى مهنته إذا ما تحدث مع شخص غريب عنه ولو فترة قصيرة من الوقت .
ولنرجع بالقارئ مرة أخرى إلى « أيمن » ونحاول أن نتبع تطور السلوك الخلقى لديه .

ليس في مقدورنا أن نعرف - بطريق مباشر - شيئاً ما مؤكداً عن حياة الطفل الداخلية غير أنه في وسعنا أن نلاحظ سلوكه ونفهمه ونترجمه في ضوء معرفتنا لسلوك الحيوان ، وليس هناك أدنى شك في أن بذور مقومات الذاتية (المركبات البدائية للذاتية) قد بذرت في الشهور الأولى من حياة الطفل وهذه البذور لا تخرج عن أن تكون عاطفة بسيطة أو مجموعة من العواطف المبسطة التي ترتبط بشهوات الجسم البدائية وما يرتبط بوظائف الفسيولوجية من لذة أو ألم ، ويذهب علماء التحليل النفساني إلى أن تاريخ هذه العواطف في باكورته له أهمية كبرى في تاريخ حياة الطفل في المستقبل إذ أنه ينبئ بما سيكون عليه الطفل طبعاً أم عنيداً ، ظاهرياً يترع إلى العالم الخارجى ، أم باطنياً ينطوى على نفسه ويعيش وسط أفكاره ووجداناته على أنه قبل ظهور « فرويد » بمدّة طويلة قد اهتدى جماعة من العلماء إلى أن العواطف المرتبطة بالذات الجسمية لها أهمية كبرى في تكوين الخلق سواء أ تطورت هذه العواطف نحو الانغماس في الذات كالذى يشاهد عند شهوانى المزاج أو نحو تقشف الزهاد والقديسين .

ونحن إذا استعزنا لغة فرويد قلنا : إن حياة الطفل العقلية الأولى محورها حب الذات ولا يوجد في هذا العالم سوى قصة واحدة هى قصة إشباع رغباته الجسمية وتذكر آلامه . ولكن من بين تلك الوحدة المهمة يظهر العالم تدريجياً فيبرز الأب والأم ، وبظهورهما يتجلى مظهر الحب والكراهية وهما أقدم القوى الإنسانية فيبدأن دورهما من جديد مع هذه النفس الساذجة ، وبالاختصار

يتجلى لنا موقف خاص بحيث لو صدقنا فرويد فيما قاله إزاء الطفل لوجدنا أنه في هذه المرحلة يمتاز عن الراشد في أدوار حياته بحيث يجدر بنا أن نطلق على هذه العلاقة اسم « الثالوث الدائم » "The Eternal Triangle" وهنا لا بد أن يخوض غمار موقعة حاسمة من معارك الحياة الخلقية لا تنتهى بظهور « الأنا » أو « الذات » Ego بحدودها الظاهرة بوضع خاص في الشعور ولكن يتبعها ما يتقمص من شخصيات كأحد والديه أو كليهما كشخصية مثالية لذاته والشخصية المثالية لهما هي ما يمكن أن يكونا عليه وما يجب أن يكونا عليه ومقارنتهما بما هما عليه فعلا ، وإذا استعرنا لغة « شاند » ، « وماكدوجل » قلنا : إن الطفل يبدأ في تكوين عاطفة نحو أبيه وأخرى نحو أمه وثالثة تعرف بعاطفة احترام الذات ، وعن طريق هذه العاطفة الأخيرة تتكون « الإرادة » و« الضمير » ومهما نقلل من قيمة نظرية فرويد الخاصة « بالمركب الأبوي » . فلا يمكننا أن ننكر أن « أيمن » سيحصل من علاقته مع أبويه وبدرجة أقل مع إخوته على « آثار مركبة » وهذه الآثار هي التي ستؤثر تأثيراً حسناً أو سيئاً في سلوكه وسعادته في المستقبل ، على أنه قد يكون من المبالغة أن نقول : إن « أيمن » حينما يتزوج سيكون « لا شعورياً » باحثاً عن أم ثانية ، وتكون أقرب إلى الصواب إذا قلنا إن سلوكه إيجابياً كان أو سلبياً إزاء زوجته سيتأثر إلى حد كبير بميزات حياته الأولى لأنه وفقاً لآراء « شاند » واتفاقاً مع ما سبق أن أدلينا به من أن لكل عاطفة من العواطف القوية صفات خاصة ، وهذه الصفات ترمى إلى أن تعبر عن نفسها في العواطف التي تشابهها . وبالمثل تلك الصفات التي نمت مع عواطف « أيمن » نحو الكلب أو القط مثلاً لا بد من أن تؤثر تأثيراً عظيماً على سلوكه في المستقبل نحو بني جنسه فسيقف إزاءهم نفس الموقف - موقف السيطرة - وإذا لم يتمكن من ذلك فإنها ستعبر عن نفسها رمزياً أو تظهر منها علامات تدل على أنها ما زالت تعمل في غياهب اللا شعور وبالمثل سيكشف « أيمن » إبان تطور عواطفه نحو المواد المدرسية عن المثل الأعلى للصبر والإنفاق اللذين سيعزى لهما العامل الأكبر لنجاحه في المستقبل كمهندس كهربائي .

هذا إذا كان والدا « أيمن » من العقلاء ، ولكن حيث يفتقر الآباء للرؤية والقدرة على استخدام الحكمة فسنعجز أن مواطن الضعف والعيوب التي تشوب العلاقات العائلية المبكرة لا بد أن تؤدي إلى ظهور نواح من الضعف ومن التشويه في أخلاق الطفل تلازمه طيلة حياته . فعملية النمو في الواقع ليست عملية بسيطة أو مأمونة الجانب ، ولذلك كان من أُلزم الواجبات على الآباء وعلى المدرسين الذين يتعهدون أمر الطفل أن يدرسوا مشاكل النمو . وأن يقدرُوا خطورتها واضعين نصب أعينهم أن أول واجب علينا نحو الأطفال الذين نخبرهم هو أن نساعدهم وأن تأخذ بيدهم حتى يتمكنوا من الوقوف على أقدامهم وأن أكبر خطأ يمكن أن نرتكبه هو أن نتجاهل شخصياتهم وأن نجعلهم ، مجرد صورة لأنفسنا .

ولنفترض أن « أيمن » قد وصل إلى سن السابعة ولعله قد أتم جزءاً كبيراً من دراسته وقد يكون هذا الجزء أهم جزء وأنفس مرحلة في كل تعليمه كما وكيفاً وذلك لأنه لا يمكنه أن يتعلم مثل هذا القدر من المعرفة في سبع سنوات تالية من حياته ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأنه قد اكتسب الضروريات التي يحتاج إليها كل متمدين ، وربما يكون قد تعلم أيضاً القراءة والكتابة ، على أن الجدير بالذكر هو أن نموه العقلي لم يسر على وتيرة واحدة ، وذلك لأن النمو العقلي الظاهري مثله كمثل النمو الجسمي لا يتقدم بشكل مطرد وفي خط مستقيم ولكن في شكل موجات ، « فأيمن » يتخطى مسرعاً « الموجة » الأولى ثم هو الآن في حالة هدوء واستقرار ، ونحن نكرر القول بأن هذا صحيح ولكنه لا ينطوي إلا على الأشياء الظاهرة لنا ، ففي خلال السنتين الأخيرتين حدث مدار عظيم من التثبيت وهذا الهدوء الداخلي له من الأهمية ما للتقدم الظاهري ، وبعد فترة ثانية من التقدم السريع يمكن أن ننتظر فترة ركود أخرى حوالى سن الثانية عشرة ، وأخيراً تحمله موجة ثالثة عظيمة تعبر به دور الشباب أى في أواسط العشرين ، وفي هذه السن كما يقول جيمس : سيقع أغلبنا فريسة للهدوء والتحفظ ، ولا يعقب هذه السن أى ثورات انقلابية ولكن يعقبها فترات تثبيت وتقدم بطيء منقطع في اتجاهات قد استقرت من قبل .

على أن كل مرحلة من هذه المراحل الجديدة يتقدمها ظهور دوافع غريزية جديدة أو على الأقل تغيرات تتميز باختلاف مداها وأهميتها النسبية للأنواع الموجودة فعلاً ، ففي خلال السبع سنوات الأولى نرى أن المنزل قد أمد « أيمن » بكل ما يحتاج إليه ففنع بالمضى في طريقه باحثاً عن لذاته ومستغلاً من يكبره في السن بغير تورع حتى يصل إلى تلك الأهداف ، وقبل نهاية تلك المرحلة بسنة أو بستين يلتحق بإحدى مدارس رياض الأطفال ويتمتع بحياته فيها على الوجه الأكمل فيجد في المدرسة مكملًا عظيمًا للمنزل من حيث كونها مبعثاً للسرور والبهجة دون أى تدخل من الكبار ، أما في سن الثامنة فيبدأ في الاستجابة لميول أوسع وأشمل ، ويشعر بالحاجة الشديدة لزوال أطفال آخرين يقومون معه بالتمثيل على مسرح الحياة ويبدأ المنزل يفقد أهميته الأولى ويتقلص إلى قاعدة للترفيه حيث يستريح الشخص ويعد نفسه لما تحفل به حياته من مخاطرات مع أصدقاء مرحين في العالم الخارجى ، ويندمج « أيمن » في نادى الذئاب ويلتحق بالفصول الأولى للمدرسة المجاورة ، وهنا في هذه المدرسة — ونظراً لأنه نشأ نشأة صحية — سرعان ما تتكون لديه ميول عقلية وعملية ، وفجأة وعن طريق اللعب يكتشف في أعماق نفسه ميلاً عظيماً للقراءة . وبهذه الطريقة وبأسئلته الجريئة لمن يكبره في السن تنتظم معلوماته وتزداد ، وحينما يصل إلى الثانية عشرة من عمره يتضح أنه قد عرف الشيء الكثير عن الطائرات ، ذلك الموضوع الذى جذب نشاطه وتخصصه .

والفرق الواضح بين مرحلة الطفولة الأولى ، وبين المرحلة الثانية التى وصل إليها « أيمن » الآن — وفقاً لرأى فرويد — هو أن المرحلة الأولى يسيطر عليها مبدأ اللذة ، والألم بينما المرحلة الثانية يحكمها « مبدأ الواقع » وقد يكون من الخطأ الفاحش أن ننظر إلى المبدأين (مبدأ اللذة والألم ومبدأ الواقع) على أنهما يعبران عن نوعين من الدوافع يختلفان اختلافاً تاماً ، أضف إلى ذلك أن الانتقال من مرحلة إلى أخرى يسير تدريجياً وفقاً لتدخل عنصر الذكاء كما ينادى بذلك مبدأ ماكدوجال العام ، الخاص بتهديب الدوافع الغريزية ، ولا بد

أن نقيم في الوقت نفسه وزناً لما قاله « فرويد » عن صراع حقيقي ، فالطفل في سن الثانية عشرة طفل واقعي تعلم كيف يكيف نفسه مع هذا العالم الذي يعيش فيه كما تتطلبه طبيعة هذا العالم ولكنه معرض لفترات ركود تفقد فيها « الآثار المركبة » التي يقوم عليها سلوكه الطبيعي ، تناسقها وتبحث دوافعه - كما كانت تبحث أيام الطفولة - عن طرق مختصرة لتحقيق مآربها وينتهي الأمر بالنوبات الفجائية للاضطراب الفجائي والأثرة وغيرها من المظاهر الشيطانية التي يرتطم فيها بعض البنين أو البنات .

على أن هذا الاختلاف العام يصحبه اختلاف من نوع آخر يتبلور في ظهور الغريزة الاجتماعية التي هي أصل كل سلوك اجتماعي وهذه الغريزة كغيرها من الغرائز الأخرى تنمو من مستوى بسيط ومن دافع غير منظم حتى تصل إلى ذلك المستوى من السلوك الفكري الراق ، فطفل السنة العاشرة يميل إلى الاجتماع ولكن لا يمكن أن نعتبره اجتماعياً إذ لا يزال يتوهم أن العالم قوقعته وأنه يحتاج إلى معونة الآخرين لفتح مغاليق تلك القوقعة وعلى ذلك تراه يصبح عضواً في جماعة الصيادين أو رئيساً لتلك الجماعة على أن الطفل لا يصل إلى هذا المستوى المنظم من السلوك الاجتماعي الحقيقي إلا حينما يحىء دور البلوغ .

ونمو هذه الغريزة - الاجتماعية - يوضح بجلاء نظرية ما كدوجل العامة فمن الخطأ أن نظن أن هذه الغريزة ميل فطري نحو سلوك اجتماعي بالمعنى المستحب الذي نفهمه من كلمة اجتماعي Social فهي تتكون أولاً وقبل كل شيء من دوافع ليس لها لون أخلاقي تدفع الطفل بكل بساطة لأن يجعل حياته في اتصال مستمر مع غيره على أن مجرى هذه العلاقات يحددها تاريخ الغريزة المتتابع أكثر مما تحددها صفاتها الأصلية ، من أجل ذلك نجد أن هذه الغريزة قوية عند بعض الناس لدرجة أنهم قد يصيبهم اليأس وقد يشعرون بالحزن الشديد إذا ما تركوا وحدهم . ولكن من الواضح جداً أنه إذا عاش طفل مع غيره فيجب أن تقوم علاقته بهم على أساس من العدل ويجب أن يتصف بما يتصفون به ، وعلى ذلك فأول مجموعة أخلاقية يضيفها الطفل إلى القوانين

الأخلاقية المبسطة في العائلة هي قوانين العصابة التي ينتمى إليها ، أما قانون النادى فسيظل أقوى مؤثر في توجيه سلوك الأغلبية في مستقبل حياتهم ، وإذا وصلنا إلى مرحلة البلوغ نجد أن الشاب الذي كان فيما سبق يقبل بلا تفكير طرق ومستويات الجماعة التي يعيش فيها يصبح ، وقد تشبع (بالضمير الاجتماعي) الذي يمتاز بصفته الخلقية أو الدينية الحقة فيمتلئ الشاب بالحماس والمثل العليا الاجتماعية ، ويجب التضحية من أجل الآخرين ، وقد يتعمد أن يزوج نفسه في سبيل رفع مستواهم إلى غير ذلك من الأمور التي يتعذر عليه أن يقوم بها نظراً لأن مثلها العليا لا تنسجم قطعياً مع ما ارتضاه لنفسه من المثل ونجد أنه يتخلص من واجباته نحو المجتمع ، وينقل إخلاصه ، ووفاءه إلى جماعة مختارة ويجعل الشرف كل شيء ويرى أنه إما أن يحيا به أو يموت في سبيله .

والحياة الاجتماعية التي تخلقها الغريزة الاجتماعية ، وتساعد على بقائها هي المدرسة الأولى للأخلاق حيث يتكون الرجال ، ويمكن أن نقول بوجه عام : إن المبادئ الأخلاقية التي يتعلمها الفرد هناك هي تلك الصفات التي من شأنها أن تحفظ للجماعة كيانها ، وتريد في رفاهية الحياة المشتركة .

ولنرجع الآن إلى « أيمن » وهو في مرحلة البلوغ ، تلك المرحلة الخطيرة من حياته (مرحلة الشباب) مرحلة الميلاد الجديد للجسم ، والعقل فلقد اعترته بشائر التغيرات في السنة أو السنتين الأخيرتين من زيادة فجائية في الطول كما أنه قد فقد استدارة الوجه ، ودلائل الصغر التي كان ينعم بها في طفولته ، وقد تضخم صوته الذي طالما خدمه أجل الخدمات في الأغاني المدرسية ، كما فتر حماسه للدراسة ، وبدأ يهجر هواياته السابقة ، واعترته موجات مزاجية شديدة وبالإجمال يظهر كأنه قد فقد اتزانه . ولكن على الرغم من أن « أيمن » الذي سبق أن عرفناه في سن أصغر من ذلك نراه الآن يسارع في بناء شخصية جديدة فيهم بمظهره اهتماماً غير عادي ، ويدقق في اختيار ملابسه ، ويعارض أى نقد يوجه إلى سلوكه ، ويشعر شعوراً غريباً نحو الجنس الآخر .

هذا من ناحية ، وأما من ناحية العمل المدرسي فنجد أنه قد جمع شتات

نفسه ونجح في امتحان شهادة الدراسة الثانوية ، وها هو ذا الآن قد بدأ يقبل بشغف عظيم على منهاج أكثر تقدماً في العلوم وفي الرياضة ويعلم تمام العلم أنه بإقباله هذا إنما يضع أساس مستقبله ومهنته وهو يعلم أيضاً أنه إن لم يتحمس بنفس الدرجة لشرف مدرسته ويشترك في الألعاب الرياضية ويقم بواجب الوفاء على الوجه الأكمل فإن أخلاقه تنحل ويصبح عبثاً ثقيلاً على المدرسة ويشار إليه من جميع إخوانه بأنه مجرد صمام ، هذا إلى أن عقله لم يصبح بالسهولة التي كان عليها من قبل ولكنه قد لحقه تغيير عظيم فقد وصل إلى اللانهاية في الطبيعة وفي العلوم العقلية ، ولقد حل محل خيال الطفولة الذي تلاعب بالعالم قديماً خيال آخر إذ بدأ يبحث عن معانٍ أعمق وأثبت ، فهو يقرأ الآن مؤلفات طه حسين والعقاد بحماس شديد ويشعر شعوراً غامضاً بشبه اتصال بينهما ويستطيع أن يتحدث عنهما أمام أصدقائه ورفاقه ولكنه لا يصرح بشيء عن مكونات نفسه ، وقد يذهب إلى المسجد في غير أوقات الصلاة بينما قد يحق في حجرته نسخاً من كتب الزنادقة والإلحاد .

نستدل من هذا على أن هناك عواطف جديدة آخذة في التكوين في نفسية « أيمن » أما العواطف القديمة فقد تغير موضوعها وأصبح أكثر انشاعاً وأعمق أثراً ، على أن كثيراً من صفات عواطف الطفولة ستعلن عن نفسها في هذه العواطف الجديدة ، ولا ننسى أن نذكر أن عامل الكبت وعامل الإغلاء قد لعبا دوراً كبيراً جداً في طور الانتقال وأن جزءاً عظيماً من صفات « أيمن » وهو طفل قد بدأ يتحول ويتخذ أشكالاً جديدة جداً بأن تميزت أخلاقه واكتسب لوناً جديداً .

ومن بين تلك العواطف الجديدة التي أخذت تتكون لديه يهمننا أن نعرف شيئاً عن سيدة العواطف عنده ، تلك التي أطلق عليها ماكدوجل اسم « عاطفة اعتبار الذات » . وما لا شك فيه أن عواطفنا تتخذ في بداية حياتنا « صبغة موضوعية » وشأننا في ذلك شأن بقية الحيوانات ، فالطفل الشره الذي يرى إلى أن يستحوذ على أكبر نصيب من الحلوى مثله كمثل كلب شره يطمع في أن التربية وطرق التدريس - ثلث

يستحوز على أكبر قطعة من العظم ، كما أن البنت الصغيرة تتباهى بلبسها الحديد في شيء من السذاجة والشعور بالسيطرة كما يتباهى الطاووس تماماً بعرض ذيله ، وقد يظل الطفل محتفظاً بشيء كثير من هذه الناحية الموضوعية في عواطفه حتى سن النضوج ، فقد ينشغل الفرد منا في شيء من الأشياء وقد يجذب هذا الشيء انتباهه للدرجة أنه قد ينسى ماعداه ، ويمتاز الإنسان عن غيره من الحيوانات بأنه منذ فجر حياته يبدأ يدرك ماحوله من الأشياء ثم يفكر في نفسه فيما بعد كمثال لتلك المسرحية ، على أن مرحلة الشعور بالذات تبدأ في الظهور عند الطفل عندما يتمكن من التفرقة بين نفسه وبين العالم الخارجى تفرقة تامة نتيجة لما يشعر به من لذة أو ألم مرتبطين بجسمه ، وقد يتسع مدى هذا الشعور بالذات في هذه المرحلة حتى يشمل ملابس الطفل ولعبه وعائلته وأصدقائه ، وفيما بعد يتسع أكثر من ذلك فيشمل البيت الذى يسكنه والكلب الذى يمتلكه والمشروع الذى بناه وهكذا . وذلك لأن علاقته بهذه الأشياء لا تستثير فقط عواطفه نحوها ولكنها تحرك في نفسه عاطفة كبرى ، أو سيدة العواطف ألا وهى عاطفة « احترام الذات » التى تعتبر تلك الأشياء مرتبطة تمام الارتباط بوجوده وبتزوجه ، وبعبارة أبسط تصبح هذه الأشياء رأس ماله الذى به يواجه العالم بطريقة شعورية ، وبقدر ما يصيب هذا « الرصيد » من ارتفاع أو تدهور بقدر ما يصيب الشخص من فرح أو سرور أو خوف أو غيره من الانفعالات التى تدخل في تركيب العاطفة ، والطفل في أثناء ذلك يتعلم عن طريق اختلاطه بالآخرين فيركز انتباهه في نفسه وفي طبيعة أعماله ، وعن طريق المدح والذم ، والثواب والعقاب الذى يصيبه من أبويه ومن مدرسيه ، وعن طريق النقد الصريح اللاذع من إخوانه وخوفاً من رأى العام « رأى جماعة النادى » الذى له قوة عظيمة في دور النضوج نجد أن « أيمن » يرحب بتلك الانفعالات والرغبات التى ستصبح فيما بعد أهم وأقوى مقومات عاطفة اعتبار بالذات .

وبذلك يصل المراهق الذى ينشأ نشأة صحية من الناحية العقلية إلى فكرة حقيقية عن ذاته باعتباره شيئاً مثالياً ، ويكون رأياً صحيحاً عن نفسه وعما يجب

أن يكون عليه ، وقد يكون رأى الإنسان عن ذاته مجرد رأى بحيث يلتزم الحدود العامة للشكل الحسن ، وقد تكون التعاليم والملاحظة والقراءة هى المهمة لذاتيته ، وإذا ما كانت فكرة الشاب عن نفسه صحيحة كاملة لعبت عاطفة اعتبار الذات دوراً هاماً فى أطوار حياة الفرد ولا سيما فى الأزمات ، فى هذه الحالة تصبح هذه العاطفة هى المسيطرة الفعالة على حياته .

وعلى هذا يمكن أن نرى أن وظيفة عاطفة اعتبار الذات هى السيطرة التامة على العواطف الموضوعية التى تكون الأسس العامة للذات ، فلو فرضنا أن أحد المولعين بجمع المال قد أتاحت له فرصة الحصول على المال بوسائل مأمونة ، ولكنها مدعاة للتساؤل والاهتمام ، فصفة الأمانة التى يتصف بها قد تمنعه من الانغماس فى تلك الطريقة بل تجعله لا يجيد عن الصراط المستقيم ، ولكن إذا لم تكن صفة الأمانة قوية عنده فهناك فى ينابيع عاطفة اعتبار الذات من القوة ما يكفى لكبت أو ضبط تلك الدوافع التى تنتمى لعاطفة حب الكسب غير الشريف ، وهنا وفى هذه الحالة يستبطن الرجل الموضوع ويفكر فى نفسه كشخص يندمج فى مشاريع قدرة غير مشروعة ، وهنا يصطبغ تأمله النفسى بالخزى والعار لرجعته إلى الخطيئة فى الماضى ولما ينتظره من خجل وتبكيك فى المستقبل ، على أن تذكيره فى نفسه كمنفذ للعمل سرعان ما تثيره عاطفة اعتبار الذات .

يرينا المثل السابق إلى أى حد يتوقف « الضمير » والإرادة الأخلاقية على عاطفة اعتبار الذات كما أنه يرينا أيضاً الدور الرئيسى الذى تلعبه الغريزة الاجتماعية فى تكوين الضمير ، على أن هذه العاطفة لها وظيفة أخرى كبيرة الأهمية ، ويتجلى ذلك فى لغة الأستاذ « وليم جيمس » الذى قال : « إنى لأشعر بالحجل يدب فى نفسى - وقد عرفت بأنى باحث نفسانى - إذا عرفت أن شخصاً آخر يفوقنى أو يبرزنى فى هذا العالم ، ولكنى قانع وراض عن نفسى إذا غرقت فى جهلى باللغة اليونانية وذلك لأن عاطفة اعتبار الذات عندى قد تمركزت حول نفسى " كسيكولوجى " واتخذت هذا الهدف مثلاً أعلى لها » .

وبالإجمال فعاطفة اعتبار الذات مثلها كمثل « عجلة البوصلة » تحدد مجرى غريزة السيطرة في الاتجاه الرئيسى الذى اتخذته للتعبير عن نفسها . ويجب ألا ننظر إلى وظيفة هذه العاطفة نظرة بسيطة إذ أن أسس الذاتية — كما رأينا من قبل — معقدة كل التعقيد وقابلة للتطور في اتجاهات متعددة وقد لا يمكن الاستغناء عن بعضها كما قد يكون بعضها في النهاية غير ثابت ، فقد يكون الشخص موهوباً بطبعه وفي هذه الحالة يقترب من المثل الأعلى اليونانى حيث تتحد وتترن نواحيه المختلفة : حبه لحسمه ، ولعائلته ولأصدقائه ولثروته ولنواحيه المادية والروحية (حيث تتحد هذه النواحي المتعددة وتكون وحدة متزنة) ولكن لا يمكن أن نتجاهل مطلقاً أنه حتى « أقوى الشخصيات أخلاقاً » لا بد من أن يقدم من جانبه توضيحات لما عسى أن يتعرض له من احتمالات متعددة ، أما ذو الخلق الضعيف فنجد أنه يتأرجح ويتذبذب وقلما يصل في حياته إلى أن يكون ذاتية متزنة مهما كان نوعها أما الشخص العادى فنجد أنه بطبيعته يرى إلى التوفيق بين الذاتيات المختلفة فهو يجرب ذاتيات متنوعة يقوم بينها (على لغة جيمس) صراع دائم وتنافس ، « فأين » مثلاً في سن الأربعين سوف لا يقتصر على أن يكون مهندساً كهربائياً ، إذ يمكن أن نتصوره وقد أصبح رب أسرة كغيره يهتم بزوجه ويعمل لمصلحة أولاده ومستقبلهم وقد يكون عوناً كبيراً لرجال الدين ، ينصرهم ، كما يهتم بسمعته باعتباره فرداً له آراء خاصة وأعمال جيدة ، وقد يكون لاعب « كرة » ماهراً يعمل على أن يقلل من عيوبه ويكون سعيد الحظ جداً لو تمكن من تنظيم هذه الذاتيات المتعددة دون أى صراع أو تشتيت .

وهناك حالات لا تتمكن فيها عاطفة اعتبار الذات من أن تؤدي وظيفتها خير أداء فلا تستطيع مثلاً أن تسيطر على عملية النمو أو على تنظيم العواطف الأولية ، وفي مثل هذه الحالات يمكن أن نقول : إن هناك انقساماً في الذاتية ، وفي بعض الحالات المرضية تشرذ بعض العواطف عن الطريق القويم وتسبب انقساماً تاماً في عاطفة اعتبار الذات ، وبذلك تتعدد ذاتيات الفرد ، وأحسن

مثل « للذاتيات المتعددة » ذلك المثل المشهور Miss Beauchamp طالبة بإحدى الجامعات انقسمت شخصيتها نتيجة لصدمة أخلاقية ، ونتج عن ذلك ذاتية (شخصية) ثانوية أطلقت على نفسها اسم Sally وهى شخصية اتصفت بكل الصفات التى يمكن أن تتصف بها « طفلة شريرة » ، وكانت بين آن وآخر تعطل Miss Beauchamp عن السيطرة على حواسها وعلى مقدرتها على الحركة ، وكثيراً ما كانت تسبب الفزع لتلك الفتاة البريئة باعتبارها مسئولة عن السلوك الفاضح الذى أهتمت به .

هذا ولست بحاجة لأن نتوقع مثل هذه المآسى فى تاريخ حياة « أيمى » الذى اتخذنا من تطور نموه وسيلة حقائقنا النفسية ، ولكن احتمال وجود هذه المآسى وطبيعتها تؤكد تأكيداً تاماً أن الذاتية ما هى إلا تنظيم ينمو تدريجياً وهذا هو ما حاولنا إيضاحه . وأن السلوك الخلقي لا بد وأن يمر فى المراحل السابق ذكرها .

الأخلاق والغرض من التربية

إن التربية تكون دون شك ناقصة إذا اهتمت بكل شئ وترك الأخلاق ، فالتربية الكاملة هى ما اتخذت الأخلاق أساساً ، ونبراساً ، فإن لم ترم التربية إلى تهذيب الأخلاق فلا كانت ، وهنا يقول الدكتور « وليم رسل » عميد كلية المعلمين بجامعة « كلومبيا » فى خطابه فى نيويورك عن التربية الأخلاقية : « إنها ليست مهمة فحسب ، ولكنها الهدف من التربية ، فإذا بلغنا هذا الغرض نجحنا فى مهمة التعليم ، وإذا أخفقنا فى الوصول إليه أخفقنا فى مهمتنا ، ومتى تعلمنا كيف نؤدى واجبنا فى هذا النوع ، من التربية حلت أكبر المسائل التى تعترضنا » . [٣]

« وإن من الأوجه المهمة لنظرية الثقافة الخلقية تلك العلاقة الوثيقة بين الأخلاق ، والغرض الكلى من التربية فإننا لو رجعنا إلى تطور النظرية التربوية ، ودرسنا تطور الأخلاق وارتباطها بالغرض من التربية على مر العصور لوجدنا الأمر واضحاً جلياً — ولوجدنا أنه وسط هذا الجحود الطويل ، وبين

هذا الظلام الخالك لتلك العصور التي مرت بتاريخ الإنسانية كان التاريخ يبعث بين آن وآخر بقبس من نور الصالحين الذين كانوا يظهرن بين حين وحين ، فيبعدون الناس عن جمودهم ، يوقفونهم على سوء تفكيرهم ، ويوضحون لهم طريق النجاة من هذا الجهل المطبق ، والعسف الكبير . كان هؤلاء المصلحون يثبون في الناس آراءهم ، غير أن هؤلاء الناس كانوا مفطورين على جمودهم ، قد ألفوا هذا الجمود فكانوا لذلك لا يأبهون لأقوال أولئك العلماء ، ولا يقيمون وزناً لما كانوا يأتون به من أفكار ونظريات . — وما أحسبك الآن إلا تريد أن تعرف شيئاً عن هذه الآراء التي كان يحاول هؤلاء العلماء إذاعتها إذ ذاك في أناس قد جعلوا أصابعهم في آذانهم لا يعيرونها نوعاً من الالتفات . ألا تود أن تعرف طائفة من هؤلاء المربين الذين كانوا يتادون بأن الهدف من التربية هو بناء الأخلاق ولكن الناس كانوا عنهم في غفلة معرضين — أما أولئك العلماء الذين ألفت النظر إليهم كما يعلمهم الكثيرون فهم : سقراط ، وأرسطو وفلاسفة المسلمين كالغزالي ، وابن خلدون ، وجون لوك ، وروسو ، بستالوتزي ، وهربارت ، وفروبل ، وسبنسر ، وديوى .

١ — سقراط

أما سقراط فلعله كان أول من وجه الأنظار إلى الأخلاق حين قال : إن الفضيلة معرفة .

وكان يرى أن الفضيلة تكتسب بالتلقين ، والتعليم لا بالطرق العملية والتقرين على العادات القديمة . قرر سقراط أن هناك قواعد عامة ، وحقائق ثابتة تنطبق على كل الأفراد ، وتصلح لكل زمان ، وتقاس بها أعمال الإنسان ، فالعدالة ، والمروءة ، والعفة مثلاً لا تتغير حقائقها على حسب ما يرى الإنسان ويظن ، وإنما هي المبادئ الأولى ، والأصول الثابتة التي يجب أن تتضمنها بعض الأعمال الإنسانية ، والتي يلجأ إليها الفرد في مدح أعماله ، وإقامة الأدلة على أنه لم يعد فيها شاكلة الصواب ، وذلك أساس

ما ذهب إليه : من أن العلم هو الفضيلة . وهنا يجدر بنا أن نشرح ما إذا أراد بقوله « العلم فضيلة » : لم يرد سقراط أن مجرد العلم بالفضيلة يضمن للإنسان أن تكون جميع أعماله صحيحة صائبة من الوجهة الخلقية ، وإنما أراد أن الرجل الذي لا يعرف الخير لا تستحق أعماله أن تعد فضيلة .

٢ - أرسطو

وأما « أرسطو » فقد قسم الخير نوعين : خير الإدراك ، وخير الخلق أما خير الإدراك فينشأ وينمو بطريق التعليم وهو من نتائج الخبرة ، ومرور الزمن ، وأما خير الخلق فينشأ عن العادة ، ولما كانت الطبيعة لا تمنع ، ولا تمنح خير الخلق فهي تترك كل فرد منا قادراً على أن يحصل على هذا الخير عن طريق تكوين العادة ، وبناء على هذا يتكون الخير من عنصرين :

(أ) الوجود الخير Well-Being وهو خير الإدراك أو فضيلته .

(ب) عمل الخير Well-Doing وهو خير العمل أو فضيلته .

فالفضيلة لا تتكون مطلقاً من مجرد معرفة الخير بل من تطبيق هذه المعرفة أو الأفكار أو المبادئ - « فأرسطو » يعد الخير ضرباً من ضروب الكفاية أو ضرباً من التفوق أو الامتياز في السلوك أكثر من اعتباره حالة من حالات العقل .

ويمضي عصر أرسطو وتندرج حتى نرى أنفسنا في العصور الوسطى وهنا يجدر بنا أن نقف لنفهم آراء فلاسفة الإسلام في هذا الموضوع .

٣ - رأى فلاسفة الإسلام

يرى معظم فلاسفة المسلمين أن الخلق حال أو هيئة للنفس تصدر عنها الأفعال بلا روية ، ولا تدبير . فالإحسان ميل نفسى يحمل صاحبه على البذل ، والعطاء في جميع الظروف من غير روية ولا تفكير : وذلك هو رأى معظم فلاسفة المسلمين في الخلق ، ومن أعلام هذا الرأى الغزالي وابن مسكويه ومحيي الدين

ابن العربي . ولا غرابة في هذا الاتجاه الخلقى الواضح عند فلاسفة المسلمين فمن أبرز أغراض التربية لديهم تهذيب النفوس ، وتحصيل الفضيلة ، وهم يستندون في ذلك إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

ويرى « الغزالي » أن الفضيلة والتقرب إلى الله تعالى أهم أغراض التربية ، ويشهد على ذلك قوله « الخلق الحسن صفة المرسلين ، وأفضل أعمال الصديقين ، وهو على التحقيق شطر الدين ، وثمرة مجاهدة المتقين ، ورياضة المتعبدين » .

أما ابن « خلدون » فيرى أن خير وسيلة للتربية الخلقية هي القدوة الحسنة : « فإن الأطفال يأخذون بالتقليد ، والمحاكاة أكثر مما يأخذون بالنصح ، والإرشاد . ومن أحسن ما رأيته في هذا الموضوع ما كتب به عمرو بن عتبة إلى معلم ولده إذ يقول : ليكن أول إصلاحك لولدى إصلاحك لنفسك ، فإن عيونهم معقودة بعينيك ، فالحسن عندهم ما صنعت ، والقيح عندهم ما تركت ، علمهم كتاب الله ولا تملهم فيه فيكرهوه ، ولا تركهم فيه فيهجروه . . . إلخ » .

وتجتاز هذه الفترة السعيدة من فترات التربية لنصل إلى فترة أخرى حيث نجد « جون لوك » وهو ينصح المربين بأن الفضيلة هي أهم أغراض التربية .

٤ - جون لوك

الفضيلة عنده هي أهم أغراض التربية ، وله في أخذ النشء بها طرق خاصة إذ أن عقيدته هي أن التربية تهذيب ، وثقيف ويقول في ذلك « كمال أن قوة الجسم إنما تكون بقدرته على احتمال المشاق ، كذلك قوة العقل إنما تكون في ضبط النفس ، ومقاومة الشهوات » . وقال في موضع آخر : « من البديهيات عندي أن أساس الفضيلة أن يقتدر الإنسان على منع نفسه كثيراً مما تميل إليه وترغب فيه إذا لم يكن العقل رائدها وحاديها في هذه الميول والرغبات » .

أما طريق الحصول على هذه القدوة فإنما يكون بالتعود منذ الصغر ، ولذلك أنصح للمربين أن يأخذوا الأحداث بالمنع والحرم ، ويحولوا بينهم وبين كثير مما يشتهون .

وما هو إلا أن يسدل التاريخ ستاره على القرن السابع عشر ويرفع الستار عن القرن الثامن عشر فإذا هو عصر التربية الحرة ، وإذا هو عصر المبادئ الطليقة وزعيم هذا العصر هو شيخ المربين وحامي لواء التربية الحديثة فيلسوف الفرنسيين « جان جاك روسو » .

٥ - روسو

ينصح روسو ألا يركن المربي إلى النصيح والإرشاد في تربية الأطفال تربية خلفية فإنهما لا يجديان فتيلا ، وإنما عليه أن يسلك الطرق العملية القويمة ، فيدفع الغلام إلى مخالطة الناس ومعاملتهم ، وينصب نفسه قدوة حسنة له ، ويقرأ عليه الأمثلة الطيبة من تاريخ الصالحين ، ويدعوه إلى مطالعة وجدانه وعواطفه في كل عمل يأتيه ، فإن الوجدان منبع كثير من مكارم الأخلاق ، وعليه أيضاً أن يستثير فيه عواطف الرحمة والحنان بدعائه إلى زيارة المستشفيات والسجون ، وملاجئ العجزة ، وإطلاعه على مظاهر البؤس وصنوف البلاء التي يقاسمها كثير من الناس من : جوع وعري وآلام وأحزان ومصائب ، على شريطة ألا يكثر من ذلك ، وإلا أورثته العادة جموداً وصلابة فيفسد قلبه ويضعف وجدانه (١) .

ثم يؤذن القرن الثامن عشر بوداع ليحل القرن التاسع عشر وفي جعبته نفر من كبار رجال التربية الذين نادوا بجعل بناء الأخلاق عماد التربية وإليك نبذة عن كل منهم :

(١) تاريخ التربية : مصطفى أمين .

٦ - بستالوتزى

ولما كان بستالوتزى متأثراً طيلة حياته بتلك العقيدة : وهى أن التربية يجب أن تكون أداة للإصلاح الاجتماعى . ولما كان العصر الذى يعيش فيه هذا المصلح الاجتماعى عصر انتقال واضطراب ، عصر تضاربت فيه الوسائل العلاجية لأخطاء المجتمع ، عصر نادى فيه البعض بعقائد جديدة ، ونادى آخرون بمحو الدين ، عصر ابتدعت فيه أنظمة حديثة للحكومة ، وهتف بالرجوع إلى الفطرة وإلى الحياة الممجبة . عصر حاول فيه البعض تكوين مجتمع جديد على أسس حديثة . وقال آخرون بعدم جدوى هذه المجتمعات - أقول فى هذا العصر ، عصر الفوضى والاضطراب ، عصر الكفر والإلحاد فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر وجدت آراء بستالوتزى صدى عميقاً وأحدثت أثراً هائلاً فأراء بستالوتزى التى كانت تنادى . بأن التربية وسيلة لبناء الأخلاق ، وبناء مجتمع مثالى جديد ، قد وجدت لها أتباعاً وأنصاراً فى هذا الخضم الهائل من الفوضى والاضطراب : فالهدف من التربية فى نظره هو بناء الأخلاق ، ويتحقق بوسائل خارجية عن طريق الإعداد المباشر فى الفضائل الخلقية^(١) .

٧ - هربرت

أما هربرت فقد اشتق فكرته عن التربية من الفلسفة كما اشتق هدفها من الأخلاق . فالهدف الأسمى من التربية لديه يمكن أن يتلخص فى عبارة واحدة هى : الفضيلة . ولكى يتمكن من تحقيق هذا الهدف النهائى للتربية يجب تحقيق أهداف أخرى قريبة يطلق عليها اسم الاهتمام المتعدد الجوانب . فالهدف الخلقى لدى هربارت يتحقق عن طريق التعليم فالأفكار تستثيرها الرغبات . والرغبات تستثير العمل ، والعمل توجهه الأفكار التى يمكن الحصول عليها بالاحتكاك بالغير وبذلك تتكون الأخلاق .

(١) المرجع فى تاريخ التربية : صالح عبد العزيز ، الجزء الثانى .

٨ - فروبل

والهدف من التربية لديه هو : بناء الأخلاق ، والتربية الخلقية تبدأ بالنشاط الذاتي لدى الطفل وتنتهى بالأفكار ، فهي في نظره عملية وجدانية إرادية أكثر من أن تكون عملية عقلية .

٩ - سينسر

قرر سينسر أن خير وسيلة لتهديب الأحداث وغرس الأخلاق الفاضلة في نفوسهم أن يكون عقاب المذنب من جنس العمل ، وأن يتجنب المربون ما ألفوه من تعنيف الأحداث وشتمهم وضربهم ، وأن يقودوهم بدل ذلك إلى مباشرة الآلام ومقاساة النتائج الطبيعية التي تجرّها عليهم ذنوبهم فإن ذلك أعود بالنفع وأقرب إلى النجاح .

والآن يتقدم بنا تاريخ التربية إلى العصر الذي نعيش فيه فجدير بنا أن نعرف رأى شيخ مربى العصر « جون ديوى » في العلاقة بين التربية والأخلاق .

١٠ - جون ديوى

يقول جون ديوى : « لا نستطيع أن نغير الأخلاق بالوعظ والإرشاد ، دون أن نغير نظمنا العملية والسياسية ، لأن هذا الزعم يناقض مبدأنا من أن الأخلاق ما هي إلا ميول مؤثرة في الحياة الاجتماعية » ويقول أيضاً : « إن الأخلاق هي مجموع رغائب الفرد ، وميوله الفعالة التي نجعله دائماً على استعداد للإتيان ببعض الأفعال ، ومغمراً ببعض النتائج ، وفي الوقت نفسه كارهها لبعض الأفعال والنتائج الأخرى » . « وجون ديوى » يقرر أن التربية الخلقية تتكون خلال التربية الحقيقية ، والنشاط للأطفال ، وقد عرفها تعريفاً يكفل لها أن تضم بين ثناياها كل أحداث التربية . ولقد جاءت تعاليم ديوى بأفكار جديدة ، ووزعة حديثة ، وطرق عملية في التربية ، والأخلاق . فقد ذكر في كل مؤلف

من مؤلفاته أن من أكبر أغراض التربية تعليم النشء كيف يستخدمون تفكيرهم في شق الطريق أمامهم في الحياة ، و « ديوى » ممن لا يؤمنون مطلقاً بتعليم الأخلاق بواسطة تلقين مبادئها ، بل يعتقد أن أفضل طريقة لتعليم الأخلاق هى العمل والنشاط وما يؤيدان إليه من التعاون وخدمة الغير والأمانة والصدق وغير ذلك ، ويقول « ديوى » : « إن الأخلاق لا ينبغي فصلها عن التعليم كما لا ينبغي أن يفصل العلم عن العمل ، ومعنى هذا أن الأخلاق لا يتعلمها الطالب فى قصة قائمة بذاتها بل يتلقاها فى عمل يأتية ، سواء أكان ذلك فى قاعة الدرس أم فى الملعب أم فى المكتبة . . إلخ » .

وما يحذر ذكره أن التربية التى تأتى عن طريق الاختيار والتفكير من أعظم الوسائل لتكوين الأخلاق ، ومن العبث أن نعلم الطلبة شيئاً عن الأخلاق ثم ننظر منهم أن تكون أخلاقهم حسنة تبعاً لهذا النوع من التعليم ، وكما يقول ديوى ، إنه لا يوجد فى طبيعة الآراء عن الأخلاق ، والمعلومات عن الأمانة والعفة والشفقة مثلاً ما ينقل هذه الآراء نقلاً آلياً إلى نفس الطالب فيصبح حسن الأخلاق . ولا ينكر أحد تأثير هذه الآراء التى أدلى بها فى تكوين المدرسة الحديثة حتى أصبح النظام فيها مبنياً على أساس آخر غير أساس المدرسة القديمة ، وبناء على هذه الآراء زالت تلك النظم الاستبدادية الجاحدة .

١٠ — أما « باجلى » Bagley

فيقول : إن الغرض من التربية هو نمو الصفات الأخلاقية وإن هذا يستند على أسس عدة مختلفة ، فإذا كانت مقدرة الأفراد تنمو فى اتزان وتتقدم فى توافق ، فى مستوى معروف ومعلوم من الأخلاق فإنه يكون لدينا على الأقل شيء محسوس نبى عليه قولنا ، وما دام هذا المستوى معروفاً ومعيناً فى العقل فإننا نختار الخبرات التى تؤدى إلى غرضنا . ولكن الصعوبة أن جميع الناس لم يتفقوا على ما هية الأخلاق ، فالأخلاق اسم لا بد أن نعرف بالضبط مدلوله قبل أن نجعله الهدف الأسمى ، ويجب ألا نغالى وننادى بأن الغرض الخلقى وحده فقط هو

الغاية من التربية بل لا بد أن نعنى معه بنواح أخرى .

الآن وقد استعرضنا آراء مشاهير رجال التربية الذين طرخوا تلك الناحية الخلقية نأمل أن يكون القارئ قد لمس اختلاف وجهات النظر في تناول هذا الموضوع فخرج من ذلك بفلسفة خلقية يتخذها نبراساً له في تعاليمه التربوية وفي توجيهه النشء توجهاً خلقياً : ومن هنا نتقدم به إلى تناول ميادين تلك النواحي التربوية .

ميادين الأخلاق

للأخلاق ميادين هي : (١) المنزل (٢) المدرسة (٣) المجتمع .
وستقتصر اهتمامنا على الميدانين الأولين وهما المنزل والمدرسة .

(١) المنزل :

يلعب البيت دوراً كبيراً في التأثير على الأخلاق ، فله آثار ملموسة وقوية ، آثار لا يلمسها البعض منا ، ولكنها ذات أثر قوى في بناء الأخلاق . والبحث في أثر البيت في التربية الخلقية يمكن أن يرجع إلى عهد قديم جداً فقد أدرك الناس قديماً قيمة الميراث الخلقى الذى ينحدر عن الآباء ، والأجداد إلى الأحفاد ، والأبناء جيلاً بعد جيل ، ويتمثل هذا الإدراك في أمور كثيرة منها حرص بعض الأسر الكريمة على انتخاب الأزواج من سلالات عريقة في الفضل والمجد . ويتوج هذا الرأى أيضاً حديث نبوى كريم «نخبروا لنطفكم فإن العرق دساس» وقضية الميراث الخلقى قضية أيدها العلم ، واطمأن إليها بالمشاهدة والتجربة . ومنذ قال العلم كلمته بدأت الدول القوية التى تعتنق مذهب «الفرد بالدولة» تتدخل في حرية أبنائها وتعمرهم حقهم في الزواج ، وهو حق طبيعى لإنسانى قدرته الطبيعة ، وأحلته القوانين السماوية ، وذلك أنها أبت على مرضى الأخلاق من أبنائها أن يتزوجوا حتى لا يعقبوا ذرية مثقلة بميراث خلقى لا ترضاه الدولة الطامحة ، وكانت تستعين على هذا الحرمان بقوة القانون وهى قوة صارمة ، ثم

لجأت إلى العلم فأمدّها بسلاح « التعقيم » وهو سلاح ماض قاطع تحول به دون إنتاج نسل مريض الأخلاق حتى لا يتقل خطاها نحو أملها المرجو ، وهدفها المنشود : هذا هو الأثر المباشر للمنزل يأتي من ميراث الأبناء عن الآباء وهو أثر مقرر أيده العلم .

وبلى ذلك الأثر البعيد أثر قريب مباشر ، وهو التوجيه الخلقى للأبناء الناشئين ، ولقد ظفر هذا الموضوع بالعناية الجديرة به من قادة الفكر ، والرأى والاجتماع ونحن لا نندخل في تلك العبارات الأدبية الماثورة التي قيلت ولا تزال تقال عن الصفحة البيضاء ، والعجينة اللينة ، ولكننا سنحاول أن نطرق الموضوع على الطريقة العملية ، ذاكرين ما قرره علماء الأخلاق من أن يتابع الخلق هي الوراثة ، والمنزل ، والمدرسة ، والأصدقاء ، وهذه جميعاً تلتقي في البيت فإنه تنحدر الوراثة إلى الإنسان وفيه تلتقي بالمعلم الأكبر ، والمدرسة الأولى والأخوة ، والأصدقاء .

ولا يمكن أن ننكر أن المنزل يلعب دوراً كبيراً جداً في التأثير على الطفل إذ أنه يقضى فيه سنواته الأولى ، ويتلقى دروسه المبكرة على المربي الأول وهو الأم . ومن المشاهد أنه تجتمع في المنزل جميع أشكال المجتمع مصغرة . ففيه عطف الأب ، وحنان الأم ، وفيه الأخوة الصغار ، وهو أول مجتمع يتصل به الطفل . لذلك كانت السنوات الأولى يقضيها الطفل ، لها أكبر الأثر في تشكيله في المستقبل . لأن الطفل يستنشق الجو الخلقى في البيت ويتأثر به عن طريق غير مقصود ، وجو البيت كما نعلم مشبع دائماً — مهما كانت ظروفه — بالجو العاطفي فالطفل يشعر دائماً أنه في كنف والديه وفي حماهما ، وبذلك يكون أكثر اعتماداً عليهما حتى في أحكامه الخلقية .

وفي البيت توضع البنود الأولى لتكوين الشخصية ، وما سيكون عليه الناشئ في المستقبل . وهنا أسس الصحة العقلية . وقد أثبتت مدرسة التحليل النفسي أن الخمس سنوات التي يقضيها الطفل في المنزل ، وإن لم تكن أهم سنى حياته ، فهي من أهمها . فالبيت هو أول من يقدم للطفل ذلك

التراث الاجتماعى الذى تسلمه ممن سبقه ، لا ، بل هو أول من يعلم الطفل أن يردى ما يريد بأصوات متغيرة ، فهو أول من يعلمه الكلام . فالعادات ، والعرف ، والظواهر الاجتماعية المختلفة يتلقاها الطفل فى بيئته الأولى ، كما أنه يتلقى فيها دروس الدين ويتشبع بالمبادئ الدينية . « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه » . وهناك يتصل بالجماعة البشرية أول اتصال ، وهناك يتعامل مع غيره بالأخذ ، والعطاء ، وهناك أيضاً يرى الجماعة البشرية فى أول مراحلها ، وعلى أبسط صورها وفى البيت يتعلم الطفل أول ما يتعلم التفرقة بين الخطأ والصواب ، والحسن والقبح ، وهناك أيضاً يتلقى معنى الملكية الفردية ، والحقوق ، والواجبات والمميزات ، وبالاختصار تستطيع أن تقول : إن البيت هو أول معمل يختاره الطفل ليخرج منه إلى الجماعة البشرية مستكملاً شروط الإنسان أو فاقدها كل فقدان :

وعلماء التربية والأخلاق يضعون البيت فى المكان الأول ، ويدركون خطره فى صنع الأخلاق ، وتوجيهها ، وتربيتها ، ويحسبون حساباً لكل ما فيه ومن فيه ويقول الأستاذ « ايرنست وود Ernest Wood » : « إن الحياة العائلية المضطربة ، والمشاحنات بين الوالدين ، والمشاكسات الدائمة داخل جدران المنزل تؤثر تأثيراً بليغاً فى تكوين ميول الطفل ، وقد تؤدى بعض الحالات التى تنشأ فى البيت إلى تكوين شخصية تنفر من الحياة وتكرهها ، ولا ريب فى أن أثر هذه الشخصية سوف يظهر فى الأعمال المدرسية كماً وكيفاً . ويقول روبرت روك « Robert Rock » إن كل فرد فى حاجة إلى الإحساس بالطمأنينة والأمان ، وفى حاجة إلى الشعور بأن يتبع مكاناً ، ويتنسب إلى شخص ما ، وبأن يكون هناك شخص يريد أو يحتاج إليه ، ولذلك نجد أن الأولاد الذين يولدون رغم مشيئة الوالدين يأتون إلى هذا العالم وهم مزودون بالنقص الذى ينتج عن فقدان حب الوالدين ، وبالتالي عن ضياع الطمأنينة ، كما أن الأولاد الذين ينشأون فى بيوت يسودها عدم الوفاق أو الموت أو الذين تمزقهم المنافسة بين الوالدين أو يعثر على الأقارب والغرباء ، قد يصبحون فى يوم من الأيام

من ذوى السلوك الشاذ لا لسبب إلا هذه الظروف التى وجدوا فيها فلم يحصلوا على الطمأنينة اللازمة لهم . ومن العوامل فى ذلك أيضاً ، التغير المستمر للمسكن ، والمحيط ، والبحيرة ، والرفاق وعدم الاستقرار الاقتصادى .

وتنقضى مرحلة الطفولة ولكن يبقى للبيت أثر على أبنائه بعد أن يخرجوا إلى المدرسة ثم إلى معترك الحياة . ولنا بعد ذلك أن نتساءل : إذا كان هذا الأثر سيظل باقياً فما مدى قوته بالقياس إلى المؤثرات الجديدة التى يلقاها هؤلاء الأبناء فى المدرسة والمجتمع ؟ وإذا تعارض أثر البيت مع المدرسة فلأيهما تكون الغلبة ؟ تلك أسئلة تختلف الجواب عنها ، وكثر الخلاف فيها ، فمن قائل : إن أثر البيت ينتهى بانتهاء مرحلة الطفولة حيث تبدأ المدرسة عملها ، وتكون هى المؤثرة فى الطفل ، والموجهة لأخلاقه ، ومن قائل : إن أثر البيت يبقى ولكنه يضعف ويتضاءل ، ويكون للمدرسة ثم للمجتمع الأثر الأول فى تربية الأخلاق ، والواقع أن للمدرسة التى تفهم واجبها وتحسن القيام به أثراً قوياً فى التوجيه الخلقى لا يجوز أن ينكره أحد ، ولكن هذا الاعتراف بأهمية المدرسة فى تربية الخلق يجب ألا يدفعنا إلى المبالغة والغلو وتجاهل أثر البيت فى التلميذ . والمدرسة الحديثة لا تتجاهل أهمية البيت وتزعم أنها قادرة على خلق الطفل خلقاً جديداً ، وإنما تحرص على الاتصال بالبيت وتستمد منه المعونة ، وتلتمس عنده السبب الأول لما قد يبدو عليه من شذوذ عقلى أو خلقى ، ويقول « شارلى سكندر » (١) : « إن الطفل إذا انتقل من بيئته الأولى الأصلية إلى بيئة جديدة فإن البيئة الجديدة لا يمكن أن تحدث أثراً ظاهراً أو تغييراً فجائياً إلا إذا كان الاختلاف بين البيئتين كبيراً وكانت التفرقة فى سن مبكرة ، على أن تنقطع صلته ببيئته الأولى ، ويبقى مدة طويلة فى البيئة الجديدة أثناء النمو والنضوج » وطبعى أن انتقال الطفل إلى المدرسة لا يقطع صلته بالبيت .

إن أكثر الأمراض الخلقية كالأنانية ، والفوضى ، وفقدان الثقة بالنفس ، وعدم الشعور بالمسئولية ، والرياء ، والنفاق ، إنعاش جرثومتها الأولى فى البيت ،

وعسير على المدرسة ، والمجتمع استئصال هذه الجرثومة بعد أن تتمكن ، وتزمن ، والذي يحدث عادة هو أن هذه العناصر المريضة تحمل الداء حيناً ذهب ، وأينما حلت ، وإذا صدمت بعناصر أخرى سليمة ، تصارعنا ، وفي معظم الأحيان لسوء الحظ يتغلب المريض على السليم ، لا العكس .

(ب) المدرسة :

تلعب المدرسة دوراً خطيراً في بناء أخلاق النشء ، فهي قوة لا يستهان بها ، وقد تكون أشد خطراً في تأثيرها من المسجد أو الكنيسة ، وربما كان مرجع ذلك إلى عامل واحد وهو أنها تتعهد جميع أطفال هذا الجيل . رجال الغد فأثرها عام ، والفرصة لديها سانحة في المدرسة يجتمع الكل في صعيد واحد؛ يجتمع الفقير ، بالغني ، والذكي بالغبي ، وسعيد الحظ ، بمنكوده - الأمر الذي لا يتأتى لغيرها من المؤسسات الاجتماعية - . وبذلك تتمكن المدرسة من مساعدة الأطفال في فهم وتكوين وجهة نظر اجتماعية ، واتخاذ نمط للحياة يساهم فيه الغير بنصيب وافر ، وربما كان هذا هو السبب الذي بدونه لا يمكن للمدرسة أن تصبح وسيلة فعالة لخدمة الإنسانية حتى تصبح عامة لجميع أفراد الشعب ، فالفرص الخلقية ، والاجتماعية التي يمكن أن تسديها المدارس الخاصة لبنينها فرص محدودة وربما كان هذا التحديد أنها لا تهتم إلا بطبقة معينة ، وأن تلاميذها من نوع معين ، فالمجتمع الذي تتمثل فيه جميع أوجه الاختلافات الموجودة في المجتمع الأكبر يمد أفرادهم بفرص تكوين اتجاه خلقي ويزودهم بالشعور الاجتماعي الحقيقي .

وعلى هذا الأساس يمكن أن نقول : إن المدرسة هي أعظم قوة خلقية في المجتمع ، وذلك لأنها تتعهد الأطفال . ففي المدرسة يتسع الوقت أمام الأطفال ، وتسبح الفرص لتكثيف أنفسهم من جديد : والمعنى الحقيقي لكلمة « مدرسة » هو الفراغ الذي يسمح للتخلص من مشاغل الحياة والذي فيه تتحقق حرية الفهم والتكوين . وإن مجتمعاً بهذا المدلول لا بد وأن يكون مجتمعاً مثالياً فيه يتبرع

الضمير الاجتماعى لدى الفرد وتتكون المستويات الخلقية .
 والمدرسة أيضاً أعظم قوة خلقية فى المجتمع لأنها تزود الأفراد بالثراث العقلى
 الذى منه تتكون ثقافتنا . ويتوقف السلوك الخلقى على فهم الفرد لنواحي الحياة
 الاجتماعية ، فأى جماعة بشرية من أرقى الجماعات إلى أحطها تؤثر فى اتجاه
 أفرادها الخلقى فالجماعة محك لا اختبار السلوك والمثل العليا لدى جميع أفرادها .
 والاتجاه العام لهذه سواء كان خيراً أم شراً يجذب أفرادها إليه فيتجهون إلى
 الأمانة أو الخيانة ، وإلى الشفقة أو القسوة ، وإلى الغيرية أو الأناية . . .
 والمدرسة كمؤسسة اجتماعية لها نفس هذه الميزة ، وإن كانت تنفرد بميزات أخرى
 وذلك بما لها من « مناهج » يهدف إلى تزويد أفرادها بالثراث الثقافى ،
 والمصادر العقلية التى تساعد الفرد على المساهمة المستنيرة فى الحياة الاجتماعية
 ومن هنا يتجلى فضل المدرسة فى بناء الناحية الخلقية .
 والآن نتساءل كيف تتمكن المدرسة من استقلال هذه الفرصة الثمينة لبناء
 الأخلاق ؟

كثيراً ما نحقق المدرسة كعامل خلقى فيتخرج منها أفراد يتصفون بالغش
 والخداع والأناية والكذب والنميمة ، وإذا كان هذا نتاجها فى هذه الحالة
 يتجلى إخفاقها لا فى الناحية الخلقية فحسب ، بل وفى الناحية التربوية أيضاً .
 فهى نحقق كمدرسة لها رسالة تربوية وخلقية يجب أن تؤديها ، وبهنا أن نعرف
 السر فى ذلك ، وكيف يمكن أن نصصح هذا الوضع ، وما السبيل إليه ؟ وفى
 الصفحات المقبلة يهمننا معالجة ذلك .

كيف تعمل الحياة الاجتماعية داخل جدران المدرسة على رقى التكوين
 الخلقى ؟ إن أعظم أثر خلقى تتيحه المدرسة لأفرادها هو خبرة الحياة المشتركة فى
 ظلال العمل المشترك لمجتمع اختلفت أفرادها (من غنى وفقير ، وذكى وغبى . .)
 ومع ذلك فهو مجتمع موحد تضم أفرادها الرابطة المدرسية . والمدرسة تمتاز على
 غيرها من المؤسسات الاجتماعية فى أنها تتيح لأبنائها فرصة إدارة شئونهم وسياسة
 علاقاتهم الاجتماعية تحت إشراف وتوجيه دقيقين منظمين ، وهذا التوجيه

عامل أساسى بدونه قد تحدث نزعة إلى الهدم والشذوذ . والحياة الاجتماعية المشتركة عنصر فعال فى خلق الحياة المستنيرة وفهم حقوق الغير وواجباتهم .

إن الفرص التى تتيحها الحياة الاجتماعية فى المدرسة لا يمكن استغلالها لتكوين الأفراد تكويناً خلقياً إلا إذا نظم التوجيه المستنير ، على أن هذا التوجيه يجب أن يكون تربوياً . فيجب أن يكون النظام المدرسى مناسباً لسن الأطفال ، ومراحل نموهم ، كما يجب ألا يكون مفروضاً عليهم من الخارج . فالأوامر المفروضة بدعوى لها الأولاد عند الضرورة ويتخلصون من سلطانها إذا تمكنوا من ذلك . ولهذا نهدف إلى ضبط الحياة الاجتماعية للمدرسة بحيث يشعر الأطفال أن هذه الحياة هى حياتهم ومع ذلك فهذا لا ينفى مطلقاً عن عنصر التوجيه . فلترود الأطفال بالحكم الذاتى تحت إشرافنا وتوجيهنا . فيجب أن يتعاون مدرسو المدرسة، وتلاميذها فى خلق حياة اجتماعية يساهم كل من فيها بنصيب وافر ويتحمل الكل فيها قدراً معيناً من المسئولية . ولذلك ننصح بأمرين هامين .

أولاً - يجب أن تكون مسئولية كل مدرس واضحة ومحدودة خارج جدران الفصل فالمدرس ليس يدرس مادة معينة فحسب ، ولكنه عضو فى جماعة . ويجب أن يقوم بدور هام فى العمل على رفاهية الجماعة فى المجتمع التربوى الذى يحيا فيه .

ثانياً - نلاحظ أيضاً أن الأهداف الاجتماعية للمدرسة تتعطل إذا كبرت المدرسة عن الحد المناسب . فليست المدرسة مكاناً تدرس فيه مختلف المواد الدراسية فحياتها الاجتماعية أهم من أى اعتبار آخر .

كيف يصبح المنهاج الدراسى عاملاً من عوامل البناء الخلقى أو تكوين الأخلاق ؟ تختلف المدرسة عن غيرها من المؤسسات الاجتماعية فى وجود منهاج دراسى يدرس اكل تلميذ من تلاميذها ، فما هى الفرص الخلقية التى يمكن أن نستغلها من مواد المنهاج المختلفة ؟ وما هى الفوائد الخلقية التى تعود على التلاميذ من تدريس القراءة والكتابة ، والحساب ، واللغة واللاتينية ، والتاريخ ، والجبر ، والعلوم ؟ إن تدريس هذه المواد بالصورة القائمة فى المدارس لا يترك مطلقاً أى

أثر خلقى . فتلاميذ مدارسنا لا يستفيدون من هذه المواد خلقياً لأنهم يدرسونها كمواد فحسب . وهذه فكرة خاطئة فالمنهج يجب ألا يفكر فيه على أنه مجموعة من المواد . إذ أنه أعظم من هذا طالما أنه يضم بين ثناياه المصادر العقلية لمدينتنا الحالية . ولا يتمكن الفرد من أن يتكيف تكيفاً اجتماعياً مناسباً إذا لم يكن قد تزود بالقدر الكافى من هذه المصادر العقلية — فالهدف الرئيسى من المنهاج^(١) هو تنوير الفرد وتبصيره بالشئون الاجتماعية .

ومن أجل هذا يجب أن ننظر إلى كل مادة على أنها عامل هام فى بناء الأخلاق ، وذلك لأنها وسيلة لربط الفرد بالمجتمع عن طريق الذكاء : فأولاً — المواد المختلفة — أو — المصادر العقلية لمدينتنا الحديثة — تزود الفرد منا بما يمكنه من فهم العالم المحيط به — وفى هذا المضمار يلعب التاريخ والجغرافيا دوراً واضحاً .

ثانياً — إن المواد الدراسية — أو المصادر العقلية لمدينتنا الحديثة — تزود الفرد منا بما يمكنه من فهم العوامل التى تؤثر فى بيتنا المباشرة — فنحن نعيش فى عالم يعتمد اعتماداً عظيماً على خدمة « العلم » ولذلك يجب أن تتبوأ « العلوم » مكانها المناسب فى منهاج الدراسة حتى يتمكن الفرد من فهم ظروف البيئة المحيطة به . ويتكون لدى الفرد ذلك الاتجاه العلمى فى بحث الأمور — ولقد قيل بحق إن العلوم مواد اجتماعية لأنها الوسيلة التى بواسطتها يمكن أن يسيطر الإنسان على ظروفه الحيوية — ويصبح « للمواد العلمية » قيمة تربوية ، خلاقية إذا فهمت بما لها من وزن اجتماعى .

ثالثاً — إن المواد الدراسية — أو المصادر العقلية لمدينتنا الحديثة — تزود الفرد بالوسائل المناسبة للسير فى هذه الحياة — فالإنسان المتمدين يشعر بأنه من الجرائم الخلقية أن يترك الطفل المريض بمرض معد يتجول فى الشوارع ، ويحتك بغيره من الأطفال . وفى هذا المثل نجد عاملاً خلقياً واضحاً يتحكم فى الفرد نتيجة للعلم بحقائق الأمور .

The whole aim of the Curriculum is the creation in the individual of social (١) enlightenment and insight.

رابعاً - إن المواد الدراسية - أو المصادر العقلية لمدينتنا الحديثة - تمكن الفرد من أن يكون لنفسه مستويات خلقية ، فتقدير الفن ، والموسيقى واحترام الروح العلمية كلها جزء من تراث المدينة الخلقى ، وعليها يعتمد الكثير من أعمالنا الاجتماعية ، وبدونها يصبح الفرد أقرب إلى الحمجية والفوضى .

يتبين لنا مما تقدم أنه حينما ننظر إلى المنهاج على أنه مجرد مواد دراسية منعزلة عن الناحية العملية نجد أنه يفقد قيمته أو أثره الخلقى .

٨ - وسائل التربية الخلقية

هناك طريقتان لذلك :

١ - طريق مباشر

٢ - طريق غير مباشر

(١) الطريق المباشر للتربية الخلقية :

قيمة الوسائل المباشرة في التربية الخلقية

والآن نتساءل هل من المستحسن تلقين الأخلاق ؟ وهل من الجائز أن نخصص دروساً خاصة لمعالجة المثل العليا أو دروساً منظمة في مختلف أبواب علم الأخلاق ؟ إن معظم المربين الأمريكيين لا يؤمنون بهذا الطريق المباشر في غرس مبادئ الأخلاق ، وإن كانت بعض التجارب قد أثبتت تقدمها إلى حد ما . إن ما نقصده بالطريق المباشر للتربية الخلقية هو تخصيص دروس معينة لتدريس المثل العليا كالأمانة ، والعطف ، والشجاعة ، والصدق . . . إلخ . وإذا كان الأمر كذلك فما هي العلاقة بين هذه المثل العليا وبين السلوك ؟ ألا يمكن أن نزود تلاميذنا بالمثل العليا المطلوبة في ثنايا دروس المواد الاجتماعية أو دروس اللغة ؟ أليس من الأفضل أن نخلق في المدرسة بيئة اجتماعية ، وأن نعهد إلى هذه البيئة الاجتماعية المناسبة لنا في توجيه الأخلاق دون أن نلجأ إلى دروس منظمة ؟

لا يزال بعض كبار المربين يعتقدون أن الطريق المباشر لبث الأخلاق في نفوس التلاميذ طريق خاطئ للاعتبارات الآتية :

أولاً - إنه لا يساعد النشء على فهم طبيعة السلوك الخلقى . فالسلوك الخلقى المرغوب فيه هو ذلك السلوك الذى يحدده المجتمع . وهذه الحقيقة يجب أن نذكرها دائماً . وما يحدث عادة هو أن المدرس المتحمس لتلقين مبادئ الأخلاق يتكلم دائماً كما لو كانت أعمال الإنسان بطبيعتها خيرة أو شريفة ، صحيحة أو صواباً دون الإشارة مطلقاً إلى نتائجها الاجتماعية . وعلى هذا الأساس تصبح الأخلاق كما لو كانت نظاماً أو قانوناً مقنناً .

وهذا أمر خطير ، وما نهدف إليه هو أن نخلق فى الفرد لا مجرد العلم بالمبادئ والقواعد فحسب ولكن نريد أن نكون فيه تلك الروح الاجتماعية التى تعبر عنها القاعدة ، والتى منها تستمد قوتها . فقيمة الدراسة الخلقية تتضاءل إذا اقتصر على مجرد مدح بعض الأعمال ، وذم البعض الآخر . والمهم فى المشكلة هو تحليل النتائج الاجتماعية لسلوك الفرد .

ثانياً - إن المثل العليا التى يعتمد فى بثها فى نفوس النشء على مجرد ألفاظ تلقى تصبح عديمة القيمة وقد تتحول إلى مجرد سفسطة .

ثالثاً - إن المثل العليا تصبح عديمة المعنى إذا انفصلت عن الخبرة . تصور مثلاً أنك تريد أن تعطى تلامذك درساً عن « الأمانة » فستجد نفسك قد اصطدمت بهذه المشكلة « فالأمانة » فضيلة تتصف بها أشكال لا حصر لها من السلوك :

- (١) ماذا يكون موقفك إذا اقترضت قدراً معيناً من المال ثم اختلفت على مقداره عند الدفع ؟
- (٢) وهل من الصواب أن تقرض دائماً وباستمرار نقوداً من أخيك الصغير ؟
- (٣) ماذا تفعل إذا وجدت مبلغاً من المال ولم تجد له صاحباً ؟
- (٤) ماذا تفعل إذا وجدت نقوداً مبعثرة فى منزلك ؟
- (٥) ماذا تفعل إذا كنت راكباً الترام أو السيارة ولم يوفق الكمسارى فى سؤالك عن التذكرة ؟

(٦) ماذا يكون موقفك إذا أخذت أجرك مقدماً قبل القيام بعمل انتفتت على أدائه ؟ تلك بعض أمثلة لمشاكل السلوك المتصل « بالأمانة » .

رابعاً - إن مجرد العلم عن الأخلاق وعن الفضيلة لا يستدعى الخلق الطيب ومثلنا في هذه الحالة كمثل من يقرأ كتاباً عن الطيران ثم يتصور أنه يمكنه أن يركب متن الهواء .

خامساً - إن الطريقة المباشرة في التربية الخلقية قد تساعد الأطفال على تحديد السلوك في بعض المواقف المعينة ، ولكن لا ينتج عنها في أكثر الأحيان ما يسمى بانتقال أثر التدريب .

سادساً - إن الطريقة المباشرة طريقة نظرية قد تسبب في الأطفال استهواء عكسياً . وقد يكون لدروس الأخلاق تأثير عقلي أكثر من أن يكون لها تأثير وجداني .

سابعاً - وأخيراً تحاول هذه الطريقة أن تفرص على الطفل أن يتبصر في النواحي الخلقية قبل الأوان . أى قبل أن تتاح له الظروف النفسية التي تستلزم من المتعلم الملاحظة ، والتقدير اللذين يؤديان إلى إدراك هذه النواحي . وأخيراً لا يمكن أن نتأخّل أن في هذه الطريقة تتجلى روح الإملاء ، كما أنها تهمل الفروق بين الأفراد .

(ب) الطريق غير المباشر في التربية الخلقية

١ - يعتقد فريق من المربين أن التربية الخلقية لا تحتاج إلى عناصر جديدة غير تلك التي تقدم الآن في المدارس ، وأن القوى الأساسية في الثقافة الخلقية هي شخصية المدرس ، ونظام المدرسة ، والنظرة الخلقية الداخلية ، والمثالية التي تنبع من الدراسات العادية ، والتعاليم العرضية عن الأخلاق ، وشخصية المدرس لها المكان الأول ، والأهمية العظمى بين هذه العوامل كلها . لأنه هو المثال الصحيح الذي يحتذى به التلاميذ وينطبع في أعماق نفوسهم . ويعتقد الكثيرون أن المدرس وحده هو الذي يستطيع أن يحل مشكلة التربية الخلقية حلاً كاملاً ، فهو الذي يستطيع أن يقود التلاميذ أحسن قيادة ، ويرشدهم إلى الطريق القويم في ضوء خبرته السابقة . وهناك عنصر آخر هو النظام المدرسي ، وهذا العنصر له خطره ، وأهميته في الثقافة الخلقية ، وهو أيضاً يتوقف على

شخصية المدرس الذى يمكنه أن يجعل من المدرسة جماعة متحدة الشعور تشاركه مشاركة وجدانية حقيقية كما يستطيع أن يغرس فى هذا المجتمع بذور العدل والصبر ، والعزم والتهذيب ، والقوة ، والكمال فتعتبر عن نفسها فى جوالمدرسة فى سلوك أفرادها ، وتهيمن على الروح السائدة فيها .

وأولئك الذين يشعرون أن العناصر الحالية كافية للثقافة الخلقية ربما يشعرون ، وغالباً ما يشعرون بالحاجة إلى مقدرة كبيرة بالنسبة إلى بعض هذه العناصر أو كلها ، وغالباً ما ينادون بالحاجة إلى حسن اختيار المدرسين من ناحية تأثيرهم الشخصى ومقدرتهم على النظام الذى له أعظم الأثر فى تقدم القوى العقلية ونموها ، ومن ناحية أخرى ينادون بالعناية فى اختيار التاريخ والآداب وما تنتجه من التأثير الأدبى ، واختيار أحسن طرق التعليم التى تؤدى إلى نجاح عظيم كما أنهم لا يغفلون بالإضافة إلى ذلك مراقبة الحياة الاجتماعية والشروط المنزلية .

٢ - وهناك فريق آخر يعتقد أن الدين يجب أن يكون مفتاح التعاليم الخلقية المنتجة وذلك إما بإدخال كثير من التعاليم الدينية فى المدارس ، أو بإدخال التعاليم الخاصة بالتربية الخلقية مستقلة عن العوامل الدينية التى ستأثر وتنمو نمواً كبيراً فى هذا الميدان .

٣ - وثمة رأى ثالث لفريق يعتقد أننا لا نحتاج كثيراً إلى تعاليم أخلاقية مختلفة ولكننا نحتاج أكثر من ذلك إلى نمو العوامل ذات الأثر القوى فى التدريب الخلقى ، وأصحاب هذا رأى ينادون بتشجيع فكرة ضبط الطالب لنفسه بنفسه ، وذلك لتوقظ فيه روح المسؤولية بأسرع ما يمكن تحت تأثير المشاركة فى تطبيق القانون وهؤلاء يرون أنه يجب أن توجد فى المدارس حكومة نفسية تسيروها المبادئ الخلقية أكثر مما نراه حالياً .

٤ - وهناك رأى يرى أن الأخلاق تثبت وجودها وتحقق نفسها فى الألعاب واتصال الأطفال بعضهم ببعض ، فيجب أن يتعلم الأطفال اللعب كما يتعلمون العمل تماماً ، لأن مجتمعهم وتدريبهم الأدنى لا يتحقق فيهما الخير إلا عن طريق اللعب ، ففيه تسلية وترفيه أكثر مما فى العمل ، ويجب أن نأمل التقدم

الأدبي ، والأخلاق ، وأن نحشى الانحطاط جهدنا وخاصة في الأطفال . وإذن فالنزهات ، وعوامل التسلية ، والملاعب كلها جديرة بالملاحظة ، والمراقبة . وهنا يجب أن يكون المدرس هو القائد في الوسط الاجتماعي للجماعة ، يربي الأجسام ويقويها بالألعاب كما يربي العقل . وبالإضافة إلى ذلك ففي الآداب ، والموسيقى ، والعلوم ، وضروب التسلية الاجتماعية وأنواع أخرى لا حصر لها تتكون أخلاق الصغار من الأطفال بل وأخلاق الكبار في حياة حرة شاملة ، ومن هنا كانت فكرة حكم المدرسة نفسها بنفسها ، مع فكرة اللعب من الوسائل المستعملة إلى حد كبير كقوى تربية في كبريات المدارس الإنجليزية العامة قديماً ، وكانت قيمتها ونتيجتها مقنعة جداً .

ويمكن تقسيم ميادين الألعاب الرياضية إلى قسمين :

١ - ميادين الألعاب الفردية . ٢ - ميادين الألعاب الجماعية .
فميادين الألعاب الفردية هي تلك الميادين التي يواجه فيها اللاعب خصماً واحداً . وهذه الميادين تعود الأطفال الشجاعة ، والصبر ، وبذل الجهد ، والجرأة ، واستخدام الفكر ، وحسن التصرف ، وتجنب اليأس في ساعة الهزيمة وعدم الغرور ساعة النصر . وهذه هي الصفات الحقة للرجولة الحقة أو الأنوثة الكاملة وهي بعينها الصفات التي ينشدها المجتمع في المثل الإنساني الكامل . فإذا ما دربنا الطفل أو الشاب على هذه الأنواع من الألعاب وهو حديث تأثرت بها نفسه حين يشب ويكبر .

وميادين الألعاب الجماعية يتحقق فيها تنظيم علاقة الفرد الواحد بالفريق الذي ينتمي إليه . وفيها أيضاً تنظيم دقيق لعلاقة الفرد بالخصم . هذا كما تساعد أيضاً على تنمية شخصية الفرد أمام الفريق ، وتنمية كيان الفريق أمام الغاية الكبرى من اللعب . وفي مثل هذه الميادين ينسى الفرد أنانيته ويتعود تحمل المسئولية عن طيب خاطر وفيها ينظم عمل الجماعة بين أفرادها من ناحية ، وبينها وبين خصومها من ناحية أخرى ، وتشجع روح التضامن القوي ، والتعاون الوثيق .

وما أشبه ميادين الحياة بميادين الألعاب بل إنما هي بعينها ميادين للرياضة ، لكن في حدود أوسع . وما نحن الرجال في حياتنا العادية إلا كالصبية وهم ينشطون ويتحايلون في ميادين الألعاب – ويقول جماعة الإنجليز إن كل ما يعترضنا في حياتنا اليومية من ضيق ، وسرور ، وإخفاق ونجاح إنما عرض لنا يوماً ما في صورة مصغرة في ميادين الألعاب . وإن كل ما نكسبه في تلك الميادين الرياضية من صفات ، وأخلاق إنما هو تراث معنوي مستقر في أعماق النفس يظهر أثره في حياتنا اليومية فيبعث فينا الحكمة ويمدنا بالأمل ويحدونا إلى طلب النصر الشريف . هذا ويجب أن نطبق في حياتنا الخاصة المبادئ التي استفدناها من ميادين الألعاب وهي :

أولاً – اللعب العادل الشريف Fair Play

ثانياً – اللعب حتى نهاية الشوط Play The Game.

المراجع

1. Welton : Psychology of Education.
2. Mackenzie : Manual of Ethics.
3. Sturt & Oakden : Modern Psychology & Education.
4. McDougall : Social Psychology.
5. McDougall : Eneriges of Men.
6. N. Catty : The Theory & Practice of Education.
7. Beatrice De Normann & G. Colmare : Ethics of Education.
8. A.A. Roback : The Psychology of Character.
9. R.G. Gordon : Personality.
10. McDougall : Social Psychology.
11. Welton : Psychology of Education.
12. Mackenzie : Manual of Ethics.
13. Scott : Social Education.
14. A.G. Hughes & E.H. Hughes : Learning and Teaching.

الفصل الثامن

الحرية والنظام

معنى النظام

لقد تردد أصحاب الرأي دائماً بين الحرية والنظام، فتارة ترجح كفة الحرية، وطوراً ترجح كفة النظام، وربما قيل: إن النظام تقليد من تقاليد التربية، والواقع أن التربية كنظام أو تدريب فكرة انحدرت إلينا من خلال العصور القديمة، فقد كان آباؤنا يرون أن من واجبهم أن يغيروا ويعدلوا من طبيعة الطفل ويجعلوها على الطراز الذى يشاءون ويصوغوها وفق صور كونوها فى أذهانهم، وقد استمرت الحال على هذا النحو حتى جاء القرن التاسع عشر حين كان المدرس يضع نصب عينيه الوصية المشهورة « درب الطفل على الطريقة التى تحب أن يكون عليها، فإنه إذا شب لن يحيد عنها » - وبعد الحرب الكبرى قامت ضجة حول الموضوع انحرفت بالآراء إلى النقيض، فسمعنا صيحات عالية تدعو إلى « التربية عن طريق الحرية » وقد نادى أصحاب هذا رأى بمنح الطفل الحرية ليبر عن ميوله ومواهبه كما يشاء.

وقبل أن ندخل فى تفصيل هذا الموضوع جدير بنا أن نتساءل :

لماذا يطبع الأطفال مدرسيهم ؟

هذا سؤال من الأسئلة التى طرحها المرحوم سير « جون آدمز » عميد معهد التربية بجامعة لندن على طلبة المعهد، وعلى طلبة مدارس المعلمين وحصل على ثلاثة أنواع من الإجابات :

النوع الأول ، وكان أكثر شيوعاً ، هو أن الأطفال يطيعون المدرس بسبب قوته الجسمية فإذا لم يطيعوه كانت النتيجة وبالاً عليهم ، ونحن إذا حللنا هذه الإجابة وجدنا أنها غير صحيحة بالمرّة فليس هناك أى مدرس يستطيع ل مجرد قوته الجسمية أن يتغلب على فصل مكون من أربعين طفلاً مثلاً ، فهم في إمكانهم التغلب عليه حتى ولو بمجرد إلقاء أنفسهم عليه . وإذن لا يمكن أن نعتبر أن القوة الجسمية كفيّلة بهذه الطاعة .

أما الفريق الثانى فيعتقد أن الطاعة تنتج من الحب ، أو بعبارة أبسط أنه يمكن إرجاع عامل الاحترام إلى شدة شغف الأطفال بمدرّسهم ، وكان معظم من أجاب هذه الإجابة من الجنس الآخر .

وبالرغم من أن المحبة الشخصية عامل مهم من عوامل التقدير والاحترام ، فقد أثبتت التجربة أننا كثيراً ما نرى شخصية من الشخصيات محبوبة جداً من الأطفال ولكنها ليست محترمة كما أن هناك حالات أخرى يحترم فيها المدرس . وإن كانت أبعد ما تكون عن مواطن الحب .

وثمة فريق ثالث يعتقد أن الطاعة ترجع إلى تقدير الأطفال ، واحترامهم لمادة المدرس . وتفوقه العلمى ، ويمكننا أن نرد على هذا بأن هناك كثيراً من الأطفال لا يقدرّون قيمة غزارة مادة المدرس وتعمقه فى بعض المواد كال تاريخ أو اللغة أو العلوم الرياضية ، على أن الأطفال يميلون إلى أنواع أخرى من المعلومات قد لا تتوفر فى المدرس ، فكيفية إدارة سيارة أو تحريك طائرة هى عند الأطفال مهارة عظيمة تجذب انتباههم عن معلومات المدرس الغزيرة فى مادة اختصاصه ، فعلىنا إذن أن نبحث عن عوامل أخرى تكون هى السر فى احترام الأطفال للمدرسين .

ويمكن أن نرجع هذه العوامل إلى عاملين هامين هما :

- ١ - طبيعة المجتمع .
- ٢ - شخصية المدرس .

ليس هناك مجتمع من المجتمعات الراقية إلا ويقيم للمدرس وزنه واحترامه بل إن كتب الأدب ، وتقاليده المجتمعات ، والأقوال المأثورة عن الآباء ،

والأجداد . . . كل هذه تحفظ قدر المدرس وتعرف له قيمته والطفل الصغير كان دائماً يثور على والديه في المنزل ، والذي كان سريع الغضب داخل جدران البيت ، سرعان ما تزول عنه هذه الثورة ، وسرعان ما يندمج في الفصل مع أقرانه بمجرد دخول المدرس . فاحترام الأطفال للمدرسين لا يعدو أن يكون عملية انتقال هذا الاحترام من المجتمع الأكبر إلى المجتمع الأصغر .

وبرغم تلك السلطة التي يزود بها المجتمع جماعة المدرسين ، وكل تلك القرض التي يمهدها لهم للطاعة ، نجد أن المدرسين يختلفون في درجة الاحتفاظ بهذه الطاعة ، وهذا راجع إلى شخصية المدرس ، فلكل منا خصوصاً معشر المدرسين « قدرة على الحكم » على الغير أو ضبطه ، وهذه القدرة تختلف من فرد إلى آخر ولكنها في الفرد الواحد ليست قابلة لزيادة أو النقصان . . . بل هي قدرة ثابتة وتفرق قليل جداً هم الذين لا يحظون بهذه القدرة ، وهؤلاء نفر لا يستطيعون اكتساب الطاعة أو اكتساب احترام الآخرين حتى ولو بذل كل ما في وسعه لتزويدهم بمركز بارز . هذا وقد تتمكن معاهد التربية ، ومدارس المعلمين من مساعدة هؤلاء الأفراد (ذوي القدرة المحدودة على الحكم) على حسن استغلال هذه القدرة ، ولكنها لا تستطيع أن تزيد هذه القدرة وهذا هو السر في العبارة المعروفة « المدرس مطبوع أكثر منه مصنوع » .

والقدرة على الحكم تمكن المدرس من حفظ النظام في الفصل ، وهي عامل مهم من عوامل نجاحه ، ولقد تمادى البعض ، ونادى بأنها العامل الضروري في عملية التدريس ، واعتقدوا أن كل من كان خلواً من هذه القدرة فعليه أن ينتحي ناحية من الجبل ، ويسلم زمام المهنة لأصحابها .

الفرق بين النظام والأوامر المدرسية

إن الأوامر المدرسية School Orders ترى إلى المحافظة على الشروط والأوضاع الضرورية التي تمكن المدرسة من القيام بوظيفتها . أما النظام أو التأديب المدرسي School Discipline فليس شيئاً مفروضاً من الخارج

كالأوامر المدرسية ، ولكنه شيء يمس الينابيع الداخلية للسلوك ، وقوامه إخضاع دوافع الإنسان ، وقواه الفطرية لشيء من التنظيم بحيث تصبغ حالتها الطبيعية غير المنظمة بصبغة منظمة ، وبذلك تحل الكفاية ، والاقتصاد محل التبذير ، والجهد الضائع ، على أن بعض نواحيها الفطرية ربما لا تقبل هذا الضبط فلا بد إذن من أن يكون قبولها عن رضا وارتياح ، ونحن نرى أن هذه هي التلقائية لنبل فطري يرى دائماً إلى أعظم درجات الكمال وأحسن حالات التعبير عن الذات .

إن إيجاد النظام في الفصل ، وإلقاء الأوامر ، واحترام التلاميذ للمدرس ، كل هذا من شأن الحكومة المدرسية ، تسهر عليه ، وتعمل له بما تصدر من أوامر ، ولكن توجيه التلاميذ ، والسمو بميولهم ، وتنظيم حياتهم من عمل النظام المدرسي ، فالتأديب أو النظام المدرسي هو تأثير عقل كبير منظم على عقل آخر أقل اتساعاً ونمواً .

وهو كذلك الوسيلة التي يدرب بها التلاميذ على احترام النظام العام ، وحسن السلوك ، وإظهار أحسن ما في أخلاقهم . . . وأفضل اختبار له هو ملاحظة سلوك التلاميذ العام ، ولا يمكن أن يكون هذا حسناً ما لم يؤسس على أفكار ، ومثل عليا للسلوك وقرت في نفوس التلاميذ جميعاً . هذا ويمكننا أن نحدد الفرق بين النظام المدرسي ، والأوامر المدرسية فيما يأتي :

- | الأوامر المدرسية | النظام المدرسي |
|---|---|
| ١ - دوافع الأوامر المدرسية خارجية | ١ - النظام نابع من الباطن فهو الينابيع الأساسية للسلوك |
| ٢ - الأوامر شرط أساسي للمجتمع السعيد الناجح | ٢ - النظام هو تأثير عقل واسع على عقل ضيق |
| ٣ - الأوامر المدرسية وسيلة لغاية | ٣ - النظام المدرسي هدف في حد ذاته |
| ٤ - أساس نجاح الأوامر المدرسية قلمها وكونها في متناول التنفيذ | ٤ - أساس التأديب والنظام المدرسي هو إخضاع الغرائز والدوافع والقوى المختلفة وتنظيمها |

- ٥ - الأوامر المدرسية قد تعوق عملية النمو
٥ - النظام يستلزم قدراً معيناً عن الحرية، والحرية عنصراً لازماً للنمو
- ٦ - الأوامر المدرسية قد تسبب الرهبة والخوف
٦ - النظام المدرسي يجب أن يكون عن رغبة لا عن رهبة .

وسائل حكومة المدرسة

- يمكن أن نقسم وسائل الحكومة المدرسية إلى نظم ثلاثة :
- ١ - القمع . ٢ - التأثير . ٣ - التحرير .
- ومن المفيد أن نلتزم هذا التقسيم حتى نفهم ما يراد بكل نوع من هذه النظم المختلفة ، وأن نناقشها من ناحية أثرها في الخلق .

أولاً - القمع Phlebotonism

يصر أنصار القمع على الهدوء التام والنظام الشامل في جميع الأوقات ، حتى يسمع زنين الإبرة إذا سقطت ، ويقال : كانت المدرسة قديماً تحوز رضا المفتشين إذا سادها مثل هذا الحكم . وكانت تقاليد المدرسة تقوم على الكبت ، والقمع الشديدين ، وعلى العقوبات البدنية ، فالفلقة ، والعصا سلاح المدرس ، وإذا تصفحنا كتب التاريخ وجدنا صوراً محفورة في الخشب لمدرسين يستعملون آلات التعذيب ذات الأثر البين في أجساد تلاميذهم ، ولا يزال بعضنا يذكر الإرهاب الذي أخذنا به في المدارس وقتاً ما والذي إن دل على شيء فهو يدل على الوحشية ، والرعب ، والحقيقة أن التلاميذ كانوا يحبون حياة بائسة ملأى بأشباح الخوف ، والألم ، وكان وقت المدرس وفقاً على توقيع العقوبات ، فقد كان القمع هو الصفة الغالبة على مدارس الماضي ، وقد كانت أداة المدرس الأسكتلندي ، و « الفقى » في الكتاب المصرى عصا في آخرها قطعة من الجلد ، وكان نجاح المدرس يقاس بإمكانه إلقاء أوامر جافة على ثلة من التلاميذ الهائجين وخضوعهم لها ، أما حب التلاميذ فكان فكرة بعيدة عن الأذهان .

وإذا حللنا طريقة القمع من الناحية السيكلوجية وجدنا أن هذه الطريقة تعتمد على إثارة عامل الخوف كى تحدد طرقاً خاصة للسلوك وتحفظه في هذه الاتجاهات وتمنع الطفل من ارتكاب أنواع أخرى من السلوك .

ثانياً — طريقة التأثير Impressionism

وهذه الطريقة تحل قوة الشخصية محل العصا والإرهاب في حكم المدرسة ، فالمدرسة تحكم عن طريق المثل الشخصى ، واحتذاء المدرس في أخلاقه الخاصة وقوة تأثيره المباشر في التلاميذ واستغلال الظروف الجيدة لضرب المثل الصالح حتى يعيش الجميع تحت لواء الاحترام ، والحب بدل الإرهاب والقمع .

وقد كان « أرنولد » في « رجبى » ، « وثرنج » في « أو بنجهام » مثلين عظيمين لهذه النزعة في المدارس الخاصة الإنجليزية في القرن التاسع عشر ، فقد تعدى أثر شخصيتهما نطاق تلاميذهما في « رجبى » ، « وأو بنجهام » وشمل المدارس الخاصة الإنجليزية جميعاً ، فالمرتبى كما ترى هذه المدرسة زعيم فطرى للناشئة يلجى الفتيان نداءه ويطيعون أمره وهو لم يكذب ينتهى منه ، ولا شك أن الكثير منا — إلى جانب ذكرياته المؤلمة عن القمع ، والإرهاب — يذكر هؤلاء القلائل الذين كان لهم أكبر الأثر في توجيه حياتنا .

أما عن الناحية السيكلوجية فإن هؤلاء لا يثيرون استعداد الخوف في نفوسنا إلا أنهم يثيرون استعداد الخضوع فيها .

ثالثاً — التحرير

أما أنصار التحرير فيبعدون عن القمع ، والتأثير معاً ، فهم يريدون طفلاً حراً يفعل ما توجبه الطبيعة إلى نفسه ، لا يعوقه عائق شعورى أو لاشعورى ؛ فلا ينبغي أن يهدده المرتبى أو يخيفه أو يكبت نوازع نفسه : ودوافعها ، ولا يحاول التأثير فيه تأثيراً يرجع إلى قوة شخصيته ، وضعف شخصية الطفل ،

بل عليه أن يقنع بدوره فيقف موقف المتفرج المنعزل في المؤخرة ، وقد عرفت الدكتور « منتسورى » بهذا الرأي ، كما عرف « نورمان ماك ن » ، و « نيل » بتطرفهما في هذا المذهب حين كان الأول في مدرسته في « تبرى هول » ، والثاني في مدرسته المريعة في « سومرهل » .

وهذه المدرسة التحريرية قائمة على الاعتقاد الراسخ في أن الطفل خير بالطبيعة كما ذهب « وردزورث » إلى أنه هبط إلى الأرض في حالة من المجد ، والفخار . أما من الناحية السيكلوجية فهذه المدرسة لا تعتمد على استعداد الخوف ، ولا على استعداد الخضوع ، ولكن على استعداد السيطرة وتتخذ التعبير أو الإفصاح عن الذات شعاراً لها .

والآن وبعد أن حددنا وجهات النظر المختلفة في النظام في هذه المذاهب الثلاثة يجدر بنا أن نتساءل أى هذه المدارس ذات أثر كبير في خلق التلميذ ؟ وأيها ينتهى إلى نظام حقيقى ، وتهذيب صحيح ؟

وقد يقبل جميع المربين - عدا متطرفى التحريريين - قدراً من القمع أو العقاب يتزل على الشخصيات المنحرفة ، ولكنهم بلا استثناء يرفضون إقامة نظام كامل على أساس القمع ، والإرهاب في المدارس ، فهذا القمع لا يحل إلا مشكلة واحدة هى مشكلة النظام الوقتى ، في وقت معين ، في مكان معين ، ولكن حين تختفى يد القمع يعود التلاميذ إلى حالة من الفوضى يرثى لها ، ومن باب أولى تسودهم هذه الفوضى حال خروجهم من المدرسة مباشرة - فالقمع له تأثيره ما ظلمات عليه قائماً .

وطريقة القمع لا تتفق مع مبادئ الديمقراطية ، فإذا كان هذا الأمر نافعاً في بلد يحكمه حاكم مستبد ، فهو وخيم العاقبة ، وعلى جانب كبير من الخطورة بالنسبة لبلد ديمقراطى ، كما يقول « الدس هكسلى » : « إذا كانت الحرية ، والديمقراطية هدفك ، فيجب أن تعلم الناشئة فن الحرية ، والحكم الذاتى ، ولكن إذا علمتهم الطاعة العمياء ، والخضوع المطلق ، فإنك إن تصل إلى الحرية أو الديمقراطية التى ترمى إليها ، فليس فى الاستطاعة الوصول إلى التربية وطرق التدريس - ثان

غايات نبيلة بوسائل « منحرفة » وبالاختصار إذا أردنا أن ندرّب الشعب على النشاط الذاتى الموجه نحو هدف ، وعلى الاعتماد على النفس وتحمل المسؤولية فيجب أن نتخلى عن إثارة استعداد الخوف فيه إذ أنه وسيلة خاطئة تعوقنا أكثر مما تنفعنا فى عملنا — أما العقاب البدنى فليس من الحكمة أن نقطع بتحريمه فهو ضرورى أحيانا ولكن الالتجاء إليه يدل على أنه لا توجد للإصلاح طرق أخرى . أو على أن هناك طرقاً جربت ، وأخفقت — هذا إلى أن الالتجاء المستمر إلى العقوبة البدنية فيه حط من شأن المعلم ، والمتعلم على حد سواء . ويمكن أن نقول — دون أن نكون مخطئين — إن العقوبة البدنية تسبب للمراهقين من الأخطار الجنسية ما يحتم على المربين جميعاً عدم الالتجاء إليها .

أما طريقة التحرير — وهى على نقيض طريقة القمع — فىرى أنصارها أنها تخرج صاحب الخلق القويم ، وأن الحرية المطلقة الكاملة ذات تأثير قوى حسن فى الشخصيات ، فهى تربى شخصيات حرة لا تخشى شيئاً فى القول أو العمل ، مستعدة لمواجهة أى موقف من المواقف ، ونحن نشك فى أن الحرية المطلقة فى المدرسة تؤدى إلى هذا رأى كما أن أنصار التحرير يخطئون إذا وضعوا الأوامر المدرسية موضع الشك ، فإن الطفل محتاج للضبط ، فيجب أن يطبع أوامر خاصة للقيام بعمله بنظام ، كما أنه محتاج لقدر من التوجيه ليس سلوكاً معقولاً .

أما سلاح التأثير الشخصى فهو سلاح قوى فى يد المدرس القوى الشخصية ، ويؤدى إلى نتائج طيبة من حيث توفير النظام فى الفصل والتهذيب فى نفوس التلاميذ ، فنحن نقبّس عواطفنا الأخلاقية ، وميولنا من الشخصيات القوية التى نعجب بها ونقع تحت تأثيرها .

على أن أنصار التحرير يهاجمون هذه المدرسة إذ أن سلاح التأثير الشخصى من شأنه أنه يعمل على إلغاء شخصيات التلاميذ ، إن التأثير كطريقة خطأ فى أساسه لأنه يمتص الأصالة ، ويشل الذاتية ، ويتدخل فى نطاق الشخصية المقدس ، كما أنه لا يتنفع به إلا أصحاب الشخصيات القوية وهل كل المدرسين

أقرباء الشخصية ؟ إن إلى جانب كل مدرس قوى الشخصية عشرة من ضعافها ، ولكن هذه الصعوبة من السهل التغلب عليها ، فالواقع أن المدرس مهما كان صغير السن ، قليل التجربة ، جبار عظيم بالنسبة لحدائة التلاميذ ، وضآلة معلوماتهم ، ولذلك كان المدرس دائماً فى مركز يستطيع معه أن يستعمل سلاح الاستهواء استعمالاً خطيراً ، ويتساءل سير « جون آدمز » عن السبب الذى من أجله يدين التلاميذ بالطاعة لمدرسهم دائماً . ويصل بطريقته السقراطية ، كما سبق أن عرفنا إلى أن هذا يرجع إلى أن المدرس ، فى الدرس رمز للمجتمع الكبير وهو من ورائه يتقمص سلطته ، ويمثلها فى الفصل .

يتضح لنا مما تقدم لنا أن حل مشكلة الحكومة المدرسية يقع بين المدرسة التأثيرية ، والمدرسة التحريرية ، إذ أننا نستطيع أن نحذف — مطمئنين — مذهب القمع فكيف يمكن التوفيق بين هاتين المدرستين ؟

يجب أن نعلم أولاً وقبل كل شيء أن كل وجهات النظر التحريرية تعترف بضرورة إباحة قسط من الحرية داخل نطاق الحدود الحلقية التى تضعها المدرسة ، والتى يجب أن يخضع لها طائعا مختاراً ، وبعبارة أخرى يجب أن يتمتع بالحرية ، ويخضع للنظام فى نفس الوقت — والخلاصة أن الأطفال إذا أرادوا أن يستمتعوا بقدر كاف من الحرية ، وإذا أريد لهم النمو ، والاكتمال ، فلا بد أن يتهيئوا لقبول قدر مناسب من النظام ، والتهذيب .

إن جوهر الموضوع من الناحية التربوية هو أن كل كائن حى إنسانى ، سواء أكان حدثاً أم بالغاً يحتاج ويتطلع إلى لون النظام المعقول فى حياته ، على أن هذا الإنسان على أتم الاستعداد لمقاومة التحكم ، والتسلط بكل ما أوتى من قوة ، ونظراً لأن أنصار القمع يعجزون عن استيعاب هاتين الحقيقتين السابقتي الذكر ، لذلك نجد أنهم يخفقون ، فالقمع يتطلب فرض الأوامر ، وتحكم الإنسان فى أخيه الإنسان ولا عجب أن تكون الثورة من منتجاته لا لأن الصغار يكرهون النظام ، بل لأنهم ينزعون إلى مقاومة عنصر السلطة .

وما لا شك فيه أن النظام المفروض قد ينجح إذا طبق فى مكان محدود .

ولوقت محدود ، هذا إذ كانت الشخصيات التي يعهد إليها بتنفيذه قوية ، وكانت العقوبات المتصلة . بالمقاومة قاسية كذلك ، على أن للكبت الذي يشعر به الخاضعون لهذا النظام لا بد وأن يؤدي إلى الغليان وإلى لعنة هذا النظام نغتر بالظواهر ، وتطلعنا إلى وراء حيث كان النظام الاستبدادي يسود المجتمع عامة ، ظهرت لنا صورة قبيحة من مظاهر التنفيس والتعويض عمادها الوحشية ، والتخريب ، ونحن إذا تطلبتنا نظاماً عماده الاستبداد أو القمع دون أن تصحبه نزعات هجومية أو اعتدائية يكون مثلنا كمثل من يقبض على الريح . وبالمثل ، لا يمكننا أن نتوقع من الشعب أن يسلك سلوكاً اجتماعياً منظماً ، وأن تسود فيه روح التعاون دون أن يكون هناك نظام مناسب لهذا الشعب ، والفوضى مثلها كمثل القمع والكبت تولد السلوك الاعتدائي .

والإجابة المنطقية لمشكلة النظام — كما ساد في بعض المدارس — هي أن يصل المجتمع إلى نظام متفق عليه يراه الجميع ضرورياً للصالح العام على أن مثل هذا النظام كفيل جداً بالألا يثير العداء لأنه خال من عناصر السيطرة . فبدلاً من أن يؤدي إلى المقاومة فهو يمكن الشعب من الاندماج في أعمالهم ، وتوجيه قواهم الابتكارية إلى الأهداف الإنتاجية المثمرة :

المثل الأعلى للنظام

ويمكن أن نقول إن المثل الأعلى للنظام يمكن أن يوصف بأنه مزيج من النظام الذاتي ، والنظام الاجتماعي ، وهذان النوعان من النظام هما ما يحتاج إليه المجتمع الحديث من مواطنيه ، ويمكن أن نعتبرهما أيضاً الأسس التي تقوم عليها صحة الفرد الشخصية ، والمدرسة التي تقتبس هذا النوع الجديد لا تقتصر في عملها على مجرد حل مشاكلها الداخلية فحسب بل هي تعمل دائماً على التربية من أجل الحياة .

والنظام الذاتي يمكن تكوينه في الفرد عن طريق « احترام الذات » أثناء التعاون مع الغير ، عن طريق استنثاره الحماس ، والميل ، وبواسطة يمكن

التضحية بالراحة القريبة ، وبالهدوء من أجل الوصول إلى هدف يشعر الفرد بأن له قيمة ، وجدير بنا أن نلاحظ أننا بضغطنا على الطفل وحمله على مواصلة السير وراء هدف ما نبغض إليه هذا الهدف ، وهذا لا يمكن أن نعتبره أساساً حقيقياً للنظام الذاتى - كما كان معتبراً قديماً - فهو لا يخرج عن كونه مجرد عبودية واستبداد . ولقد بنيت الأهرام على هذا النظام ، ومن ذلك يبدو لنا أن وظيفة المدرس لا تقف عند مجرد حمل الطفل على بذل جهود معينة ، ولكنها تجمع لمظاهر نشاطه عن طريق التوجيه واستثارة الميول .

أما النظام الاجتماعى فهو لا يعدو أن يكون نظاماً قبله المجتمع كشرط أساسى لمتابعة أهداف الجماعة ، وتصبح المدرسة ذات هدف اجتماعى إذا كانت مبادئها الموجودة فعلاً نشطة فعالة ، فهى لا توجد إلا لخدمة المجتمع ، وثمة حاجة أخرى ضرورية للنظام الجمعى ، وهى أن السلطة لا بد وأن تصبح وظيفة لتحمل المسئولية ، فأولئك الذين يتمتعون بقدر معين من المسئولية يحتاجون للسلطة المناسبة حتى يتمكنوا من تأدية الواجب كما ينبغي ، وإذا أمكن أن يفهم مدلول السلطة على أنها ليست شيئاً يتمتع به البالغون ، ويحرم منه الأطفال ، وإذا ما شعر جميع أفراد المجتمع بأن لكل منهم مركزاً فى المجموعة وحقاً فى إبداء رأى فلا بد وأن ينعدم ذلك النزاع الكريه بين أولئك الذين يتمتعون بالسلطة بلا شك ، فى الوقت الحاضر .

النظام فى مراحل التعليم المختلفة

إن الأساس الصحيح للنظام هو - كما سبق أن عرفنا - إيجاد الرغبة الصادقة من جانب التلاميذ لقبول المثل الحلقية التى تهديها إليهم المدرسة ، وفى الإمكان أخذ التلاميذ بهذا إذا أعدت لهم المدرسة حياة يسعدون بها ، ومعنى ذلك أن من واجب المدرسة ألا تهمل رغبات الأطفال أو تتجاهل ميولهم ، ولا بد أن تحقق لهم ما يرغبون فيه ، وأن تهىء الحياة المدرسية بما

يجعلها محبة إليهم مليئة بأكثر مما يتخيلون وجوده فيها ، وبذلك نستغرق نشاطهم وتضمن ولائهم .

وفي كل مرحلة من مراحل الحياة المدرسية دلت خبرة المدرسين الأكفاء على أن الأطفال ذوى القدرات المختلفة يركزون اهتمامهم في فترات معينة من الزمن في أعمال تناسب قدراتهم ، فالتجديد الدائم أو التغيير الذى يلجأ إليه بعض المدرسين تفادياً للسآمة الناشئة عن التكرار لا يمت إلى أغراض التربية بصفة ، ولا بد إذن من مراعاة الأوقات المناسبة للأعمال التى تتجارب مع رغبات الأطفال ذوى القدرات المختلفة .

وإذا ما تجاوبت رغبات الأطفال في عمل من الأعمال رأيناهم يبذلون غاية الجهد بل يتعاونون في القيام به ، ومن ثم يدركون قيمة ما نريد منهم أو يتبينوه ، ويؤمنون بأن النظام إنما وجد لصالح المدرسة عامة ولصالح كل فرد منهم بصفة خاصة ، فالقواعد الموضوعة لإقرار النظام ليست شيئاً مذكوراً إلى جانب الطريقة التى تطبق بها النظم ، وعلى المدرس إذن أن يطبق النظم المختلفة على تلاميذه مراعيّاً أخذهم بالعطف ، وأن يكون العمل الذى يكلفون به معقولاً بصادف هوى في نفسه وأن يكون متمشياً مع طبائعهم وعددهم وأسنانهم ومقدار نضوجهم العقلى . وبهذا لا تكون أوامره متعذرة التنفيذ تقوم الصعوبات المختلفة دون تحقيقها . وعلى هذه العوامل أيضاً يتوقف استعداد التلاميذ لسلوك معين ، فسواء أكان السلوك مرغوباً فيه أم مفروضاً عليهم فإن مسببات التنفيذ موجودة في الحالتين .

إن قرار النظام في مدرسة من المدارس أو في فصل من الفصول لا يحتاج إلى عنف في تطبيقه ، وإنما يحتاج إلى تعرف المدرس للمناسبات التى يجوز فيها أن يتدخل ، وقد دلت التجارب على أن أسوأ النتائج قد نجمت عن أخذ التلاميذ بالشدة أو تدليلهم أو من تغيير المعاملة من شدة إلى تدليل في غير حزم .

(أ) النظام فى مرحلة روضة الأطفال :

من السخف بمكان أن يصير المدرس على أن يمثل التلاميذ لأوامر أو تعليمات دون أن تكون هناك استجابة طبيعية لتنفيذ هذه الأوامر ، فالتلاميذ فى هذه السن من مرحلة الطفولة يحتاجون إلى مدرس يعرف كيف تتجارب الأوامر مع التنفيذ وكيف يضرب الأمثال لنوع السلوك الحسن الذى يطالب تلاميذه بمحاكاته وعليه أن يكيل الثناء لمن صدع بالأمر ، ثم إنه لا داعى ألينة للجرح شعور الطفل بتسميته « طفلاً شقيماً » إذا ارتكب مخالفة فالرغبة فى إرضاء المدرس فى هذه المرحلة هى رائد التلميذ فى تصرفاته .

(ب) النظام فى مرحلة التعليم الابتدائى :

سواء أكان الطفل فى مرحلة الروضة أم فى مرحلة التعليم الابتدائى فإنه حرى بشئ من التسامح فيما يتعلق باتباع نظم دقيقة ذلك لأن حيوية الطفل من جهة وجهه للاستطلاع من جهة أخرى يدفعانه للإخلال بالنظام دون قصد ، فلا سبيل فى المدرسة الحديثة إلى تكليف الطفل أن يبقى جالساً دون حراك مدة طويلة من الزمن .

وهناك خاصية أخرى فى مرحلة التعليم الابتدائى وهى ميل الطفل إلى الاستعانة بنفوذ المدرس على قمع من يقوم بينه وبينهم نزاع من رفقائه . ثم إنه كنتيجة لخبرات الطفل يبدأ فى التمييز بين ما هو مناسب وما هو غير مناسب ؛ وواجب المدرس حينئذ أن يشعر التلميذ بضرورة الخضوع للحق لذاته . والمدرس الغضوب الذى يميل إلى إظهار سلطانه الشخصى لا يكون له أثره المرجو فى تلاميذه .

(ج) النظام فى مرحلة ما بعد التعليم الابتدائى :

لا بد فى هذه المرحلة من أخذ التلاميذ بنوع من الإصرار على ضرورة التزام نظم معينة فنمو الإحساس بالحاجة إلى التزام النظام فى الحياة العامة

يستلزم وضع قواعد يقبلونها . وواجب المدرس أن يتعد ما أمكن عن فرض الأوامر على التلاميذ ؛ وليكن هدفه أن يخلق الظروف والمناسبات التي يجد التلميذ فيها نفسه في وضع يضطره إلى الطاعة . فإذا أخفق المدرس في إيجاد هذا الجو فعليه أن يسأل نفسه . هل كان عنيفاً في أوامره ؟ أم كان مترخياً ؟ أم كان غير مستقر بين الحالين ؟ ثم هل أعطى الفرصة لتلاميذه كي يعبر عن نشاطه وذكائه ؟

وأخيراً أصبح من المسلم به أن أحد التغيرات الهامة التي طرأت على التربية في النصف الأخير من القرن الماضي ينحصر في الإدراك التدريجي من جانب المدرس إلى أن مسألة امتياز المراهق على الطفل الصغير إنما هي مسألة سعة خبرة وليست مسألة صفات خلقية . وأن هناك من الأطفال من هو ضعيف الإدراك أو جامع بطبيعته لا يستجيب لأمر مدرس نابه يعمل لمصلحته في قرارة نفسه — وكنتيجة لهذا التغير قلت العقوبات التي كانت توقع على التلاميذ سواء كانت بدنية . أم غير بدنية وفي المدارس الحالية المثالية لم تعد العقوبات شيئاً كوراً إذ أصبحت التقاليد المدرسية والأوضاع المحلية رادعاً كافياً للطفل إذا انحرف . على أنه مما لا شك فيه أن هناك حالات فردية خاصة تحتاج إلى تدخل عاجل من جانب ناظر المدرسة وربما أتيح له اتخاذ إجراءات صارمة .

نظريات العقاب

وقبل أن نترك موضوع النظام نرى لزماً علينا أن نشير إلى موضوع العقوبات المدرسية ومكانتها التربوية . وقبل أن نبين أثر العقاب في التربية يحسن بنا أن نستعرض في شيء من الإيجاز نظريات العقاب حتى نكون على بينة من أمرنا عند تطبيقها في المدارس ويمكن أن نلخص نظريات العقاب فيما يأتي :

- | | |
|----------------------|--------------------------|
| ١ — النظرية الوقائية | ٢ — النظرية الوازعة |
| ٣ — النظرية الجزئية | ٤ — نظرية الجزاء الطبيعي |

أولاً - النظرية الوقائية

ترى هذه النظرية إلى حماية المجتمع من إجرام المجرم وتقول بأن السجون وجدت لحماية من في الخارج لا لعقاب هؤلاء الذين في الداخل ، وإنما نضعهم في السجون لحماية الأبرياء منهم . وهذه النظرية يوافق عليها جميع العلماء حتى الذين ينددون بالعقوبة وينادون بعدم اللجوء إليها .

وهذه النظرية مطبقة في النظام المتسورى الذى لم يستعمل العقاب مطلقاً كوسيلة لحفظ النظام ، ولكن كخطة يقصد منها الحماية ، فالعقاب هنا وسيلة لهدف أسمى منه ، فإذا وقف طفل من الأطفال عقبة في سبيل غيره أو سبب ضيقاً لباقي الفصل فإنه يحجز جانباً ، أى يوضع حيث لا يستطيع أن يضايق غيره أو تمتد يده إليهم بسوء . وإذا تطلب إخراجه استخدام القوة الجسدية فلتستعمل تلك القوة . وهذا ليس عقاباً ابتدعته مدرسة متسورى ، ولكنه تصرف أدت إليه النتائج الطبيعية .

ثانياً - النظرية الوازنة

وتنظر هذه النظرية للعقاب كرادع لا لمسبب الضرر نفسه بل إنه يردع الآخرين من ارتكاب ذلك الجرم ، وتتجلى في قول أحد القضاة للمجرم : « قد شملك عفونا عما فعلت ، ولكننا سنعدمك لردع بك غيرك » ، ويرى بعض العلماء في هذه النظرية ظلماً ، وإجحافاً للإنسان إذ كيف تعاقب طائفة لفائدة طائفة أخرى . حقيقة أن العقاب رادع ، ورادع مفيد أيضاً ولكنه يتوقف على طبيعة الشخص فما يطبق على شخص بعينه قد لا يجدى نفعاً مع غيره . فهناك بعض الناس لا يجيدون عن الطريق المستقيم خوفاً من رجال « البوليس » وبعضهم خوفاً من التقاليد ، والبعض الآخر خوفاً من الله سبحانه وتعالى . وقد نجد هذه الدوافع النفسية مجتمعة كلها في شخص واحد . وهناك من يسرون في الطريق القويم بحكم العادة التى تأصلت في نفوسهم منذ الصغر ،

ولو رفعت جميع القوانين والعقوبات . لوجدت هؤلاء يسبرون في طريقهم كالمعتاد لا يحدون عنه ، وهذا هو المثل الأعلى الذى ننشده ونحاول جاهدين أن نغرسه في نفوس أبنائنا : ولكننا لا نستطيع أن نحدد القوى التى تمنع سوء السلوك في المدرسة ، وهناك شك في أهمية العقاب الجسمي كرادع كما أن هناك ثقة كبرى في العامل الخلقى ، فالطفل يخاف من ألم العصا أقل من خوفه من فقدان سمعته عند مدرسيه أو فصله أو أهله ، وما العقوبات الوازنة إلا وسائل سلبية ليس لها من الأثر والقوة ، ما للوسائل الإيجابية التى يعول عليها في خلق التقاليد المدرسية .

ثالثاً - النظرية الجزائية

تحتم هذه النظرية أن كل مجرم يجب أن يلقي جزاءه فيكفر عن خطيئته بالعذيب ، وهذه النظرية إذا أمكن تطبيقها من ناحية الأحكام فلا يمكن تطبيقها من ناحية التربية فليس لها مكان داخل جدران المدرسة إذ أن منفذها ينظر للخطأ نفسه لا للدافع فهو يعاقب الطفل لعدم امتثاله لأوامر المدرسة سواء كان ذلك راجعاً للنسيان أم للجهل أم للثورة النفسية ، كذلك من أسباب إخفاقها أن الذنب نفسه ، لا المذنب هو الذى يصبح موضع الاهتمام ، ويبدل المربي في جعل العقاب ملائماً للجريمة بينما الأوجب أن يجعله ملائماً للمجرم نفسه : تلك هى بعض النظريات التى تتعرض للعقاب وهى ذات أهمية عملية سواء أكان ذلك في الحياة العامة أم في المدرسة ، وذلك لأن العقوبة تختلف نوعها ، ووسائلها بالنسبة إلى ذنب بعينه ، وكذلك تختلف بالنسبة للأفراد المراد عقابهم ، فالمخلوقات الآدمية تختلف كثيراً في الخلق ، والمزاج والتركيب النفسى ، والجسمى ، وما يكون علاجاً ناجحاً مع طفل بعينه قد لا يجدى نفعاً مع الآخر . فبينما نجد أن بعض الأطفال أكثر إحساساً للألم الجثمانى نجد أن آخرين أكثر حساسية بالنسبة للألم المعنوى أو الخلقى . فنظرة تأنيب تحدث في طفل أثرها الإصلاحي بينما لا يجدى مع آخر سوى الضرب . والواقع

أن كل طفل على حدة مشكلة في حد ذاته ، ولذلك نخطئ أشد الخطأ إذا عاملنا الأطفال فيما يختص بالعقاب معاملة واحدة فتلك طريقة عديمة الجدوى إلى جانب ضررها البالغ ، وخاصة إذا كان الغرض من العقاب هو إصلاح المذنب .

والخلاصة : أنه يمكن أن نقول إن النظرية الجزائية تجعل العقاب مناسباً للمذنب ، والنظرية الوقائية تجعله مناسباً للمذنب ، والنظرية الوازنة تجعله مناسباً للبريء .

ومهما كانت الظروف فيجب ألا يلجأ المربي إلى العقاب البدني إلا في الحالات التي يتعذر فيها حمل الطفل على اتباع الفضيلة والإقلاع عن الرذيلة بطريق النصح والإرشاد والتي يظهر فيها إصرار الطفل وعناده وقبل أن نبدي رأينا الخاص في موضوع العقوبات المدرسية ومكانتها التربوية نرى لزماً علينا أن نمرّ مرّاً سريعاً بنظرية قانون الجزاء الطبيعي في العقاب ذلك القانون الذي ينادى به هربارت سبنسر .

رابعاً : نظرية الجزاء الطبيعي

ينصح سبنسر بأن خير وسيلة لبلوغ الإنسان غرضه هي أنه يجني ثمار عمله فهو يرى أنه من العبث أن نتعلم الأخلاق بوسائل تلقينية . ويضرب مثلاً يفسر به كيف أن المرء يتعلم بما يجنيه من أعمال فيقول : « إذا سقط الطفل على الأرض فجرحت ساقه ، وإذا اصطدم بالمنضدة فشج رأسه فالنتيجة لكل ذلك أنه يتألم ، وهذه نتيجة طبيعية لوقوعه أو اصطدامه . فلكي يتحاشى الألم يجب أن يتحرى الأناة في مشيته حتى لا يقع على الأرض ، وأن يحاذر الاصطدام بالمنضدة حتى لا يصاب . فواضح أن الطفل لم يتكلف الوقوع ليرى نتيجة ذلك ، ولكنه وقع دون أن يقصد ، فذلك درس من الطبيعة لن ينساه . فهي تؤدبه وتعلمه كيف يخوض غمار الحياة متجنباً الشر متبوعاً الخير . وهذا ما يقصده « سبنسر » ، وعلى ضوء هذا المثال توضح لنا الطبيعة في أبسط صورة النظرية الحقيقية والعملية لروح النظام الخلقى .

ويؤكد « سبنسر » أيضاً أن هذه الآلام نتائج محتومة للأفعال التي تسبقها فالطفل حين يجرى يقع على الأرض ، وتجرح ساقه أو يصطدم بالمنضدة فيتألم لذلك . فالتألم نتيجة الاصطدام أو الوقوع رد فعل لأفعال الطفل نفسها ، والآلام تتناسب وأخطاء الطفل ، فهو إذا جرى وقع ولومشى على مهل لما وقع ، ولو احترس من المنضدة لما اصطدم بها . وهذه كلها نتائج ثابتة مباشرة لا يجوز فيها ولا يمكن الهروب منها . وذلك هو القانون المعروف « بنظرية الجزاء الطبيعي » التي يؤمن بها « سبنسر » .

وقد أخذ « سبنسر » رأيه في هذا الموضوع عن جان «جان روسو» . فلاشك أن « لروسو » الفضل الأول في اهتمام العلماء بالجزاء الطبيعي . فهو أول من نادى به . ولعل « سبنسر » أول من آمن بدعوته إيماناً كاملاً ، حمل على التبشير بهذه الدعوة في غلو وإغراق ، زاعماً أن أردع العقوبات وأدق الأحكام ما كان ملائماً لسن الطبيعة ، فهو كما يلجأ في تأسيس وجوه إصلاحه في نظام التربية إلى الناموس الطبيعي ، كذلك نراه هنا في صدد موضوع العقوبات التأديبية يلجأ إلى تأديب الطبيعة ، وعقابها ، ناعياً على الآباء والمربين طرقهم التأديبية المخالفة للجزاء الطبيعي معترضاً أشد الاعتراض على أولئك الذين يعدلون بأي نوع من العقوبات عن الجزاء الطبيعي القويم . وقد أفاض في إثبات هذه الحقيقة تمثيلاً وبرهاناً ، فذكر أمثلة عدة تدل على أن الطبيعة وحدها كفيلة بتوقيع العقاب الزاجر . وقد تقدمت الإشارة إلى أحد هذه الأمثلة .

ويرى « سبنسر » أن خير سنة تتبع في تأديب الطفل أن يكون جزاؤه من جنس عمله ، أما ضربه ، وتوبيخه ، وزجره فعقوبات لا قيمة لها بخالفها لسن الطبيعة ، ولبعدها عن المساس بنوع الذنب الذي اقترفه الطفل فلها من الضرر أكثر مما لها من النفع . لذلك يرى في الجزاء الطبيعي المثل الأعلى للعقاب الحازم الذي لا يصغى إلى استعطاف ولا تقبل عنده شفاعاة ولا يصيبه التردد أو الهزيمة عند التنفيذ ، ولا يعتوره التلعثم أو يعوقه عائق . كذلك يرى فيه المثل الأعلى لميزان العدالة فلا تكيل الطبيعة بكيلين ، ولا تنظر إلى الذنب بعينين ،

إنما تكييل بكييل واحد للجميع فتحاسب الصغار والكبار على حد سواء . ولم يقف « سبنسر » عند حد بيان ما تقدم ، بل أسهب في ذكر الأمثلة لجرائم الصغار ، والكبار ، وعدد كثيراً من جرائم الأحداث الشائعة ، مقررّاً لكل جريمة عقاباً طبيعياً . زاعماً أن هذه الجزاءات الطبيعية خير بكثير مما يفرضه المربون على أبنائهم من توبيخ وزجر ، وضرب وشتم .

ولعل أهم ما يميز آراء « سبنسر » في ميدان الجزاء الطبيعي ، هو ذلك الاعتراض الذي اعترض به على جماعة المعلمين والمربين الذين يتوعدون الأحداث ولا ينفذون من وعيدهم شيئاً وقال إن ذلك يسبب زيادة الجرائم . فلتكن الملاحظة الصادقة دليل المعلم في كشف هفوات الأطفال قبل الشروع في اقترافها ، وليكن التنفيذ حازماً لا يشوبه هوادة ولا تردد .

وعندما نتمعن النظر في رأى « سبنسر » ، يجب ألا نغفل أنه رأى لا يمكن تطبيقه بحرفيته ، بل لا بد من التجاوز عن بعض النقط ، فقد سلم أخيراً بأن الطفل في مرحلة الطفولة يجب أن يتمتع بنسبة معقولة من الحرية المطلقة لأنه يرى أن ذلك ضرورى جداً له ، لكنه في الوقت نفسه يرى أن طفلاً خبيثاً في الثالثة من عمره مثلاً ، يعبث « بموسى » يجب ألا يسمح له باللعب بها بمقتضى قانون « الجزاء الطبيعي » لأن هذه النتائج يحتمل أن تكون خطيرة جداً ، فمن الجائز أن يحاول مقلداً والده حلق ذقنه فيقطع شرياناً في رقبتة ، ومن الجائز أن يحز رقبة زميل له في سنه ، مقلداً في ذلك بائع الدواجن عندما يذبح دجاجة مثلاً فالنتيجة الطبيعية مثل هذا العبث بالموسى — بمقتضى القانون السابق — لاشك خطيرة جداً . وهنا تأتى أهمية إعطاء الطفل في مرحلة الطفولة قسطاً من الحرية معقولا .

والعيب الظاهر في رأى « سبنسر » بوجه عام أن قانونه سلبى يحلّ أشياء ، ويحرم أشياء أخرى ، يترك الحرية للأطفال ، ويقيد حرية أطفال آخرين . فهذا لا يؤدي إلى أعمال خالدة راقية تعمل لذاتها . بل لا يؤدي مطلقاً إلى أفعال

تتولى بعزم ثابت أو بنية صافية ومن أجل ذلك لا يمكن أن نعتبر قانون الجزاء سجلاً للقيم الخلقية .

وأخيراً نحن نرى ، أولاً وقبل كل شيء ، أن يكون الغرض من العقاب إيجابياً لا سلبياً ؛ فيجب أن يكون هدفنا من العقاب مساعدة المخطئ على عمل ما يجب عمله بدافع من أعماق نفسه ، فلا تقتصر مهمتنا على منعه من عمل كل ما هو محظور أو ممنوع ، ويجب أن نسلك هذا المذهب نفسه في حالات الإجرام . فقد ثبت قطعاً أن العلاج الصحيح لمثل هذه الحالات ليس مجرد الكبت ، ولكنه العمل على إعلاء دوافع المجرم الضالة أو الشاردة . على أن العقاب يجب أن يكون رادعاً في بعض الحالات كعدم الطاعة ، وعدم المواظبة إذ أنهما يعملان دائماً على تحطيم الأوامر المدرسية التي يجب أن نحافظ عليها من أجل المصلحة العامة ، على أننا يجب أن نعرف أن مثل هذا العقاب ليس له تأثير خلقي قط إلا إذا اتفقت عليه الجماعة . أما إذا كان سوء النظام وما يصحبه من أخطاء موجهاً ضد المجتمع فأحسن وسيلة لعلاجها هو فصل المخطئ أو المذنب عن الجماعة التي يعمل فيها . هذا ، ولا ننسى أن منظر الزملاء وما يتجلى عليهم من روح البشر في أثناء قيامهم بالعمل في الوقت الذي يشقى فيه المذنب بالعزلة ، والحمول كل هذا من شأنه أن يحرك التوبة الصادقة في نفس ذلك المذنب ولكن ليس معنى هذا أن نعاقب من كان شاذ السلوك أو من كان عصبياً نتيجة لسأمه أو لأنه لم ينل قسطاً كافياً من النوم أو الهواء الطلق أو التمرين الكافي ، إذ أن معنى هذا حرمانه من الوسيلة الوحيدة التي يجب أن نتخذها أداة لعلاجها . وإذا اقترَب المذنب من الخطيئة وجب أن تكون مظاهر العقاب من ردع أو زجر أو تبكيت تابعة للنواحي العلاجية فيجب أن لا ننظر إلى ماضي الطفل الذي لا يرضينا ولكن علينا أن ننظر إلى المستقبل بعين الرجاء — على أنه من المحتمل جداً أن يشعر الفرد بالخزي والعار إذا سمحت له الظروف وأدرك نفسه في الموقف المشين الذي يراه فيه غيره ، وقد يغير الإنسان رأيه تماماً إذا هيأنا للمخطئ طريقاً آخر في الحياة ، والمدرس العاقل حينئذ ربما لا يقنع

مطلقاً بكبت أسباب الشغب فى نفس الطفل ، فالأسباب كما رأينا لا تخرج عن كونها انحرافاً فى ميل الطفل الطبيعية عن طريقها العادى ، وإذا ما تملك المدرس زمامها من توجيهها فى اتجاه حسن وأدى ذلك إلى سبيل الصحة العقلية .

على أن هناك ملاحظة أخرى هامة وجديرة بالإضافة إلى ما سبق أن أدلينا به من ملاحظات وهى أنه يجب أن نتخلص نحن المدرسين من تلك العقيدة السخيفة التى دوت بها أركان مدارسنا والتى تتضمن أن العقاب سياسة ضرورية لا بد من اتباعها فى الحكم المدرسى . فالواقع أن العقاب والخوف أثران بائدان من آثار الهمجية ، والمدرس الواسع فى خبرته على علم تام بأن المدرسة التى يعكس جوها رعد العقاب لن يتأتى لها أن تفوق فى يوم من الأيام مدرسة أخرى طرحت العقاب ظهرياً — فلا بد أن نتوقع ذنباً يرتكبها الأطفال ولا بد من أن نعالجها ، ونحن نكون أقرب إلى الصواب إذا تمكنا من معالجة هذه الأخطاء على أنها شذوذ وعجز من المخطئ عن تهتة نفسه للبيئة المدرسية ، ولذا يجب أن نبعد عن أذهاننا مطلقاً أنها ميل طبيعى إلى الشر ، ويجب أن نأخذها على أنها شواهد على وجود شىء خاطئ فى المهاج أو طرق التدريس أو الظروف المادية أو الروحية للعمل المدرسى أو للحياة المدرسية .

المراجع

1. Roman : The New Education.
2. Sir John Adams : Modern Developments in Educational Practice.
3. Sir John Adams : The Teacher's Many Parts.
4. Boyd & Mackenzie : Towards a New Education.
5. J.E. Adamson : The Individual and the Environment.
6. G.H. Palmer : The Ideal Teacher.
7. Norman MacMunn : The Child's Path to Freedom.
8. Sophie Bryant : Moral & Religious Education.

الفصل التاسع

التربية الاجتماعية

أولاً - الصلة بين التربية والمجتمع

يهمنا أن نتساءل ما هي قيمة المجتمع في الحياة الإنسانية؟ يعتقد كل فرد أن وجود المجتمع أمر لا غنى عنه . وهو يرى في اعتقاده هذا أمراً مسلماً به لا يعتوره الشك ، ولكن إدراك التجارب ، والفرص الاجتماعية التي تشكل الفرد تشكيلاً تاماً وتخلقه خلقاً جديداً يتطلب بذل بعض التفكير .

تؤثر البيئة الاجتماعية على الفرد فتخلق منه ذلك الشخص الذي نعرفه بمخصاته وصفاته ، فقد كان الرجل البدائي يعيش في مجتمع صغير محدود وكانت العادات القبلية تسيطر عليه وتشكله كما كانت حياته سلسلة من الإذعان والحرمان . غير أن بعض مظاهر سلوكه وبعض عاداته التي كان يعتقد بصحتها وأنها أمر طبيعي لا غبار عليه ، تبدو الآن شيئاً غريباً . بل وضرباً من الوحشية ، فقد كان مثلاً يكره الغرباء ويغدر بهم كما كان يفتك بالضعاف والعجزة ، وكانت عقائده وآراؤه عن طبيعة العلم الذي يعيش فيه آراء سقيمة وسخيفة لا تستحق أن يلتفت إليها لأنها آراء فجحة . بدائية تتكون في جملتها من أساطير صوفية أو خرافات وهمية ، غير أنه اتخذ منها وسيلة لتبرير نظم الحياة القبلية تبريراً منطقياً ، ولو عاش هذا المخلوق الذي يمت إلينا بصلة قوية من الناحية البيولوجية ، والذي هو ثمرة اجتماعية محدودة ، لو عاش بين ظهرانينا ولس حضارتنا واندمج فيها فإننا ندهش كثيراً حين نلاحظ القوة العميقة التي تفصلنا عنه ، وحين ندرك مقدار تأثير البيئة في صبغنا بالصبغة التي نحن عليها الآن ، وفي صقلنا ، وتكويننا ككائنات، تتمتع بهذه الحضارة : بيد أننا نجد هذا بصورة أصغر ، وأقل وضوحاً

في جميع الأشياء المحيطة بنا : فالبيئة الاجتماعية في القرية خلقت تلك الشخصية المعروفة عن الفلاح وطبعته بذلك الطابع المميز له ، كما أنجبت الطبقة الأرستقراطية في إنجلترا جيلاً له صفات ثابتة متميزة لا يمكن أن نخطئها في الشخصية أو في النظرة إلى الحياة ، وصفوة القول : أن كل جماعة مستقرة لها في محيطها الاجتماعي الذي تعيش فيه « خصال مميزة وصفات ثابتة » ، ولذلك لو استطعنا أن نجتمع بين أحد سكان « جزيرة سليمان » ، وأحد الأرستقراطيين الإنجليز . وتاجر من تجار « نيويورك » ، وبلوى من القبائل العربية ، وفلاح من فلاحي جنوب أفريقيا في صعيد واحد فإننا برغم الصفات المشتركة بينهم كالحصائص البيولوجية التي ورثها الإنسان في كيانه ، والقدرة الفطرية — نجد أننا نتعامل مع ضروب من الكائنات الحية البشرية المتباينة أشد التباين ، المختلفة كل الاختلاف إلى حد أنه يتعذر على أحدهم فهم الآخر ، أو أن نكون منهم مجتمعاً حقيقياً يسوده التفاهم المتبادل ، فهذه الاختلافات هي نتيجة لاختلاف الوسط الاجتماعي وتباين التجارب التي مر بها كل .

(١) قيمة المجتمع في الحياة الإنسانية

ونستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول : إنه يستحيل وجود الشخصية الإنسانية « بدون المجتمع » . فلن نستطيع شخص أن يعيش بمعزل عن المجتمع . وإذا هام إنسان على وجهه في بيداء واسعة دون أن يعتمد على مساعدات من مجتمعه ، فإنه لا بد وأن يقضى عليه سريعاً لأنه لن يجا عارياً ، أو جائعاً أو أعزل ، أو شريداً فحسب ، بل إنه سيفتقر أيضاً إلى كل الصفات الذهنية ، وكل أنواع المعرفة والمهارة البشرية ، التي يكتسبها الإنسان من وجوده في المجتمع . وإذا أمكن لإنسان أن ينشأ بأقل مساعدة ممكنة من الآخرين لنموه ، فإنه حين يبلغ العشرين يصير إنساناً في الشكل والخلقة فحسب ، دون أن تكون له صفات الإنسان العقلية . وهكذا تجده عاجزاً عن الكلام ، محتاجاً إلى العقائد ، والآراء التي تنظم وتوجه حياته العقلية ، مفتقراً إلى القدرة

على استخدام أبسط ، وأعم الأدوات ، وأكثرها ضرورة في الحياة ومفتقراً إلى تلك الحصال ، والعادات التي تربطه بآداب اللياقة ، وخلاصة القول : إذا استطعنا حرمان فرد من كل الصفات التي يكتسبها من المجتمع فإنه يصير عبارة عن بضعة أرتال من تلك المادة الحية المعروفة « بالبروتوبلازما » ، ويصير مثلها ضعيفاً ، عاجزاً عن وضع الطعام في فمه ، وتقتصر أحسن أفعاله على سلسلة من الأفعال المنعكسة من بلع وهضم وإخراج .

ونستطيع أن نعبر عن هذه الحالة في عبارة أخرى فنقول : إن التكيف البشري يجب أن يتفق مع البيئة الاجتماعية ومع ما تتطلبه من مطالب واحتمالات اجتماعية . وهذا القول صحيح حتى في الأمور التي نبدو فيها مستجيبين لأمر مادية بحتة ، فأنا حين أجلس على مقعد ، لا أستجيب لأمر مادي يدعو بطبيعته وفي حد ذاته إلى الجلوس ، وإنما أفعال شيئاً يتفق مع نظم المجتمع الذي أعيش فيه ، تلك النظم التي تتطلب من بين ما تتطلبه من المرء الجلوس على المقاعد ، ولكن لو نشأ إنسان في بيئة لا تعرف المقاعد فإنه حين يرى مقعداً لا يملك سوى أن يحدق فيه ببلاهة . وإذا كانت الأساطير السائدة في قبيلته قد علمته بأن الشيطان فحسب هو الذي يجلس على المقعد فإنه سيفزع مضيفه بالابتعاد عنه في خوف ورهبة ، أو قد يندفع ليحطم هذه الأداة اللعينة . فتكيف المرء لا يكون بالنسبة إلى الشيء في حد ذاته ، وإنما للشيء كجزء من نظام المجتمع . وعلى هذا المنوال يمكن القول : بأن الفلاح زمن الحصاد ، وعامل المنجم حين يعثر على الفحم ظاهراً لا يستجيبان للحقائق المادية المباشرة الموجودة أمامهما فحسب بل إن سلوكهما هو ملاءمة لمجموعة معقدة من الأزمات الاجتماعية ، والمطالب الاقتصادية المختلفة .

وبذلك نكون قد انتقلنا خطوة أبعد من الفكرة السابقة ، فليست التربية عملية تكيف فحسب ، وإنما عملية تكيف اجتماعي ، وليست تشكيلاً للحياة فقط ، بل تشكيلاً للحياة الاجتماعية التي نحيها ، ويقررها ويسندھا المجتمع : ولا كان للمجتمع مطالب فإن التربية تهبي الفرد للملاءمة مع هذه المطالب .

وفي تحقيقها لهذه الملاءمة تخلق الإنسان في صورته الحالية .
ولكن كيف يضع المجتمع أهداف التربية ؟ ويرى الأستاذ « مرسل »
Mursell « (١) .

« إن مؤسسات المجتمع هي التي تحدد أهداف التربية » .

The Institutions of Society set the goals of Education

وإذا بدت هذه العبارة في بادئ أمرها غريبة الوقع في نفوسنا ، مثيرة للدهشة في صحتها ، فلأننا نستعملها استعمالاً محدوداً ضيقاً . فأول ما ترسمه هذه العبارة في أذهاننا هو صورة للبناء ، والتشييد من أحجار ، ثم تجعلنا نرى في السجن مؤسسة أو نوعاً لهذا البناء ، وفي المدرسة نوعاً ثانياً ، وفي ملجأ الأطفال والعجزة نوعاً ثالثاً ، وفي المستشفى نوعاً آخر . على أن القليل من التفكير يبين لنا تفاهة سطحية هذه النظرة . لأن السجن في جوهره ليس جدراناً ، وأحجاراً ، وإنما هو « نمط معين » من الحياة ، والعمل ، كما أن المدرسة ليست نموذجاً لفن البناء ، وإنما هي مجتمع لرواد العلم من طلبة ، وأساتذة يلتقون فيها ليحققوا هدفاً واحداً مشتركاً بطريقة معينة ، فقد تمر بمستشفى فخم لا تجد في مظهره ما يوحي إليك بأنه مستشفى على الإطلاق . كما أنك قد تمر ببناء شاهق أنيق في مظهره حقير في حقيقة أمره ، وعلى هذا الأساس تكون المؤسسة institution طريقة مشروعة أو عادة معروفة دائماً للعمل والحياة معاً – ولقد ذكر رجال الاجتماع أن الفرق بين المؤسسة وبين العادة هو فرق في الدرجة فحسب . فالعادة هي أن يلبي المرء نداء مجتمعه كأن يرتدى زياً خاصاً في حفل معين ، أو أن يبعث ببطاقات الدعوة في حفلات الأفراح . غير أن الحياة المدرسية وما تتضمنه من سلوك الطالب ، والمدرس ، والحياة المنظمة في المصنع أو المصلحة ، وكتلة النشاط الإنساني التي تكون في مجموعها ما نسميه بالدولة الديمقراطية كل هذا يسمى عادات أيضاً وإن كانت على نطاق أوسع وفي معنى أكثر تعقداً ورسوخاً ، ولكن يجب على الفرد أن يتعلم كيف يلائم نفسه مع العادات في

معناها الواسع والضيق ، فجل ما يحتاجه الفرد في المثال الأول أو في العادات بمنها الضيق . هو كتاب عن آداب اللياقة وبعض التهذيب ، أما في العادات بمعناها الواسع فحسبه « برنامج تربوى » موضوع بحكمة وصبر ليحقق له هذه الملازمة . وتتكون المؤسسات الاجتماعية العريقة التأسيس وطرقنا العادية في أداء الأعمال من المطالب التي تفرضها البيئة البشرية على الإنسان . وبهذا المعنى تكون المؤسسات الاجتماعية أهدافاً للتربية .

ولما كان لهذه الفكرة مغزى عظيم ، وما دمنّا سنجعلها محوراً وأساساً لتفكيرنا فإننا نود إيضاحها بقدر الإمكان ، ولذلك فلنفرض أن أحد سكان وسط أفريقيا هاجر إلى مصر ، فإن الرغبة ستدفعنا إلى أن نخلق منه مصرياً آخر ، وبعبارة أخرى سنبدل جهلنا لنجعلهُ يتكيف مع المؤسسات الاجتماعية في مصر ، وهو حين يهبط القاهرة سيجد نفسه غريباً كما لو كان كائناً بدائياً تائهاً في معمل مملوء بالآلات الضخمة الدقيقة . فلو لم يجد أحداً يعينه ويرشده فسيفقد أمامها مذهولاً خاشعاً أو يؤذى نفسه ويفسد هذه الآلات بمحاولة استعمالها . ولكنه يستطيع رويداً رويداً أن يندمج في هذه الحياة الاجتماعية المعقدة . وإذا خالفه الحظ وتمكن من التكيف مع أساليب حياتنا الاجتماعية فلن يلبث أن يشعر بصلة روحية تربطه بهذه البقعة الجديدة — ولن ينس عن اتخاذها وطناً ثانياً — والطفل يشبه ذلك من عدة نواح . ولذلك فإن القول السائد في « استراليا » هو أن الطفل أفضل المهاجرين على الإطلاق قول صادق لأنه حين يولد ويترعرع في بقعة تسنح له الفرصة للتكيف تكيفاً كاملاً أكثر من أى مهاجر آخر نرح في بيئة اجتماعية مختلفة كل الاختلاف عن البيئة الاجتماعية التي استقر فيها ، وعلى أى حال فإن العمل المائل والتحدى العظيم اللذين يفرضهما المجتمع الجديد على المهاجرين يستلزمان في جوهرهما التكيف التام مع مؤسسات هذا المجتمع .

ولكن أليس معنى هذا هو أن للتربية أهدافاً لا حصر لها ؟ الحق أن هذا القول على جانب عظيم من الصحة . فالتربية أهداف عديدة لو حاولنا تعدادها

أو حاولنا من جانب آخر وضع قائمة بكل مؤسسات المجتمع فلن ننهي من ذلك . وعلى كل فإذا أخفق إنسان في التكيف مع إحدى هذه المؤسسات فإخفاقه يرجع إلى تربيته المخففة . وتقدير قيمة أو مدى هذا الإخفاق يكون بمقدار قيمة أو أهمية هذه المؤسسة الاجتماعية التي فشل في التكيف معها ، وقد ضرب أحد أساتذة علم الأخلاق الاجتماعي مثلاً لذلك بأحد طلبته ، وقد كانت أعماله في أيام دراسته على جانب عظيم من الدقة والمهارة ، ولكنه صار فيما بعد مغامراً شريداً في عصبة سياسية فهذا الإخفاق يعد إخفاقاً تربوياً محزناً ، وهو في الوقت نفسه إخفاق التكيف مع أهم وأبرز مؤسسة في النظام الاجتماعي الحاضر ، وأعني بها مؤسسة الحكم القائم . ولكن أغلبنا ليس مغامراً أو لصاً ولا يرغب أن يصير كذلك حتى ولو أتاحت له الفرصة . غير أنك قلما تجد فينا من هو متكيف تكيفاً تاماً مع بعض المؤسسات الاجتماعية البارزة الكبرى ومع فئة قليلة من المؤسسات الصغرى . ولذلك فإننا نعد محققين من الناحية التربوية بغض النظر عن الدرجات العلمية التي تحملها .

والقول : بأن بعض المؤسسات أهم من غيرها سيكون مفتاحاً لحل مناقشاتنا التالية حلاً عملياً . لأنه لو أردنا بحث أفضل وأمثل تكيف إنسان مع جميع المؤسسات الاجتماعية social institutions لتطلب ذلك كتابة مجلد ضخم يبلغ في ضخامته الموسوعة البريطانية ، ولتطلب معلومات إذا قورنت بها حقائق هذا الفصل لبدت هذه الأخيرة قطرة في بحر كبير . ولكن ما أود أن أفعله هو اختيار أهم وأبرز هذه المنشآت وإيضاح الصلة بينها وبين التربية كعملية تكيف وبذلك نستطيع فهم الطريقة التي تؤدي دائماً إلى تحليل تربوي صحيح ، واستنباط مدعم على أسس صحيحة - أما المؤسسات التي سنتناولها بالبحث فهي :

١ - الدولة ٢ - العائلة ٣ - النظام الاقتصادي

٤ - دور اللهو ٥ - مؤسسات الصحة الوقائية

وأما الغرض الذي سنبدأ به بحثنا فهو أن الرجل المثقف حسناً هو الذي

يكون متكيفاً تكيفاً حسناً مع جميع هذه المنشآت لأنها في الحقيقة هي الأهداف التربوية التي نحن بسبيل الحديث عنها .

* * *

والقول بأن المنشآت الاجتماعية هي أهداف التربية ميزة كبرى ونتيجة خطيرة في الوقت نفسه . فالميزة هي أنها تضمن على بحثنا طابعاً عملياً يجعله أقرب ما يكون إلى الحياة والصدق . لأن الكلام عن التكيف الاجتماعي في عبارات مبهمه قد يكون ضاراً كما قد يكون نافعا ، ولكنه لا يمكننا بحث أى برنامج تربوي إلا ريثما نتأكد من نوع التكيف الاجتماعي الذي نقصده ، غير أننا حين نتحدث عن الدولة أو العائلة أو النظام الاقتصادي أو دور اللهو أو مؤسسات الصحة الوقائية يكون الكلام واضحاً ، واثلاً دون الغموض أو اللبس . أما مجال الخطأ فهو الظن بأن الفرد يتكيف مع كل مؤسسة على حدة . ولكن الشخص الذي يكره اللهو لن يصبح عضواً سعيداً في عائلته ، والشخص الذي يهمل صحته من المشكوك فيه أن يصير مواطناً فعالاً مؤثراً في النظام الاقتصادي ؛ كما أن الشخص الذي يقنع بعمل محدود ، على وتيرة واحدة ، أو عمل يعرقل سير نموه الجسماني لن يكون مستطيعاً التكيف مع مؤسسات الصحة أو اللهو أو السياسة ، ولذلك يجب أن نذكر أن الحياة ليست مقسمة إلى أقسام محدودة منفصلة وإنما هي « كل كامل » لا يتجزأ - ويجب ألا نظن أن هذا الرأي يتضمن تدريباً على الأعمال المنزلية مرة ، وعلى ممارسة الحقوق المدنية مرة ثانية ، والإلمام بالأسس الصحية مرة ثالثة وهكذا . . . وإنما هو برنامج « كامل شامل عام » له صلات وثيقة ومنافذ عديدة بكل هذه المنشآت وبكل مشاكلها .

ولكنك قد تأخذ على هذه الفكرة ، فكرة أن أهداف التربية هي مؤسسات المجتمع أنها قد أغضت النظر لإغضاء تاماً عن حياة الفرد الداخلية ، فنتساءل : هل من الممكن أن نعد هذا المشروع التربوي مشروعاً كاملاً برغم أنه قد أسقط من حسابه التجارب الفردية الشخصية وأهمل تطورها وأثرها ؟ سؤال عميق ، وليس من اليسير ونحن في هذه المرحلة البدائية الإجابة عنه إجابة وافية مقنعة .

ولكننا نجد في الإشارة التي بينا فيها أهمية المجتمع للفرد بصيصاً لجواب مقنع . فقد رأينا سالفاً أن كل الصفات التي تخلق من الإنسان إنساناً صحيحاً ، لا يمكن أن توجد بدون المجتمع ؛ وعلى هذا يمكننا أن نضيف إلى هذا القول شيئاً بسيطاً فنقول : إنه ليس هناك تجربة فردية إنسانية أو ثقافية شخصية بحته بدون المجتمع ، فأنت وأنا وجميعنا لا نحيا حياة بعضها اجتماعي وبعضها فردى . وليس هناك فاصل بين تجاربنا الاجتماعية وتجاربنا الفردية ؛ لأن كل تجاربنا من الضرب الاجتماعي ؛ وهي في الوقت نفسه تجارب فردية . وكلما تقدمنا في البحث سيتبين لنا مع زيادة في الوضوح أن اضطراب الحرية الفردية وقوتها وابتكارها تصل إلى أقصاها بواسطة التربية التي تظهر قيمة علاقة الفرد الاجتماعية . والتي تؤدي إلى إدراك الصلة القوية بينه وبين بقية أفراد المجتمع .

والمبادئ التربوية التي تعتمد إلى تقسيم الحياة الإنسانية : إلى ناحية فردية وناحية اجتماعية مبادئ خاطئة ، وكذلك الآراء التربوية التي تعمل على خلق قيمة للفرد في حد ذاته ، ولل فرد بمنأى عن المجتمع . ولقد كانت هذه هي الأهداف التي تهدف إليها التربية . وهذا يقودنا إلى سؤالنا التالي الذي سيلقى ضوءاً ساطعاً على مشكلة الفرد والنواحي الاجتماعية في الحياة وفي التربية وهو :

(ب) ما هي وسائل الإبانة عن أهداف التربية ؟

إن جل الذين كتبوا عن أسس التربية قد أشاروا - وإن لم يذكرها صراحة - إلى أهداف التربية . ولذلك نجد في الأدب عبارات كثيرة عن أهداف التربية كلها متعارضة أشد التعارض . ولكن يجدر بنا الإلمام ببعض هذه التعاريف لأتاحتنا نقارنها بما ذكرناه نستطيع أن نفهم هذه الأهداف فهماً تاماً . فن بين العبارات التي ذكرت عن أهداف التربية ، والتي كان لها أعظم الأثر على عقول المربين ورجال التعليم في الأعوام الماضية تلك العبارة المعروفة باسم « المبادئ السبعة الأساسية في التعليم الثانوي » تلك المبادئ التي تنطبق أحسن ما تنطبق على المدارس الأولية والثانوية الأمريكية وقد وضعت

هذه المبادئ وأقرتها لجنة حكومية اطلق عليها اسم « لجنة تنظيم الدراسة الثانوية ». وقد رأت هذه اللجنة أنه يجب أن تهدف المدارس الثانوية إلى النتائج السبع الآتية :

- ١ - أن تعمل على تقوية جسم التلميذ وتساعدته على النمو .
- ٢ - أن تعمل على إغناء القدرات الأساسية فيه كالقراءة والكتابة والحساب والكلام .
- ٣ - أن تعمل على تدريبه وجعله عضواً نافعاً في أسرته .
- ٤ - أن تساعد من الناحية المهنية فتجعله قادراً على كسب عيشه .
- ٥ - أن تنمي فيه الشعور بالمسئولية المدنية .
- ٦ - أن تساعد على استغلال وقت فراغه استغلالاً حسناً .
- ٧ - أن تنمي أخلاق التلميذ تنمية عامة .

والباحث المدقق في هذه البنود السبعة يجد أنها صياغة جديدة لخلاصة التعبيرات التي ذكرها الفيلسوف « هربارت سبنسر » عن أهداف التربية ، ولكن هذا لا ينقص من قدرها ، بل إنه على النقيض يزيد من شأنها لأنها تمثل أفضل الأفكار في حقبة من الزمن فضلاً عن أنها إلهام بزغ للعالم أول ما بزغ سنة ١٩١٨ . ولقد أجمع رجال التربية على الإشادة بحساسنها وذكروا أنها تعطي صورة جميلة لما يجب أن يكون عليه الرجل المثقف ، كما أنها تبين للمدارس ما يجب أن تحققه . وعلى العموم لا يملك المرء إلا أن يوافق على جملتها . ولكن موافقتنا عليها ليست مطلقة من كل قيد أو تحديد .

فهما يؤخذ على هذه العبارة أنها فردية إلى حد كبير لأنها تقسم وظيفة الحياة الإنسانية إلى وظيفة فردية خاصة وأخرى اجتماعية ، وهذا أمر لم تهدف إليه اللجنة قط فقد تناولت العبارة المشكلة الصحيحة مثلاً على أنها مشكلة فردية ، بينما تتوقف الصحة العقلية والجسمية للمرء على حسن استغلال وسائل الراحة في المؤسسات ، وعلى نوع العمل الذي نسير عليه في المجتمع لترقية وتأسيس هذه الصحة العقلية والجسدية . كذلك تستلزم الصلاحية المهنية

صفة عظيمة مختلفة عن المهارة والبصيرة التي زود بهما الفرد . فهي تتطلب تكييفاً كاملاً مع المؤسسات الاقتصادية ، و « استغلال الفراغ » استغلالاً حكيماً أمر مستحسن كذلك وإن كان متعسراً . « فوقت الفراغ » هو كما نعلم الوقت الذي لا يكون فيه الفرد مشغولاً بكسب عيشه ولكن « استغلاله استغلالاً حكيماً » لا يعنى أداء أعمال شخصية بحتة ، وإنما يعنى تكييفاً مرضياً نشطاً مع المنشآت المنزلية والمدنية وضروب اللهو . وبهذا المعنى يجب أن نحسن استغلالها من الناحية التربوية . كما أن العناية بأخلاق الشخص أمر على جانب عظيم من الأهمية . والبرنامج التربوي الذي يفشل في إبراز أهمية هذه الناحية الأخلاقية لا يمكن اعتباره برنامجاً صالحاً ، ولكن هذا لا يعنى أن الأخلاق جزء منفصل عن الحياة أو أن أمر العناية بها أمر فردي لأنها هي النتيجة الطبيعية للتكيف التام مع جميع المؤسسات الاجتماعية بيد أن اتجاهنا إلى البحث عن أفضل الصفات المدنية ، وأحسن نموذج لعضو الأسرة إنما يقودنا إلى البحث عن المثالية الاجتماعية . هذا إلى أن اللجنة لم تذكر هذه الصفات على أنها صفات اجتماعية أو تكييف لمؤسسات معينة . وصفوة القول أن « المبادئ السبعة في التعليم الثانوي » السابق ذكرها تضع الأسس الأولية ، وترسم الرسم التخطيطي للمثالية التربوية الصحيحة ، ومع ذلك فنحن نرى أنها فشلت كمبادئ تبين الأهداف التربوية وضرورة تكييفها مع المنشآت الاجتماعية لأنها لم تصل بنا إلى نتائج محسوسة ولملموسة .

ولنتقدم الآن لبحث عبارة أخرى ذات مغزى وفائدة ، وإن كانت تقل عن الأولى روعة وأهمية — أعنى بها تلك العبارة التي ذكرها « إسكندر إنجليس » عندما كان يتحدث عن أهداف التربية وحيثما قال : « إن التربية يجب أن تعمل على تهيئة الفرد لممارسة حقوقه المدنية في المجتمع ولنواحي النشاط الاقتصادي والمهني ، ونواحي الهواية الثقافية » .

على أن هناك اعتراضات خطيرة يمكن أن توجه إلى هذا المبدأ الذي نادى به « إسكندر إنجليس » نذكرها فيما يلي :

أولاً - هو يعتبر نواحي النشاط المدني وحدها نواحي نشاط اجتماعي . كما أنه يجعل من الثقافة والمهنة أموراً فردية متروكة للفرد وحكمته ، وهو في نفس الوقت لا يضعهما على قدم المساواة في الأهمية . وهذا عيب خطير .

ثانياً - كما يؤخذ على هذه العبارة أنها تقرن التفكير في الثقافة بالهواية والمتعة . وهذا خلق بأن يضعها في مصاف الأشياء التي يقتنيها الفرد أو يترين بها ، وهذا القول هو أصل التطورات التربوية الخطيرة في عصرنا الحاضر ، تلك التطورات التي تميل إلى اعتبار الثقافة وسيلة للترفيه والترف أكثر منها وسيلة للحياة .

ثالثاً - زد على ذلك أنه من السخف أن نقسم الحياة الإنسانية إلى حياة تعنى بالحقوق المدنية ، وأخرى تعنى بالمهنة ، وثالثة بالهوايات كما اقترح « إسكندر إنجليرس » وإذا سرنا على منواله وجرينا على نهجه فسنذهب إلى تقسيم الحياة إلى استيقاظ ونوم ، وسنزعج أن وظيفة التربية هي إعدادنا لذلك . وقد يبدو هذا القول صواباً ، ولكن الباحث المدقق يرى مدى سخافته وتفكك روابطه ، لأنه يتجاهل طائفة كبيرة من الأمور الحيوية . فإذا نقول عن صلة الفرد بعائلته أو بالدولة أو بالنظام الاقتصادي أو بالصحافة الشعبية أو بالمؤسسات التي تعمل على توفير وسائل الراحة واللهو؟ أليس للتربية صلة بها جميعاً ؟ أليس من الضروري أن نعتنى بها ؟ إن الجواب باد للعيان ولا يحتاج إلى بيان . وهنا نذكر مرة أخرى أن التقاسيم الفرعية المهمة في الحياة الإنسانية هي تلك التي لها صلة بالتكليف مع المؤسسات الاجتماعية ، والتي تبين العلاقة بين هذه المؤسسات جميعاً .

ولكن دعنا الآن ننقب عن بعض العبارات التي ذكرها القدامى من رجال التربية عند بحثهم عن أهداف التربية . فسنجد أن تلك المبادئ التي نادوا بها أبسط وأعم من ذلك المبدأ الذي سبق أن ذكرناه . بيد أن رجوعنا إلى هذه العبارات لا يمكن أن نعتبره مضيعة للوقت ما دمنا نجد الكثيرين من كبار رجال التربية يرددونها حتى اليوم . كما أنها مازالت تسيطر على التفكير التربوي والتجارب التربوية .

ولنبداً بذلك المذهب الشهير أو الهدف المعروف الذى ينادى بأن « التربية يجب أن تعمل على تنمية قوى الفرد وقدراته العقلية تنمية متناسقة ». وقد يهتز القارئ بما تتضمنه هذه العبارة من معان ، وأهداف ، والحق أنها أخرجت إلى العالم بعض نظم التعليم التى تفيض حماسة ، ونشاطاً ، ولكننا حين نفحصها فحصاً دقيقاً ، نجد أنها ناقصة نقصاً محزناً لأنه ما دمنا نحصر تفكيرنا فى الفرد ، وهذا ما تدعونا إليه هذه العبارة فلن تكون لدينا فكرة واضحة عما يقصد باصطلاح « قدرات متوازنة » ، ولن نستطيع أن نميزها ، ونفصلها عن تلك التى ليست بمتوازنة . ولعل المقصود منها ألا يكون الإنسان نامياً فى ناحية واحدة فقط ، كأن يكون مشغولاً متطرفاً بالعلم أو الأدب أو الفن أو الأمور المهنية . ولكن ما مقدار الشغف الواجب أن يكون لنا فى كل ناحية ؟ وما هو معيار الحكم على أن مالىدى إنسان لايزيد عن القدر المطلوب ؟ هذه أسئلة ليس من اليسير الإجابة عنها . ولذلك كان من المحتمل أن تبدو الشخصية المتوازنة (فى داخلها وخارجها) أيام الإغريق نشازاً فى حياتنا الحاضرة ، ينتابها صراع داخلى من جراء ذلك . بل إن الفلاح البلغارى المتصف بالتوازن فى القدرات ليصبح فريسة سلسلة للمصائب ، والمضايقات إذا قطن الجانب الشرقى من نيويورك . ولذلك فإن التفسير الوحيد الذى نستخلصه ، ويمكننا أن نطبقه فى أغلب الحالات هو أن نقول إن الشخصية المرنة ، هى تلك الشخصية المتكيفة تكيفاً تاماً مع فئة كبيرة من الحالات الاجتماعية وبمطالبتها ومؤسستها وهذا يرجعنا إلى ماسبق أن أدلينا به فى بادئ الأمر من أن أهداف التربية هى تحقيق عملية ملائمة الفرد مع المؤسسات الاجتماعية .

والرأى الثانى الذى نود مناقشته هو ذلك الرأى الذى ينادى بأن التربية « توزيع للمعرفة الحققة على أفراد المجتمع » . ولكن ماذا نقول عن أنواع المهارات وماذا نقول عند النقد وتذوق الأشياء ؟ وماذا نقول عن إدراك الواجبات ، والحقوق المدنية ؟ ألا يقودنا هذا إلى الظن بأن للتربية صلة بالمرء الذى يعلم وبالمعلومات التى تلقن ، وهنا يجب أن نذكر فى إيمان وبقين أنه ليس لجميع

أنواع المعرفة قيمة واحدة متساوية ، ذلك الأمر الذى يترتب عليه أن يصير اختيار أحسن ما يجب أن يعرف مسئولية تربوية خطيرة . وآخر ما يوجه من النقد وأهمه هو أن المعرفة من أجل المعرفة ليس لها قيمة : لأنه يجب تحويل هذه المعرفة إلى قوة فعالة وإلا تكون غير جديرة بأن يلم بها الفرد . وهكذا تنتهى إلى رفض هذا الهدف التربوى « هدف المعرفة » لأنه مضمحل إلى أبعد الحدود .

وهناك رأى آخر ذكر فى صيغ كثيرة مختلفة ، وإن كان يدور حول هدف واحد ، ونعنى به هدف كسب العيش ، والفكرة الواضحة البسيطة التى ينادى بها أنصار هذا المذهب هى أن أهم وظيفة للتربية إنما هى تمكين الفرد من كسب عيشه ، وهذا بطبيعة الحال يجعل الهدف من التربية واضحاً محدوداً ، لأن كسب العيش جزء من الحياة ، وليس كل الحياة . فلا نستطيع أن نعد شخصاً متكيفاً صحيحاً من الناحية البيولوجية (الحيوية) أو من الناحية الاجتماعية إذا كان على وشك أن يموت جوعاً لأنه يعوزه العثر على الطعام والملبس والمأوى . كما لا نستطيع أيضاً أن نعهده متكيفاً تكيفاً تاماً إذا كان كاملاً فى شتى نواحي الحياة الأخرى . ولا يستطيع أن يفعل شيئاً غير الحصول على كسب عيشه .

وأخيراً هناك الهدف التربوى الذى يحمل أهداف التربية فى كلمة « التهذيب » فالفكرة الأساسية لدى أنصار هذا الرأى هى أن وظيفة التربية إنما هى تدريب العقل وإنماء القوى الإنسانية عامة من ملكات وقدرات . ويكمن وراء ذلك نظرية مشهورة هى نظرية التدريب الشكلى ، وقد سبق الحديث عنها عند الكلام على المنهج . وكل ما يمكن أن نذكره هنا هو أن أنصار هذا المذهب قد ذكروا الكثير من المعلومات التى أخفق كثير من رجال الفكر الحديث فى إثبات صحتها . فالواقع أن العقل المنظم المرتب ترببياً جيداً يعتمد ويعنى بالتكيف الاجتماعى الكامل ، غير أن هذا الهدف التهذيبى فى صيغته الأولى التى نادى بها أنصاره لا يتضمن هذه الفكرة مطلقاً .

والآن وبعد هذا العرض يجدر بنا أن نتساءل : ما هو نوع التكيف

الاجتماعى المقصود ؟ عندما نقول : إن هدف التربية هو تكيف الإنسان مع المؤسسات الاجتماعية نخشى أن يفهم هذا الهدف فهما خاطئاً كما وقع في ذلك بعض قادة التربية فأدى هذا إلى إنتاج جيل يتصف بالطاعة والامتثال . تلك الصفات التى ترى فيها التربية الديمقراطية حدّاً قاسياً مؤلماً لثقافة الطبقات الفقيرة ، وقصرها على ما يناسب مراكزهم الاجتماعية الخفية ، وعلى القدر الذى لا يبعث في نفوسهم أى أمل في إيجاد وسائل شريفة للتمتع بحياة أفضل وعيشة أرغد ، ويتجلى هذا الاتجاه في قول أحد المفتشين لناظر إحدى المدارس المهنية وقد أدخل في منهاج الدراسة بمدرسته مادتي التاريخ ، واللغة الإنجليزية : إن هذه المواد إن لم تكن عديمة الجدوى فهي ضارة ، وإن وظيفة المدرسة الأساسية إنما هي تدريب التلاميذ على العمل مدة تسع ساعات أمام آلة من الآلات ليكتسبوا « دولاراً ونصفاً » . وبالإضافة إلى هذا ما زالت بعض المدارس الحديثة والكليات في أمريكا تؤثر تأثيراً قوياً في نفوس طلابها - سواء أكان ذلك عن عمد أم لم يكن - باعتناق تلك الفكرة الجامدة .

وإذا أمكننا استعادة التحليل السابق عن خصائص التكيف الإنسانى فإننا - ولا ريب - نستطيع التكهّن بما سيكون عليه نقدنا : فالتكيف مع المؤسسات الاجتماعية بمعنى الامتثال عبارة عن تكيف جامد بعيد عن التكيف البشرى الذى مكن الإنسانية من التقدم ، وأتاح للإنسان أن يصير سيد المخلوقات وهذا ليس تكيفاً جامداً بل هو يتصف بالمرونة والابتكار والتقدم ، وهذا هو ما يجب أن نسعى إليه جاهدین لیم تكيف الفرد تكيفاً صحيحاً مع المؤسسات الاجتماعية .

ولكن كيف نعبر عن هذا في عبارة واضحة محسوسة ؟

نستطيع الإجابة على ذلك لو استعرضنا بضعة أمثلة لرجع إلى ذلك التلميذ الذى سيظل تسع ساعات أمام الآلة ، ولنتنظر إليه بعين صادقة فسنرى أنه لو درب على هذا العمل فحسب فإن تكيفه مع المصنع كمؤسسة اجتماعية يكون تكيفاً ضيقاً جامداً بصرف النظر عن مهاراته ، لأنه لا يستطيع إلا أداء هذا

الضرب من العمل الروتيني ، ولكن هب أنه يؤدي عمله بعد أن ألم إلاماً تاماً بالعلم الصناعي فإن شفعه الذي سيثيره هذا العلم في نفسه ، وفزعته الانتقادية قد يفضيان به إلى الاهتداء إلى وسائل أخرى أسرع وأسهل وأفضل في أداء عمله . وليس هذا بمستغرب فطالما حدث كثيراً ولو كان لهذا التلميذ إلام مستمر بالعلوم الاجتماعية أو بعبارة أخرى لو كان ذا بصيرة نافذة لإدراك طبيعة حياة الجماعة وكيفية الحياة فيها ، فقد يصبح عاملاً نشطاً فعالاً في رقي المصنع ، ولذلك فإنك ستجد في عمله مرونة وابتكاراً بدلاً من الجحود والطاعة العمياء ، فتى رغب الطفل عن الامتثال وتلك الطاعة العمياء فإنه يصبح عاملاً فعالاً .

ولنضرب مثلاً آخر من عالم التدريس : ففي القرن التاسع عشر ظهر نظام مدرسي عرف باسم نظام العرفاء وكان هذا النظام يمكن المدرس الواحد من تعليم عدد كبير من التلاميذ يصل أحياناً إلى المئات ، وذلك بأقل النفقات ، وسبيل ذلك هو أن يشرح المدرس الدرس لجماعة من الطلبة الكبار الناهين في دراستهم ثم يعهد إلى كل منهم بالتدريس إلى فئة من التلاميذ الصغار ، غير أن هذا النظام الذي كان يتبعه هؤلاء كان أميل ما يكون إلى العسكرية الصارمة ، ولذلك كان يجري كل شيء بنظام وترتيب . ولكن تكيف كل واحد من هؤلاء العرفاء مع الفئة التي يشرف عليها ومع المدرسة بوجه عام كان تكيفاً جامداً ، وكان نجاح هذه المؤسسة ونشاطها يتوقفان على هذا التكيف الجامد وذلك النظام الصارم . ولذلك كان محروماً على العرفاء وضع أسئلة بسيطة سهلة أو القيام بإجراء تجارب عملية أو اقتراح محسنات مجدية . وما زلنا نلمح ظلال هذه الفلسفة منعكسة على التربية الحاضرة كما نجدها في إلحاح المسئولين والمهيمنين على المدرسين باتباع طريقة ثابتة معينة في التدريس لا يجيدون عنها . وليس لهؤلاء المدرسين أن يناقشوا السبب وعليهم دائماً أن يطيعوا طاعة عمياء .

والآن فلنقارن هذا بالتكيف المطلوب في مدرسة حديثة من الطراز الأول حيث يبتدى المدرسون بفلسفة التربية وبحقائق علم النفس ، ودراسة الموضوع المراد تلقينه دراسة شافية ، ويسترشدون بكل ذلك إلى أفضل طرق التدريس

واختيار المناهج الملائمة للطلاب ، كما أن إدراك المبادئ التربوية وفهم النظم المدرسية يمكن هؤلاء المدرسين من وضع اقتراحات مجدية في تسيير دفة المؤسسة المدرسية ، ويمكنهم من خدمة الأوامر الإدارية في المدرسة خدمة حكيمة بعيدة عن ذلك الامتثال الأعمى البغيض . وهكذا نرى أن أمثال هؤلاء المدرسين يتكيفون مع ما تتطلبه مهنتهم تكييفاً نامياً مستمراً . ولهذا فإن عقيدتنا عن المدرس المثالي تتضمن فكرة عن التكيف المرن المبتدع التقدمي لا التكيف الجامد المحدود .

ويمكننا أن نمضي في سرد أمثلة عديدة ، ولكن لا داعي إلى ذلك مادام في متناول القارئ أن يعثر على الكثير من الأمثلة بمفرده . وليس المواطن الصالح الذي يمثل الأوامر القانونية امتثالاً سلبياً بل هو ذلك الذي يشترك في الحياة المدنية سواء أكانت محلية أم قومية مبدئياً اقتراحاته سواء أكانت تلك الاقتراحات مما يؤيده أو يعارضه . واللام الصالحة هي التي تهتدى إلى مطالب أبنائها ، وتعمل على تحقيقها لا تلك التي تجرى وراء العادة ، والتقاليد .

وقيمة التربية تكمن في خلق أفراد يعالجون المؤسسات الاجتماعية بالابتداع والابتكار ، رائدهم في ذلك الذكاء والعزم على التعليم المثمر المستمر ، وهذه صفات يجب أن تغرسها المدرسة في نفوذ التلاميذ ، كما يجب أن تكون كل أعمالها موجهة إلى تحقيق هذه الأهداف ، لأن التربية يجب أن تمد الفرد لا بطريقة العمل الروتيني بل بطريقة العمل الابتكاري .

(ج) لماذا نحتاج إلى تكيف اجتماعي يتصف بالمرونة والابتكار والتقدم ؟

لعل القارئ الآن يميل إلى الأخذ بالرأى القائل بأن تكيف الفرد مع المجتمع الذي يتصف بالمرونة والابتكار هو في حقيقة الأمر أفضل من ذلك التكيف الجامد الذي لا يخضع للتغيير . ولكن هب أن أحد الهنود الأذكىاء لا يؤمن بهذا القول ، ذكر لك أن رقي الإنسانية يتوقف على وجود نظام الطبقات الصارم الذي يفرض على كل فرد أن يعيش حياة محدودة تلائم بيئته ، كما يقرر

منهاج حياته ، ومستقبله منذ ولادته . أوهب أنك تناقش بعض الأمريكيين الذين يعتقدون بأفضلية نظام الطبقات ، وينادون بضرورة تربية السواد الأعظم من الناس تربية تخلق منهم طبقة تشبه طبقة العبيد تخضع لطبقة الأشراف . هب أن هذه الحجج والآراء أدليت إليك فكيف تدافع عن معتقداتك ؟ والإجابة تتضمن إشارة إلى نقطتين مهمتين جديرتين بالذكر :

أولاً : إن التكيف المرن الذى ينحو نحو الابتكار والتقدم أفضل بكثير من أى تكيف جامد ؛ لأنه يكفل للجماعة تحقيق هدفها الرئيسى فى يسر وسهولة ، وأغنى به تحقيق خدمة أفرادها ، وتقويتهم . وكما أن الزمرة من الذئاب تستطيع مجتمعة أن تدفع عن نفسها غائلة طغيان الكلاب ، ولا يمكنها ذلك إذا انفرط عقدها . فكذلك المجتمع البشرى باجتماعه مكن الفرد الضعيف من أن يصير الغالب المسيطر فى الحياة . والملاحظ أنه كلما ازدادت ، وكبرت الجماعات كانت الميزة البيولوجية التى تَجْنِيها أعظم ، وأكبر ، وتحقق الوظيفة السامية للمجتمع عامة ، والجماعات المختلفة خاصة حين يكفل للإنسان نمط معين من الحياة .

ولكن هب أننا نبحث حالة تلك الجماعة البشرية التى تعمل فى مصنع من المصانع من عامل إلى رئيس فإننا نرى أنه لو ترك كل فرد يباشر عمله بلا تأثير فى الأشياء المرتبطة به لحصلنا على نوع معين من المهارة ، ولكن لو شجعنا كل عامل على التفكير ، والنقد ، والابتكار فسنجنى بلا شك من وراء ذلك فائدة جليلة ؛ لأن هذا وإن كان يجعل إدارة المؤسسة أمراً صعباً ؛ إلا أنه يجعل نتائجها أجدى وأنفع ، لأن العمل كله بوجه عام يستفيد فائدة عظمى من مساهمة الجميع فى رقيه ، ودأبهم على تقدمه ، وبذلك لا تعتبر الفرد (يداً عاملة أو آلة صماء) وإنما نعهده إنساناً حقيقياً ، ومصدراً للقدرات التى تعمل على رقى المجتمع .

هذه هى أعظم محاسن التكيف المتكيف بالمرونة ، والابتكار والذى يمكن الجماعة من استغلال قوى أفرادها استغلالاً كاملاً نافعاً ، ولكن نظام التربية وطرق التدريس - ثا

الطبقات الجاهل الذي يحصر الفرد في محيط لا يتعداه إنما هو نظام بسيط تسهل فيه الحياة ، ولعل هذا هو السبب في تفضيل الكثيرين له ، إلا أنه كنظام لا يتفق ومبادئ الديمقراطية التي تنفس لكل فرد صدرها في أن يرتقى بقدراته ، ومواهبه حتى يصل إلى أرقى المناصب في الدولة ، فعصا « المارشالية » في يد كل جندي كما أن « البيت الأبيض » يمكن أن يصل إليه المواطن الأمريكي النابه ، ولعل أحسن مثال عرفه العالم عن المجتمع الذي يستفيد من المساهمة الفعالة لكل فرد تظلمه سماؤه . هو مجتمع العلماء الباحثين ؛ فكل عالم يبحث ويعمل حرّاً مبتكراً مستعيناً بالاكتشافات الماضية ، والحاضرة ، لجماعته ، كما أن النتائج التي يصل إليها سرعان ما تصبح في متناول يد البحاث من زملائه .

ثانياً — والاعتراض الثاني الذي يذكر ضد الجحود الاجتماعي هو :

أن الفرد تسنح له أطيب الفرص للحياة الكاملة في المجتمع الذي يتيح له أقصى حرية لاكتشاف أساليب جديدة في العمل والحياة والتفكير ، والشعور ، ولذلك فإن هذا يدفع الفرد إلى العمل على تغيير ، وتحسين المؤسسات الاجتماعية الموجودة ، وإذن فالجحود الاجتماعي معناه الحد من حرية الفرد ، وحين نذكر أن الفلاح أو الصانع يحتاج إلى تربية أولية فقط ، وأن أي تربية عميقة بالنسبة له لا غناء فيها ، ولا طائل تحتها فإننا بذلك نفترض فرضاً خطيراً يؤدي بهذا الفرد إلى أن يظل دائماً في حرفته كفلاح أو كعامل ، وعلى هذا يصبح كونه فرداً ينتمي إلى طبقة معينة أهم بكثير من كونه بشراً ينتمي إلى الإنسانية ، ولكن يجب عليه أن يندمج خارج محيط عمله بشغف في الحياة العائلية أو الأمور الصحية أو الشؤون الدينية والمدنية التي هي على صلات وثيقة بالحياة الإنسانية كما يجب أن يكون لعنصر الذكاء ، والبصيرة علاقة قوية بالعمل الذي يقوم به الإنسان حتى لا يصير مجرد « روتين » يومي يحد من الأفق العقلي لديه ، وهذا هو المذهب الذي أوجد إحدى الحركات التربوية العظيمة وأعنى بها النظام المتبع « بالدانمارك » المعروف باسم « المدرسة العالية للقرويين The Rural Folk High School System of Denmark وهي مؤسسة تمتد الفلاحين ، والمشتغلين

بأفلاحة ، والزراعة بثقافة واسعة تبدو لدى أنصار مبدأ نظام الطبقات في غاية السقم ، وإن المتبعين لهذه الحركة في « الدانمارك » وخارجها يجمعون على أن سر الانتعاش الزراعي لهذا الإقليم يكمن في هذه الحركة ، ويرجع إليها . ولقد ذكر فلاح كهمل بهذه المناسبة أن المدرسة العالية للقرويين تساعد الفلاح على أن يشعر بأنه إنسان حقيقي .

وجوهر هذين المبدأين يتلخص في أنه يجعلنا نعتقد أن المجتمع ذا التأثير الفعال هو الذي يكون فيه انسجام متبادل بين الفرد ، والجماعة ، والذي يساهم فيه كل فرد بأقصى قواه من أجل الصالح العام الذي هو بدوره السند الأول للفرد ، ومنبع قواه . ويجدر بنا أن نقول : « إن فكرة وجود علاقة قوية حرة مبتكرة بين الفرد ، والمجتمع الذي يعيش فيه هي ما نسميه بالعقيدة الديمقراطية ، وقد عبر الزعيم الكبير « بركليز » عن هذه الفكرة تعبيراً بسيطاً منذ ألقى عام مضت فقال : « نستطيع نحن سكان أثينا أن نقدر ، ونتدق إن عجزنا عن أن نبتكر ونبتدع ، ونحن لا نرى في الأمور النظرية عقبة كأداء في سبيل العمل بل على النقيض من ذلك نراها أمراً ضرورياً تمهيدياً يسبق كل عمل صائب .. وأستطيع أن أذكر بإيجاز أننا في مجموعة كمدية عبارة عن أثر من آثار المدرسة الإغريقية ، ولكنني أشك كثيراً في أن العالم قد أنجب رجلاً كالأثيني يشعر وهو بمفرده أنه كفء لمعالجة ما يجابهه من المصاعب بما وهب من مزايا وشيم .. »

(د) كيف يمدنا المجتمع بوسائل التكيف مع المؤسسات الاجتماعية ؟

من العيب أن نحاول الإبانة عن أهمية التكيف مع مؤسسات المجتمع بالإشارة البسيطة إلى ضرورة وجودها ، ولما كان الإنسان الفج undeveloped لا يستطيع الاحتفاظ بعلاقة طيبة ابتكارية نزاعة إلى الحرية مع مجتمعه ، فلذلك وجبت تربيته ووجب أن تكفل له بعض الوسائل العقلية التي تحقق ذلك . والمجتمع هو الذي يمد الفرد بالوسائل يستخدمها في التكيف التام مع مؤسسات الجماعة . وقد استطاع المجتمع تحقيق ذلك بتوفير الوسائل الذهنية.

التي تعمل التربية على جعلها في متناول الأفراد ، وقد ذكر الأستاذ « روس فيني » Ross Finney قائمة لهذه الوسائل ، نلخصها فيما يأتي ^(١) :

أولاً : وسائل التخاطب (الاتصال بالغير) وتشمل التعابير الوجهية ، والإشارات واللغة ، والكتابة والفنون الجميلة التي هي وسيلة للتعبير عن المشاهد والعواطف ، وكل الحيل الآلية ، والطرق الاجتماعية للتخاطب على مسافات ، إلى جانب تلك المؤسسات التي تحمل تراث ثقافتنا إلى الأجيال القادمة .

ثانياً : وسائل الصناعة ، ونعني بها : القدرة على أداء كل ضروب الإنتاج الاقتصادي ، ولا تقتصر على الحرف اليدوية والذهنية ، بل تشمل أيضاً - تطبيق الفنون والعلوم ، كما تشمل ضروب الصناعة المختلفة ، وبالإيجاز تشمل المهنة في أعم معانيها .

ثالثاً : وسائل التسلية الصحيحة . كالألعاب الرياضية سواء أكانت في الملاعب أو داخل جدران البيت ، أو في الحفلات الاجتماعية وكل ضروب اللهو التي يمكن أن يسمع عنها .

رابعاً : العلوم .

خامساً : الفنون الجميلة .

سادساً : العقائد السائدة التي يعتنقها السواد الأعظم من الناس ، وتسيطر على حياتهم وإن لم تكن قائمة على أسس منطقية معقولة : وهذه العقائد لها تأثير عظيم في رقي الإنسانية . ويمكن الاستدلال على ذلك بالفكرة القديمة التي تنادي بأن الأرض مركز الكون فقد كان لهذه الفكرة أثر خطير في قلب نظام الحياة في العصور الوسطى ، ومؤسساتها الاجتماعية ، إذ كانت أشبه ما تكون ببخار خفي قوي يبدد سحب العقائد المظلمة ، ولقد كانت المعارضة ضد « كوبرنيكس ، وجاليليو » ناتجة عن استنتاج خاطئ* بأن هذه النظرية الفلكية تهدد نظام المجتمع .

سابعاً : المثل العليا والحاجات السائدة : فمثلاً نجد في أمريكا الآن انجهاً

فى التفكير يرسم لنا صورة اجتماعية مختلفة عن المجتمع الأوروبى محورها
المرغبات الهامة التى غرسها الأمريكان فى أبناء الجيل الحاضر ، وربة
كل مدنى أمريكى فى اقتناء سيارة . فهنا نجد عاملاً عقلياً سواء أكان ربة أم
فكرة يسيطر على أسلوب الحياة الاجتماعية .

ثامناً : مجموعة ضخمة من المصطلحات المبهمة الغامضة المكونة من التقاليد
المرعية أو العادات المتبعة مثل : الاستئذان قبل الدخول ، أو نفح الحمالين أو
خدم التزل ببعض النقود . إلخ . وكل ما اصطلاحنا عليه من أنه يلىق
أو لا يلىق بالرجل المذهب أن يفعله أو يتعد عنه .

هذه هى الوسائل التى نذكرها « فى Finney » التى تساعدنا فى تكوين
المؤسسات الاجتماعية . وهى وسائل تربوية أكثر منها أهدافاً للتربية ،
وحيث تكثر هذه الوسائل ، وتكون فى متناول اليد فإن المؤسسات تتعدد وتصبح
وفيرة ، ويكون تكيف الفرد تكيفاً فعالاً مبتكراً . وحيث يقل ويتضاءل عددها
ينحط المستوى الاجتماعى . وغير مثال لذلك هو أن نستعرض حالة العصور
الوسطى بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية حين نعى « جريجورى »
Gregory of Tours فى عبارات تعوزها بلاغة الأسلوب وتبرز تدهور العلم إذ
انعدمت موارد التفاهم ، وانحطت أسس الصناعة ، والتسلية ، وتلاشت الفنون
الجميلة ، وأضحت العقائد مملوءة بالخرافات والأفكار العقيمة ، وأصبحت
المطالب السائدة حقيرة ، وسيطرت على حياة الجماعة الاصطلاحات ، والعادات
التي هى أشبه ما تكون بالأساليب البدائية . وماذا كانت النتيجة ؟

يمكن أن نعبّر عنها فى إيجاز بأنها « أنيميا اجتماعية » Social anaemia فقد
فقدت الحياة الاجتماعية عناصر القوة ، وساد المنزل قنوع أو على الأقل استسلام
إلى عيشة نعمة فى كوخ فقير من اللبن ، والقش ، وأصبحت الدولة خاملة
عاطلة وكانت الكنيسة حينئذ تبدو وقد لحقها الضعف كما انتابت الحياة
الصناعية والمؤسسات الزراعية الفقيرة الوهن ، والتأخير ، وبدأت كما لو كانت
سائرة إلى طريق الانحلال ، والزوال ، وأجذبت الحياة العقلية مما أدى إلى

انحلال عام في المجتمع ، والثقافة .

إن العلاقة بين الناحية العقلية والاجتماعية وثيقة ، فقد وضع « باجلي » ذلك توضيحاً لا يأتيه الشك في كتابه *Leterminism in Eucaition* « الحتمية في التربية » وذلك أنه كلما ازدهرت الموارد العقلية وكثرت ، وأصبحت في متناول الجميع ؛ كان نشاط المؤسسات الاجتماعية أوفر ، وأكثر . وحياة الفرد أغنى وأكمل . ومن هنا كانت الصلة بين التربية والمجتمع وثيقة للغاية ، لأن هدف المؤسسات التربوية هو زيادة وتوزيع هذا المصدر العقلي ، فهي أشبه ببيت المال في حراسة نظم المجتمع . وأن المصارف ليست مستودعاً للسبائك ، ولكنها وسيلة لتدعيم الحياة الصناعية بالثقة في الأوساط التجارية ، وكذلك تؤدي المدارس رسالتها إذا لم تهدف إلى مجرد تلقين المعرفة وحفظ العلم لأن هيئة التدريس بها تعمل جاهدة بالإضافة إلى معرفة التراث العقلي على تعويد التلاميذ حب البحث ، والتنقيب . وتسهر على جعل هذه المواد ميسورة بما تقدمه من التفسيرات المختلفة ، والتبسيطات المتنوعة .

ولعل أهمية الرق العقلي للمجتمع يتضح بجلاء إذا استعرضنا هذين المثالين الحديثين ! ! — فمئذ أعوام قليلة مضت ظهر في باريس بعد الحرب العظمى رجل في هيئة « السنغاليين » ، تغلب بعد حياة مضطربة على عاصفة من الحوادث العنيفة التي لا يكاد يصدقها عقل ، فقد قهر بطل رفع الأثقال الفرنسي ، واستطاع أن يكتسب بسمعته من المال ما يحقق له العيش الرغد ، ولكنه كان ينفق عن سعة ولذلك مات فقيراً . وقد أشارت الصحف الفرنسية إليه على أنه إنسان مسكين رغم قوته ، ونعنته بأنه متوحش استغل استغلالاً سيئاً في ذلك العالم الذي لم يستطع أن يفهمه . فهنا نجد مثالا لشخص قذف به في مجتمع مملوء بالغش والخداع من غير أن يتسلح بالأفكار التي تكفل له التكيف الموفق مع المؤسسات الاجتماعية المعقدة المختلفة فما حدث إنما هو عبارة عن انفجار مروع ثم انتهاء وخمول ؛ فقد مات ذلك الرجل ممزقاً أشد تمزيق بوساطة آلة أخفق في فهم كنه تركيبها ، وإدارتها ، وهنا يكمن شر إخفاقه لأنه

كانت تنقصه القوة العقلية التي يتغلب بها على المشاكل المعقدة في مختلف المؤسسات الاجتماعية . وهكذا فرض عليه المجتمع التكيف من غير أن يمدّه بالوسائل التي تجعل هذا التكيف أمراً موفقاً .

وثمة مثل آخر على التقيض من ذلك تجده في الرحالة المشهور « ستيفان سن » ، فهذا الرجل قد تعلم أن يجارى ، ويساير البيئة القطبية ، وما يحتمل أن يقابله فيها . ولقد نجح نجاحاً عظيماً ، فقد توغل إلى مسافات عظيمة فوق المحيط المتجمد برغم قلة ما يحمله من طعام ، فقد كان يعيش كما يعيش سكان هذه المنطقة . وفي هذا المثل يمكننا أن نلمس مزايا الرجل المتمدين الذي صبغه المجتمع بصبغة عقلية تساعد على التغلب على المشاكل فقد فاق « ستيفان سن » في ذلك سكان الجهات القطبية ، فهو قد تمكن بما وهب من مرونة وابتداع من أن يلائم نفسه مع ذلك المجتمع بنجاح . وقد قص علينا ذلك في أسلوب قصصى شائق يبين لنا كيف تغلب على مشاكل الحصول على الطعام ومشاكل حفظ الماء وبناء البيوت من الثلج ، وهذا أمر لا يستطيعه أى إنسان أبيض ، وكل ما كتبه في كتابه « الأراضى القطبية المحبوبة » يشهد بفضل التراث العقل على المدنية و « استيفانسن » في المناطق القطبية هو المثل الحى للفكرة التي نود أن نبرزها في هذه الصفحات عن الرجل الذي تنشده التربية الصادقة .

والذى نهدف إليه من وراء تلك الأمثلة السابقة إنما هو إبراز أهمية النواة العقلية في الحياة الاجتماعية ، وكلما زاد قدر هذه النواة لدى فرد من الأفراد تمكن من المساهمة الصحيحة في الحياة الاجتماعية وملاءمة نفسه لمؤسساتها والعكس صحيح ، فجدير بنا إذن أن نبحث عن أمثل الطرق لا استغلال هذه القدرات العقلية بشكل يسهل ملائمة الفرد ملائمة اجتماعية .

ثانياً - العلاقة بين المدرسة والمجتمع

(١) روح الجماعة

يرث الإنسان فيما يرثه عن الجنس « الغريزة الاجتماعية » . فالإنسان حيوان اجتماعي بطبيعته ، وعلى هذا الأساس يمكن أن ننظر إلى من يعتزلون المجتمع « المعتزلة Hermits » على أنهم أشخاص غير عاديين ، والسجن الانفرادي بالنسبة للعاديين من الأفراد ألعن أنواع السجن ، وربما كانت « الغريزة الاجتماعية » هي البقية الباقية من تلك النزعة التي طبعت بها الطبيعة البشرية . عندما كان يتكاتف الإنسان مع أخيه الإنسان من أجل الدفاع عن النفس ، ومن أجل الصيد . ومهما كان من أمر أصل هذه الغريزة الاجتماعية فما لا شك فيه أنها عظمة الأهمية من الناحية التربوية ولا سيما فيما يتعلق بالأمور الخاصة بالتعليم ، والتعلم .

وشعور الوحدة الذي يظهر على الطفل إذا عزل عن زملائه قد يكون شديد الخطورة ، ومثله في ذلك مثل الخوف . ولذلك وجب علينا ألا نلجأ إليه إلا في الحالات النادرة كما يجب علينا أيضاً أن نستخدمه بحذر . وقد لاحظت الدكتورة « منتورى » قوته ، ولذلك لم تلجأ إلى استخدامه إلا في حالات يبرز فيها سلوك الطفل الشاذ فكانت تعزله عن الجماعة . والعزلة ضرب من ضروب العقاب يستخدمه المدرسون أحياناً ولكن له خطران واضحيان .

أولاً : قد لا تكون هذه العزلة تامة ولذلك قد توحى للمذنب بفكرة الصدارة ؛ فيظن نفسه مركزاً لجذب انتباه الغير He is the lime light ولذلك جدير بالمدرس أن يبعد المذنب من الأطفال إلى مؤخرة الفصل بدلا من المقدمة .

ثانياً : قد يكون عزل الفرد عن الجماعة عزلا تاماً ، وفي هذه الحالة سوف يقاسى المذنب الشيء الكثير من الآلام . وهذا هو السبب الذي من أجله ينصح

المربون بالتخفيف عن عقاب العزلة بقدر الإمكان .

والشعور بالوحدة ، مثله كمثل الشعور بالخوف ، أو بالتقزر له أثر كابت على نشاط الطفل العقلي ، فقد يخلق منه شخصاً منظوياً على نفسه ، وقد تؤدي هذه الوحدة إلى أن يصبح فرداً خاملاً عديم الاكتراث بالغير . فالطفل المحب للعزلة المنظوي على نفسه طفل شاذ ومن أهم وظائف المدرس مساعدة الأطفال على النمو الطبيعي بحيث لا يفقدون نشوة الاجتماع بزملائهم . وهذا هو ما نرى إليه في الصفحات التالية « فنمو الروح الاجتماعية » ، وتشجيعها هو هدفنا الذي نود تحقيقه داخل جدران المدرسة : وعلينا قبل أن ندخل في تفاصيل هذا الموضوع أن نسّله بالحقيقة الآتية : وهي أن النمو الاجتماعي لا يتعارض بأي حال من الأحوال مع نمو الذاتية ، فالذاتية لا تتحقق إلا في جوامع اجتماعية . والذات لا تنتعش ولا تترعرع إلا إذا تمكنت من معرفة كيف تلائم نفسها مع زملائها ، وكيف تشعر بالسرور في صحبتهم ، وبالسعادة عندما تتفانى في خدمة المجتمع . وبما لا شك فيه أن هناك اختلافاً عظيماً بين الأفراد في هذه الناحية الاجتماعية . ولكن العنصر الاجتماعي عنصر أساسي في خلق أي إنسان يتصف بالنواحي الإنسانية .

وقد سبق أن أبرزنا اختلاف الآراء في أهمية الفرد وأهمية الجماعة كما سبق أن أبرزنا أن الجماعة هي السر في وجود الفرد وفي تكوينه الروحي ، وأن الفرد بدون جماعة وهم أو خيال . وفي الوقت نفسه نعرف بأن الكثير من مميزات الأفراد هو السر في تقدم الإنسان ورقى الجماعة ، كالتعاون ، والغيرة ، والحساسية الاجتماعية ، والجمالية ، وعلى هذا فنحن نرى أن أطفالنا لا يمكن أن يصبحوا آدميين بكل معنى الكلمة ما لم يترعرعوا في وسط اجتماعي . فجدير بنا إذن أن نربي أطفالنا في « مجتمع مدرسي » لا يكون صورة مصغرة للمجتمع الموبوء في العالم الخارجي ، بل خلاصة مثالية أو نموذجاً للعالم ، لا لعوالم الأشياء العادية فحسب ، بل خلاصة للإنسانية جميعها جسمها وروحها ، ما ضيها ، وحاضرها ، ومستقبلها . وفي ذلك يقول سير برسي ن : « إن مدارس الأمة ما هي إلا عنصر هام في

حياتها مهمتها الأساسية تركيز قوة الأمة الروحية وحمل تاريخها على البقاء وعلى الاستمرار ، تركز على مجدها الماضي وتؤمن على مستقبلها ، فعن طريق المدرسة تتمكن الأمة من معرفة المصادر الكامنة التي صدرت عنها جميع الحركات التي أثرت في حياتها ، ويمكنها أن تقاسم أحسن وأنبل أبنائها أخلاقهم وآمالهم ، وأن ترى نفسها في مجال النقد دائماً وأن تعلّى من شأن مثلها العليا . وعلى الجملة يجب أن تكون المدرسة ملخصاً للعالم المثالي أو نموذجاً حياً له - لا لعالم الأعمال العادية فحسب بل الإنسانية جميعاً جسماً وعقلاً ماضياً وحاضراً ومستقبلاً . ولنتنقل الآن وقد عرفنا أهمية المدرسة من الوجهة الاجتماعية إلى بيان كيفية نمو الروح الاجتماعية فيها .

(ب) نمو الروح الاجتماعية في المدرسة

إن الروح الاجتماعية تختلف اختلافاً بيناً عن الغريزة الاجتماعية ؛ فهي صفة من الصفات البشرية ، تميز الإنسان عن غيره من الحيوانات الاجتماعية كالذئب أو الماشية ، أما الغريزة الاجتماعية بما يتبعها من سيطرة أو خضوع ، فهي المصدر الذي تنمو منه الروح الاجتماعية . وعندما يذهب الأطفال إلى المدرسة لأول مرة يحملون معهم بذور الروح الاجتماعية - التي بذرت في البيئة المنزلية ، وهذا يدلنا على أن تلك الروح الاجتماعية تبدأ مبكرة في حياة الطفل فلا بد من تعهدها بالرعاية وهذا لا يتحقق إلا إذا نجحت وسائط التربية (البيت - المدرسة - المجتمع) في خلق الجو الاجتماعي الصالح للملائم لنمو تلك الروح .

ويمكن أن نميز بين أنواع ثلاثة للجو الاجتماعي داخل جدران المدرسة :

أولاً : الجو الاجتماعي الذي تخلقه شخصية قوية لمدرس ينزع إلى السيطرة على الغير ولا ينتج ذلك سوى الخضوع الظاهري لذلك المدرس والانصراف الباطني عنه .

ثانياً : الجو الاجتماعي الذي يخلقه مدرس ضعيف الشخصية ، وهذا

الجو من شأنه أن يسبب القوضى والهياج في صفوف الأطفال . وهذا أمر لا يساعد على الاستفادة من روح الجماعة .

ثالثاً : الجو الاجتماعى الذى تخلقه شخصية حازمة تعالج الموقف معالجة حكيمة بعيدة عن السيطرة والخضوع ، وهذا الجو أقرب ما يكون إلى الجو العائلى : ففيه الكثير من الأحنم والعطاء بين المدرس وتلاميذه وبين التلاميذ بعضهم مع بعض ، وبعبارة أبسط : إن الروح الاجتماعية تنجلي في هذا الجو واضحة لدى كل فرد من الأفراد . وهذا الجو الاجتماعى هو أنسب الأجواء للتربية والتعليم .

هذا ، وقد أثبتت التجارب بأن الكفاية ، والسعادة البشرية — وانطلاق النشاط البشرى ، والشخصية . كل هذه جميعاً ذات أصل واحد مشترك ، هذا المصدر هو الشعور التام بالتعاون في عمل من الأعمال لهدف مشترك ، ففيه يرتبط الفرد بأخيه ، ويرتبط الجميع بالمجتمع ، وهذه الروابط ليست بروابط العنف المفروضة على الفرد من الخارج (كما هو الحال في المثل الأول) ولا بروابط الضعف (كما هو الحال في المثل الثانى) ولكنها ناتجة عن شعور صادق في التعاون والألفة أو المحبة ، ذلك الشعور الذى يمكن أن نطلق عليه اسم بذور الديمقراطية الحقة للتعاون كما في المثل الثالث .

هذا ، وإذا كان الواقع قد أثبت نجاح العلاقات الإنسانية الطيبة والروح الاجتماعية الحسنة ، والتعاون لهدف مشترك — أثبت نجاح ذلك في ميادين الحياة الكبرى فجدير بنا أن نتدبر مشكلة الحكم الداخلى للمدرسة من جديد ، وبذلك نضمن مساهمة مدارسنا للروح الديمقراطية الصحيحة التى بها يزدهر المجتمع ولا تتعارض معه . وبما لا شك فيه أنه قد أصبح من المعترف به أن المدرسة يجب أن تكون مجتمعاً لا مكاناً لتلقى العلوم فحسب . وسنحاول في الصفحات المقبلة بيان كيفية تحويل المدرسة إلى مجتمع وذلك لا يتحقق إلا بمراعاة ما يأتى :

أولاً : العلاقات الشخصية

إن العلاقات الشخصية بين الأفراد عنصر أساسي في خلق الجو الاجتماعي الصالح في المدرسة ، فليس الحكم الذاتي وحده أو ملائمة الجدول المدرسي تختلف المواد كفيلاً يثبت روح الجماعة الصالحة في المدرسة ما لم يشعر أفراد هذه المدرسة بشعور الرضا الشخصي ، والعلاقة الوظيفية الطيبة بين بعضهم وبعض .
وما يؤسف له أن نعترف بأن الحالة السائدة في مدارسنا في الوقت الحاضر سيئة جداً وما علينا إلا أن نقوم بزيارة بعض هذه المدارس لنشاهد ذلك البون الشاسع في نوع العلاقات الشخصية القائمة بين أفرادها . فمعظم هذه المدارس ينجم عليه شبح الخوف ، والسيطرة والخضوع لناظر مستبد ، بينما القليل منها تسوده روح التعاون ، والحب المتبادل بين الأفراد بعضهم مع بعض ، وذلك نتيجة لرياسة متزنة وسلطة حازمة رشيدة .

وقد يتوهم البعض أنه بتأكيدنا أهمية عمل ناظر المدرسة أننا نقال من قيمة الدور الذي يقوم به أعضاء هيئة التدريس ولكن في الواقع أننا لا نقصد ذلك ، فنحن من أنصار العقيدة التي ترفع من شأن المدرسين ، فقد يكون لمدرس واحد من الأثر ما يشبه المعجزات في تحسين العلاقات الشخصية في المدرسة . وأنه إذا فقد الانسجام بين أعضاء هيئة التدريس عدمت الروح الاجتماعية انعداماً تاماً . وإذا فقد التلاؤم في الآراء ، والاتجاهات ، تلاشى الانسجام ، فالعامل الموجه إذن في تحسين المجتمع المدرسي هو بلا شك موقف ناظر المدرسة واتجاهه نحو أعضاء هيئة التدريس ونحو التلاميذ .

فالعلاقات الأساسية في مدرسة من المدارس يمكن تشبيهها بثلاث يصح لنا أن نطلق عليه اسم « مثلث القوى الشخصية » الذي يتكون من ناظر المدرسة ، وأعضاء هيئة التدريس ، والتلاميذ . ويمثل رأس هذا المثلث ناظر المدرسة :
زد على هذا أن هناك علاقات ثانوية أخرى فيما يأتي :

١ - العلاقة بين أعضاء هيئة التدريس أنفسهم .

٢ - العلاقة بين تلاميذ المدرسة كبارهم وصغارهم .

٣ - العلاقة بين الفصول وبين مدرسيها .

٤ - العلاقة بين التلاميذ والخدم . . إلخ .

وهذه العلاقات الثانوية تنمو نمواً طبيعياً مرضياً إذا حسنت العلاقات

الأساسية :

ولكى تصبح المدرسة مجتمعاً حقيقياً يجب مراعاة ما يأتي :

أولاً : أن يعتمد الذين يشغلون الوظائف الرئيسية في نفوذهم على خدماتهم الأساسية مدى ما يضطربون به من مسئوليات نحو هذا المجتمع أكثر من اعتمادهم على سلطانهم المطلق ، وشعورهم بهذا السلطان .

ثانياً : يجب أن تكون أهداف الجماعة مرسومة وواضحة الفهم لجميع أفرادها كما يجب أن يتضح الدور الذي ينبغي أن يلعبه كل فرد في هذه الجماعة .

ثالثاً : يجب قبل البت في موضوع من الموضوعات أن تستشير كل فرد يتصل بهذه الموضوعات .

رابعاً : يجب أن تتاح لكل فرد في جماعة من الجماعات فرصة بذل قصارى جهده فيما يقوم به .

وربما يتوهم البعض أن هذه الأمور تعدو نطاق ما تتطلبه العلاقات الشخصية في المدرسة ، ولكن الواقع خلاف ذلك ، فالعلاقات الطيبة بين الأفراد تعتمد إلى حد كبير جداً على نمط حياة الجماعة . ومتى نجح المهيمون على شئون الجماعة في إيقاظ الوعي الاجتماعي سارت العلاقات الطيبة بين أفراد الجماعة وانتشر في ربوعها جو اجتماعي روي من النوع الممتاز ، ومن شأن هذا أن يزيد في احترام الأفراد بعضهم لبعض وفي طاعتهم للأوامر لأن الجماعة في هذه الحالة تفهم أن السلطة ضرورية لسير دولاب العمل ، فلا ترغب في مقاومتها أو الثورة عليها .

ثانياً : التعاون :

بعد الناس أنفسهم وغيرهم ليصبحوا كائنات حية مشبعة بالروح الاجتماعية عن طريق المشاركة ، والتعاون . على أن مدى تحقيق ذلك في المدرسة يحدد

المرحلة التي بلغتها هذه المدرسة في سلم التقدم الاجتماعي . وتصبح المدرسة مجتمعاً حقيقياً إذا شعر كل فرد من أفرادها بأنه يبذل مجهوداً شعورياً لتحقيق هدف مشترك . والمجتمع الحقيقي مجتمع حيوي ، وذلك بسبب بسيط هو أن كل فرد من أفراد هذا المجتمع مملوء بالروح الابتكارية ومشبع بالمثالية الخلقية ، وذلك لأنه يملك الكثير من الفرص الكافية للتعبير عن مواهبه العقلية ، والروحية . فالمبادئ الخلقية التي لاتخرج إلى حيز العمل هي في الواقع مبادئ في طريقها إلى الموت والفساد ، فالمشاركة إذن تعمل على تقدم الصحة الاجتماعية لأي جماعة كما أن لها أثراً واضحاً في معالجة الميول الضارة بالمجتمع . والآن نتساءل : كيف يتسنى لنا أن ننظم حياة المدرسة بحيث يستفيد كل عضو فيها من تجربة هذه المشاركة ؟

علينا أولاً وقبل كل شيء أن نحدد الغرض من المدرسة بحيث يمكن أن يدرسه كل قارئ ، ويوفر علينا الأستاذ « كارل مانهايم »^(١) مؤونة الإجابة على هذه النقطة قائلاً : « إن تقسيم العمل ، وتوزيع الوظائف من غير أن يكون هناك هدف مشترك يهدف إليه الجميع ويؤدي إلى العمل الجزئي ويسلب العمل معناه ، ويجعله هيكلاً بلا روح أو حياة » وهذا ينطبق تمام الانطباق على المدرسة ، ومن سوء الحظ نرى أن كثيراً من مدارسنا تعوزها روح الجماعة : فالغرض من المدرسة هو مساعدة الفرد وإعداده ليصبح عضواً نافعاً للجماعة في المستقبل وهذا الهدف لا يتحقق إلا إذا ارتفعت المدرسة بمثلثاتها عن مجرد مكان تلقى فيه المعلومات على التلاميذ إلى مكان يعيش ويحيا فيه الأفراد ويساهمون في إدارته . وتسير دفة العمل فيه .

هذا وأعظم وسيلة لتدريب التلاميذ على التعاون والمشاركة يتحقق بدون شك في مظاهر نشاط التلاميذ خارج جدران الفصل . تتحقق في المشاريع ، والتمثيلات ، وإلقاء الشعر ، والموسيقى ، والغناء ، والأشغال اليدوية ، والجمعيات الرياضية والكشفية . وهنا يجب أن نذكر التحذير الآتي : وهو أنه إذا كانت

طريقة تنفيذ هذا النوع من النشاط طريقة خاطئة ، فإن روح التعاون سوف لا تتحقق ؛ فقد تتحول بعض المجتمعات أو الأندية إلى مجرد عصابة ، كما قد يقدم طفل من الأطفال على عمل من الأعمال لأنه يود أن يشعر غيره بالحميل ؛ أو لأن هذا العمل يشعر بأهمية نفسه لا من أجل مشاركة الغير والتعاون معه . ولهذا يلزم ألا يصحب المشاركة إحساس بالزهو ، والرفع على الغير أو الكبر بشرط ألا نكتفى بالدافع الشخصي مجرداً عن الدافع الاجتماعي ، فالدافع الشخصي وحده دون الدافع الاجتماعي يصبح غير كاف . وأخيراً يمكننا أن نلخص ما قلناه مستعيرين لغة «الدكتورة ث : م فلمنج» في كتاب علم النفس الاجتماعي للتربية عند ما قالت : « قد أثبتت التجارب أن السلوك أصبح وظيفة لا من وظائف التلميذ فحسب ، بل منتج من نتائج المعاملة التي يلقاها من المدرس ، والمدرسة ، فالطرق الدكتاتورية والأوتوقراطية لا ينتج عنها إلا شخصيات تميل إلى الشغب ومقاتلة الضعيف .شخصيات يعوزها الشعور بالمسئولية ولا سيما عندما تزول عنها عوامل الكبت ، أما بث روح التعاون فينتج عنه انطلاق الطاقة ، والشعور بالسعادة »^(١).

ثالثاً : التكامل :

إن المدرسة التي أصبحت مجتمعاً ، هي بلا شك كائن عضوي حي ، مثلها كمثل الجسم السليم تتوقف حيويته على كل جزء من أجزائه ، وعلى سلامة التلاؤم ، والارتباط بين هذه الأجزاء ، ووظيفة الزعيم الديمقراطي فيها الاستشارة ، والهداية ، والإرشاد الحكيم ، والسيطرة الحازمة وهذا من شأنه أن يزيد التعاون بين الأفراد القائمين بالعمل ، ويزيد الطاقات البشرية قوة ، وتتمركز هذه القوة في الزعيم الحكيم ، وعندما تسود تلك الروح الطيبة في مدرسة من المدارس ، فإن هذه المدرسة تفهم روح الزعامة بالمعنى السابق . وفي هذه الحالة سيفقد كل من السلطة والنظام خصائصهما السلبية ، وسيصبحان عاملين من عوامل الابتكار ، لأنهما صبغا بالصبغة الاجتماعية . وإذا ما تحقق ذلك يصبح

المجتمع بوجه عام ، ويصبح كل فرد من أفرادها أكثر سعادة ، وأعظم إنتاجاً .
 والوحدة الحيوية العضوية للمجتمع المدرسي مظهر من مظاهر الحياة النشطة في
 هذا المجتمع : فالفصل يمهّد سبيل التعاون في المهام المشتركة بين أطفال السن
 الواحدة . هذا ، ويجب أن يشعر كل فرد من أفراد المجتمع بروح الطمأنينة الناتجة
 عن الانضواء تحت لواء جماعة صغيرة من الجماعات يسود بين أفرادها روح
 الصداقة القوية تحت زعامة مدرس يرجع إليه كل تلميذ في طلب النصح
 والإرشاد . فالمجتمع الطيب هو ذلك المجتمع الذي يشعر كل عضو من أعضائه بأنه
 عضو مرغوب فيه ونافع له ، ومن هنا ننتقل بالقارئ إلى دراسة الشروط التي
 تساعد على التفاهم الاجتماعي ، وعلى تقوية روح الجماعة بالمدرسة .

(ح) الشروط التي تساعد على تقوية روح الجماعة في المدرسة :

هناك شروط عامة لا بد من توافرها إذا أردنا بث روح الجماعة في المدرسة ،
 وربما نكون قد لمسنا من معالجتنا السابقة لذلك بعض العوامل الهامة التي تساعد
 على خلق روح الجماعة ، فلم يبق علينا إذن إلا دراسة بعض الاعتبارات ، يجب
 أن نحظى بعناية هامة في المدرسة وهذه الاعتبارات هي :

- ١ - يجب استغلال جميع مظاهر المنهاج المدرسي لنمو الروح الاجتماعية ،
 والتفاهم الصحيح .
- ٢ - يجب أن يكون أساس تنظيم المنهج قائماً على معالجة مشاكل ،
 وخبرات مناسبة للطفل .
- ٣ - يجب أن يتاح لكل فرد من أفراد الأسرة المدرسية الفرصة للمساهمة
 مساهمة فعّالة في مهام الحياة الاجتماعية بها^(١) .
- ٤ - إن الخبرات المدرسية يجب أن تنظم وتختار بحيث تتيح للطفل
 فرصة هضم الحقائق الاجتماعية .

(١) من عدة مقالات (قام المؤلف بترجمتها ونشرت بمصحفة التربية سنة ١٩٤٧) للأستاذ

جيمس همنج James Hemming .

ولنبداً الآن في النظر إلى كل عامل من تلك العوامل على حدة ، فلنبداً بالعامل الأول وهو استقلال جميع مظاهر المنهاج المدرسي لنمو الروح الاجتماعية والتفاهم الصحيح : ينادى البعض بأن تنبأ المواد الاجتماعية المكانة المناسبة لها في هذا المضمار ؛ فيجب أن يكون لها القدر المثل في خلق الروح الاجتماعية في المدرسة . ونحن مع تقديرنا لهذا الرأي إلا أننا نؤكد أهمية مساهمة جميع مواد الدراسة في خلق تلك الروح بدلاً من الاقتصار على مادة من المواد، فالحياة المدرسية يجب أن تكون منظمة بشكل يتكاتف على تقوية روح الجماعة؛ فالمشاريع المدرسية التي تتطلب الاحتكاك بين المدرس ، والتلميذ ، وبين التلاميذ أنفسهم تتيح فرصاً لأحد لها لخلق روح الجماعة . ولا نأمل مطلقاً في زيادة مدلول روح الجماعة لدى أبنائنا ما لم يتمكن هؤلاء الأبناء كتلاميذ من فهم علاقاتهم الاجتماعية السائدة بينهم ، والتي تتجلى في المشاريع المدرسية السابقة وفي كثير من العلوم ، والفنون ، وغيرهما من المواد التي لها فضل عظيم في خلق روح الجماعة ، والحساسية الاجتماعية . أما المواد الاجتماعية فلا تمس إلا مظهراً واحداً من مظاهر الجماعة ، ففي العصر الحاضر مثلاً تعتمد الحياة على « العلوم » فمن المستحيل فهمها دون الرجوع إلى المادة العلمية وإلى الطريقة العلمية لاستمداد العون منهما . هذا ولقد لاحظ كبار رجال « العلوم » بأن هذه « المواد العلمية » لا يمكن فصلها مطلقاً عن ملاسباتها الاجتماعية ، وأن العلم ، ومستقبله ، إنما هما وظيفة للمجتمع الذي يترعرعان فيه ، فالقيمة الاجتماعية للعلوم تبدو واضحة في خلق المدني المستنير ، وبالمثل تظهر قيمة الفن والأدب ، بالإضافة إلى ما لهما من أبعاد بيضاء في شرح الشروط الاجتماعية والتغلب على مشاكل الجماعة : فعن طريق الأدب والفن يمكن اكتساب بعد نظر وبصيرة قلما يمكن الحصول عليهما من أي ميدان آخر .

وثانياً : يجب أن يكون أساس تنظيم المنهج مشاكل ، وخبرات مناسبة للطفل فخبرات الأطفال تحددها دائماً بيئتهم المحلية (بيوتهم ، مدارسهم ، مجتمعاتهم) وتشمل هذه الخبرات جميع مظاهر الحياة من غذاء ، وأوى ،

وعمليات صناعية ، وزراعية ، وتشيد منازل ، وأعمال صحية ، وخدمات اجتماعية ، وما شاكل ذلك . فالطفل عنده خبرة بدائية بالمؤسسات الاجتماعية الأساسية كالبيت ، والكنيسة ، والحكومة ولا يمكنه أن يرى المؤسسة ، كمؤسسة ، ولا الثقافة ، كثقافة ، وإن أهم شيء في نظره هو الطريقة التي تتأثر بها حياته ، وحياة أسرته وجميع معارفه ، وأصدقائه . فالمؤسسات الاجتماعية ليست في نظره أموراً معنوية منظمة ، ولكنها طرق مناسبة تساعد في تحقيق الحاجات الفردية ، والجمعية . وعلى ذلك يجب أن يكون محور التدريس للأطفال دائراً حول المشاكل المتعلقة بخبرتهم ؛ فهذه المشاكل إذا ما فهمت فهماً حقيقياً تساعد الطفل على أن يتقدم لفهم مشاكل العالم الأكبر وبذلك يمكنه المقارنة بين الثقافة التي يعيش فيها وبين الثقافات الأخرى المعاصرة ، كما يستفيد من دراسة ثقافات العصور السابقة ويمكن أن يستغلها في فهم الحاضر .

وثالثاً - يجب أن يتاح لكل فرد من أفراد أسرة المدرسة الفرصة للمساهمة مساهمة فعلية في مهام الحياة الاجتماعية .

لقد سبق أن بينا أن نمو الروح الاجتماعية ، لا يتعلق بالأمور الدراسية فحسب ، بل يجب أن نشجع الطفل على تكوين عقلية اجتماعية ، واتجاهات عقلية تدفع به إلى المساهمة في كثير من مظاهر نشاط الجماعة والحكومة والدولة ، وإذا أردنا تحقيق مثل هذه الأهداف ، فلا بد وأن يكون هناك توجيه عن طريقة مساهمة التلاميذ في مظاهر النشاط الاجتماعي . ومن المستحيل أن نلزم فرداً من الأفراد على المساهمة في مهام الحياة الاجتماعية بشكل من الأشكال من غير أن يكون هناك توجيه منظم .

وقديماً أهملت المدرسة تكوين اتجاهات عقلية تساهم في خلق الحساسية الاجتماعية ، وكانت المدرسة منظمة بشكل يساعد على تشجيع المنافسة ، وكان عامل السلطة المدرسية يلعب دوراً كبيراً في الحكومة المدرسية ، ولم يكن للروح الاجتماعية أى أثر في توجيه العلاقة بين المدرس والتلميذ ، وإذن فن الضروري أن نبدأ بعد هذا بإصلاح تلك الحالة وذلك بوضع بذور التعاون الاجتماعي بدلاً من

المنافسة وأن نتيج للتلاميذ الفرصة المساهمة في المشاريع الاجتماعية الهامة .
على أن فرص المساهمة في النشاط الاجتماعي يجب أن تمتد إلى ما بعد
الحياة المدرسية نفسها ، فتشمل المساهمة في مظاهر الحياة الاجتماعية في
المجتمع الأكبر .

ورابعاً - يجب أن تنظم الخبرات المدرسية ، وتختار بحيث تتيح للطفل
فرصة هضم الحقائق الاجتماعية .

من السهل جداً أن ينغزل البرنامج المدرسي عن حياة المجتمع فلا يفهم
الأطفال شيئاً عن روح الجماعة ، فقد يلغون إلماً سريعاً . ينتف عن نظريات
الجماعة في ثنايا دروسهم ولكن هذا قلما يساعدهم في تكوين روح اجتماعية
حقيقية . ولذلك كان من الضروري ، في أى برنامج دراسي أن يهتم بتربية
روح الجماعة والحساسية الاجتماعية ، وأن تدرس المؤسسات الاجتماعية دراسة
تتيح لدارسها فرصة تكوين فكرة صالحة عن الجماعة وأن تواجه المشاكل ،
والعيوب بدراسة النظريات للوقوف على طرق العلاج الناجعة والآن نتساءل :
عن موقف الطفل في هذه الحالة وقيمة الزج به في مشاكل اجتماعية لا طاقة له
بها ، ألا يكون هذا سبباً في القضاء على روح الأمن عنده ، وهو في أشد الحاجة
إليها لتكوين شخصية متزنة في المستقبل ! ؟ هذه المشاكل وأمثالها تشغل بال
من يحتكون بالأطفال عندما يحاولون التوفيق بين خبراتهم وبين حقائق الحياة
المحيطة بهم - ومن المحقق أيضاً أن الخبرات المدرسية يجب أن تلعب دوراً
كبيراً في إشعار التلميذ بالأمن ، فيجب أن نحاول المدرسة أن تبعد عن الطفل
مظاهر القلق وعدم الطمأنينة التي خلقتها الحرب الماضية ، وكانت سبباً في اضطراب
الحياة في البيت وفي المجتمع .

فالخلاصة :

أن حل المشكلة بيد المدرس وحده ، فهو قادر على الحكم على مدى
نضوج الطفل ، وبقدر نضوجه يتمكن من أن يزج به في مشاكل اجتماعية
مناسبة لسنه ، وخبرته وقدرته بحيث لا يفقده صمام الأمن والطمأنينة فالوعي

الاجتماعى يتدرج ويبدأ من بدايات بسيطة ، مثله ، فى ذلك مثل أى قدرة من قدرات الطفل ؛ فجدير بالمدرسين أن يكونوا على بصيرة فى إدراك مثل هذه الروح الاجتماعية كما يجب أن تكون لديهم القدرة على معرفة متى يجب أن نحمل بعض الأطفال من التخطى فى دياجير مشاكل اجتماعية عويصة على مداركهم . وبالحمله يمكن أن نقول : إن فهم المشاكل الاجتماعية يساير النضوج فى شخصية الطفل وفى نمو خبراته ، وهذه حقيقة يجب ألا يجهلها كل من يحتك بالطفل .

المراجع

1. A.G. Hughes and E.H. Hughes : Learning and Teaching.
2. T.P. Nunn : Education, its Data and First Principles.
3. Sturt and Oakden : Modern Psychology and Education.
4. J.S. Ross : Groundwork of Educational Psychology.
5. T. Raymont : Modern Education.
6. C. Bloor : The Process of Learning.
7. W. Trotter : Instincts of the Herd in Peace and War.
8. M. McDougall : Social Psychology.
9. J. Adams : Modern Developments in Educational Practice.
10. J.H. Simpson : Sane Schooling.

الفصل العاشر

التربية الجمالية

أولاً - تمهيد

فى فترة من فترات النشاط الفنى الحالى الذى دونها التاريخ فى العالم عمد «بركليس» إلى تلخيص أهمية الفنون فى الحياة القومية فقال : «إننا لم ننس أن نهىء لنفوسنا المتعبة كثيراً مما يسلبها من عناء الأعمال ، فلدننا الألعاب المنظمة طيلة العام ، ومنازلنا يشع منها الجمال ، والبهجة ، وما من شك أن ما نشعر به يومياً من لذة وسرور نابعين من وجود هذه الأشياء يساعدنا على التخلص من الكآبة ، والملل» (١) .

هذا ما كان من أمر «بركليس» فبالرغم من حياته فى مدينة أنهكتها الحروب وتركتها فى عسر مالى شديد ، فإنه لم يتردد فى أن يصدق من موارد الدولة على إنشاء «البارثينون» وتمثال «أثينا» المحيد من العاج المطعم بالذهب ، نعم إن لهذه الأشياء مغزى سياسياً عدا مغزاها الفنى ، ولكن الروح المثلثة فيها كانت مندججة فى حياة كل أثنى فقد شملت مساحة الجمال كل شىء ، فشملت القدح الذى كان يشرب منه إذ كان لا يقل فى جماله عن جمال تمثال الأبطال من الرياضيين ، أو جمال المعبد الذى كانت تقدم فيه القرابين للآلهة .

وما من شك فى أن النشاط الفنى يشغل مركزاً هاماً بين أنواع النشاط الأخرى فى هذه الحياة . وإنه لمن الغبن أن نعتبر أن النشاط الإنسانى مجرد وسيلة لاكتساب العيش فحسب ، ولو سلمنا جدلاً بما للفنون الجميلة من جاذبية

جلب السرور إلى النفس فإن هذا لا يجعلنا نهم بها لهذه الغاية فقط لأنه من المتعذر قطعاً وصف ما ناله منها بأنه نوع من الترفيه عن النفس فحسب ، وإذا كان الأمر كذلك فما مبعث السرور الذي يجعلنا نطيل التحديق في إحدى الصور الجميلة أو نطيل الاستماع إلى قطعة موسيقية جذابة ؟ ثم لماذا تزداد الرغبة في الأكل إذا كانت أدوات الطعام مصنوعة صنعةً فنيًا جميلاً ؟

إن اللذة التي تثيرها الفنون في النفس لذة حقيقية نشعر بها وإن كنا لا نلمسها ، وقد عرف « أفلاطون » هذه الحقيقة ، ويظهر هذا في محاورته الآتية مع « سقراط » : فقد قال سقراط : « إن اللهجة الحلوة ، والرشاقة ، والانظام إنما تتأتى عن عقل نبيل مرتب منظم » .

فأجاب « أفلاطون » : « إن ما تقوله حق لا ريب فيه » .

فقال « سقراط » : « أليس من واجب شبابنا إذا طالبناهم بتأدية مهام أعمالهم في الحياة أن يجعلوا الانسجام ، والرشاقة الهدف الأسمى الذي يعملون للوصول إليه » .

فأجاب « أفلاطون » : « يجب عليهم ذلك » .

فقال « سقراط » : « إن الحياة بأسرها تفيض بهذا كما تفيض بمختلف الفنون الإبداعية والإنشائية كالنقش ، والنسيج ، والتطريز ، وفن البناء ، وصناعة الأواني ، ونماذج الحيوان ، والنبات . ففي هذه الفنون يجد المرء مجالاً واسعاً لإبراز عنصر الرشاقة والإبداع أو لنقيضهما . وإن سوء الطبع ، والألفاظ النابية لدليل دلالة قاطعة على التجرد من الانسجام ، والرشاقة في الحركات ، والانسجام والرشاقة صفتان متلازمان مع الفضيلة ، والخلق الطيب ، وبينهما تشابه عظيم » .

ومهما كان نصيب الارتباط بين الناحيتين الخلقية والجمالية من الصحة فإن حب ما هو جميل أو تقدير أعمال لا يعتبر مجرد مزية سطحية كالقدرة على التمييز بين الصور الأثرية الحقيقية ، وبين غيرها من الصور المزيفة : فتقدير

الجمال أمر متغلغل في صميم حياة الفرد وفي أخلاقه ، وبمقتضاه يمكن تحديد نوع التفكير ، والسلوك في مختلف الناس ^(١) . والآن يجدر بنا أن نتعرف ماهية التربية الجمالية .

ثانياً — ماهية التربية الجمالية وقيمتها

التربية الجمالية ترمى إلى « إنماء » عاطفة الجمال الكامنة في النفس ويحدث ذلك عن طريقين .

(أ) تقديرنا للجمال . (ب) إنتاجنا لهذا الجمال . أى الابتكار .

فالتربية الجمالية فضلاً عن تنميتها للقدرة على تقدير الجمال تعمل على تشجيع الأطفال على الابتكار والإبداع إذا وجد فيهم هذا الاستعداد .

والتربية الجمالية تناهض غيرها من أنواع التربية « عقلية كانت أو خلقية أو بدنية لما لها من أثر جميل في الحياة » . فالحياة تصبح جافة وتبعث على الملل إذا ما خلت من الفنون الجميلة كالرسم والتصوير والموسيقى ، فالفنون ترقى الحياة وتهذبها . ولذا فقد أحاطتنا الطبيعة بجمالها وأوحى إلينا بعنصر الجمال وحددت المثل الجمالية التي يجب أن نرسم خطاها — كما أن الفنون وسيلة هامة تساعد الطفل على قضاء أوقات فراغه واستغلالها فإذا ما وجهنا ميوله إلى تقدير الجمال . فإن عاطفة تذوق الجمال تتكون لديه . فيشجعه ذلك على الإنتاج الفني . كما تحفظ المراهقين من الأطفال من سعار الغريزة الجنسية وتدفعهم إلى الاقتراب من المثل السامية . زد على ذلك أنها وسيلة من وسائل التعبير عن النفس وما فيها من انفعالات ، فالرسم أو التصوير أو الأدب مرآة ينعكس عليها ما في النفس من رغبات كامنة ، كما أنها وسيلة للتنفيس — وتتجلى تلك الصفة بوضوح في مرحلة البلوغ فيجب اتخاذها وسيلة للإعلاء والتسامي وفتح ميادين الجمال أمام الشباب . ولا يخفى اتصال التربية الجمالية بالتربية الخلقية . فالطفل إذا ما قدر الجمال وتبلورت عنده هذه العاطفة الجمالية تطلع إلى مثالية سامية

مثالية (الخير والحق والجمال) فيصور الفضيلة في شكل جذاب يليق به أن يتحلى به . كما يصور الرذيلة في شكل قبيح لا يستسيغ الاقتراب منه والتخليق به . وأخيراً فالتربية الجمالية تمت بصلة وثيقة أيضاً إلى التربية الاجتماعية . فهي تساعد الفرد على الاندماج في بيئته الاجتماعية . فإذا نظم شاعر قصيدة فإنه يصور فيها ناحية تمس البيئة أو المجتمع ، وإذا غنى مغن فإنه يعبر عما يجيش في صدره من أفكار لها أقوى الصلة بمجتمعه . فهي تعد الطفل الإعداد الخاص الكامل الذي من شأنه أن يجعله يزداد تفاعلاً مع البيئة والمجتمع .

ولما كان للتربية الجمالية هذه القيمة وهذه الآثار . فقد اهتم بها المربون بوجه عام ونظرت إليها التربية الحديثة نظرة تقدير وذلك لتأثيرها المادى في نواحي التعليم المختلفة . الأمر الذى حدا بالمربين إلى أن ينادوا بأن تفتح المدارس برامجها للفنون . وقد يما قال روسو : « إن الغرض الأساسى من تربية "إميل" . هو أن أعلمه كيف يشعر ويحب الجمال في كل أشكاله وأن أثبت عواطفه وأذواقه وأن أمنع شهواته من التزول إلى الخبيث والرذيل ؛ فإذا تم ذلك وجد إميل طريقه إلى السعادة، ممهداً وأملئ الوحيد أن يجد هذا في المنزل » .

ويرى بعض المربين أن نقدم للطفل حتى سن الثالثة عشرة مواد جمالية كالرسم والموسيقى فهي أنسب له في هذا التطور من غيرها من المواد ويقولون : إن اليونان قد أحسنوا صنعاً يجعلهم أساس المنهج في هذه المرحلة هو « رياضة للجسم وموسيقى للروح » . Gymnastic for The body and music for the soul .

ثالثاً - لمحة تاريخية في تعريف الجمال

لو أننا حاولنا أن نتعرف علم الجمال عن طريق التاريخ لوجدنا أن كل فيلسوف قد حاول أن يدلى بدلوه في هذا الموضوع وأن يعطى نظرية خاصة للفن والجمال ، وتدور معظم نظريات الفلاسفة حول الأفكار الآتية مصوغة في شكل معادلات بسيطة :

(١) - « الجمال يكون في شكل الشيء » :

« فهيربارت » يرى أن الجمال يتكون فقط من العلاقة بين الألوان والخطوط .
و « فاجنر » أجرى تجارب كثيرة ليستخلص منها أحب الأشكال والألوان
فاكتشف مثلاً أن أحب أنواع المستطيلات ما كانت نسبة ضلعه الأصغر
إلى الأكبر تساوى نسبة الأكبر إلى مجموع الضلعين : الأصغر والأكبر .

و « هوجارت » . وجد أن الخط الثعالبى هو أحسن الخطوط .

(ب) « الجمال يكون فى القيمة التعبيرية للشيء » .

وقد نادى بهذه الفكرة الشاعر « جوته » فى أول مراحل نموه الفنى .

(ح) الشيء الجميل هو ما كان نافعاً :

نادى بهذه الفكرة سقراط قديماً . ونادى بها حديثاً « وليم موريس »

حيث قال :

« لا يمكن التفرقة بين النفعية والجمال . ويجب أن يكون كل ما نمتلك
نافعاً وجميلاً فى الوقت نفسه . ولم يتنبه إلا القليل إلى أن الجمال قد يكون من
الأوجه الثلاثة مجتمعة . هذا ويرى أن العمل الفنى هو ما كان أصدق تعبير فى
أحسن وأنظم صورة » .

(د) اعتبار الفن تقليداً للطبيعة :

نادى بهذه النظرية أفلاطون وهو يرى أن الجمال إنما هو صورة للخير وأن
الفن تمثيل لأشياء خاصة ولما كانت الأشياء الحسنة صورة للمعاني كان الفن
معبراً عن هذه المعاني مرتين أى أنه تقليد للتقليد وقد عدل هذا أرسطو بأن
اعتبر الجمال الخير الذى نستمتع به وجعل الفن هو التقليد المثلث للحقيقة .

(هـ) مبدأ اللذة فى الجمال :

فالجميل ما يبعث فىنا اللذة . تلك هى النظرية الهيدونية وقد قال
« شوبنهاور » : « الجميل ما يحدث السرور فى النفس عند التأمل إذا تحرر
المرء من قيود الإرادة » .

أما « بيرك » فقد فرق بين الجميل والرائع . فالأول . هو ما يجلب السرور
أو اللذة الصافية التى تنطق بلسان الحب والثانى ما يجلب اللذة المختلطة

أو المترجمة وهي تشتمل على عنصرين : (١) الخوف ، (٢) حب البقاء .
 (و) الفن يختص بالصفات الوجدانية الانفعالية لا بالحقائق المجردة :
 هذه هي الفكرة السائدة الآن وقد بدأت مع « كانت » الذي اعتبر أن
 الجمال هو شعور وحاول أن يوفق بين العقل والشعور .

رابعاً - آراء المربين في الجمال

١ - جان چاك روسو : لقد عبر عن رأيه حين قال : إن الغرض الأساسي
 من تربية « إميل » هو أن أعلمه كيف يشعر ويحب الجمال في كلى أشكاله . إلخ .
 ٢ - بستانلوتزى : وهو يقول في كتابه « كيف علمت " جوتروود " أولادها » :

« إن الطبيعة مملوءة بمناظر الفتنة ولكن المدارس لم تصنع شيئاً لتوقظ في
 الأطفال هذه العاطفة » .

٣ - « هورن » : « إن عدم العمل على تذوق الجمال وإهمال تربية
 عاطفة الجمال هو فقدان للسعادة ذاتها - على أن ذلك الإهمال قد يحمّد شعلة
 الذكاء ويضر ضرراً بليغاً بالأخلاق » .

٤ - « سترابر » : « إن مهمة التربية ليست مقصورة على إعانة الفرد على
 انتقاء الوقوع في الخطأ وعلى اكتشاف الحقيقة وتزويده بالعادات الصالحة
 المرغوب فيها فحسب ، ولكن مهمتها أيضاً أن تنمى القدرة على التقدير والتمتع
 بكل ما هو جميل سواء كان ذلك في الأدب أو الموسيقى أو التصوير ، فلا يكفي
 أن يكون الإنسان قادراً على كسب عيشه ولكن ينبغي أن يتمتع بالحياة » .
 وإن من أهم نواحي عملنا المدرسى هو أن نهيب للتلاميذ الفرص وأن نشجعهم
 بكل الطرق الممكنة لخلق الجمال وإنماء قوة التقدير .

٥ - « سترت وأوكدن » :

« إن قلة وجود الأشياء الجميلة في حياتنا اليومية يسبب سأم النفس وهذا
 يؤثر في كثير من الناس ويسبب تحول أجسامهم » .

خامساً - منشأ الدوافع الفنية في الجمال

هذه ناحية من نواحي دراسة الجمال فيها عدة نظريات منها :

١ - يقول تولستوى : « إن الدافع الفنى فى الإنسان هو نتيجة الاتجاه الطبيعى لكل حالة وجدانية من شأنها أن تعبر عن نفسها بمظاهر خارجية ، وأن تزيد من الاستمتاع وتكسر من حدة الألم » وعلى ذلك يعتبر الفن كظاهرة تمتاز بأنها اجتماعية برغم أن المنبع الأول له إنما يكون من أعماق الذاتية .
فالتعبير الخارجى عن الوجدان من شأنه أن يثير نفس الشعور فيمن يسهم وتؤثر مشاركتهم فى صاحب التعبير بأن تزيد من نشوته بزيادة هذه الحالة الانفعالية .

ويجذب « تولستوى » هذه الناحية الاجتماعية فهو يعتبر الفن وسيلة لنقل الشعور إلى الآخرين ووسيلة للجمع بين الناس بشعور واحد يساعدهم على الحياة والتقدم والرقى أفراداً وجماعات .

٢ - « جيمس هاريسون » يقول : إن الفن شبيه بالطوقوس التى كان يقوم بها الإنسان الأول لينال رضا الآلهة فتسبغ عليه النعم وتقويه شر الهلاك .
٣ - « شيلر » . « سبنسر » و « كارل جروس » . يؤيدون أن الفن يشبه اللعب فكلاهما منفذ للطاقة الزائدة .

وفى السبعين سنة الأخيرة نجد أن الأبحاث قد اتجهت نحو دراسة الناحية الجمالية انبجاء نفسياً كدراسة الحالة العقلية التى يكون عليها الفنان وهو يعمل على خلق ما نزل به الوحي أو دراسة وجهة نظر من يستمتع بقطعة فنية أثناء تأمله فيها . أو دراسة الدوافع التى تدفع هذا أو ذاك للقيام بهذا العمل وتفتح مثل هذه الأبحاث المجال للتجريب مع صعوبته فى مثل هذه العمليات العقلية .

وترتكز هذه الدراسات النفسية على أساس لحالتنا الوجدانية فنخلع على الشيء المتأمل فيه والمدرک شعورنا وذاتيتنا بحيث يصير الشعور والشيء وحدة كاملة .

وتوجد كذلك بعض النظريات لتفسير هذه الظاهرة الغريبة .

يقول « لافج » : « إن الاستمتاع الجمالى الذى نحصل عليه من قطعة فنية يرتكز كلية على قوة وضوح العالم الذى يخلقه الفنان عن طريق فنه » .

ويقول « ترانت ألن » : « الشئ الجميل بحق هو ما يرهف الحس ويؤثر فيه أشد تأثير بأقل مجهود وتعب فيما يتصل بعمليات لا تتصل اتصالاً مباشراً بالوظائف الحيوية » والشئ القبيح حقاً عكس ذلك أى ما يقل تأثيره أو يكاد يندعم أو ما يتطلب لإجهاداً أكثر من اللازم لبعض الأعضاء فى الجسم .
وتقول « إيثل بفر » : « إن الشعور أو الاستثارة خلال الخبرة الجمالية يبلغ حد الكمال إذ يتحد من هذا الشعور عنصران متافران هما :

١ - عنصر الإثارة ؛ ٢ - عنصر الاستيعاب والراحة » .

ويقول « بلنير » : الدافع الجمالى للابتكار أو التأمل فى الجمال هو نوع من أحلام اليقظة التى قلما نشعر بها والتى تبدو فى تحقيق رغباتنا المحببة إلى نفوسنا والتى تقف دون التحقيق فى عالم الحقيقة : وتشبه هذه النظرية رأى « فرويد » القائل : « إن الدافع للابتكار والإبداع فى الفن هو تحقيق لرغبات لم تتحقق » .

ويمكننا أن ندرس الجمال من ناحية نقد الجمال أى من ناحية المعايير والمقاييس التى اصطلح عليها فى النوق للحكم على قطعة فنية . وقد صادف معظمنا هذه الناحية فى الصحف ونقد الكتب والمسرحيات . وإذا كان هذا النقد طيباً بنى على معرفة صحيحة لما يجب أن يكون عليه الفن . ففى أغلب الأحيان تغفل النظريات التى بنى عليها النقد لأن الناقد قد يسلم جدلاً بأن القارئ يعرفها . وهناك نقاد يعتقدون أن هناك معايير مخصوصة للنقد ، وآخرون يعتقدون بأن النقد رأى شخصى يعبر عن رد فعل فى الناقد لقطعة فنية

سادساً - الخبرة الجمالية أو الشعور بالجمال

الخبرة الجمالية أو الشعور بالجمال هو رد فعل نفسانى أو تفاعل يقع بين

الفرد وبين شيء ما ويشتمل هذا التفاعل على قيم إنسانية وميزات أو صفات نشعر بها . وعلى ذلك يتحدد هذا الشعور بعنصرى التفاعل وهما :

١ - مميزات الشيء الظاهرة [حجمه . شكله . خطوطه . ألوانه . أصواته] .

٢ - شخصية الفرد [غرائزه . رغباته . مثله العليا المكتسبة وما يتأثر به من حيث دراسته أو بيئته) ولذلك قد يستجيب الفرد لا استجابات مختلفة صادرة عن الشيء في ظروف مختلفة وهذا هو سر اختلاف شعوره وخبراته . وبالرغم من أن كل خبرة جمالية أو شعور جمالى قائم بذاته إلا أنها تتفق جميعاً في صفات مشتركة .

ولما كانت هذه الظواهر النفسانية تتشابه من فرد لآخر كان الشعور بالجمال يتشابه من فرد لآخر أيضاً . وهذا يمكننا من دراسة الخبرة الجمالية وتفهمها دون صعوبة، وخاصة إذا نحن لم نفصل بين الجمال كصفة كائنة في الجميل ، وبين الشعور به كشيء خاص بالشخصية الإنسانية . فالجانبان متكاملان لا يقوم أحدهما بدون الآخر .

طبيعة الشعور بالجمال

يعرفها علماء النفس بأنها الشعور بالتوافق الوجداني بين الحركات الانفعالية الداخلية وبين إحياءات الوحدة الجمالية . كما أن « ماكدوجل » يؤكد أن الشعور بالجمال حالة وجدانية صرفة . ومن هذا يتبين لنا ميزات هامة هي :

أولاً : أن الشعور يشتمل على طبيعتنا الوجدانية . ونعنى بها حالاتنا الشعورية على وجه العموم بما فيها من انفعالات و . . . إلخ . وهذا يختلف اختلافاً تاماً عن خبراتنا العقلية التى تعتمد على التفكير والمنطق . وقد وهب الإنسان العادى هاتان الناحيتان بدرجات متفاوتة فهو يواجه العالم بهما وهما :

١ - القدرة على التفكير « وهى أساس العلم » .

٢ - القدرة على الشعور « وهى أساس الفن » .

أما القدرة على التفكير . فنتناول الحقائق المجردة التي تبدو لكل فرد ثابتة بثبوت الظروف وهي قدرة منطقية تحليلية مبعثها الأساسي هو حب الاستطلاع والفضول . . إلخ .

فالإنسان ليله إلى النقد يأخذ في التعبير والتمييز فتجده يسبر غور الأشياء التي يجتبرها اختباراً دقيقاً . وليله إلى التشكك يحاول البحث عن البراهين والأدلة وجمع الحقائق . وليله إلى الفضول يسائل نفسه أسئلة لا حصر لها : ما هو أصل المادة ؟ وما فائدتها ؟ وما مميزاتها ؟ وكيف تتغير الظروف ؟ وما هي القوانين العامة التي تخضع لها ؟ . إلخ . مثال : إذا أردت أن أصف المكتب الذي أكتب عليه تناولت ارتفاعه . . اتساعه . . عمقه . . شكل أرجله . . عدد أدراجة . . نوع الخشب . . لونه . . تاريخه . . مكان عمله . فهذا وصف عملي يمثل الصدى العقلي لهذا المكتب خالياً من الانفعالات المختلفة لا تمتزج به أى عوامل شخصية .

أما الناحية الشعورية فهي تناول ما يخلج في صدورنا من إحساسات عن إدراك هذا الشيء وعند استثارة هذه الناحية لا يقتصر اهتمام الفرد على الحقائق المجردة أو تحليل المرئ ومعرفة الأسباب والمسببات بل على الوصف الجمالي له . مثال : وصف النخلة : ممثلة . تميل مع التسميم في رفق ودلال يضرب لون سعفها إلى الخضرة . تتفرع في تراخ واستسلام وكأنها تضرع إلى المولى في صدق وإخلاص أن يجيب لها مطلباً عزيزاً . فتل هذا الوصف الجمالي للنخلة يختلف تمام الاختلاف عن الوصف العلمي . ويسمى هذا وصفاً جمالياً ، ولو كان بإثبات مساوى المرئ لا محاسنه إذ كلاهما تعبير عن الشعور الذي نحس به تجاهه . ولا بد لنا أيضاً من الإدراك العلمي لمعظم الأجزاء مع الخلع عنصر الشعور والوجدان عليها .

ومن هاتين الناحيتين : العقلية ، والوجدانية ينتج نوعان من المعرفة لهما أهميتهما فالناحية العملية تساعدنا على استخدام المرئ في قضاء حاجاتنا بينما تساعدنا الثانية على أن نخلق من هذا المرئ ما يناسب مشاعرنا . والنوعان غير

منفصلين تمام الانفصال . ولو أمكننا التمييز بينهما — وعلى ذلك فإننا نستبعد من مجال الجمال أى خبرة لا تمتزج بالانفعال .

ثانياً : إن الخبرة الجمالية خبرة تأملية بكل معانى الكلمة ولا تؤدي إلى عمل ما . فهي لا تثير فى أنفسنا دوافع تعمل أثراً لإزاء الشيء ، وعلى ذلك لا تكون كل خبرة لها انفعال خبرة جمالية . ففى حياتنا العادية تدفعنا الانفعالات إلى عمل شيء كروية صديق غاب عنا كثيراً مثلاً

وفى الخبرة الجمالية مهما كان انتباهنا مركزاً ومثيراً للرضا أو الاستياء . لا يتطلب هذا مطلقاً أى دوافع نحو عمل مخصوص إذ يملكنا الشيء تملكاً تاماً . بحيث يملأ كل جوانب النفس . ومع أن كل عرق ينبض فينا يستجيب لهذا إلا أننا لا نعمل شيئاً مطلقاً تجاهه فنحن لا نفكر فى تركيبة أو فى التساؤل عنه بل ننجذب إليه انجذاباً مغناطيسياً وفى اللحظة التى نبدأ فيها التفكير فى هذا نقف نظرتنا الجمالية .

ويفرق « فرمون » فى كتابه « الجميل » بين ثلاثة أنواع من وجهات النظر تجاه شيء واحد توضح ما سبق ذكره إذ تخيل ثلاثة من الرحالة على قمة تل يتحدثون عن المنظر الذى يقع أمامهم . ويمثل كل منهم وجهة من وجهات النظر عملية وعلمية وجمالية على التوالى .

١ — فالعلمى : يفكر فى احتمال خلق مدينة عظيمة بإنشاء المصانع فى الوادى ومساكن على السفوح وطرق استغلال قوة المياه المنحدرة فى توليد الكهرباء .
٢ — والعلمى : يفكر فى طبيعة التل ، وتركيبه الجيولوجى والمدة التى كان فيها مغموراً تحت ماء المحيط .

٣ — والجمالى : يتحدث نفسه قائلاً : « أود أن يخرس لسانا هذين الرجلين وأن يبتعدا عن هذا المكان حتى يتمكن المرء من الاستمتاع بروعته من غير تشتيت الانتباه فيما ذهباً إليه . فكأنهما لا يشعران بأى جمال فى هذا المكان . : : »
وعلى ذلك فإن الناحية الجمالية تركز انتباهنا فى المنظر كوحدة لها كيانها الخاص هى غاية فى حد ذاتها لا وسيلة . وترسل هذه الخبرة إذا ما أسبغنا على

الشيء صفات من وحى شعورنا .

متى نشعر بالخبرة الجمالية ؟ وكيف نوجه أنفسنا هذه الوجهة الجمالية ؟
الخبرة الجمالية لا يمكن اصطناعها فهي نتيجة لمزاج خاص ، ولحدوثها
لا بد من أن تكون لنا رغبات ومثل العليا نسعى إلى تحقيقها . ويقف عالم
الحقيقة حجر عثرة دون ذلك . ولذا يجب أن نكون خياليين عاطفيين ،
أو انفعاليين وهذه هي مؤهلاتنا نحن الطبيعيين التي يتناسب معها التأثير
تناسباً طردياً بمعنى أنه يوجد بوجودها وينعدم بدونها . وهذه تكاد تكون في
حيز العدم .

فالفنانون يمتازون كأفراد بأن لهم استعداداً أكبر من غيرهم من حيث
نظرتهم في هذه الحياة كيفاً وكمّاً . ويشترك الناس جميعاً في مقادير متفاوتة
من القدرة على التأثير بالجمال الذي يكون في بعض الأحيان نتيجة لصراع الحياة .
ولحسن الحظ يمكننا أن نعمل بفضل التمرين ومساعدة الفنانين على تنمية
مؤهلاتنا الجمالية ، لا كبها . وإذا لم توجد هذه الميزة الأخيرة . كانت
دراسة الفن والجمال لا قيمة لها . اللهم إلا في إشباع نهمة العقل لا غير .
وتمتلئ لغتنا العادية بتعبيرات تدل على أننا نتأثر جمالياً بأشياء خارجة عن
شعورنا ، لذلك نقول مثلاً « انعطف النهر ، وتثنى خلال الوادي » « وأمطرت
السماء لؤلؤاً » « وعضت على العناب بالبرد » . إلخ ذلك من معان تملئ بها
أبواب الكنايات والاستعارات والتشبيهات ومثل هذه التعبيرات إذا أمعنا النظر
فيها نجد أنها لا تقبل مقابلة حقيقية أى شيء مما نصفه بها . فهي مدركات
جمالية متبلورة ترد على الألسنة عن طريق التقليد . وإذا احتضن العقل هذه
التأملات احتضاناً كاملاً بحيث نشعر بها بوضوح لحصلنا على خبرة جمالية بمعنى
أن الكلمة يتبعها في الغالب شعورنا بالرضا والارتياح أو عدمه . وإذا صادفت
هذه الصفات هوى في النفس وإشباعاً . انتقل شعورنا من الشيء إلى قرارة
أنفسنا وشعرنا بهذه الحالة العجيبة التي تسيطر على جزء في جسمنا كلما بدت
ميزات هذا الشيء لنا . وكلما قوى الاستمتاع كملت الناحية الجمالية .

ومن أسباب الشعور بالجمال القدرة على إدراك الشيء كوحدة إدراكاً كاملاً ، ولا بد من أن تكون لدينا القدرة على تركيز انتباهنا فيه تركيزاً تاماً بحيث نستبعد من شعورنا كل ما عداه . ويمكنك إدراك صعوبة مثل هذه العملية إذا قارنت ملاحظاتك على صورة أو منظر بملاحظات فنان أو حاولت أن تكتب أفكارك عن قطعة ما لمدة خمس دقائق في مثال « رباط العنق وأنه جميل وكَم ثمنه ؟ من أين اشتريته ؟ وهل يوجد مثله إلخ ، . . . » .

ولذلك كانت أهمية تنمية هذه القدرة فينا ضرورية لأن الخبرة الجمالية بمعنى الكلمة هي أن تنظر إلى الشيء كما يقول : « روبرت جونسن » . كما لو كنت تنظر آخر مرة إلى حبيب عزيز لديك فيجب أن تسلم نفسك كلية للشيء وأن تجعله يقودك حيثما شاء .

ويبدو التناقض وتظهر الاستحالة — مالم يتوافر لدينا هذان الشيطان :

- ١ — تركيز انتباهنا في الشيء بحيث نجعله يشغل كل حواسنا شغلاً تاماً .
- ٢ — تجريد الشيء من كل شوائب الشخصية التي تجعلنا نترع إلى شيء ما .

ففي الوقت الذي نقرب فيه الشيء كل القرب من أنفسنا بحق ، نبعده كل البعد عن رغباتنا العملية وتعد هذه المشكلة « مشكلة المشاكل في الفن » .

ولكن هذا التناقض الظاهري يزول إذا ما شَبَّهنا الحالة النفسية بشعور الطفل تجاه لعبة إذ تسمح له خصوبة خياله أن يهيئ لنفسه من لعبته أشياء حسية حقيقية بالنسبة له تحقق ما هو محبب إلى نفسه وهذا ما يسمى « باللعب الإيهامي » .

وكذلك الشيء الجميل الذي تقع عليه أعيننا كتمثال أو مسرحية هو في الواقع حقيقى ونحن نعلم ذلك ، ولكي نصور لأنفسنا واقعية إدراكنا الجمالى له بحيث يصبح حقيقة كالألم الذي يتمثل في وجه التمثال . أو الجو الحزن الذي تشعه نعمة ما . وفي اللحظة التي يقف فيها هذا التخيل يقف تقديرنا للجمال . إذ تتضح لنا حقيقة الشيء ، ونعرف أن ما نراى لنا إنما هو من التربية وطرق التدريس — ثان.

محض الخيال ، والتناقض هنا يبدو فيما يأتى :

١ - أننا نشعر أنفسنا بأن الخيال حقيقة - بالرغم من أننا فى قرارة أنفسنا نعرف أنه خيال .

٢ - أن درجة شعورنا هذه تبلغ درجة لا تتجاوزها بمعنى أنه لو انضج لنا لسبب ما أن تصورنا وخیالنا هذا خاطئ لوقف شعورنا بالجمال . ولنطبق ذلك على مثال مشاهدة مسرحية فى مسرح .

(١) أن المسرحية تشغل كل انتباهنا للدرجة أننا لا نشعر فى « تياترو » وخیل لنا أن هذه قطعة حقيقية من واقع الحياة .

(ب) ولكن إذا ما أقبل الممثل مثلاً فى منظر يقتل فيه ليلاه وقتلها فعلاً لكانت النتيجة صدمة نفسية وثورة يقف معها الاستمتاع بالجمال . ويتحول الانتباه إلى ناحية عملية كالتفكير فى القبض على الجانى أو إسعاف المصاب . وأخيراً نقول : إن القيم التى ندركها فى الشيء تتوقف فى استمتاعنا به على ما يأتى :

١ - التأمل نفسه ٢ - الشيء المدرك ٣ - وجهة النظر تجاهه .

هذا ويمكننا إدراك الشيء من ثلاث نواح هى :

١ - الناحية الوظيفية ٢ - الناحية الشكلية ٣ - الناحية التعبيرية .

سابعاً - أهم نظريات الجمال السيكلوجية

إن دراسة قطعة فنية دراسة موضوعية هى دراسة تتعلق بالصيغة ونخرج عن دائرة الدراسة النفسية لهذه القطعة التى تعتمد على الخبرات التى تتصل بالجمال .

وتذهب بعض المدارس إلى أن جمال أى قطعة فنية لا وجود له إلا بما نخلعه عليها من شعورنا ، فبدلاً من أن نقول إن هذه القطعة جميلة . ينبغى أن نقول إن فيها ما يثير إحساسات قيمة تشبع حاجات فى أنفسنا - ولا وجود للجمال الموضوعى فى عالم الطبيعة أو الفن كما أنه لا وجود للجمال إلا بوجودنا .

أولاً - نظرية ريتشارد "Richard Pericles"

إن الأشياء ذات القيمة هي التي تشبع في نفوسنا شهوة ما أو ميلاً بحيث لا يتعارض هذا الإشباع مع ميل آخر يساويه أو يزيد عنه وبمعنى آخر : إن السبب الوحيد في عدم إشباع حاجة نشعر بها هو أننا نخشى كبت رغبات أخرى أكثر أهمية .

ولكن ما هي الحاجات أو الدوافع الهامة وغير الهامة ؟ هل عندنا مقياس نقيس به هذه الأشياء ؟

إن المقياس الذي يقترحه «ريتشارد» هو «أن أهمية أى دافع يمكن أن تعرف بمدى تأثير كبت هذا الدافع في نشاط الإنسان» .

وهو يذهب كذلك إلى أن هذا الكبت يكون أضعف ما يكون أثراً في نفس الإنسان إذا ما نظمت استعداداتنا في مجاميع منسقة ، لأنه لو أشبع الإنسان كل رغبة عند وجودها بصرف النظر عن باقى الرغبات لما كان هناك فارق بينه وبين الحيوان ، وهذا التنظيم يستدعى إخضاع الدوافع الأخرى . وعلى ذلك تجد النفس صعوبة في تحديد أى المجموعات أصلح . ويرد «ريتشارد» على ذلك مطبقاً نفس الأساس وهو «أن أصلح المجموعات هو الذى لا يفوت على الإنسان احتمالات كثيرة» . على أنه ليس للتنظيم قيمة في حد ذاته فكل تنظيم يتوقف في أهميته على الغرض الذى يخدمه - فكلمات القاموس منظمة وهى فى القصيدة الشعرية منظمة كذلك ففكرة التنظيم هذه تتعلق بالغرض المقصود .

ثانياً - نظرية ألكسندر Alexander

وتمتاز عن سابقتها بعض الشيء في إبراز أهمية العمل . فالجمال صفة لا يمكن إدراكها حيث لا توجد حاسة خاصة من شأنها هذا الإدراك كما ندرك الشكل بالنظر واللمس فالجمال هو "علاقة بين الشيء والعقل" .

والحكم على قطعة فنية بأنها جميلة . يلى تفهم ودراسة هذه القطعة وأهم ما يميز هذا الحكم أن القطعة تفهم لذاتها لا لأى غرض آخر ولا يكون تفهمها مجرد ظهورها أمامنا بل لذاتها . وهذا رأى غير نفعى ويمكن التمثيل لذلك باللغة . فإن الغرض النفعى فيها هو الاتصال بالغير ولكنها تستعمل كوسيلة للتأمل والتفكير فى حد ذاتها لا لغرض سوى الاستمتاع الذى يعطيه شكلها . وأول من اكتشف اللعب بالكلام وأنه إشباع فى حد ذاته هو الشاعر فهو الذى يخلق من الكلمات أشياء ذات قيمة فى حد ذاتها .

التقدير الجمالى

يقول علماء علم النفس إن جمال الشيء هو ما يشبع حاستنا الجمالية وإشباعها يكون عن طريق تذوق أو تقدير وحدة الانسجام الكامنة وإعطاء قيمة للعلاقات الموجودة بين مدركاتنا الحسية . والتذوق غير التقدير . فالتقدير حالة للشيء . أما التذوق فحالة استمتاع تحت الشعور يغلب فيها الطابع الوجدانى . ويكفى فى التذوق ذلك التفاعل الضمنى بين الشيء الجميل والمرء المستمتع به . أما التقدير فلا يتأتى إلا بدراسة تحليلية للموضوع الجمالى تصحبها معرفة بالعلاقات الفنية ووجوه التعبيرات المختلفة حتى يتسنى إصدار حكم أو عقد مقارنة . . . وهكذا فإن ناحية التقدير الجمالى تجذب اهتمام المربين أكثر من ناحية التذوق .

تعريف التقدير

يقصد بالتقدير Apperciation معرفة قيمة الشيء والتمتع بها وتستعمل هذه الكلمة فى المعانى الآتية :

١ - القدرة على الحكم أو تقدير قيمة قطعة من الفن على ضوء المعلومات السابقة أو الخبرة .

٢ - حصر التقدير في المقدرة على الاستمتاع بالفن وإشباع النفس منه .
ولا شك في أنه لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر إلا أن المعنى الأخير هو
ما يهمننا في التعليم العام فإن أغلب التلاميذ لا يستطيعون كسب المهارة الفنية
الكافية بحيث يجعل ذلك غرضاً عاماً من تعليم الكل . فلا بد أن يكون الغرض
من التعليم العام هو غرس القدرة على الاستمتاع بكل ما يمكننا العصر الحديث
من أن نحصل عليه من إنتاج صناعي . والتقدير محدود بأربعة جوانب :

(أ) تقدير الجمال في عمل الطبيعة أو الإنسان .

(ب) تقدير الطبيعة البشرية وما يتجلى فيها من تضحية أو هدوء أو
صبر . . . إلخ .

(ج) تقدير الأشياء الفكهة التي تبعث السرور في النفس .

(د) تقدير القوى العقلية مثل جمال الأسلوب ، وحسن السبك والتتابع
المنطقي ^(١) .

أهمية التقدير الجمالي

أولاً : في عمل الطبيعة والإنسان :

نجد أن لتقدير الجمال في هذه الناحية أهمية من حيث :

١ - الاستمتاع والتسلية : - فتقدير الأطفال للجمال أو قيامهم بأعمال
فنية ما هو إلا إدخال لعنصر اللعب في حياتهم الفكرية وإمدادهم بأحسن
الطرق لقضاء أوقات فراغهم . وإن هروب النفس من عملها إلى قطعة فنية
تتمتع بها مما جعل « شوبنهاور » يلقب الفن بأنه تحرير وقتي .

٢ - أهميته الاجتماعية : التقدير الجمالي ضروري لا ندماج الفرد في بيئته
لأن الجنس قد أورثنا العلم والتاريخ والفن ، والنفس لا تشعر بأنها وحدة
من المجموع الإنساني كله إلا إذا قدرت الجمال .

٣ - أهميته الخلقية : إن التعلق بالجمال يساعد على التعلق بالخير والنفور من

الشر فيكون عمل الفرد مبنياً على أساس خلقى ولكن الدوافع له جمالية فى الواقع^(١) .
 ٤ - أهميته السيكلوجية : إن الحاسة الجمالية هى التى تميز الإنسان عن الحيوان ما من شك فى أن تهذيب الناحية الجمالية ضرورى لتربية الفرد .

٥ - أهميته التربوية : هى من أهم النواحي التى تتجه إليها التربية فى الواقع .
 فسرحة من مسرحيات « شكسبير » مثلاً تعنى أكثر من مجرد عبارات لغوية انسجمت وقواعد تناسقت وذلك لأن فيها جمالاً لا نشعر به إلا بالتقدير ولو عز علينا تقديرها فيها من جمال لضاعت قيمتها . ولذلك يذهب بعض مدرسى اللغة إلى أن تعليمهم ليس تحليلاً وتشرحاً لها . ولكنه فن يثير فى الطفل التقدير الجمالى والقدرة على الابتكار فى التعبير عن النفس . ومعلوم اللغات الأجنبية يرمون من وراء استعمال الطريقة المباشرة فى تعليم اللغة إلى جعل هذه اللغة فناً جميلاً يغرس القدرة على مشاركة الغير فى أفكاره .

كذلك تعتبر القطع الرائعة فى التصوير والموسيقى والنحت جنباً إلى جنب مع القطع الأدبية الجميلة التصوير للمعاني . فهذه كلها مثيرات للشعور الجمالى فى الطفل . ويعتقد البعض أنه من المرغوب فيه غرس الذوق الجميل فى الطفل أملاً فى أن يشعر بالاشمئزاز من المناظر القبيحة المحيطة به فينفّر منها ويترع نحو ما هو جميل يحارى ذوقه ويساير عواطفه .

ثانياً : تقدير الجمال فى الطبيعة البشرية :

ويقصد بهذه الناحية تقدير الحياة الإنسانية فى نواحيها المتعددة كتقدير فضائلها وتقدير آثارها وتقدير الشخصيات العظيمة فيها . ويمكن استشارة هذه النواحي بالأمور الآتية :

(أ) بدراسة التاريخ والأدب ودراسة الناحية الإنسانية من الجغرافية .

(ب) بوساطة الاحتكاك بالناس . فهناك علاقة كبيرة بين الغرائز الاجتماعية وبين هذا النوع من التقدير - وهذا هو مايسمى بالأساس السيكلوجى لتقدير الجمال فى الطبيعة البشرية .

(١) مجلة الاتحاد الدولى للرسم والتربية الفنية : العدد الثانى من السنة الثانية ص ١٦ .

ثالثاً : تقدير الأشياء الفكاهية :

من الأمور التي تروح عن النفس أن يكون هناك شيء من الفكاهة المستملحة التي تتفق ومقاييس الأخلاق والذوق السليم فكثير من الناس يستمتعون بالفكاهات لكنهم لا يلبون التلبية الصحيحة لها ولكن هناك أشخاصاً سريعي الفهم والبديهة يمكنهم تقدير النكتة والفكاهة على أنه من الثابت أن تقدير الغير للفكاهة يتوقف على عاملين مهمين هما :

(أ) كيفية إلقاء النكتة أو الفكاهة .

(ب) مدى ما تحمله من جمال يتمكن السامعون من تقديره .

رابعاً : تقدير القوى العقلية :

ويدخل في هذا النوع التمتع بالأسلوب والتفكير المنطقي كما يدخل فيه أيضاً التمتع بقطع الأدب شعراً كانت أم نثراً - وكذا التمتع بلحن موسيقى أو بقراءة بحث علمي .

والناس يختلفون في تقديرهم للقوى العقلية . فمثلاً القطعة الموسيقية الرائعة لدى فرد من الأفراد قد يمل سماعها الآخرون، والرسم أو الشعر الذي يبعث على التقدير عند بعض الأفراد قد يبعث على النفور عند البعض الآخر - وكذا الحال عند رؤية صورة من الصور؛ فقد يراها البعض فنية جميلة الألوان ثم عن فكرة قيمة وعاطفة جياشة فيتأثر بها . ويراهم الفريق الآخر فلا يتأثر بها ولا يلتفت إليها .

تحليل عملية التقدير

سبق أن فرقنا بين التذوق وهو حالة استمتاع . والتقدير وهو حالة حكم والحكم من حيث الترتيب السيكولوجي تال للاستمتاع وأكثر أهمية وأبعد أثراً منه ونستطيع أن نلمس ذلك إذا تناولنا الناحيتين بالتحليل .

فالتذوق مثلاً هو التفاعل الضمني بين الشيء الجميل والمرء المستمتع به - وهذا أمر مشترك بين الناس جميعاً والفروق فيه مرجعها أولاً وقبل كل شيء إلى

البيئة — هذا إلى أن التذوق يتناول القيمة الشعورية للشيء ككل دون العرض
لجزئياته .

أما التقدير فيختلف فيه الناس ويرجع ذلك إلى نوع ثقافتهم وتفاعلهم
مع المجتمع .

وهو يتناول القيمة الإدراكية للشيء على أساس إدراك العلاقات المختلفة
بين عناصره ومعرفة تركيبه ويساعدنا على ذلك عوامل معقدة « كحب الاستطلاع
والرغبة في العمل والميل إلى الحل والتركيب » إلى غير ذلك من العوامل ، ثم يلي
هذا إصدار الحكم .

إن تقديرنا لشيء ما يتأثر بناحيتين يمكن تلخيصهما فيما يأتي :

(أ) الناحية الذاتية : Subjective Element والمراد بها الحال النفسية
التي عليها المقدر من حزن أو هم أو فرح أو سرور . . إلخ . ثم مقدرة هذا
الشخص على أن ينظر الأثر الفني بالمنظار الذي ينظر به متجه .

(ب) النواحي الموضوعية في التقدير Objective .
وتشمل كل ما من شأنه أن يتصل بالنواحي الحسية وبالشكل . والعناصر
الحسية مثل اللون في الصورة والنغمة في الموسيقى . أما الشكل فمثل انسجام
الأشكال في الرسم وتناسق النغمات في الموسيقى وتناسب الألوان في الصورة
وتداخلها بعضها في بعض إلى غير ذلك .
وإلى جانب هاتين الناحيتين عوامل أخرى تدخل في تقديرنا . منها عامل
الشهرة للفنان وخبرتنا بالموضوع ، وفهمنا لما نقدره . . إلخ من العوامل التي تساعد
على التقدير وتساعد على دقته وهي :

- ١ — فهم المعنى : ونقصد منه فهم القطعة الفنية شعراً أم نثراً . أو معرفة
الغرض من اللحن أو الرمز المقصود من الصورة أو مغزى القصة .
ولا يمكن إهمال هذا العنصر « فهم المعنى » في التقدير .
- ٢ — الربط واتصال الشيء بغيره : والمقصود به ربط الأشياء التي تستدعي
التقدير الجمالي بالخبرات والتجارب السابقة للإنسان .

٣ - الإلمام بالموضوع وتكراره إلى حد محدود .

٤ - العناصر الحسية ، كاللون في الصورة ، والنغمة في الموسيقى ، وعذوبة اللفظ في الشعر ويختلف الناس في هذا المضمار فقد يجذب انتباه بعضهم ما لا يجذب انتباه الآخرين .

٥ - الشكل : فانتظام الأشكال في الرسم ، وتناسق الأنغام في الموسيقى ، وانسجام الألوان في الصورة له أثر كبير في عملية التقدير الجمالى وذلك لأن الانتباه يتأثر بالناحية النظامية التى تسود الأشياء وبذلك تطول مدة الانتباه إليه .

٦ - مهارة الفنان : ولها الأثر الكبير في التقدير ويرجع التأثير إلى عامل الاستواء . فسمعة الفنان تساعد على تقديرنا لمنتجاته فإذا قارنا الصورة أو القصيدة باسم أحد مشاهير الفن كان ذلك أدعى إلى التأثير والإقناع .

وهذه العناصر لا يشترط توافرها عند التقدير ؛ فقد يستطيع المرء التقدير بعنصر واحد أو بعنصرين .

الحواس والتقدير

إن القصد من التربية الجمالية هو تشجيع وتذوق وتقدير الجمال في أشكاله العليا ويكون ذلك عن طريق الناحية الذاتية للإنسان من حيث حواسه التى تتأثر بالشيء الجميل الخارج عنها . وتنقل له هذا التأثير . وعلم النفس يدعو إلى تقسيم الحواس إلى : عليا ، وسفلى ، بحسب ارتباطها بالناحية العقلية أو التفكيرية التى هى العنصر المميز للرقى في التطور الحيوانى ، ويلاحظ أن البصر والسمع أعلى من اللمس والذوق الحسيين . فما لا شك فيه أن حاستى السمع والبصر هما الحاستان الأساسيتان اللتان عن طريقهما تنبعث الانفعالات الخاصة بالجمال . ولا يقتصر التأثير بالجمال على هذين المجالين . بل يقبل المرء ما يتأثر به الكائن الإنسانى ويدركه ككل . ويربط هذه التأثيرات بالقوة المفكرة بحيث تقرب جميع الإحساسات إلى المرتبة العليا ويؤيد هذا ما ذكره « سترت

وأوكدن^(١)، من أن حواس اللمس والشم والذوق قد ننظر إليها نظرة تجعلنا نهمل أمرها - ولكنها في الحقيقة وسائط ذات أثر فعال في الاستمتاع بالجمال وتقديره . وإن نزهة خلوية في وقت شروق الشمس في حديقة غناء واستنشاق ما ينبعث من الأزهار كفيلا بأن تثبت مدى ما يشعر به الفرد من لذة واستمتاع وإن النوم على فراش وثير وتناول ما لذ وطاب من الأطعمة والشراب يدخل في النفس السرور والاستمتاع بالجمال الحقيقي .

فواجب المدرسين تدريب وتهذيب مختلف الحواس والعمل على زيادة الحساسية والقدرة على التمييز دون الاقتصار على حاستي السمع والبصر كوسيلتين للاستمتاع بالجمال دون غيرهما والوصول بهذه الحواس جميعها إلى درجة تجعل تقدير الجمال حافلا ، وبذلك يمكن الانتقال بالطفل من مرتبة السذاجة والإعجاب بما في العمل الفني من ميزات شكلية تسرع انتباهه كاللون في الصورة مثلا إلى تقدير شخصي للعوامل المعنوية الدفينة التي تم عنها هذه الصورة الفنية ، وهذه أرقى درجات التقدير الجمالي .

وهذا هو الأساس الذي رمت إليه الدكتورة « منتسوري » من تدريب الحواس كلها باستخدام الأجهزة الآتية :

- ١ - أجهزة خاصة للتدريب على التمييز البصري - « التمييز بين الألوان المتعددة » والتمييز بين ظلال اللون الواحد .
- ٢ - أجهزة خاصة للتدريب على التمييز السمعي ومنها النواقيس الموسيقية .
- ٣ - أجهزة خاصة لتدريب حاسة اللمس وذلك بإمرار الأصابع على الأشياء الخشنة ثم التدرج منها إلى الأشياء الناعمة الملمس .
- ٤ - التمييز بين الروائح كأن يعصب عيون التلاميذ ويشقون رائحة معينة .

العوامل التي تعوق عملية التقدير الجمالي

- (١) عاطفة الكراهية بين الطفل والمدرس .

(ب) ارتباط الشيء المراد تقديره بذكرىات تبعث على السرور أو بمواقف مؤلة .

- (ج) كبرياء الشخص الذى يقوم بالتقدير يفقده صحة التقدير .
 (د) ضعف البصر أو السمع وغير ذلك من العوائق الجسمانية .
 (هـ) تشتيت الانتباه . فوجود ما يوزع الانتباه ويشتت كالموضوعات يؤثر فى القوى الذهنية .

دروس التقدير

الغرض من هذه الدروس هو تربية الوجدان وتقدير الفن والجمال ومن فوائدها :

١ - أنها تلعب دوراً كبيراً فى الترويح عن النفس والإفادة من أوقات الفراغ .

٢ - أنها تحب الفرد فى المثل العليا والمبادئ السامية فيحب الحق من أجل الحق ، والخير من أجل الخير ، ويولع بالجمال لذات الجمال .

٣ - أنها تطبع الإنسان بالطابع الفنى وتجعله يتذوق الجمال من أجل الجمال .

٤ - أنها دروس لا تقم للمادة وزناً يغلب عليها الناحية الروحية ^(١) .

ودروس التقدير تختلف عن دروس الرسم والحفر والأشغال اليدوية التى يكون هدفها كسب المهارة لا الاستمتاع بالجمال - فقراءة قصيدة من الشعر أو سرد قصة أو عرض صورة أو إلقاء فكاهة لما فيها من فن وجمال لا يمكن أن تؤدى نفس الغرض المراد إذا وجهنا اهتمامنا إلى الدراسة الشكلية وما بها من محاكاة لفظية . فالوجدان شىء والمعرفة شىء آخر .

الأسس التى تبنى عليها دروس التقدير

- ١ - كلما كانت الدروس بطيئة ومستمرة كانت أدم وأبقى أثراً لأن عملية التقدير عملية تدريجية تنتقل شيئاً فشيئاً .

٢ - لا بد من وجود ألفة وميل إلى الشيء المراد تقديره ، فالألفة تؤدي إلى المعرفة التي توصل إلى التقدير الصحيح .

٣ - ينجح المدرس نجاحاً عظيماً إذا وجه الطفل التوجيه الذي يصل به إلى أن يكون التقدير عنده ذاتياً « تلقائياً » .

٤ - لا يكون التقدير ناجحاً إلا إذا صدر عن مدرس يعرف كيف يقدر حتى يتمكن من إثارة هذا التقدير في تلاميذه . ففاقد الشيء لا يعطيه .

٥ - يحسن أن يتبعد المدرس عن التفاصيل الفنية الدقيقة في الموسيقى والرسم وباقي الفنون .

وهناك أمور تجب مراعاتها وهي :

- (أ) تشجيع الحماس للنواحي الفنية التي نعرضها على الأطفال .
- (ب) عدم تقييدهم بوجهة نظرنا في تقديرنا للأشياء .
- (ج) عدم معارضتهم فيما يرونه من نواحي الجمال .
- (د) تشجيع الأطفال على اختيار الأشياء التي تتفق وأذواقهم .
- (هـ) أن تسود التقدير روح اللعب . فإن الروح الديمقراطية أعظم الأثر في ناحية التقدير الجمالي .

ميدان الخلق والابتكار

ماهو الابتكار ؟ قد يأخذ النشاط الابتكاري شكله في أى وقت وفي أى مكان وفي أى مادة ، فليس الابتكار مادة أخرى تضاف إلى مواد المنهاج أو منفصلة عنه ، وليس كل النشاط في المدرسة نشاط خلق وابتكار ورغم أن كل وجه من أوجه الحياة المدرسية تكاد تكون فيه فرصة - قليلة كانت أو كثيرة - للمساعدة على خلق هذه الروح الابتكارية في الطفل ، على أن بعض المربين يدعى أن كل تفكير الطفل في عالمه المدرسي ابتكار ، ولكن هذا في الواقع إعادة أو تكرار واسترجاع لمعلومات غيره ونشاطهم ، أو هو

عبارة عن تعود وتقليد لأعمالهم دون تفكير ، فيلزم لكي يتحقق الابتكار أن تظهر علاقات وارتباطات جديدة لحقيقة من الحقائق سواء أكانت هذه الحقيقة معروفة أم غير معروفة ، وفي هذه العلاقات والارتباطات الجديدة تجدد للمادة المعروفة يؤدي إلى معنى جديد يصح أن يطلق عليه « لفظ ابتكاري » ، ولا يلزم بطبيعة الحال أن يكون هذا الجديد بالنسبة للطفل جديداً بالنسبة للإنسانية أو الجماعة . وإذن لا يمكن أن نقبل ما يردده بعض الناس من أن كل التعلم ابتكاري لأنه جديد على الطفل وإنما هناك أنواع منه يمكن أن تسمى بالتعلم الابتكاري وهو الذي يساعد الطفل ليرى علاقات جديدة تزيد من إدراكه . وأما أنواع التعلم الأخرى التي تجعل مهارات الطفل وخبراته « أوتوماتيكية » تقليدية فليست ابتكارية ، فبعد أن يعرف الطفل كيف ولماذا $8 + 9 = 17$ لا يزال يحتاج إلى مزيد من التعلم قبل أن تصبح عملية الجمع هذه عملية « أوتوماتيكية » ، وكذلك في معرفة وإدراك حرف ب والحركات اللازمة لتعلمه وكتابته كتابة صحيحة لا يزال يحتاج إلى تمرين ليخيد تعلمه . وهذه الخبرة هي التي يمكن أن نطلق عليها الابتكار في التعلم ^(١) ، وفي نظم التعليم التي كان التعلم يسير فيها على طريقة الاعتماد على الذاكرة والحفظ دون فهم وإدراك للمعنى كانت الفرصة قليلة جداً لخلق الروح الابتكارية عند الأطفال ، فالخبرة الابتكارية إذن يمكن النظر إليها من وجهين :

فن ناحية المعنى العام تشمل إيجاد تفسيرات جديدة وعلاقات جديدة في التفكير والتعلم . ومن ناحية المعنى المحدود للابتكار تتضمن إيجاد تفسيرات لأفكار وآراء ومشاعر الشخص بشكل ملموس يعبر تعبيراً صحيحاً عن رأى مبتكر . وهذا يمكن تطبيقه على : الموسيقى ، والفن ، وغيرهما من أنواع النشاط التي لها قيمتها من حيث التقدير والنفعة ومن حيث هي وسيلة من وسائل التعبير الابتكاري .

قيم النشاط الابتكاري : في النشاط الابتكاري يتاح للطفل أن يقف

على مواهبه وقدراته ، فتشجيع النشاط الابتكارى عند الطفل يعطيه الفرصة لاكتشاف ما يقدر عليه ، Self Discovery لأن التعليم التقليدى لا يسمح له إلا بتكرار ما قيل له أو كتابة أو نسخ ما رآه هو وزملاؤه ، ولكن المطلوب أن يكون التلميذ أصيلاً يكتب بأسلوبه الخاص وينطق بتعبيره الخاص ويسجل نتيجة إحساساته ومشاعره الخاصة إزاء الموضوع لا أن يكون مقلداً لزملائه أو مدرسه وبذلك يكشف بنفسه مواهبه الحقيقية الخاصة .

وتشجيع النشاط الابتكارى يخلق فى الطفل الاعتماد على النفس Self-Reliance فحينما يرى الطفل أو يتوقع أنه لا يمكنه أن يعتمد الاعتماد كله على مدرسه أو زملائه سوف يبتدىء فى الاعتماد على نفسه ، وربما بدأ هذا بشكل مبسط ، ولكن سرعان ما ينجح شيئاً فشيئاً فتزداد مقدرة اعتمادة على نفسه بسرعة .

والنشاط الابتكارى يطبع الطفل على المثابرة Persistence ، ففى العمل الابتكارى يرى الطفل الهدف وبعض الخطوات الضرورية للوصول إلى ذلك الهدف فيكون غرضه الوصول إليه ، وسيكون هذا الهدف من الحيوية والأهمية بحيث تصبح المشكلة مرغوباً فيها وذلك مما يسبب لإصرار الطفل على الوصول إلى الهدف والاستمرار فى العمل للتغلب على المشكلة .

وأيضاً يعود الحماس Enthusiasm ، فالقوة الابتكارية ذات مغزى وهى مشوقة وذات غاية ، وما دام الطفل يعبر عن ذات نفسه تعبيراً مفهوماً له ويؤديه بنجاح فلا بد وأن يتحمس له ويستمر فيه حتى يتمه .

ويعوده أيضاً الأمانة العقلية Intellectual honesty ، فمعظم الأعمال المدرسية يؤدبها التلميذ إذا طلب منه المدرس ذلك أو رغب فيه لأجل أن يكتسب التلميذ وده ويحصل على درجة عالية لا بد من أداء هذا العمل ، وقليل من الأطفال من يعترف بينه وبين نفسه بقيمة عمله ، وبالتالي بقيمة الجهد الذى ينفقه فيه ، ولكن إذا كان العمل ابتكارياً فإن الطفل يؤدى هذا العمل لذاته لأنه يؤمن بأن لهذا العمل غاية يسعى وراء تحقيقها .

ولا يخفى ما للنشاط الابتكارى من أثر فعال فى خلق المخاطرة العقلية

Intellectual asdventure بل ربما انفرد بهذه المخاطرة دون غيره من أنواع النشاط التعليمي الأخرى ، ولذلك فإن أنواع التعليم التقليدي كانت وما زالت تفتقر إلى هذا النوع من المخاطرة .

كما أن له أثراً محموداً في استغلال أوقات الفراغ ، فالفراغ اليوم أصبح يستغل استغلالاً نفعياً ، وهذا مريح لنا من عدة وجوه خصوصاً إذا خلقنا بأنفسنا ما يجعلنا سعداء ، فلا يمكن أن يكون لأي نوع من أنواع النشاط للفرد قيمة أكثر من تلك الأنواع التي يخاطر فيها بنفسه في المجال والميادين الابتكارية . وهو يمنح الطفل القدرة على تقدير الجمال ، فإدام الطفل الآن ينجز أشياء لها قيمة بالنسبة إليه فإنه يقيم وزناً لما يصنعه غيره من الناس ، وطبيعي أنه كلما زادت واتسعت دائرة خبرة الطفل بالأعمال الفنية وممارسته لها زاد مقدار تقديره لمثل هذه الأشياء .

وليست قيمته بالنسبة لوسائل التعبير في حاجة إلى بيان ، فالتفكير الابتكاري والتعلم الابتكاري قد يكونان في أي مدركات عقلية وفي أي مادة ، وهما عبارة عن النظر إلى علاقات جديدة ومعرفة معان جديدة أو تفسيرات وإيضاحات جديدة ، وعلى هذا فالتعبير الابتكاري قد يكون عن طريق أي وسط تعبيرى ؛ وقد يكون هذا الوسط التعبيري منطوقاً به أو مسجلاً في شعر أو نثر أو معنى أو معزوفاً على آلة موسيقية أو مرسوماً ، أو معبراً عنه عن طريق النشاط الجسماني كالتعبير الإيقاعي بالحركات أو الرقص أو بما يتضمن كل هذه الأشياء جميعاً كالتمثيل ، وكل هذه الوسائل يمكن الاستفادة منها في جميع المدارس^(١) .

أثر العوامل المختلفة في خلق الروح الابتكارية

تؤثر عوامل مختلفة من بيئة الطفل في نشاطه الابتكاري ، وبالمثل تؤثر في وسائل تعبيره ، ويختلف الأطفال في مقدراتهم الابتكارية كما يختلفون

في جميع الصفات : الجسمانية والعقلية والخلقية ، وليس ذلك فحسب ، بل إن الطفل نفسه يختلف ما بين فترة وأخرى من حيث قدرته الابتكارية .

فالمعلومات السابقة Background ذات أثر في خلق تلك الروح لأن التعبير الابتكاري لا يمكن أن يوجد دون أن يكون هناك أفكار وآراء يعبر عنها ، والإنسان لا يمكن أن يخلق شيئاً من العدم ، فعلى هذا يمكن القول بأنه كلما ازدادت خبرات الإنسان السابقة ازدادت الاحتمالات الابتكارية لديه ، ولا شك أن إعادة تنظيم الخبرات محتاج إلى الخبرة في إعادة التنظيم .

وكذلك الموقف والظروف Setting ، فلا تكفي مجرد وفرة المعلومات السابقة في خلق الروح الابتكارية في الطفل ، بل يجب أن يسمح الموقف نفسه ويشجع على التعبير عن النفس ، فلا شك أن رسم الطفل لما يعرفه عن الحياة الهندية يجيء طبيعياً بعد مناقشة حماسية عن الحياة في الهند أكثر مما يجيء بعد حصة حساب مباشرة . والمادة التي يستطيع أن يعبر عن نفسه بها يجب أن تكون حاضرة لديه كالقلم والورق في السنوات البدائية والإزميل و « الفرشاة » والألوان في المراحل العليا ، وفي السنوات الدنيا يمكن استعمال اللوح الرصاص وورق الصلصال والغراء والقص . ويجب أن تكون الظروف نفسها مهياً للموقف ، فحجرة الرسم مثلاً يجب أن تكون مرتبة ومنسقة تنسيقاً جميلاً ونظيفة وجذابة بحيث تعلق فيها الصور الجيدة التي يقدرها ويعجب بها الأطفال مع ملاحظة أن تغير بين آن وآخر ، ويجب أن يعرض عمل التلاميذ في حجرات يتوافر فيها الضوء الكافي وتعلق بها الستائر ، وتتوافر فيها النوافذ ، وأن نعد لهم مكتبة جذابة بها عدد من المصورات ، وإذا توافرت باقة من الزهور أو طائر صغير أو سمكة ذهبية في صندوق زجاجي كان ذلك أحسن . ويجب أن يكون عمل التلميذ موضع احترام الجماعة ليثق بأنه مهما كان عمله ضئيلاً فإن الجماعة سوف تتقبله عن طيب خاطر أو تنقده بأمانة وصراحة في جو بعيد عن السخرية ، فلا شيء يقتل روح الابتكار أكثر من ذلك الاستهزاء .

هذا ولا يخفى الدور الذي يلعبه موقف المدرس في خلق الروح الابتكارية ،

وهو أهم العوامل جميعاً التي تؤثر في الطفل ، فالمدرس بجانب مسؤوليته عن خبرات الطفل السابقة وعن الوضع الخاص الذي يخلقه له فإنه بطريقته وهيئته الخاصة يستطيع شحذ الروح الابتكارية لدى الطفل ونماؤها أو قتلها فيجب عليه إذن أن يطرح الطريقة التقليدية طريقة الروتين والتكرار ويخلق الموقف للطفل ويحثه على أن يعمل ، بأن يعرض عليه ما عمل فعلاً أو يوحى إليه أحياناً - وخاصة في المراحل الأولى - بالاحتمالات المختلفة التي يستطيع بها أن يؤدي العمل المطلوب منه ، ويستطيع المدرس أن يطلع الطفل على الجمال في كل شيء ، فكل شيء مذهب وصادق ومفيد له جمال من زاوية خاصة وعلى ذلك ففي جميع المناسبات يمكن أن يوجد الجمال ، ففي أحقر الأكواخ قد يشع بريق الجمال ، في أشد الأيام زهرياً أو مطراً يمكن أن نطرب لسماع موسيقى المطر أو الريح ، وكذلك الحال في سماع ناقوس الكنيسة أو رؤية الشمس ساطعة على الأراضي القفر وهادئة كانت أو نجاداً ، في كل ذلك قد يكون هنالك ما هو جدير بتدريب الطفل على تقدير الجمال ، وبعد أن يمرن المدرس الطفل على أن يحرب قدراته الخاصة ويعبر عن آرائه الخاصة بطريقته الخاصة ما زالت هناك مسؤولية أهم ، ألا وهي بث الثقة والاطمئنان في طريق الطفل ، فلا بد من اصطدامه في أولى محاولاته الابتكارية بصعوبات غير هينة فيجب النظر إلى عمل الطفل بعين طفل مثله لا بعين ناقد كبير ، وأن يراعى المدرس المعنى الذي يريد الطفل التعبير عنه ، حذار من الإصراف في مدح ما هو غير جدير بالمدح ، ويجب أن يقف عند تقدير النواحي التي تستوجب التقدير في عمل الطفل ، ولا شك أننا لن نعدم في أعماله ما يستحق هذا التقدير مع ذلك النقد الخفيف والتوجيهات اليسيرة (١).

العاطفة الجمالية

إن أبسط تعريف للعاطفة هو ما وافق عليه « شاندر ومكدوجال » وهو

أنها : « جملة انفعالات تدور حول مركز واحد وقد يكون هذا المركز شيئاً من الأشياء أو شخصاً أو فكرة » .

والعاطفة عند الطفل محوراً حسي وذاتي فهو يكون عاطفة نحو جسمه ثم يكتشف فيما بعد أشخاصاً كالآب والأم ، والانفعالات المختلفة التي يتأثر بها والناجمة عن الأم والآب والإخوة تجعله يكون عاطفة نحوهم ، ويظل الطفل متأثراً بعالم الأشياء في تكوين العواطف إلى أن يصل إلى المرحلة العقلية التي تمكنه من معرفة المدركات الكلية ، وفي مرحلة الشباب ومرحلة الرجولة نجد أن الشخص قادر على فهم المعايير الخلقية والجمالية ، وإذا ما وصل إلى مرحلة تكوين عواطف نحو الحق لذات الحق والجمال لذات الجمال نجد أن أخلاقه قد سمت إلى أرقى المستويات . (انظر الرسم صفحة ٢٤٦) .

ميادين التربية الجمالية

تحقق « بينيه Binet » في أحد اختباراتهِ للذكاء في سن متقدمة (في سن الرابعة) من أن الأطفال قادرين على التمييز بين الوجه الجميل والوجه القبيح ، ودلت اختباراتهِ هذه على أن تذوق الجمال أو الحكم عليه في أبسط أشكاله يبدأ مبكراً لدى الطفل .

من أجل هذا رأينا أن أول ميادين التربية الجمالية لا بد أن تكون تلك البيئة التي يستهل بها الطفل حياته ونعني بها المنزل ، ثم يلي ذلك المدرسة بما فيها من مواد مختلفة لا سيما المواد الثقافية والفنية ، وأخيراً يأتي المجتمع ، وسنقتصر الحديث على المنزل والمدرسة نظراً لأهميتهما .

أولاً : المنزل :

البيت هو العالم الأول الذي يستقبل الطفل ، ففيه ينبت وعنه يأخذ البذور الأولى للحياة جسمية كانت أو عقلية أو خلقية أو جمالية ، وفيه أيضاً توضع البذور الأولى في تكوين العاطفة الجمالية في نفس الطفل متى توافرت فيه تلك الروح الفنية وتردد في جوانبه صدى الذوق السليم .

ولا يمكن أن يكون المنزل مهبطاً للجمال إلا إذا تحققت فيه وسائل النظافة ودقة النظام وحسن التنسيق وحسن الاختيار .

على أن صبغ المنزل بالصبغة الجمالية لا يحتاج مطلقاً إلى سعة في الثروة بل هو في الواقع يتوقف على ما لدى أفرادِهِ من ذوق سليم وما طبعوا عليه من التشقيف والتهديب .

تصور طفلاً نشأ في منزل روعيت فيه مبادئ التنسيق الجمالى فلا شك أن مثل هذا الطفل سيكون سعيداً حقاً لأنه نشأ في بيئة تتذوق الجمال ، فسيطبع بهذا الطابع منذ البداية وقد يساهم في عملية التجميل ويصلح ما قد يعثر المظهر الجمالى من خلل .

على أن تجميل المنزل لا يقتصر على النظام والنظافة وحسن التنسيق فقط بل إن هناك أشياء بسيطة تزيد من روح الجمال في هذا البيت وذلك كتنسيق الأزهار مثلاً ، وقد لوحظ أن الأزهار عادة هي موضع إعجاب الأطفال ومركز جاذبيتهم ، فلهذا يحسن الاهتمام بها ويحسن أيضاً تشجيع الأطفال على اقتنائها وتنسيقها ، ويعتبر هذا أحسن وسيلة لتعويدهم الاعتماد على النفس في التقدير الجمالى ، وما أسعد حظ ذلك الطفل الذى يجد في منزله حديقة يتذوق في أرجائها نواحي الجمالى المختلفة .

هذا وليس جمال المنزل والبيئة التى تحيط بالطفل هما كل شيء في تنشئة الطفل تنشئة جمالية ، ولكن إذا فهمنا الجمال في أوسع معانيه وجدنا أن هناك أموراً أخرى كطريقة التربية المنزلية نفسها فلها أثر كبير في ذلك الإعداد الذى يجعله يحب الجمال ويقدره ، فيجب أن يكون كل ما يتصل به جميلاً . فالألفاظ التى يسمعه يجب أن تكون متقاة ، والأعمال التى يقوم بها الكبار أمامه يجب أن تكون مهذبة ويجب على العموم أن نحب الطفل في كل ما هو رشيق من الأعمال وكل ما هو بعيد عن التعقيد .

ومن ثم فإن تربية الطفل تربية جمالية استقلالية تتضمن تشجيعه على أن يقوم بأمر نفسه وما يحتاج إليه من مهام الحياة اليومية من مأكَل ومشرب

وملبس بنظام ودقة وترتيب لأن هذا يرفع مستوى التربية الجمالية ويجعله يسهم في الأعمال بقدر ما تسمح به طاقته وظروفه .

ومما يؤسف له أن المنازل المصرية تقف حجرة عثرة في سبيل هذه التربية ، والسر في ذلك هو جهل معظم ربات البيوت ، فوجب أن نلتمس ميداناً آخر نوجه فيه الجليل إلى هذا النوع من التربية .

ثانياً — المدرسة :

إن المدرسة هي الميدان الثاني الذي نعتمد عليه في غرس الخاسة الجمالية . لا سيما أننا قد رأينا أن المنزل لم يكن معداً في الغالب لهذه التربية ، فجدير بالمدرسة أن تعطي هذه التربية الجمالية حقها ، وخير وسيلة لتحقيق ذلك أن يكون للتربية الفنية بين برنامج المدرسة شأن خاص كما للتربية العقلية والتربية الخلقية ، وخاصة في السن التي يقوى فيها الميل إلى أحلام اليقظة مما يتطلب صوغ مواقف من جزئيات وتفصيل وحوادث معينة يغنى فيها التعبير بالرموز الدقيقة عن الرغبات أو الخبرات المختلفة التي تتوقف على الملاحظة والانتباه ، وفي هذا الصدد يرى « ريس ^(١) Rice » أن تحليل العمل الفني يحدو بالتلميذ لا إلى معرفة عناصره فحسب ولكن إلى ملابساته والعصر الذي أنشئ فيه ولا سيما إذا كان هذا العمل الفني مصوراً لقصة أو حادثة معاصرة له ، ويقصد بهذا أن التحليل لا يقتصر إذاً على ناحية إدراك العلاقات والخطوط والألوان كما يرى « هربارت سبنسر » وإنما يتعدى ذلك إلى المعنى الذي تضمنه العمل الفني ، فهو من أهم العوامل الدافعة على التعليم والمساعدة على فهم المواد كال تاريخ والجغرافيا والنبات والحيوان إلخ ، ومن هنا يرى المربون أن دروس التربية الجمالية يجب أن تكون متداخلة في كل علم لا ارتباطها بالتحصيل العلمي .

على أن التحليل ومعرفة العناصر الفنية يحتاجان إلى وقت طويل وخبرة متصلة ، وهذا مالا نستطيعه في مدارسنا التي لا يبقى التلميذ فيها إلا لوقت محدود يشغل فيه بمختلف المواد ، ولهذا كان واجب المدرسة ينحصر في إثراء التذوق العميق ،

والميل إلى الاتجاه التحليلي ومساعدة الابتكار لا لغاية سوى التعبير عن الانفعالات والعواطف نحو ما تتطلبه طبيعة التوازن اللاشعورى بصرف النظر عن المهارة اليدوية التى يمكن اكتسابها بمزاولة الفنون ودراستها لذاتها .

لذلك يقترح بعض المربين أمثال « سترت وأوكدن » ^(١) بأن توفر أسباب الجمال فى مدارسنا حتى ننمى تذوق الأطفال للجمال . ولذا وجب أن تكون المدرسة مثالا فى جمال التنسيق وحسن الترتيب ودقة النظام والنظافة مهما كانت عليه من بساطة فى البناء وقلة فى الأثاث ، والغرض من ذلك أن تصبح نموذجاً يحتذى به الطفل لاعتقاده أنها المثل الأعلى ، فأبنية المدرسة يجب أن تكون جميلة جذابة فى بساطة وعدم تعقيد وأن تكون صورها وتمثيلها من ذلك النوع الذى يساعد على غرس الحاسة الجمالية لا أن تكون رسوماً وصوراً لوسائل الإيضاح ولا يقتصر الأمر على أن يراها الأطفال ، بل يجب على المدرس أن يلفت أنظارهم إلى ما فيها من جمال .

وإذا كان للمدرسة حديقة وجب أن تجمع هذه الحديقة الكثير من صور الطبيعة الناطقة وأن تنسق تنسيقاً بديعاً وأن توجه أنظار الأطفال إلى مراقبة هذه الحديقة وأشجارها وأزهارها وطيورها ، ونلفت أنظارهم إلى الجمال الكامن فى هذه الناحى المختلفة .

أما المتحف الخاص بالفنون الجميلة فيجب أن يكون فى مركز الاهتمام من جميع القائمين بشئون التربية بالمدرسة ، ويجب أن تشجع المدرسة على تكوين الجمعيات الفنية المختلفة التى تعمل على تزويد هذا المتحف بكل ما هو جميل حقيقة كجمعيات الرسم والنحت والتصوير والموسيقى والتمثيل على أن يقوم التلاميذ تحت إشراف أستاذهم بنشاط هذه الجمعيات وأن يكون لهم رأى فى اختيار القطع الفنية التى يرون تسجيلها أو تخليدها أو تمثيلها فى متحفهم ؛ هذا ، وإذا كانت المدرسة لها تقاليد خاصة فيجب أن نشجع الطفل على مراعاتها بحيث تكون هذه التقاليد ذات فضل كبير فى إنماء الحاسة الجمالية ، ويراعى

أن تكون المواد التي يجب تشجيعها في المدرسة مما يقبل عليها الأطفال من تلقاء أنفسهم .

مواد الجمال في المنهاج

أولاً : الموسيقى والروح الابتكارية : من الممكن أن تصبح الموسيقى جزءاً أساسياً من حياة كل فرد ، فهي وسط من الأوساط الملائمة التي بها يستطيع الإنسان كسب خبرات كثيرة متنوعة ، وأهم هذه الخبرات ذلك النوع العاطفي والجمالي ، ولا يمكن قياس هذه القيم بواسطة درجات أو مقادير مادية ، فهي أبعد عن هذا المقياس من أي فن آخر ، وبسماع الموسيقى يشعر المرء بحالات خاصة من الارتياح أو الهياج فتتناوبه موجات من الضحك أو البكاء أو الغناء أو النوم ، وقد فكر في أمريكا أن تقرر الموسيقى يومياً في المنهاج ، وحينما يكون الأطفال قلقين أو متعبين يلزم أن يغنوا قطعة بهجة ، وبعد قيامهم بنشاط أو تجربة مجهدة يجب أن يستعموا إلى شيء من الموسيقى الهادئة .

ويذكر « Mursell » (١) ثلاثة أغراض للموسيقى هي :

الأول : أن منهاج الموسيقى لا بد وأن يؤثر في الحياة الاجتماعية للمدرسة .

والثاني : هو أن الموسيقى تعد من العوامل المساعدة على النمو بالإضافة إلى وسائل النمو العقلي الأخرى فهي تزيد اتساع إدراك المرء ونموه وبعد النظر لديه .

والثالث : أن للموسيقى أثراً أخلاقياً لا يمكن إغفاله ، وذلك عن طريق التعبير الذاتي المنتج في المجتمع .

وهذه الأغراض جميعاً يتوقف تحقيقها على طريقة عرض الموسيقى ، وإذا نظرنا إلى الموسيقى على اعتبار أنها تملأ وقت الفراغ فمن الممكن استغلالها استغلالاً مفيداً وذلك بالغناء كمجموعة (كورس) أو عمل تمثيلات موسيقية كما هو الحال في مجنون ليلي ، وبالإضافة إلى ذلك لا يمكن تجاهل قيمة سماع

المذيع حينما يعمل المرء عملاً خفيفاً ، وأهم من ذلك التخفيف من أعباء المرء عندما يغنى ليسلى نفسه أثناء عمله اليومي .

وقد لعبت الموسيقى دوراً هاماً في حياة الشعوب منذ فجر التاريخ ، وما زالت حتى اليوم من أهم عناصر الحياة الاجتماعية ولو أنها تكاد تقتصر على المذيع والتليفزيون ودور اللهو ، ولم تطبق في المدارس تطبيقاً شاملاً ، بل حتى الأغاني التي تلقى في المدارس تفضلها الأغنيات التي تسمع خارج المدرسة كما أن الموسيقى المدرسية لا تمت إلى روح التلاميذ كما تمت إليها الموسيقى والأناشيد التي تذاع في المذيع والتليفزيون مثلاً .

فن الإصغاء : يجب أن يكون الإصغاء إلى الموسيقى جزءاً من الحياة اليومية لكل فرد ، وقد يكون الإصغاء سلبياً أو إيجابياً ، فالسمع السلبي يكون فيه الإصغاء والإحساس والإمتاع دون بذل أى مجهود . أما الاستماع الإيجابي فلا يكون إلا لما نفهمه ونقدره .

وأهمية الإصغاء في أنه من الممكن أن يشمل جميع الأفراد ، إذ ليس كل فرد بقادر على أن يعزف أو يغنى ، وإنما لديه القدرة على السماع سواء السلبي أو الإيجابي ، ويجب أن يعود الطفل على السماع خصوصاً الإيجابي منه بإرشاد المدرس وبالتفاهم بينه وبين تلاميذ مجموعته ، ولا شك أن الاعتماد على توجيهات المدرس يكون كبيراً في الفرق الصغرى ، ولكن يجب أن يقتصر على إرشاد التلميذ فقط ، فالمدرس يجب أن يتخذ شكلاً غير رسمي ما أمكن فتنظيم درس الموسيقى لا يكون له خطة في البداية ، وإنما خطته تجيء من الموسيقى نفسها لا من إخضاع الموسيقى لخطة الدرس . وهناك أنواع من الموسيقى تصلح أكثر من غيرها للإصغاء . والأساس الأول في اختيارها أن تنتهي من النوع الجيد ، والأساس الثاني أن تكون معبرة عن الشيء المراد الإصغاء إليه . ويقول الأمريكيان : الاستماع شيء أكثر من السماع ، فالاستماع يستلزم التفكير الحي أو الإحساس فيجب أن يستمع الطفل لشيء يعرف لماذا يستمع إليه . ومن أهم الأغراض في خلق روح التقدير للموسيقى الأمور الآتية :

١ - تكوين الذوق الموسيقي مع ازدياد اللذة في الغناء وتعويد الاستماع إلى الموسيقى الجيدة .

٢ - تعريف الناشئ على « الأوركسترا » كمجموعة وعلى كل آلة موسيقية على حدة .

٣ - فهم وتقدير الفرق بين الموسيقى البحتة وبين الموسيقى التصويرية ومعرفة النغمات العالية وغير العالية .

٤ - معرفة أسلوب النوتة الموسيقية بأنواعها .

٥ - فهم المبادئ في أبسط أشكالها والتدرج منها إلى المعقد .

٦ - التعرف على بعض المقطوعات الموسيقية الشهيرة ذات المستوى الخلقي الرفيع .

٧ - التعرف على ما للموسيقى القومية من مميزات (١) .

المذيع : وقد أصبح الآن من الشيع بحيث يمكن الاعتماد عليه كأداة تعليمية ، وبعض الناس يخشون على الأطفال من سماع مقطوعات رديئة أو مبتذلة تذاع في المذيع ، ولكن هناك حججاً للإذاعة في ذلك وهي أن هذا القليل الرديء المذاع من الموسيقى موضوع لمجموعة كبيرة من أولئك الذين لا يفهمون ولا يقدرّون الموسيقى إلا في مراحلها البدائية (٢) . وعلى ذلك فكثيراً ما تصعب هذه الموسيقى بتعبيرات غنائية . وما عدا ذلك فموضوع للخاصة . وعلى ذلك فهذا القليل الرديء مرغوب فيه لتفهم البيئة التي حول الطفل مع مستواه التقديرى للجمال وإقداره على التمييز بين الجيد الذى يتعده وبين الرديء من الموسيقى الشعبية ، وإلى جانب هذه الأنواع هناك أنواع أخرى من الموسيقى الجيدة التي ما زال أغلبنا بعيداً عنها من « سمفونيات وأوبريت » لمشاهير علماء الموسيقى .

وتقع التبعة على المدرسة في اختيار الأوقات التي تصلح فيها الإذاعة على

Mursell : Human Values in Music Education, Chap. 2-5.

(١)

Lee : The Child & his Curriculum, p. 547.

(٢)

الأطفال والأوقات التي يجب أن يستمعوا فيها للإذاعة خارج المدرسة ، ويطلب منهم مناقشتها في اليوم المقبل ، وتقدير نواحي الجمال فيها بحيث لا يفرض مدرس الموسيقى رأيه على التلاميذ ، وإنما يتركهم يتخيرون بأنفسهم مع توجيههم من غير أن يشعروا بتدخل ظاهر من جانبه .

والآن وقد اختيرت الإذاعات المدرسية وفيها منهاج للموسيقى وتاريخها وأنواعها الشرقية والغربية واختيرت الأنواع الصالحة منها فكل هذا جميل ، ولكن أجمل منه تخير أوقات الصباحية تناسبها أكثر مما هو الآن ، هذا من جهة ومن جهة أخرى يجب التدرج بالموسيقى من البسيط إلى المعقد حسب مستوى التلاميذ ، فليس التدريب على الاستماع طرفة واحدة ، ويلزم توجيهات المدرس قبل سماعها أو كتابة نشرات صغيرة فيها شروح مقتضبة عنها .

ولنرى بعد ذلك الاستفتاء الذي أجرى في الولايات المتحدة لنعرف أننا ما زلنا بعيدين جداً عن الروح الموسيقية الصحيحة ، والاستفتاء عبارة عن سؤالين : الأول : أى نوع من الموسيقى تفضله ؟ والثاني : هل سمعت عن الموسيقىار « توسكاني » ؟ فأكثر من نصف سكان الولايات المتحدة - الذين أجريت بينهم الاستفتاءات - يحبون الموسيقى الكلاسيكية القديمة ، وربع المستفتين يعرفون « توسكاني » ^(١) .

الموسيقى الابتكارية : يقصد منها أغراض مختلفة ، فبحسب المعنى العام معظم استجابات الأطفال للموسيقى ابتكارية ، وبحسب المعنى الخاص يقصد بها كتابة وتأليف الموسيقى (التلحين) ، وهذا التلحين قد يبدأ مع حياة الطفل في المدرسة ، ولا كانت دراسة النوتة الموسيقية صعبة فقد يستعمل الأطفال في حفظ أغانيهم الكتابة العادية ، وبمجرد الرغبة في تعلم النوتة الموسيقية قد يكون دافعا قويا إلى تعلمها وما دامت هذه الرغبة حقيقية وتلقائية فيكون لها نتائجها الحسنة .

ويجب أن نخلق من التلاميذ ملحنين لأنفسهم حيث لا هيبة ولا رهبة

تخيم على الموقف ، فيعبر الأطفال عن أنفسهم بحرية وطلاقة ، وفي البداية يكون ذلك التعبير عن طريق حناجرهم ، ثم تفهم التلاميذ أن الموسيقى لغة وأن الطفل يستطيع أن يعبر عن عواطفه بوساطتها ، فإذا لم يكن هناك إدراك لهذا المعنى عند الأطفال فإنهم سيعتقدون أن كتابة الموسيقى موهبة تقصر على التابعين من الناس ، وبذلك يجدونها أصعب من أن يمارسوها .

وإنشاد الموسيقى لإنشاداً جمعياً ، طريقة يحسن اتباعها في البداية فهي تلهم الأطفال وتخلق الرغبة لديهم ويتبع ذلك خبرة وفيرة منها يشتق التلاميذ المشاعر التي يريدون أن يعبروا عنها ، وهذا التعبير وليد الإلهام أو الإحساس بالمشاعر ، ولا يمكن تنظيم « بروجرام » خاص بذلك بتحديد موعد خاص ينشئ فيه كل طفل قطعة موسيقية ، وإنما ينهز المدرس الفرصة الملائمة ويتخيرها عندما يلوح له بريق استجابة مشاعر الأطفال ، أى في الوقت الذي يرغب فيه الطفل أن يعبر عن نفسه .

وتجمع كل الآراء على ضرورة عدم تعليم النوتة الموسيقية في الفرق الأولى وإن اختلفت هذه الآراء في مدى استمرار ذلك ، ولقد دلت الأبحاث على أن هذه النوتة لا يرغب الأطفال في تعلمها ولا يتقنونها وإذا كانت لهم رغبة في ذلك فإن النتيجة الواقعية أن الذي يقرأ النوتة فعلاً نفر قليل ، والباقي يتبعون النغمة ، وهذا يشبه موقفهم من تعلم القراءة ، كما ينطق به جواب هذا السؤال في تعلم الأطفال القراءة وهل يلزم فيها تعلم حروف الهجاء : أ ب ؟ وقد وصلت التربية الحديثة إلى أنه ليس من الضروري الابتداء بتعلم ألف باء . . وعلى ذلك فمن الممكن الاستعانة « بفونغراف أو بيانو » ، ولا شك أن القدرة اللغوية ستقوى بهذه الطريقة خصوصاً إذا فهم الأطفال مدلول معاني الكلمات التي ينطقون بها من ناحية وأتقنوا درسها ونطقها من ناحية أخرى ، ومعنى ذلك أنه لا يصبح للقواعد الموسيقية درس خاص بها (كما نقلل من أهمية دروس النحو في اللغة كدروس قائمة بذاتها) وإنما يحىء ذلك عرضاً عن طريق التعليم المنظم ، ولا شك

أن ذلك سيكون في مقدورهم لو شعر الأطفال بالدافع إلى تعلم هذه الأشياء^(١) ثانياً : فنون الرسم والنقش والنحت : يقصد بها عمل نماذج من أدوات مختلفة كقطع الورق أو استعمال الألوان . . إلخ . ولقد قيل في كتب الأدب « إن الشعر رسم ناطق ، وإن الرسم شعر صامت » وكما قلنا عن فن الاستماع في الموسيقى فكذلك الحال في فن النظر ، فالمؤثرات على نهاية الأعصاب في شبكية العين تكون بلا معنى ولا قيمة ما لم تفسر عن طريق العقل فتحزن لا يمكننا فهم أى معنى إلا للشيء الذى ندركه .

وكلما زادت تجارتنا مع البيئة الخارجية تعلمنا كيف نفسر هذه الخبرات وندركها ، وهذا ما يمكن تطبيقه بصورة واضحة على الفن ، فالفن هو ترجمة الإحساس والخبرة وتفسيرهما ، فيجب أن يتوفر لدينا الاحتكاك مع الأشياء المراد تفهمها حتى يمكن أن نلمس التفسيرات والتجارب والأحاسيس التى كان الفنان يحاول أن يعبر عنها ، فى أحوال كثيرة جداً يحكم على الفن من صدق تعبيره عن الأصل أكثر من الحكيم عليه من الخبرات التى بها ينجلي معناه ، ومعنى ذلك كله أن الفن يحكم عليه من حيث : التركيب - الخطوط - اللون . ومدى الاستفادة من هذه الصفات الثلاثة للتعبير عن الفكرة أو الإحساس له أهمية أكبر بكثير فى التقدير من أهمية القواعد الشكلية التى يتعلمها الفنان فى طرق الإيضاح والرسم .

فى المراحل الأولى لم يكن الطفل من النضج بحيث يقدر الفن ، فالإعجاب بالصور الموضحة لمراحل القصة هى المستوى الذى يمكن أن يدركه الطفل عن هذه القصة ، ولا يمنع هذا أن تنفذ فى الأطفال شرارة الحب لمشاهدة الصور الجيدة ، فبمجرد أن يبدأ الأطفال فى ملاحظة الألوان التى يستعملها الفنان وطرق تعبيرها عن إحساساتهم وعما يرونه من قصص يبدأ تقديرهم للفن فى هذه الصور ، ولكن الوقت الذى ينشأ فيه هذا التقدير يتوقف على الطفل وعلى خبراته السابقة عن الصور .

تنمية القدرة على النظر

يجب أن نطلع الأطفال على الصور الجيدة وأن تكون من بساطة الفكر بحيث يدركها الطفل وتدخل في دائرة خبرته ، ولكي تعبر تعبيراً صادقاً عن الحياة التي يراها الأطفال يجب أن تحتوى على ما يروق في أعينهم وما يتصل بقلوبهم ، وعلى المدرس أن يرى الاتجاه الذي يلفت نظرهم ، وأن تكون أسئلته باعثة على التفكير ، فالأسئلة البسيطة المتخيرة عن الحقائق التي تعبر عنها الصورة ، والمتناولة لبعض المعلومات عن مصورها لها فائدتها في دروس تقدير الفن . ولكن ينبغي أن تكون هذه البيانات قليلة بحيث لا تزعج معلومات الطفل ، وإنما تهيئه للاستعداد الفنى فحسب ، فإذا أردنا تنمية القوى التقديرية فيه فيجب ألا نعتمد فقط على تكرار عرض الصورة أو القطع الشعرية دون شرحها ونقدها أو دراستها. بواسطة الأطفال ، فالملاحظة غير المباشرة ليس من الضروري أن تنتج تذوقاً لمحتويات القطعة أو أسلوبها أو لونها أو انسجامها وقايتها . . . إلخ وإنما يجب مدارستها ومناقشتها فيما بين المدرس وتلاميذه ، على أن يعتمد في المراحل الأولى على الصور ومحاولة محاكاتها بالرسم أكثر من الاعتماد على الوصف اللغوي ، فيعتمد الأولاد على العمل اليدوي أكثر من اعتمادهم على الأدب . ولا شك أن خلق الطفل لشيء ما يساعده على تذوق ما يرى من أمثال هذا الشيء من الأشياء ، فبعد أن يعبر عن بعض الإحساسات يصبح مستعداً لربط هذه الإحساسات التي عبر عنها بغيرها من الأشياء التي يراها فيفسر هذا الغير على أساس ما عنده من إحساسات .

وثمة طريقة أخرى يتعلم بها الطفل كيف يرى : هي أن يرى الجمال ويطلبه في كل ما يحيط به ، وهذا يتوقف إلى حد كبير على موقف المدرس وطريقته وعاداته وطريقة استعمال واستغلال حجرة الرسم التي يجب أن تكون جذابة وأنيقة بقدر الإمكان ، كما يجب أن يتوفر فيها اللون والضوء وأن تكون غير عارية من الجمال ، وإنما ترزين ببعض الصور المنتقاة المناسبة للأعمار

الأطفال مع مراعاة أن تغير بين فترة وأخرى^{١٦}.

الإنتاج Producing : قد يقول البعض إن كل الفن التصويرى ابتكارى ، وهذا وإن كان صحيحاً إلى حد ما فإن هناك أعمالاً فنية لا يمكن تسميتها ابتكارية . فالعمل الابتكارى فى الفن ككل عمل ابتكارى يتطلب أن يعبر الفرد عن إحساساته الخاصة ومدى تأثيرها على حواسه ، ثم يجب أن يكون هناك إنتاج وتصوير وتسجيل لما يمكن أن يسمى عملاً ابتكارياً ولكنه غالباً ما يكون - ويجب أن يكون كذلك - نسخة من الأصل ، فحين يستخدم الفن لربط وحدات العمل لزيادة إدراكات الطفل عن الموضوع يصبح إنتاجاً متقناً وذلك بإنتاج المناظر التى شوهدت أو أدركت فى زمان أو مكان آخر ، ونقصد بالإنتاج نسخ صورة طبق الأصل أى النقل عن الأصل ، وهذه الصورة المأخوذة عن الأصل يجب أن يكون معناها واضحاً وأن تكون صادقة فى التعبير عنه ، ولا يلتفت فيها إلى التفاصيل التى قد تشوه الفكرة ، وأثناء هذه الدراسة لا بد وأن يرغب الطفل فى أن يعبر عن فكرة خاصة أو إحساس خاص حول أى ناحية من نواحي الحياة ، وهذه فرصة جيدة للعمل الابتكارى . .

فإذا عرف الأطفال شيئاً عن حياة الطفل الصينى فقد يخلق هذا لديهم الرغبة فى عمل نموذج لمنزل صينى وأثاثه . ويجب أن يكون هذا العمل متقناً بمعنى أن تؤخذ المعلومات عن مصادرها بدقة وأمانة ، فإعطاء الحقائق الأولية فى الصورة يجب أن يكون صادقاً ومنقولاً بأمانة ، وأما ما عدا ذلك فيكون ابتكارياً ، ففى نقل حياة الصين يجب ألا يشجع الطفل فى نقل الصورة التى تعبر عن الفن الصينى ، وإنما ينقل عن الفكرة التى تعلق بذهنه وإحساسه عن ذلك الفن ، فينقل عن إحساساته مباشرة مادامت المبادئ الأساسية عن هذه الحياة قد رسمت فى خياله .

الابتكار Creating

كيف يكون جو الفصل متجهاً نحو العمل الابتكاري ؟

أولاً - يجب أن تكون لدى الأطفال خبرة وفيرة ، فيجب أن يكون لديهم أفكار ومشاعر يريدون التعبير عنها ، ثم يجب أن يكون الموقف حراً ، والمادة التي يحتاجون إلى استعمالها في تناول أيديهم ، فللطفل الصغير الألوان والأقلام والريش والورق ، وللطفل الكبير الصلصال والمقص والورق الملون والبلاستيك ، ويجب ألا تكون هناك صورة واحدة أو موضوع واحد ينقل عنه جميع التلاميذ ، لأن أولئك الذين ليس لديهم مشكلة خاصة في فكرهم تتطلب الحل لا يستطيعون التعبير الصادق عما يعملون ، وفكرة ترك الطفل لنفسه مع أدواته من غير التدخل في أمره أقل فائدة من إرشاده ، ووصف كل ما ينوي عمله ، فالطفل وإن احتاج للحرية فهو محتاج كذلك إلى التوجيه وكذلك تعوزه الخبرة الفنية ، فعلى المدرس أن يساعده في هذه الناحية . وفي معظم الأحيان لا يعرف الطفل ما هو في حاجة إليه ، وقد يفقد الرغبة في العمل إذا لم يستطع أن يحصل على نتائج ترضى نفسه ، فيجب أن يراعى المدرس هذه المواقف جميعاً ، على أن إرشادات المدرس يجب ألا تتجاوز ذلك إلى عمل التلميذ نفسه فلا يساعده في العمل أبداً ، وإنما يسأله كيف يمكنك أن تحسن ما تعمل ؟ فإذا لم يكن لدى الطفل فكرة عن ذلك يعطى له المدرس جميع الاحتمالات الممكنة ، فالمدرس هو العامل المهم في الحياة الابتكارية في المدرسة ، ويجب أن يكون لديه هو نفسه الروح والمقدرة الابتكارية وأن يتحرك فيه الإحساس بالتعبير عن أفكاره وأن يستطيع الخروج إلى الحياة عن طريق الشكل ولون الأفكار أو الإحساسات التي لديه ، كما يجب أن تكون لديه القدرة الصحيحة على الحكم والتقدير فيقدر عمل الطفل وفق سنه ، وأن يكون لديه المزيد من الخبرة النفسية ليتسنى له ذلك الحكم لا بالنسبة للفتن نفسه ، وإنما بالنسبة لإحساسات الطفل ، وما يريد أن يصوره عن طريق ما يعمل ،

وعدم التقدير لأعمال الطفل فيه ضرر كبير وإن كان سلبياً ، ومن المسمى *
للاطفال أن يستهزأ بعمله أو يحتقر .

وهناك نواح يجب أن تؤكد ويعمل على تنميتها^(١) .

١ - إكبار الأصل الذى ينقل عنه مع الأمانة فى النقل وتشجيع العمل المنجز .

٢ - الإرادة والصبر على العمل فى تكرار ما هو جدير بأن يجرب حتى يصل إلى نتائج مضمونة ودقيقة .

٣ - الثقة فى القدرة الفردية وقيمة أفكار الفرد مع احترام أعمال الآخرين .

٤ - تطبيق مبادئ الفن على كل ما يصنع والاعتراف بأن كل ما هو قبيح وغير متقن مضىعة للمدة التى صنع منها وللوقت الذى أنفق فيه^(٢) .

الفن الابتكارى والشخصية :

إن حرية الطفل فى التعبير عن نفسه فى الفن الابتكارى ونجاحه فى ذلك عامل مهم له قيمته بالنسبة لبعض الأطفال فإذا لم يكن نصيب الطفل من النجاح ضئيلاً فى عمله المدرسى نراه ينسى نفسه فى التعبير الحر بوساطة النقش أو عمل النماذج ، وسرعان ما يشعر بها ويتغلب على ما يعتريه من صعوبات شخصية ويصبح موقفه فى كل ما حوله سعيداً جداً ، وبذلك يكون نجاحه أساس كل نجاح فى شتى مناحى حياته .

وتذكر « زشرى » Zachry العلاقة المتبادلة بين الشخصية والفن فى قولها : « الفنان يسأل عن الفرد الذى يخلق من الفوضى نظاماً ويأخذ ما يتأمله فى مخيلته وينقل علاقات الشكل المنظم ومحتوياته إلى وسط ملائم ، فطبيب الصحة العقلية يسأل عن الفرد الذى يخلق نظاماً مترابطاً من الخبرات المفككة التى يتكون منها حياته ويحصل على خبرته النامية عن طريق أعماله وسلوكه .

Lee : The Child & his Curriculum. p. 549.

(١)

Lee : The Child and his Curriculum p. 546.

(٢)

ومعنى هذا أن كليهما يكافح نفس الكفاح في سبيل الانسجام مع مجتمع ينقصه هذا الانسجام والترابط ، وكلاهما يعمل على أن يصل إلى هذا الغرض .

وهاهى ذى توجهاتها لتطبيق مبادئ الصحة العقلية على الفنون : « إن إدراك الفن يجب أن يتسع فيشمل جميع الأفراد وجميع أوساط التعبير ، ولكل طفل الحق في أن يختبر الوسط الفني الذى يميل إليه ، فحاجات الفرد واحتمالاته تحدد فائدة الفن والدور الذى يلعبه في الحياة ، وحاجات الفرد قد تكون متعددة ومتشعبة وهكذا تكون حالة الطفل ، وليكن هذا من حقه ، ومن مسئولية المدرس أن يوجد الإقناع الكافى في الفن الذى يلقنه للطفل ليلائم الإقناع بين حاجاته . »

« والعمل الفني الذى ينتج في الفصل يعبر عن ذوق المنتج لهذا العمل الفني ، فيجب أن نعتبر - بالإضافة إلى المهارة الفنية - التعبير عن بصيرة الطفل وأصالته هذه البصيرة ومكانتها في الثروة الفكرية لديه . » فالتدريب على النواحي الفنية والمهارات يجب أن يقدم للطفل حينما تتطلبه حاجته لا عند ما يتطلبه نجاح إنتاجه الفني .

وعوامل الصحة العقلية المطبقة على الفن هذه هى نفسها مبادئ أساسية في كل فن ابتكارى ، فإذا أتيت فرص واقعية في الفصل للتعبير الحر عن النفس فإن المدرس بتوجيهه يكون^(١) عاملاً قوياً في خلق الشخصية المتكاملة .

ثانياً - الأدب الفني من نثر ، شعر . . . إلخ .

يزيد تقدير الأدب وتذوقه بقراءة الأدب الجيد تحت ظروف يشعر الفرد فيها بمتعة كبيرة ، فالمادة الخام إذن يجب أن تكون منتقاة بحيث تكون في مستوى إدراكه من حيث التراكيب والألفاظ ومن حيث المعاني والأفكار ويجب أن تتناسب اهتماماته وأذواقه وأن تخلو من الارتباطات غير السارة لديه ، فيجب ألا تشتمل على ألغاز تحير الطفل ولا يجد لها حلاً ، ويجب أن يشاركه

فى التمتع بها غيره من الأطفال ، ويجب ألا يسرف المدرس فى شرح القطعة الأدبية وتحليلها حتى تضع حيويتها ، ومعنى ذلك أن الطفل قد يجد فى مقطوعة أو صفحة أو فصل من كتاب متعة ولذة خاصة ويرغب فى قراءة ما راقه على زملائه ليشاركوه تلك المتعة التى أحس بها . . ولا مانع أن يقرأ عليهم المدرس ما يكون محبباً إلى نفسه أو يخبرهم به ، فالقراءة والإصغاء إلى الأدب مفتاح الوصول إليه ، وليس الوصول إليه بالسماع أو القراءة عنه فيما يسمى بتاريخ الأدب أو بالشرح والوصف والتعليل .

وفى قراءة الطفل للأدب يجد متعة فى نواح متعددة منه : فيجد المتعة فى الأعمال التى تحتوى عليها القصة أو القطعة الأدبية وفى العقد والشبهات التى تتضمنها . ويجد المتعة أيضاً فى كل ما فيه روح المرح . كما يعثر عليها فى دنيا المعانى . واكتشاف عالمه الاجتماعى . كما يجدها فى الصور والتماثيل .

ولذا يجب أن تعد للأطفال كتب خاصة تناسب مداركهم وميولهم .

قراءة الشعر الجمعية : يرجع تاريخ الإنشاد الجمعى إلى أيام « الدراما الإغريقية » ومعظم الجماعات البدائية تستعمل الغناء الجمعى فى حفلاتها الدينية ، والحركة الحديثة فى الإنشاد الجمعى بدأت منذ سنة ١٩٢٢ فى حفلات « جلاسجو » الموسيقية ^(١) .

والآن نتساءل : ماهو الإنشاد الجمعى ؟ والجواب أنه ترنيل مجموعة من الأطفال أو الكبار للنثر الإيقاعى أو الدراما أو الشعر الغنائى بنغمة متسقة ذات رنين وإيقاع موسيقى ملائم لرسالة الشعر ومعرب عن معناه ، ولهذه الطريقة تطبيقات فى ميادين مختلفة ، فالإنشاد الجمعى قد يتوافر فيه وجود موسيقى تؤكد النغم الإيقاعى أو يكون على شكل دراما فيتوافر الإيضاح والتفسير ، وقد يصحبه حديث فتنمو به القدرة على الإنشاء والتعبير الصحيح بأسلوب سليم كما ينتج بصيغته الأدبية تذوق الشعر وتقديره ، وهناك ناحية مهمة تفوق هذه الميادين جميعاً فى أهميتها هى ناحية التنظيم الاجتماعى ، فعن طريقه يتعلم

الأطفال التعاون لدرجة كبيرة حيث يتدربون على أن يفكروا معاً ويحسوا معاً ويعملوا معاً مثابرين حتى يصلوا إلى النجاح .

كيف ننمي قدرة الأطفال على الترميم الجمعي؟ يمكن الوصول إلى ذلك بمراعاة ما يأتي ^(١) :

- (١) يجب ألا تكون الأغنية شاقة مجهدة ، وأن يكون النطق بها جيداً .
- (٢) وأن يتجنب تعسف المدرس وإسرافه في التفسير والإيضاح .
- (٣) وتجنب العمل المستمر لمدة طويلة خشية أن تضعف التلقائية ويصبح العمل ميكانيكياً .
- (٤) وأن يختار القطع الجيدة ذات القوافي الإيقاعية السهلة .
- (٥) وأن يكون النغم طبيعياً وموافقاً للأصوات .
- (٦) وأن يرتب التلاميذ ترتيباً يتفق مع نوع أصواتهم .
- (٧) ويجب أن يلقى الشعر بعد ذلك فريداً لأن الغناء الجمعي هو إعداد للنطق الفردي ^(٢) .

الإشياء : تشتمل بالمعنى العام على كل أنواع الكتابة المبتكرة ، وهي عبارة عن تراكييب جديدة للكلمات ، ويظن كثير من المدرسين أن هذا هو النوع الوحيد من الكتابة الابتكارية الذي يقدر عليه الطفل في أول حياته ، وقد اختلط الأمر بين الكتابة الابتكارية وبين الكتابة الغرضية .

فالأمثلة التي يطلب من التلميذ الاستشهاد بها تعد من نوع الكتابة الغرضية ، ومن الصعب أن تعتبر ابتكارية ، فالكتابة مثلاً عن زيارة المتحف أو رحلة من الرحلات أو معرض من المعارض أو وصف حادثة أو مباراة أو تقارير الصحف عن الحوادث ، كل ذلك كتابة غرضية تنتهي بانتهاء الغرض منها ، أي متى أخذها المدرس وصححها .

Lee : The Child and his Curriculum p. 564.

(١)

Lee : The Child and his Curriculum. p. 568.

(٢)

وأما الابتكارية فهي التي يقبل الطفل على مثل هذه المشاكل بالشوق والحماس وتكون جزءاً من فكرة كبيرة لديه (مشروع) وهنا توجد المناسبة لإتقان التلميذ التعاليم والقواعد الفنية ، فيصوغ كتابته وفق القواعد الصحيحة ويضعها في قالب رائع بقدر الإمكان مثل خطابات دعوة أو التماسات أو تقدير أو اعتذار ، أو الكتابة عن مادة قرأ عنها فيلخصها بلغة سهلة حتى يتسنى لمن هم أصغر منه سناً قراءتها .

يضع المرء إحساساته وأفكاره وآراءه في كلمات .

والكتابة التعبيرية وسيلة من الوسائل الطبيعية المهمة للتعبير عن النفس حيث يضع المرء إحساساته وأفكاره وآراءه في كلمات .

وهناك ثلاث صعوبات تقابل الطفل في ذلك :

(١) الحاجة إلى الخبرة في أفكاره الأصلية ، وتزويد ثروته الفكرية بالاحتكاك مع البيئة ، وهذا يتوقف على مقدار احتكاكه بها قوة وضعفاً .

(٢) التعبير الشفوي ، وهذه صعوبة يقابلها الطفل حيناً يريد الكلام ، وإن طريقة الطفل في الكلام راجعة أساساً كنتيجة لخبرته وكلام من حوله ، وأثر المنزل مهم جداً في خبرته الأولى ، فهو العامل الذي يزيد من ثروة الطفل الكلامية .

(٣) صعوبة ميكانيكية تتمثل في الكتابة (الخط) ويمكن توضيحها للطفل الصغير بأن يكتب المدرس حيناً يتكلم الطفل وحيناً تظل صعوبة الخط قائمة في سنوات ما بعد الطفولة تظل ترتبط بها صعوبة الإنشاء .

مراجع أخرى للتربية الجمالية

1. A.G. Hughes & E.H. Hughes : Learning and Teaching.
2. Strut & Oakden : Matter and Method in Education.
3. Louis Arnand Reid : A. Study in Aesthetics
4. Charters : Teaching the Common Branches.
5. Valentine : Experimental Psychology of Beauty, Chap. 2 and 3.
6. Drever : Psychology of Everyday Life, Chap. 9, 10 and 12.
7. Bobbitt : Curriculum of Modern Education, N.Y. 1941.
8. Alexander : Psychology of Beauty.
9. J.M. Lee : The Child & his curriculum N.Y. 1940. Chap. 14.
10. Torossian : A Guide to Aesthetics. Chap. 1, 2, 7 and 8.
11. Mursell : Human Values in Ed.
12. Stayer Norsworthy : How to Teach.

الفصل الحادى عشر

الامتحانات

١ - الامتحانات بين القديم والحديث

يكاد يكون لكل شىء فى الحياة مقياس يقاس به . فالتر لقياس الأطوال ، والسطوح ، و « الترمومتر » لقياس الحرارة ، و « البارومتر » لقياس الضغط الجوى ، والساعة لقياس الزمن . فلا بد والحالة هذه من أن يوجد مقياس تقاس به معلومات الإنسان ، ومعارفه ، وما يحصله التلاميذ فى المدارس . لذلك لجأ الناس إلى وضع نظام الامتحانات ، ويحدثنا الأستاذ « هارتوج Hartog ^(١) بأن الامتحانات هذه قديمة جداً وأن أول ممتحن كان صينياً . ويؤكد الأستاذ بول منرو ^(٢) أن نظام الامتحانات الحالى بكل ما فيه من تفصيلات كوسيلة للملء وظائف الحكومة بدرجاتها المختلفة قد وضع حوالى سنة ٦١٧ ق . م عند اعتلاء أسرة « تانج » العظيمة العرش .

وكان نظام الامتحانات هو الظاهرة الأساسية فى التربية الصينية ، وذلك لأن هذه الامتحانات لا تمثل القوة المسيطرة على التربية فحسب ، بل إنها أيضاً تدعم الوسائل التى تقوم على صيانة الكيان الحكومى والاجتماعى ، وهذه الامتحانات مضافاً إليها تعاليم « الديانة الكونفوشية » التى كان يعتنقها الصينيون هى أهم النظم ، والقوى التى كانت تؤثر فى المجتمع الصينى . وفى الحق يمكن اعتبار الامتحانات : الوسيلة التى بها تمكنت التقاليد ، و « التعاليم الكونفوشية » من السيطرة على الطبقة المتعلمة ثم على الحكومة ، فقد تغلغت فى نفوس هذا العدد العظيم من السكان الذين يقطنون تلك البقاع المترامية الأطراف . على أن

Hartog : Examinations.

(١)

P. Monore : Text Book on the History of Education.

(٢)

المجهود المدرسي - في جميع مظاهره - لا يتجه إلى تحقيق حاجات المجتمع أو إلى استيفاء ما تتطلبه الوظائف الحكومية أو المهام الرسمية ، ولكنه يرى إلى هدف واحد هو النجاح في الامتحانات ، ولتوضيح ذلك نذكر أن مكافآت الطلبة الناجحين تتيح لهذا النظام الفرصة للتأثير العظيم في التربية ، كما أن عظم الصلة بين الامتحان وبين الوظائف الحكومية يشرح لنا كيف أن هذا النظام كان مسيطراً على حياة المجتمع .

وكان النشء في « أثينا » ، و« إسبرطة » في العصور القديمة حوالى سنة ٥٠٠ ق . م يؤدي امتحانات بدنية ، وعقلية في غاية الشدة ، وفي إسبرطة كانت تطبق قوانين الامتحانات على الذكور ، والإناث على السواء . وقد توالى السنون ، والأيام ، ولا تزال الامتحانات أداة للتعذيب ومصدراً للإرهاب . أما في العصور الوسطى فكانت الامتحانات شفوية ، وكانت تقتصر على تعريف العبارات ، وشرحها والدفاع عن الرسائل في الجامعات ، وبدلنا التاريخ على أن الامتحانات ظلت شفوية رداً كبيراً من الزمن في إيطاليا ، وفرنسا ، أما الامتحانات التحريرية فيرجع تاريخها في « جامعة كمبردج » إلى سنة ١٨٠٠ م ، ومنها انتشرت إلى « جامعة أكسفورد » بإنجلترا ، ومن أوائل الامتحانات التحريرية بأمريكا امتحان « بوستر » سنة ١٨٤٥ .

ولم تتبوأ الامتحانات مكانتها من الأهمية في الجزر البريطانية إلا في القرن التاسع عشر ، ويبدو أنها كانت قليلة الأهمية في القرن الثامن عشر حتى في الجامعات ، وفي هذا يقول « جون سكوت » أحد خريجي جامعة أكسفورد سنة ١٧٦٦ : « لقد كان الامتحان لأي درجة علمية من درجات جامعة « أكسفورد » أمراً مضحكاً في أيامي . فلقد امتحنت في اللغة العبرية وفي التاريخ ، فسئلت عن معنى كلمة « جمجمة » باللغة العبرية ، وعن مؤسس إحدى الجامعات ؟ وبعد الإجابة عن هذه الأسئلة ، وبعد الإطراء عليها اعترف الممتحنون بنجاحي واستحقاقى للدرجة العلمية » (١) .

ولكن إذا كان القرن الثامن عشر هو قرن انحدار ، وانحطاط للامتحانات ، فالقرن التاسع عشر كان ثورة ، وتحمة فيها . فقد خضعت المدارس الأولية الإنجليزية لامتحانات سنوية تجريها الحكومة . وضاق نطاق التعليم الثانوي . واقتصرت أهدافه على إعداد الطلبة لاجتياز الامتحانات . فأصبحت الامتحانات شبحاً يعمل في ظله كل مدرس ، وكل ناظر ، فكانت مقرونة بالكرهية ، والعداوة لدى التلميذ الصغير ، ولكن مما زاد الطين بلة هو ما ترتب على تلك الامتحانات من ترقية للمدرسين أو عقوبة لهم (من نقل أو تشريد . . إلخ) حتى كانت أرزاقهم وأقدارهم مرتبطة كل الارتباط بنتائجهم في الامتحان ، وها نحن أولاء نستمع لمستر Sneyed « سيند »^(١) بعد أن انتهى هو وزملاؤه من التصحيح ، ورصد الدرجات ، وكتابة الكشف بأسماء الناجحين يقول : « ها نحن أولاء نقوم بتقديم النتائج إلى ناظر المدرسة ليعتمدها ، ونحن لا ندرى أى أفراح تأتبه أو أى آلام ستحل به » . أليس على تلك النتائج سيتحدد دخله ، ومالته ؟ .

وهكذا نرى أن الامتحانات أصبح لها من القوة ، ومن الأثر السيئ ما دفع بعدد ليس بالقليل من مشاهير ذلك العصر رجالاً أو نساء إلى كتابة المقالات في الجرائد الإنجليزية محتجين فيها على نظم الامتحانات ، وإليك ما كتبه بعض الصحف بين سنة ١٨٨٥ ، سنة ١٨٨٨ :

١ - في نوفمبر سنة ١٨٨٨ كتبت مقالة ضد الامتحانات بأشد لهجة ممكنة في مجلة « القرن التاسع عشر » تحت عنوان « التضحية بالتربية من أجل الامتحانات » مقالة وقع عليها أربعمئة رجل ، وامرأة من مشاهير الشخصيات في ذلك الوقت .

٢ - وعن جريدة « نورثهامبتن » يقول أحد النظار « في مدرستي أجهد نفسي عاماً بعد عام ، ولكني لا أجدى إلا ثماراً ثقل عاماً بعد عام » .

٣ - وعن جريدة « كارليل » وهي تندد بالقائمين بالامتحانات في حديث

لها : توفي طفلان صغيران من جراء حمى ألت بهما أو شيء من هذا القبيل ، ولكن في الأشهر الأخيرة من حياتهما لم تكن كلماتهما متعلقة بشيء قدر تعلقها بدروسهما وبالامتحانات ، فقد قال أحدهما وهو في السابعة من عمره في مساء اليوم الأخير من حياته « يا أبتي إنني لا أستطيع تحريك أصابعي حتى أتمكن من الامتحان في الغد » ، بينما ظل الآخر يتكلم عن مدرسته ، ودروسه طيلة ليلة كاملة قبل وفاته . « وظلت الصرخة قوية حتى انتهى عهد القوضى ، والإرهاب في نظام الامتحانات من المدارس ، وحتى ذهبت آثاره السيئة إلى غير رجعة . وما أشبه هذه الحالة - التي كانت سائدة في إنجلترا في القرن التاسع عشر - بما هو سائد في مصر في الوقت الحاضر . إن الامتحانات في مصر مبالغ في قيمتها ، وأهميتها لذاتها إذ أنها أصبحت في نظر الجميع الغاية التي يرمون إليها ، فأصبحت بذلك مسيطرة على أعمال الناس ، ومشاعرهم فهي ذلك الدكتاتور الذي يخضع له الناظر والمدرس ، والتلميذ ، والذي حول المدارس إلى معامل لتخريج حملة الشهادات ، وصب المعلومات في أذهان التلاميذ بالصورة التي يصلحون معها للمرور في هذه الامتحانات .

ومن تلك المقالات التي نشرتها الصحافة الإنجليزية في القرن التاسع عشر يمكننا أن نتصور هذه الحالة ، وكيف أن الامتحانات كانت قد تعدت حدودها المشروعة ، وأغارت على حقوق المدارس ، فهناك أمران يجب ألا تتحكم فيهما الامتحانات هما :

أولاً - يجب ألا تتحكم في المنهج فتمليه إملاء .

ثانياً - يجب ألا تتخذ أساساً وحيداً لقياس مدى نجاح عملية التدريس . فالامتحانات يجب ألا تتحكم في المنهج وذلك لأن لكل مدرسة من المدارس ظروفها الخاصة التي يجب أن تراعيها ، كما أن لها أهدافها ، ومثلها العليا ، ولذلك يجب أن تترك للمدرسة حرية اختيار مناهجها التي عن طريقها تتحقق تلك الأهداف ، وتلك المثل . كما أن الامتحانات يجب ألا تتخذ مقياساً وحيداً لقياس نجاح المدرسة أو نجاح التدريس ، والمدرسين ، وهذا لا يرجع

إلى أن الامتحانات قد عجزت عن أن تقيس بعض النواحي المعنوية في التربية، ولكن لأننا لا يمكن أن نحكم في شيء من العدالة على مدى نجاح المدرس في التدريس دون أن نبحت أو ندرس نوع المادة الخام التي طبق عليها المدرس فنه . وإذن فلا بد من قياس ذكاء المتعلم بمقياس الذكاء وقياس تحصيله بمقاييس خاصة . ولكن الامتحانات التقليدية لا تعرف مثل هذه الاختبارات وهذا ما جعل الاختبارات الحديثة تقتحم طريقها إلى الظهور . ففي نهاية القرن التاسع عشر بدأت دراسة الطفل ، والطفولة ، وانكب جماعة من أئمة رجال التربية على دراسة عقل الطفل النامي دراسة علمية ، وقاموا بأبحاث واسعة النطاق فأمطروا المدارس ، والبيوت بوابل من الاستفتاءات ، وجمعوا الكثير من الحقائق وكان على رأس هذه الحركة المباركة الدكتور « ستانلي هول » (أبو حركة دراسة الطفل) "The Father of Child Study" وقد قام هؤلاء البحاث بدراسة ميول الأطفال ، ومخاوفهم ، ونوع الكذب لديهم ، ولعبهم ، ومحتويات جيوبهم ، وعقولهم . وقد جمعوا الشيء الكثير من المادة ، بحيث طغت على رجال البحث فلم يتمكنوا من استخلاص النتائج أو حل المشكلات التي كانت تواجه المدرس في الفصل - وظل الأمر كذلك حتى أوائل القرن العشرين ، وهنا نجد أن حركة دراسة الطفل ، والطفولة بدأت تمر بطور جديد منذ أن بدأت حركة التربية التجريبية ، وقد بدأت هذه الحركة على يد « ثورنديك » في أمريكا ، « وبينيه » في فرنسا ، « ونيومان » في ألمانيا ، « وكلاباريد » في سويسرا ، « وونش Winch » في إنجلترا ، وكان لهذه الحركة الجديدة أهداف واضحة ، ومحددة . فقد عملت على حل بعض المشاكل التي شغلت أذهان المشرفين على المدارس في مدارسهم ، وشغلت المدرسين في فصولهم . فقد حاولت الحركة الجديدة دراسة ما يجب أن يدرس ، ومتى يجب أن يدرس ؟ وكيف يدرس ؟ وفي البداية ، شغلت هذه الحركة ببحوث انتقال أثر التدريب . كما شغلت أيضاً بالبحث عن أي مادة من مواد العقل أكثر إجهاداً للتلميذ وعن أي أيام الأسبوع ، وأي أوقات اليوم الدراسي يظهر على التلميذ الحماسة

للعمل ؟ وفي الحقيقة لم يكن هناك نهاية للمشاكل المثارة ، وللتجارب المعروضة : ولكن على الرغم من ذلك فلم تكن النتائج مما يشجع ، ويرجع ذلك إلى عوامل :

١ - لم يعرف الممتحنون إبان فترة الحماس لتلك الحركة كيف يمتحنون ؟ وربما يكون الممتحن الجديد قد عرف كيف يمتحن بطريقة أحسن من الممتحن القديم ، وذلك لأنه تمكن من أن يدخل الطرق الرياضية التي تعلمها في المعامل السيكلوجية وبين جدران الفصل ، ومع ذلك فلم تكن هذه المعادلات ثابتة أو دقيقة . وكان من نتائج ذلك أن تحول مركز الاهتمام من التجارب إلى القياس . ومن هنا بدأ رجال البحث واحداً بعد واحد يتخلون عن أبحاثهم ، ويوجهون اهتمامهم إلى تحسين وسائل البحث ، وابتداع مقاييس لقياس العمليات العقلية ، ومتجاتها .

ويمكن أن نتبين ثلاث دلالات في طريق الإصلاح من القديم إلى الحديث هي :

١ - نشر مقال للدكتور « ريس » Rice في مجلة « المنبر » (الفورم) "The Form" عن القياس العلمي للتحصيل المدرسي .

٢ - ظهور اختبارات الذكاء « لبينيه » سنة ١٩٠٨ .

٣ - وضع اختبارات لقياس ذكاء الجيش الأمريكي سنة ١٩١٧ .

وكانت الدلالة الأولى هي باكورة اختبارات التحصيل ، وكانت الدلالة الثانية باكورة اختبارات الذكاء ، أما الدلالة الأخيرة فكانت باكورة الاختبارات الجمعية في الذكاء . ومن هنا يتبين لنا أن الممتحن الحديث بدأ يعرف كيف يصل إلى قياس ما يريد قياسه ؟

وأهم ما يميز الاختبارات الحديثة أنها مقاييس حقيقية وإذا كانت الاختبارات القديمة - تهب الدرجات أو تمنحها كما لو كانت هبات أو جوائز تقوم على كرم الممتحن ، ومواهب التلميذ فإن الممتحن الحديث بما فيه من روح علمية دقيقة ، يحترق أن يعتبر نتائج مقاييسه ، ومعايره شيئاً آخر سوى أنها اكتشافات جديدة وصل إليها عن طريق تلك المقاييس ، فلقد كانت

موجودة قبل ذلك بالفعل ، ولكن يرجع إلى مقاييسه الفضل في أنها قد كشفت عنها اللثام .

ويهدف الممتحن الحديث إلى أن يصل إلى أعظم مراحل الدقة في المقاييس التي يتتبعها ، كما يهيم أيضاً أن تكون تلك المقاييس مدرجة تدريجياً ووضوحاً وإذا كان الممتحن القديم قد اعتاد أن يضع عدداً قليلاً من الأسئلة لمشاكل كبرى ، فإن الممتحن الحديث يضع عدداً عظيماً من الأسئلة القصيرة . فثلاً يطلب الممتحن القديم من الطالب الجامعي أن يجيب عن أربعة أسئلة في ثلاث ساعات في حين أن الاختبارات الجمعية للجيش الأمريكي تطلب من الطالب أن يجيب عن ٢١٢ سؤالاً في نصف ساعة . من هنا يتضح لنا أن الممتحن الحديث كان يجرى اختباره - هذا من ناحية عدد الأسئلة ، أما من ناحية تصحيح تلك الأسئلة فالممتحن الحديث يهدف إلى أن يكون التصحيح موضوعياً . فيود أن لو يضع مقياساً للتصحيح لا تتغير نتائجه مهما تغيرت شخصيات المصححين أو تبدلت الظروف ، والأحوال . فالصرخة الأمريكية في الوقت الحاضر ترمي إلى حماية الامتحانات من أهواء المصححين .

ويعمد الممتحن الحديث إلى تقنين أسئلته قبل أن يطبقها تطبيقاً جدياً . وهو في هذا يخالف الممتحن القديم ، ففي أى امتحان من الامتحانات العامة توضع أسئلة جديدة لكل مادة كل سنة ، ويحافظ على سرية هذه الأسئلة بكل الوسائل الممكنة حتى يوم الامتحان . ويشترط في الأسئلة أن تكون جديدة . وبطبيعة الحال لا يتمكن الممتحن من تقرير صعوبتها ، أو من تحديد نوع الإجابة التي يتوقعها من الطلاب ، كما أنه ليس لديه وسيلة لمقارنة تلاميذ هذا العام بتلاميذ الأعوام السابقة . (وإن وجدت الوسيلة ، فهي وسيلة عرجاء) ، فهذا الامتحان في حد ذاته منزل ، ووحدة قائمة بذاتها ، يخفق في أن يصل نفسه بغيره من الامتحانات أو يقارن طلبته بغيرهم من الطلبة . أما الامتحان الحديث فيمكن فيه تحديد العلاقة التي

بينه وبين الامتحانات المماثلة . فهو جزء من شبكة معقدة من الاختبارات المتشابهة ، ولما كان الممتحن الحديث يختبر امتحانه بدقة قبل تطبيقها ، فإننا نجده يطبقها على أطفال في بقاع مختلفة ، ويضع النتائج التي يصل إليها بتحليل رياضي دقيق . ويعمل على التخلص من الأسئلة التي تبدو ضعيفة ، ويضع محلها أسئلة أكثر دقة . ويرتب أسئلته على حسب صعوبتها أو وفقاً لأي نظام يتفق مع أهدافه . ويقارن بين النتائج التي حصل عليها وبين نتائج اختبارات أخرى .

إن الممتحن القديم يصدر أحكامه على الطالب بعد امتحان واحد يجريه عليه ، أما الممتحن الجديد فلا يقنع بأقل من قياسين يطبقهما على تلميذه فيحاول أولاً وقبل كل شيء أن يكشف عن المواهب الفطرية له، ثم يعمل بعد ذلك على اكتشاف الفائدة التي أفادها الطالب أو التلميذ من تلك المواهب : فالامتحان الأول الذي يجريه يحاول به أن يقيس ذكاء التلميذ ، أما الامتحان الثاني فيهدف من ورائه إلى قياس معلوماته . وإذا حتمت الظروف على الممتحن أن يتخلى عن امتحان من هذين الامتحانين فإنه يستبقي امتحانات النوع الأول ، أي يستبقي امتحانات الذكاء ، وذلك لأنه يعتقد اعتقاداً جازماً أن اختبارات الذكاء أكثر أهمية من اختبارات التحصيل . وترجع أهميتها إلى أنها تنبئ بما سيكون عليه الطالب في المستقبل . فهي تبشر بالمستقبل وليست تلخيصاً للماضي . ومما لاشك فيه أن الاختبارات القديمة لا تتجاهل هذه العوامل ، ولكنها تخفق في التمييز بينها . فهي تعجز عن أن تنبئنا بمدى ما يعود من هذه الإجابة إلى عامل الذكاء ، ومدى ما يرجع إلى الكتب أو التعليم أو عنصر الحظ . وثمة ميزة أخرى تميز الاختبارات الحديثة أو الامتحان الحديث ، وهي ذلك القدر الضئيل الذي يتطلبه الامتحان من المجهود الكتابي . فهي تتطلب من التلميذ أن يفكر ويفكر أحياناً بعمق ، لا أن يطيل الكتابة في حين أن الامتحان القديم يتطلب من التلميذ انطلاقة في الكتابة .

مما تقدم يتبين لنا أن النزعة الحديثة في الامتحانات ترمي إلى أن تطرح

العبء عن أكتاف مصصح الإجابات وتلقيه على أكتاف واضع الأسئلة .
 بخلاف الحال في الامتحانات القديمة ، ففيها يتمكن واضع الأسئلة من الفراغ
 منها في عدد بسيط من الساعات بينما تصحيح الأوراق يكلفه الجهد الشاق
 والوقت الطويل . أما التزعة الحديثة فتزعم إلى عكس هذا الوضع ، ولذلك فهي
 تبذل الجهد في ابتداع الاختبار ، ومراجعته وتقنيته . فعظم الجهد يبذله
 الممتحن قبل أن يضع التلميذ يده على القلم ليصيب على الأسئلة وربما كانت
 النصيحة التي يدلى بها الممتحن الجديد إلينا هي :

Look after the testing and the marking will look after itself .

أي اهتم بإعداد الأسئلة أولاً ، فهذا يوفر عليك الجهد في التصحيح .

ب - مشكلة الامتحانات

هناك نفر من المدرسين يتخذون موقفاً عدائياً من الامتحانات ، ويؤكدون
 بكل جرأة أنه لا مكان للقياس في التربية ، وذلك لأن التربية تهتم أو تعالج
 أموراً عقلية ، أموراً معنوية كالنزعات ، والميول ، والآمال ، والمثل العليا
 — وبعبارة أخرى تهتم التربية بأمر هي أبعد ما تكون عن نواحي القياس —
 والواقع خلاف ذلك ، فحتى هؤلاء النفر يضطرون بطريق غير مباشر إلى
 « الامتحان » في صورة من صوره المختلفة كتشجيع التلميذ النابه ، والإطراء
 على المقال الجيد ، والترفقة بين أنواع إجابات التلاميذ ، فهم بعبارة أبسط
 يقسمون تلاميذهم حسب مواهبهم ، ويكافئون المجيد ، ويلومون المسيء ،
 وإذن هم يقومون بالامتحان من غير أن يشعروا بذلك ولا يمكن أن نقول :
 إن هناك مدرسة من المدارس يمكن أن تدار رحاها دون الإفادة من الامتحان
 في أى شكل من أشكاله . فقد لا يكون هناك امتحانات عامة ، وقد لا يكون
 هناك امتحانات مسابقات ، ولكن لابد من وجود امتحانات بأى شكل من
 الأشكال حتى تحقق التربية أهدافها . فالتربية تهدف إلى إحداث بعض
 التغييرات في المتعلم ، تغييرات لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة في حد ذاتها ،

ولكن لابد من وسيلة تكون وظيفتها الأساسية إظهار هذا الجزء الخفى . والامتحانات هي أعظم وسيلة لتحقيق هذا الغرض . فعلى هؤلاء المعارضين للقياس فى عملية التربية أن يسلموا بأن الامتحانات ضرورية ، وأنها شر لابد منه : هذا ومن حسن الحظ أن معظم المدرسين يؤمنون إيماناً قاطعاً بأن الامتحانات فى أى شكل من أشكالها جزء هام من العملية التربوية وأنه من الصواب أن تفصل ما بها من عيوب بدلاً من أن نقضى عليها . وإصلاح الامتحانات أمر يشغل بال رجال علم النفس التجريبي فى الوقت الحاضر : وهم يؤمنون بأن امتحاناتنا المدرسية بصورتها الراهنة كثيرة المساوىء ويذكرون من هذه المساوىء ما يأتى :

أولاً - إن عامل المصادفة ، وعامل الحظ يلعبان دوراً كبيراً جداً فيها ويتحكمان فى تقرير مصير الطفل . إذ أن هناك مواطن ضعف كثيرة فى أسئلة الامتحانات التقليدية ، فقد يتعرض الطفل فيها للخروج عن موضوع السؤال كما أن هذه الأسئلة كثيراً ما يشوبها عنصر الغموض . فلا يفهم الطفل معناها ، ويؤكد رجال التربية أن الأسئلة التقليدية بحاجة إلى نضج عقلى قلما يصل إليه الأطفال حتى فى مرحلة التعليم الثانوى ، وإلى جانب ذلك أنه بحكم الزمن توضع الأسئلة قليلة العدد ، وهذه القلة تؤدى حتماً إلى ضرورة إغفال أجزاء كثيرة من المنهاج . وبذلك لا يمكننا أن نسلم مطلقاً بأننا عن طريقها نتمكن من قياس قدرة الطالب قياساً صحيحاً . فقد يصادف أن يعرف الطالب الكثير من حقائق المادة ، ولسوء الحظ لا يمكنه أن يجيب عما أمامه من الاسئلة . ويرى الأستاذ «سانديفورد» أن التلميذ الذى يحصل على ٨٥ ٪ فى امتحان ما ، معناه أنه حصل على ٨٥ ٪ من معرفته لأسئلة الامتحان الموضوعه ، لا أنه عرف ٨٥ ٪ من حقائق المادة كلها ، إذ أن أسئلة الامتحان من المحتمل جداً أنها لا تتعدى أكثر من ٥ ٪ من المادة المقررة .

ثانياً - إن هذه الامتحانات أصبحت هدفاً فى حد ذاتها بدلاً من أن تكون وسيلة لخدمة أهداف التربية فالامتحانات اليوم تدفع بالقائمين على

شئون الأطفال إلى التوضيحية بأغراض التربية ، وطرقها الحديثة ، وأساليبها المختلفة ، فهم يقومون بإعداد التلاميذ ، وتهيبهم للامتحانات بدلا من تربيتهم التربية الحقيقية التي تعدهم للكفاح في خضم الحياة . فقد أصبحت مدارسنا في الوقت الحاضر معاملة لتلقين النشء نتفاً وقشوراً من المعرفة لا رباط بينها ، ولا حياة فيها وإن كان لها أهميتها في الامتحان ، وبذلك فقدنا الكثير من الفوائد التي تعود على النشء لو خضعت الامتحانات للتربية الحققة لا العكس .

ثالثاً — إن الامتحانات بشكلها الحالي لا تساعدنا في الحكم على الأطفال حكماً حقيقياً ، فهي لا تمثل إلا ناحية واحدة من نواحي التربية ، فلا تكشف من نواحي حياة الطفل أكثر من ناحية واحدة هي مبلغ إفاذته من مواد الدراسة ، أما عمق تفكيره ، وعبقريته ، ونشاطه ، ومثاقفه ، وصلاحيته للحياة الاجتماعية .. فكل هذه اعتبارات أبعد ما تكون عن اهتمام الامتحانات الحالية .

رابعاً — إنها بشكلها المألوف تشجع على الاستظهار والحفظ ، وتقتل عمليات عقلية أرقى كال تفكير ، والقدرة على الحكم ، فلا غرابة إذن أن ينسى التلميذ كل شيء عقب انتهائه من الامتحان ، وأن يلجأ إلى عمل الملخصات المبتورة التي لا يفيد منها إلا في الامتحان ، ومما يشجعه على ذلك ما يجده من كتب مؤلفة يعدها أساتذة تخصصوا في هذا العمل ، فأخرجوا لتلاميذهم المنقذ ، والمنجز ، والموجز ، والملخص . . . إلخ فالامتحانات الحالية ، لا تعرفنا شيئاً عما كسبه التلميذ من تقدم في نواحيه الوجدانية ، والخلقية ، والاجتماعية ، ولا تكشف لنا عن قدرته في استخدام ما أفاده من خبرة وتجارب في التصرف في المواقف الجديدة .

خامساً — لقد أدى نظام الامتحانات إلى خطر صحي وأخلاقي تأثر به التلاميذ تأثيراً عظيماً ، فقبيل الامتحان تعتل صحة التلاميذ ، ويرهقون بالعمل والمذاكرة الطويلة إرهاقاً يؤدي إلى إحداث أضرار جسمية ، ونفسية ، فقرب الامتحان نرى وجوهاً شاحبة ، وجسوماً هزيلة ، وعيوناً غائرة ، كما نلمس أعصاباً مضطربة ، وخوفاً بادياً ، وقلقا واضحا .. إلخ ، أما أنها عامل من

عوامل ضعف الأخلاق فلأنها تقرن العلم دائماً بأهداف مادية ، فقد تدفع التلميذ إلى التحايل على النجاح بأي شكل من الأشكال ، فقد يقصر اهتمامه على بعض أجزاء المنهج التي يتوقع منها الأسئلة ، وقد يعتمد التموه على الممتحن بأشكال غير خلقية ، كما قد يلجأ إلى الغش بأي شكل من أشكاله ، وأيضاً يؤجل دراسته واستذكاره إلى آخر السنة حيث يمكنه أن يعتمد على مدرس خصوصي يقوم بعملية تلقينه العلم ، وهكذا .

سادساً - الامتحانات الحالية قياس ذاتي يختلف باختلاف المصحح ، وبموامل شخصية لا علاقة لها بقدرة التلميذ مثل خط التلميذ ، وأسلوبه ، وطريقة عرضه ، ومقدرته الإنشائية ، ومزاج المصحح ، وفكرته عن التلميذ . وعلى ذلك فعنصر الحظ يتدخل فيها تدخلا كبيراً . هذا وستزيد القارئ تفصيلاً عن الامتحانات المدرسية كمقاييس فيما بعد .

من أجل ذلك انجھ رجال علم النفس التجريبي إلى البحث عن مقياس موضوعي لتقدير التلاميذ بدلا من طريقة الامتحانات التقليدية ، فبحثوا عن مقياس يمكن بواسطته اختبار قوى التلميذ ، وقدراته العقلية ، ومقدار تحصيله في مختلف المواد . لأنه بدون مقياس موضوعي تصبح عملية القياس عديمة القيمة ، كما أنه إذا ترك كل مدرس يقيس مدى نجاح تلاميذه بمقياس خاص تصبح النتائج التي يصل إليها عديمة القيمة بالنسبة لغيره من المدرسين . ولقد فكر رجال التربية في حل هذه المشكلة بطريقتين :

أولاً - فكر البعض في إلغاء « الطريقة التقليدية Essay Type طريقة المقال » ، « كوسيلة للامتحان » . فبدلاً من أن نضع في ورقة الامتحان خمسة أسئلة يحتاج كل منها إلى مقال في الإجابة عنه ، فكروا في وضع عدد عظيم من الأسئلة قد يصل إلى المائة ، وكل سؤال منه لا يحتاج في الإجابة إلى أكثر من بضع كلمات . وطبق نفس هذا المبدأ على الرياضة ، فيقدم للتلميذ عدد عظيم من الأسئلة العقلية بدلاً من الاختصار على خمس أو ست مسائل . وهذا الامتحان في شكله العام شبيه باختبارات الذكاء ، ويطلق عليه اسم

« الاختبارات الحديثة » New Type Tests : وهذه الاختبارات الحديثة تتميز بميزات واضحة عن الاختبارات التقليدية نلخصها فيما يأتي :

١ - إن تصحيح هذه الاختبارات لا يتأثر كثيراً بالعوامل الشخصية ، فلا دخل لمزاج المدرس أو تقديره في وضع الدرجة ، فالجواب في كل سؤال واحد معروف .

٢ - هذه الاختبارات موضوعية ، ولذلك نجدها ثابتة النتائج Reliable فنتيجة الاختبار لا تتأثر مطلقاً إذا تغير المصحح أو تبدل مزاجه نفسه .

٣ - تمتاز هذه الاختبارات بأنها شاملة للجزء الأعظم من المقرر الدراسي فهي بطبيعتها تمس مقداراً كبيراً من المادة المراد الاختبار فيها .

٤ - إنها توفر عنصر الوقت ، فالتلميذ يجب عنها في وقت قصير ، والمدرس يصححها في وقت قصير أيضاً ، كما يتمكن أى شخص مختص أو غير مختص من تصحيحها بسهولة طالما كان بيده نموذج الإجابة ، وتوزيع الدرجات على مختلف الأسئلة .

٥ - إن الدرجات التي تعطى على إجابات الطلبة درجات تقيس قدرة الطالب وقوته في العلم الممتحن فيه ، فهذه الاختبارات لا يمكن التضييل فيها ، إذ لا يستطيع التلميذ أن يغطي جهله بالتحايل على المصحح بالأسلوب كما لا يستطيع كتابة غير ما هو مطلوب منه . . إلخ .

هذا ولو أن بعض رجال التربية يميزون استخدام هذا النوع الجديد من الأسئلة مع صغار الأطفال إلا أنهم يشكون في قيمتها النهائية ، ويعز عليهم ترك « الامتحانات التقليدية » ، ويدعون أنه في علم كالتاريخ مثلاً لا يمكن عن طريق الاختبارات الحديثة قياس مدى فهم التلميذ للمادة وهضمه لصورتها العامة ، فالقدرة على التعبير عن الأفكار بوضوح ، وبشكل قصصى أمر هام وضرورى بحيث إنه لا يتحقق إذا اقتصرنا على الإجابات المختصرة وبالإضافة إلى هذا النقد تراهم يوجهون إلى الاختبارات الموضوعية مواطن الضعف الآتية :

١ - إنه ليس من السهل وضع أسئلة « الاختبارات الحديثة » فهي

تحتاج إلى مجهود جبار، فوضع مائة سؤال في مادة من المواد مثلاً يحتاج من المدرس جهوداً جبارة ، ووقتاً طويلاً .

٢ - إنها لا تشجع على التفكير ، كما أنها تحرم التلاميذ من إظهار القدرة على التعبير عن أفكارهم بشكل منطقي مرتب .

٣ - إنها تشجع على التخمين في الإجابة ، وهذا غير مجد وإن أصاب أحياناً .

٤ - إن هذه الاختبارات لا تقيس إلا معرفة الطفل للحقائق ، وتهمل اعتبارات أخرى كثيرة مثل معرفة درجة هضم المادة ، وحسن تطبيقها ، ولذلك يشك كثير من المربين - وهم على حق - في نوع التعليم الذى تقيسه هذه الاختبارات .

٥ - إن هذه الاختبارات لا تتيح الفرصة للتلميذ النابه المطلع فى أن يظهر قدرته لأن الأسئلة موضوعة فى جميع أجزاء المقرر التى درسها جميع التلاميذ على السواء .

٦ - إن الإجابة على هذه الأسئلة تتطلب نوعاً آخر من التعليم مخالفاً تماماً للطريقة التى يطالب التلميذ باتباعها فى استخدام معلوماته فى الحياة . من أجل ذلك ينصح بعض المربين بالتوفيق بين القديم ، والحديث ، وينادون بأن تشمل أسئلة الامتحان نوعاً كافياً . فيمكن الإجابة على بعضها بكلمة ، كما يجاب عن البعض الآخر بجمل ، والبعض الثالث بفقرة ، هذا وقد اختلفت الآراء فى تصحيح أوراق الإجابة ، فالبعض يرى إعداد نموذج مفصل لها ، ووضع درجات على نقاط محددة ، وعلى نوع معين من المعلومات ، وبعبارة أخرى : إنهم ينزعون إلى تجزئة الإجابة . أما البعض الآخر فيفضل التصحيح بما تركه الإجابة من أثر عام ، يكونه الإنسان بعد أن يقرأ الأوراق كلها مرة واحدة : وأحسن طريقة للتصحيح هى أن يفكر المصحح فى جميع الإجابات الصائبة المحتملة ، ويوزعها على مقياس ذى خمس مراتب . هذا ويمكن تطبيق نفس هذه المبادئ على تصحيح « المقالات الأدبية »

فبدلاً من تجزئة المقالات إلى «نقط» يقيسها المصحح بمقياس ذى خمس مراتب حسب قيمة كل مقال . ويصحح المقال عادة فى ضوء استيفائه للنقط الأساسية الآتية :

- | | |
|---------------------|-------------------|
| Range of Ideas. | ١ - ترتيب الأفكار |
| Quality of Ideas. | ٢ - نوع الأفكار |
| Style. | ٣ - أسلوب الكتابة |
| Technical Accuracy. | ٤ - الدقة الفنية |
| General Form. | ٥ - الشكل العام |

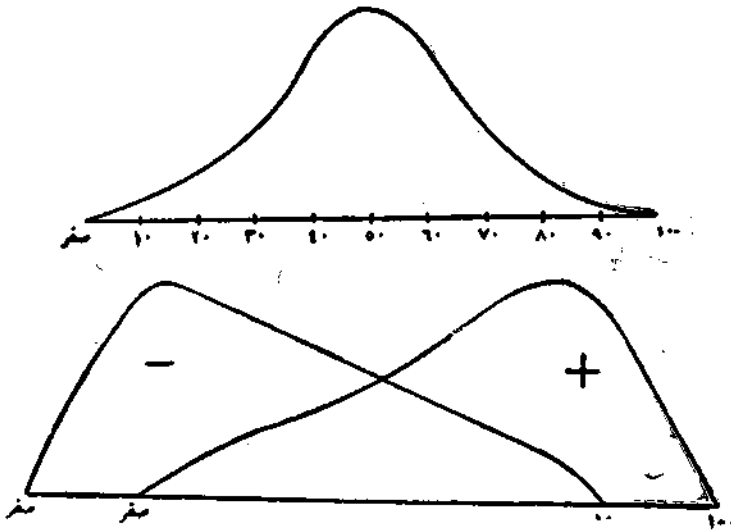
وبعد ملاحظة هذه البنود الخمسة يتمكن المصحح من الحكم على المقال بمرتبة من المراتب الخمس وهى : ممتاز ، وجيد جداً ، وجيد ، ومقبول ، وضعيف . ويجب أن تكون الأسئلة فى الامتحانات من النوع الواضح الخالى من اللبس ، وأن تستوفى الشروط الآتية :

أولاً - أن تكون بحيث تشبع حاجات التلاميذ وقدراتهم المختلفة . وبذلك يصادف جميع التلاميذ بعض النجاح ، كما يصادفون أسئلة صعبة تحتاج إلى القدرة على التفكير . ومن المستحسن أن ترتب أسئلة الامتحان ترتيباً تصاعدياً من حيث الصعوبة . فالأسئلة السهلة يجب أن تكون فى الصدارة ، إذ أنها تساعد على خلق الثقة فى نفوس التلاميذ العصبيين .

ثانياً - وأن تكون من حيث الطول والاتزان بحيث تشغل أمهر التلاميذ طيلة وقت الامتحان ، وإذا لم يتحقق هذا الشرط فشلت الأسئلة فى التفرقة الحقيقية بين أحسن التلاميذ ، وبين غيرهم : وقد يعترض البعض على طول الأسئلة نظراً لأنها تسبب شعوراً غريباً عند الممتحنين ، ويرد على هذا بأن هذا الشعور يزول بالتمرين ، ويجب على المدرسين ، وعلى التلاميذ أن يعرفوا أنه فى امتحان ما لم يتمكن جميع التلاميذ من الإجابة على جميع الأسئلة .

ثالثاً - بعد الانتهاء من التصحيح يجب أن تتأمل النتيجة والدرجات التى حصل عليها التلاميذ ، فهذا يمكن الحكم على ورقة الأسئلة بأنها معقولة أو غير

معقولة « فالامتحان الجيد » هو الذى تكون نتيجته متمشية مع منحني التوزيع العادى ، هذا إذا كان عدد التلاميذ كبيراً . وإذا كان هناك عيب فى الامتحان أخذ المنحني شكلاً « ملتوياً » ويعرف هذا الالتواء فى اللغة الإنجليزية باسم Skewness . وقد يكون هذا الالتواء بشكل « إيجابى » أو بشكل سلبى ، والالتواء الإيجابى دلالة قاطعة على عيوب واضحة ، وظاهرة فى الامتحان كسهولة الأسئلة أو سهولة التصحيح أو الغش . كما يستدل من المنحني على صعوبة الأسئلة أو ضعف الطلبة . . إلخ من العوامل .



وعلى الرغم مما يوجه إلى الامتحانات من نقد فإنه لا يمكن الاستغناء عنها ، وذلك لأهميتها ، ولأنها أيضاً لا تخلو من فوائد منها :

- ١ - أنها تدكى روح الهمة فى التلاميذ ويمكن الكثير منهم من بذل الجهد ولم شتات معرفتهم المهوشة وتكوين نسيج علمى عقلى مهضوم .
- ٢ - لها أثر تهنيدى عظيم فى الحياة المدرسية .
- ٣ - أهميتها عظيمة للمدرس فهى تقيس كفايته كمدرس ، وتدكى فى نفسه الحماس كى يتقدم ، ويعدل من طريقه إذا أثبتت النتائج إخفاقه .

٤ - أن الامتحانات تمدنا بمعرفة حالة كل طفل على حدة كما أنها أيضاً تفشى سر طرق التدريس إن كانت قوية أو ضعيفة .

٥ - تشخص الصعوبات التي يلاقيها الطالب في دراسة المادة ، والمعلم في تدريسها .

وبما لا شك فيه أن هناك أموراً تربوية هامة تعجز الامتحانات عن قياسها ، إذ أن المقياس الحقيقي للتربية لا يتوقف على مقدار التحصيل العلمي بقدر ما يتوقف على مدى عمق ، واتساع ، واستمرار ميول تلاميذنا التي يكونونها أثناء حياتهم الدراسية ، ومع تسليمنا بهذه الحقيقة فإننا لا يمكننا إنكار أهمية العلم والمعلومات في عملية التربية ، وليس ثمة أى تعارض مطلقاً بين الميل ، والمعرفة ، وإذا أخذنا « الأخلاق » كمقياس للتربية وجدنا أنه حتى في هذه الحالة يلعب العامل العقلي دوراً واضحاً في بناء الأخلاق . والواقع أن الأهداف المثالية للتربية لا يمكن أن تتعارض مطلقاً مع النتائج الطيبة للامتحانات .

من ذلك يتبين لنا أن الامتحانات لا غنى للتعليم عنها ، وأنها أصبحت جزءاً متميزاً في تسيير عجلته ، فهي لازمة في الفصل ، ولازمة في المدرسة ولازمة كوسيلة للكشف عن مدى هضم الطفل للمادة قبل أن ينتقل إلى مادة أرقى . وإذا كان الأمر كذلك فجدير بنا أن نسأل : متى ، وكم مرة يعقد الامتحان للتلاميذ ؟ تعقد الامتحانات في بعض المدارس في نهاية كل فترة دراسية ، وفي نهاية العام يعقد امتحان عام . أما بعض المدارس الأخرى فتعقد الامتحان مرة في نصف السنة ومرة في آخر العام . وهذا أمر يتوقف غالباً على أمور إدارية ، فإذا كان المنهاج معداً لسنة دراسية فلا بد عندئذ من أن يكون هناك امتحان عام يعقد في نهاية العام ، يضاف إليه امتحان أو أكثر أثناء العام الدراسي ، ويستحسن أن يكون في نهاية فترة من الفترات . أما إذا كان المنهاج لنصف سنة دراسية ، وإذا كان النقل من فرقة إلى أخرى يحدث في نهاية ستة شهور ، فيعمل امتحان واحد للفرقة الواحدة كل ستة شهور . هذا ويأخذ الامتحان شكلاً من أشكال ثلاثة : فهو إما تحريري ، أو شفهي ،

أو عملي ، وقد تحم الضرورة اتخاذ الوسائل الثلاث أو اثنتين منها فقط لقياس كفاية التلميذ ، ومن المستحسن ألا تقتصر على وسيلة واحدة منها ، فالامتحان التحريري يكشف عن قدرة الممتحن على ترتيب الأفكار ، وتنظيمها ، كما يبرز أسلوبه ، ومدى هضمه للحقائق - أما الامتحان الشفوي فيكشف عن لباقة التلميذ ، وسرعة فهمه ، وقوة ذاكرته ، وحسن معالجته للمواقف الجديدة . والامتحان العملي يكشف عن مرونة أصابع التلميذ ، ومهارته البدوية وملاحظته ، وذكاائه العملي .

والآن وقد عرضنا للامتحانات وما يكمن وراءها من مشاكل مختلفة ، وآراء متضاربة ، وأدليتنا برأينا ، وقررنا ما عن لنا صوابه من الأحكام - نرى أن ندع المجال لغيرنا من أصحاب المذاهب الفلسفية المختلفة ليعلنوا لنا رأيهم ، وما يلوح لهم من وسائل ناجحة في تحقيق الهدف التربوي من الامتحانات وما يرونه من الأساليب الناجعة لتفادي ضرر هذه المشكلة وما تحمله في طيها من عقد وأزمات . وهدفنا من ذلك أن نستبين وجهات النظر المختلفة ، حتى يكون القارئ على بيّنة من أمره حين يفضل إحداها على الأخرى ، وحين يحاول أن يكون لنفسه رأياً خاصاً أو فلسفة جديدة في هذا الموضوع .

٢ - الامتحانات في ضوء المذاهب الفلسفية

إن طبيعة ووظيفة الامتحانات الحالية ، وكيفية إدارتها من الموضوعات التربوية التي قتلت بحثاً في أيامنا الأخيرة . وقد أثبت ذلك أن كل فرد تقريباً أصبح يتبرم بكل نوع من أنواع الامتحانات المعروفة . ومع ذلك ، وعلى الرغم من هذا التبرم لم يقبل واحد من رجال التربية والتعليم إلغاء الامتحانات إلغاء تاماً . وقد يرجع السبب الرئيسي لهذا التبرم إلى أن جميع المدرسين يعرفون الكثير من الحالات التي يرسب أصحابها على الرغم من قدرتهم ومنابرتهم على العمل ، وهذا في نفس الوقت الذي ينجح فيه غيرهم من التلاميذ الذين هم دونهم قدرة ومثابرة . لذلك يشعر رجال التربية بشيء من التحدي عند حدوث

مثل هذه المآسى ويحاولون قدح زناد أفكارهم للبحث عن مقياس أكثر دقة لقياس تحصيل وقدرة التلاميذ وهم يظنون أن الوقت قد حان لضرورة معرفة بعض الطرق لقياس التحصيل المدرسى بحيث تكون نتيجة القياس متناسبة مع قدرات التلميذ العامة . على أن ما اخترعه بعض رجال التربية من اختبارات تعرف باسم « الاختبارات الحديثة » « The new style examinations » مازال ينظر إليها غيرهم من المربين نظرة سخرية ، كما أن بعض الأهداف أو النواحي الموضوعية التى يضعها بعض המתحنيين نصب أعينهم قد تبدو غير مقبولة فى أعين غيرهم : والواقع أن مناقشة كبار رجال التربية فى هذا الموضوع قد تبدو مناقشة ثائرة غير مستنيرة ، وربما كان الخلاف أعمق من أن يتنبه إليه كل من الطرفين المتخاصمين . وقد يكون هذا الخلاف عميقاً جداً بحيث يترتب من ذلك الخلاف الذى تدور رحاه بين أنصار هذه الفلسفات الرئيسية الثلاث وهى : الواقعية ، والمثالية ، والعملية . وإذا وقفنا بين مفترق طرق تلك الفلسفات فلا بد من أن نختار التوازن بينها لنخرج بفلسفة ذاتية ولنشق الآن طريقنا إلى تلك الفلسفات الثلاث :

١ - الفلسفة الواقعية

١- يحتم الواقعى : على المتحن أن يكون عليمًا بالأهداف التى يرمى إليها . فما يبحث عند لا يعدو أن يكون تحصيلاً موضوعياً من جانب التلاميذ : ويقصد بهذا القدرة على تكرار المعلومات الموضوعية ، وعلى إثبات فهم العلاقات الموضوعية الداخلية فى دراسة أى موضوع من الموضوعات : وهذا الفيلسوف الواقعى نفسه يتوقع أن يتدع المتحن مقياساً موضوعياً لقياس هذا التحصيل الموضوعى . وإن ما يثير غضب هذا الفيلسوف هو الاهتمام بالمستويات ، ووجهات النظر الذاتية سواء أكان هذا من جانب التلميذ أم من جانب المتحن .

ومن أجل هذا لا تلحقنا الدهشة إذا ما عرفنا ان هذه العقلية الواقعية تشكل

فى قدرة المدرس على تقدير التلميذ و « الحكم » عليه . ولقد عرضت أوراق الامتحانات من « نوع المقال » Essay Type على عدد ليس بالقليل من المدرسين ليقدرها كل منهم فكانت النتيجة متفقة تماماً مع ما كان يتوقعه كل عضو من أعضاء لجنة الامتحان . ومعنى هذا أن مدرساً من المدرسين وليكن « أ » قد يرتب ثلاث أوراق من أوراق الإجابة بالشكل الآتى : ورقة فى المرتبة الأولى ، وورقة فى المرتبة الثانية ، وورقة فى المرتبة الثالثة ، أما المدرس « ب » فقد يرتب نفس الأوراق الثلاث بشكل عكسى : أما المدرس « ح » فقد يتصور أن الأوراق الثلاث جميعها فى مستوى واحد وأنها مثلاً فى المرتبة الثانية .

ومن أكبر العيوب التى توجه إلى الأسئلة التقليدية صعوبة تصحيحها . ومنذ سنوات مضت بدأت التربية الحديثة توجه النقد اللاذع للامتحانات ، وتوالى عليها الحملات ، ولقد أثبتت التجارب أن عنصر المصادفة ، والعامل الشخصى لهما أكبر الأثر فى تقدير نتائج الامتحانات ، لدرجة أن أكد البعض أنه لا توجد مقاييس حقيقية للتقدير ، وأنه إذا اتفق اثنان فى تقدير درجة ما ، فإن هذا الاتفاق لا يكون إلا من قبيل المصادفة . ويقول الأستاذ « ب . واليس »^(١) B.C. Wallis وهو من كبار هيئة الممتحنين الإنجليز ما يأتى : « نحن جماعة الممتحنين لم ندرّب قط على مهمتنا التى نقوم بها . فنحن فى أشد الحاجة إلى مدرسة أو معهد لتدريب الممتحنين على التقدير ، كما أننا فى مسيس الحاجة أيضاً إلى معهد يبحث نتائج الامتحانات . إن أطفالنا ، وفلذات أكبادنا هم فى نظرى أكثر أهمية من النباتات ، ومع ذلك فنحن نتساءل ما هى المدرسة التى يمكن أن نعتبرها بمثابة حقل لتجارب التربية الحديثة ؟ وأين معهد الأبحاث الخاصة بالامتحانات الذى يمكن أن نتبع فيه مدى نجاح ما عالجناه وما سنعالجه من مشاكل ؟ »

وكى نزيد القارئ توضيحاً نسوق إليه بعض الأمثلة التى بها يشهد إخفاق

تقدير الممتحنين لأوراق الإجابة .

أولاً - لقد أثبتت التجارب التي قامت بها لجنة الامتحانات المدرسية بجامعة « درهام » ، أن هناك اختلافات عظيمة بين المصححين في تقدير الدرجات . وكانت التجربة قائمة على تصحيح أوراق الإجابة في اللغة الإنجليزية ، قام بالتصحيح فيها سبعة من المدرسين المتميزين ، وقد تصادف أن سبعا من أوراق الإجابة أرسبها اثنان من المصححين فلما عرضت على غيرهما من المصححين نجحت جميعها ، وكان نجاح بعضها نجاحاً مشرفاً للغاية .

ثانياً - أقيم امتحان للتاريخ في إحدى الجامعات الأمريكية وقام بتصحيح الإجابة فيه ستة من الأساتذة ذوي الكفاءة الخاصة ، وكان من المقرر أنه إذا رسبت إحدى الأوراق عند أحد المصححين فلا بد من عرضها على بقية الأعضاء لإبداء رأيهم فيها ، وقد تصادف أن قام أحد هؤلاء المصححين بعمل نموذج للإجابة ليستعين به في التصحيح ، ولكن من سوء حظ هذا المصحح أن خلط هذا النموذج بغيره من الأوراق الراسبة ، فمر هذا النموذج على بقية المصححين ، فتعرض بذلك الأستاذ المحترم للرسوب من بعض زملائه .

ثالثاً - عملت تجارب أخرى واسعة النطاق في كل من أمريكا ، وأوروبا ، وكانت نتائجها مخيبة لآمال رجال التعليم ، وذلك لأنها تمخضت عن حقائق ما كان يؤمن بها المهيمنون على شئون الامتحانات ، إذ أثبتت هذه التجارب أن ورقة الإجابة الواحدة قد ينالها من أحد المصححين درجة تكاد تقترب من درجة الكمال ، بينما تنال من مصحح آخر الرسوب التام ، وبذلك يختلف تقدير المصححين اختلافاً واضحاً ، وظهر هذا الاختلاف بوضوح في المواد التي تحتم الإجابة فيها استخدام طريقة الموضوعات ، كما هو الحال في المواد الاجتماعية ، والإنشاء ، وما يثير الدهشة حقاً أن المصحح الواحد قد يختلف تقديره لإجابة من الإجابات إذا عرضت عليه تلك الإجابة في مناسبات مختلفة : فقد عرضت مجموعة من الأوراق - بعد مدة من الزمن - على نفس الممتحن الذي سبق أن قدرها ، وقد وجد أنه هو نفسه يختلف مع

نفسه في تقديرها ، وقد يعكس ترتيبها لدرجة أنه قد يضع في المرتبة الثالثة بعض الأوراق التي كانت في المرة السابقة ضمن أوراق المرتبة الأولى ، كما قد يضع بعض أوراق المرتبة الثالثة في الصف الأول .

وتخلاصة هذا القول أن الممتحنين بشر ، وأن هذه التجارب أثبتت ما يعرفه الجميع من ضعف الطبيعة البشرية ، وتأثيرها . ولم تقتصر هذه التجارب وأمثالها على التاريخ والأدب فحسب ، حيث يتوقع الجميع اختلافاً في الآراء ، ولكنها أجريت أيضاً على « العلوم » ، وحتى على « الرياضة » وكانت النتيجة اختلافاً واضحاً في آراء المصححين حتى في المواد التي كان يتوقع الجميع توافق الآراء فيها .

ولما أثبتت التجارب أن « حكم » المدرسين على التلاميذ يتأثر بناحية الضعف البشري ، والناحية الذاتية ، بدأ أنصار الفلسفة الواقعية يبحثون فيما إذا كان من الممكن البحث عن طريقة لا تتأثر أسئلتها ، ولا الإجابات عنها بالاختلافات الذاتية ، كما بدأوا يبحثون أيضاً عن الأسئلة التي تقيس حقيقة المعلومات وتكشف عن كنه عقلية التلميذ ، ومبادئه ، ولذلك نجد أنهم قد بدأوا يبتعدون كل البعد عن تلك الأسئلة التي تبدأ بالألفاظ المعهودة مثل :

١ - « ناقش هذا المبدأ أو تلك النظرية » إذ أن كلمة ناقش لا بد ، أن تفهم عناصر ذاتية في الإجابة .

٢ - « اكتب ملخصاً عن موضوع من الموضوعات » لنفس السبب السابق ذكره .

٣ - أسئلة « هل تظن . . . أن كذا ، وكذا . . . وإذا كان الأمر كذلك فلماذا . . . ؟ »

٤ - أسئلة (ماذا تفضل . . . مع ذكر السبب . . . ؟)

٥ - أسئلة « عبر بعبارتك عن . . . كذا ، وكذا . . . ؟ »

٦ - أسئلة « كيف تعالج موقفاً من المواقف . . . ولماذا ؟ »

أما المجال الذي لا تختلف فيه الآراء فقد حصره الواقعيون في أمرين هامين هما :

أولاً - مجال الحقائق أو ميدان المعرفة .
ثانياً - مجال العلاقات .

ففي مجال الحقائق الموضوعية يضع المتمحن قائمة بالحقائق الهامة نصب عينيه ثم يبتكر أسئلة مبسطة ليرى بعيني رأسه هل يعرف تلاميذه تلك الحقائق أو لا يعرفونها ، فالأسئلة التي يضعها سهلة بسيطة بطبيعتها تبتعد كل البعد عن الغموض ، كما تبتعد أيضاً عن اختبارات الذكاء العامة ، وقد تأخذ هذه الأسئلة أشكالاً مختلفة نذكر بعضها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر :

- ١ - أسئلة الخطأ ، والصواب .
- ٢ - أسئلة الاختيار من إجابات متعددة .
- ٣ - اختبارات التكميل .
- ٤ - اختبار الربط .
- ٥ - اختبار الترتيب .
- ٦ - اختبار التوفيق .

وإليك نبذة مختصرة عن كل من هذه الأسئلة والاختبارات .
١ - أسئلة الخطأ ، والصواب :

يسأل الطفل سؤالاً معيناً ، وتذكر عدة أجوبة مختلفة لهذا السؤال بعضها صواب وبعضها خطأ ، ويطلب من الطفل أن يضع علامة الصواب أمام الإجابة الصحيحة ، وعلامة الخطأ أمام الإجابة غير الصحيحة : وسنحاول أن نذكر بعض الأمثلة .

مثال ١ : بعض العبارات الآتية صحيحة والبعض الآخر خطأ ، فإذا كانت العبارة صحيحة فضع علامة الصواب (✓) على الخط المنقط ، وإن كانت خطأ فضع عليه علامة (×) .

- (أ) المستقيم أقرب بعد بين نقطتين
- (ب) تكثر التماسيح في شاطئ البحر الأبيض قرب الإسكندرية
- (ج) تقع القاهرة على خط الاستواء .

٢ - الاختيار من إجابات متعددة : ومن أمثلتها ما يأتي :

- (أ) إن مكتشف أمريكا هو : دريك - كولبس - كوك - رالى .
 (ب) عاش « شكسبير » فى عهد : (هنرى الثامن - أليصابات - الملكة آن - جورج الثالث) .
 (ج) إن أول من أدخل التبغ فى إنجلترا هو (حنا كابوت - توماس كرومويل - سير والتر راى - روجر ألان) .
 (د) إن رئيس الوزارة الإنجليزية إبان الثورة الفرنسية هو : (وليم بت - روبرت والبول - روبرت بيل - وليم إيوارث غلادستون) .
 (هـ) إن الذى انتصر فى موقعة الطرف الأغر هو : (ولنجت - دريك - غوردن - نلسن) .

٣ - اختبار التكميل :

وهذا الاختبار عبارة عن جمل ، وعبارات تحذف بعض كلماتها أو عباراتها ، ويطلب من التلميذ تكملة الجملة بما يملأ فراغ الكلمات المحذوفة مثال : أمامك عبارات والمراد تكميلها :

- (أ) ترجع شهرة المحلة الكبرى إلى
 (ب) إن أهم الصناعات القائمة فى محافظة قنا هى وذلك لوجود
 وتصدر هذه السلع إلى بقية القطر بواسطة وذلك
 (ج) إن التربة الحقة هى تلك التربة التى تضع التلاميذ أمام
 تصارعها وتصارعه وتكون النتيجة ذلك

٤ - اختبار الربط :

يوفق التلميذ بين الألفاظ أو بين العبارات المرتبطة أشد الارتباط ببعضها

العرق	٢ - الشتاء
اللعب	٣ - شهر رمضان
الأمطار	٤ - الامتحان
الصيام	٥ - الطفل

٥ - اختبار الترتيب :

وفي هذا الاختبار يعطى الطفل أو التلميذ مجموعة من الكلمات أو من العبارات ويطلب منه ترتيبها :

- مثلاً : (١) الحرارة ... (٢) بخار الماء . . (٣) التصاعد ...
 (٤) التكاثف . . . (٥) المطر
 (١) ٣ (٢) ٥ (٣) ٧
 (٤) ٩ (٥) ١١

٦ - اختبار التوفيق :

وهذا عبارة عن جدولين أحدهما للأسئلة ، والآخر للأجوبة ، ولكن الأجوبة توضع بغير ترتيب الأسئلة ، ويكلف الطفل وضع كل جواب أمام السؤال الذى يتفق وجوابه أو يضع رقم الإجابة مدلاً منه .

- ١ - متى تبدأ إجازة وسط السنة ؟ جمال عبد الناصر
 ٢ - من الذى أتم قناة السويس ؟ فى أوائل فبراير
 ٣ - متى خلع الملك السابق عن عرشه فى ميدان المحطة
 ٤ - أين يوجد تمثال رمسيس ؟ فى ٢٦ من يوليو سنة ١٩٥٢

تلك هى الاختبارات الحديثة التى يلخص الأستاذ « برنكلى » Brinkley^(١)

مزايها فيما يأتى :

أولاً - إن الاختبارات الحديثة اختبارات موضوعية لا تتأثر مطلقاً بالعوامل

الشخصية ، ولا بالأهواء الذاتية ، كما أنها لا تعطى للمصحح مطلقاً فرصة التأثير بعوامل ثانوية كحسن الخط أو القدرة على التعبير ، وترتيب الأفكار .

ثانياً — هي أكثر ثباتاً من الامتحانات التقليدية ، وتوزيع الدرجات فيها أكثر اتساعاً ، وبذلك تكشف عن نواح كثيرة لا يتأتى للامتحانات القديمة الكشف عنها .

ثالثاً — إن الامتحانات الحديثة تمتاز بتعدد أسئلتها ، وبكثرتها ، وبذلك تشمل مقداراً كبيراً من المادة المراد الامتحان فيها . وهذا يجعل المدرس يهتم بكل جزء من أجزاء المادة ، ولا يقتصر على حشو أذهان الأطفال بالمهم منها فقط .

رابعاً — إن الاختبارات الحديثة تشجع على تكوين بعض العادات المستحبة . كسرعة التفكير ، وعدم الخروج عن الموضوع ، وفهم الأفكار أكثر من وعيها أو حفظها ، وتحديد الإجابة ، وعدم الاكتفاء بالتعميمات السريعة .
خامساً — إن الاختبارات الحديثة تمكن المدرس من مقارنة فصوله بعضها ببعض أو بعض أجزاء الفصل بالبعض الآخر ، كما أنها تمكنه أيضاً من القيام بالتجارب العلمية في طرق التدريس ، ومحتوى المادة .

سادساً — إن الاختبارات الحديثة لا تقتصر أهميتها على قياس الأغراض التي ترمى إليها فحسب بل هي في الواقع اختبارات تعليمية ، وتشخيصية ، وعلاجية . على أن الاختبارات الحديثة لا تخلو من عيوب جدير بنا أن نذكر :
منها ما يأتي :

أولاً — إن هذه الاختبارات لا تسمح للطفل مطلقاً بأن ينظم أفكاره ، ويرتبها ، وخاصة في المواد التي تحتاج لإبراز عنصر حسن التعبير .

ثانياً — إن هذه الاختبارات بطبيعتها تتكون من أسئلة متعددة ، وكل سؤال يتعلق بنقطة صغيرة من المادة ، وما دام الأمر كذلك فهذه الاختبارات لا تقيس لإفادة الطفل على استيعاب الحقائق الفردية أكثر من فهم الحقائق العامة .

ثالثاً — يعتمد تفوق الطفل في هذه الاختبارات على معرفة الحقائق المجردة أكثر من معرفة العلاقات ، وربط الأسباب بالمسببات ، وهذا من شأنه أنه يؤثر في صحة الاختبار . فالهدف الرئيسي من الامتحان هو معرفة مدى فهم الطالب للحقائق ، وكيفية استخدامها لا مجرد الحفظ والاستيعاب .

رابعاً — قد تشجع هذه الاختبارات بعض الأطفال على الخدس ، والتخمين . خامساً — قد تدعو هذه الاختبارات إلى عدم التفكير في الموضوع ، فقد يكتفى الطالب باستظهار حقائق متناثرة خالية من الربط ، والمعنى .

سادساً — لا يمكن استخدام هذه الاختبارات في قياس بعض المواد الدراسية كالرسم ، والخط ، والانشاء .

سابعاً — إنها تحتاج في تكوينها إلى وقت طويل من المدرس إذ ليس من السهل أن نتصور الوقت اللازم لموضع مائة سؤال أو خمسين كى يقوم الطفل بحلها في بضع دقائق .

والآن رأينا ما كان من رأى « الرجل الواقعى » في عمل اختبارات من نوع حديث ، وما كان من أمر هذه الاختبارات ومحاسنها ، ومساوئها ، وعرفنا أن الرجل الواقعى يهتم بأمرين هما : نوع الحقائق ، ونوع العلاقات التى يجب أن يعرفها التلميذ وتقدير التلميذ بمقدار ما يهضمه من تلك الحقائق ، وما يعرفه من تلك العلاقات — على أن ما يتصوره مدرس من المدرسين قد ينطوى على حقائق هامة قد يتأثر بالناحية الذاتية ولذلك نجد أن الواقعى يحاول التخلص

من ذاتية المدرس ومن تأثير العنصر الشخصى بشكلين أو بطريقتين هما : أولاً — يطلب من أحد المدرسين وليكن « أ » أن يكتب قائمة بالحقائق الهامة لمادة من المواد والعلاقات الهامة في تلك المادة ، ثم تعرض هذه القائمة ، على مدرسين آخرين ، وليكونوا ب ، ج ، د ويطلب منهم الحكم عليها ، وبهذا الشكل وبالاحتكاك بين المدرسين يمكن التخلص من العناصر الذاتية التى تتحكم في الأسئلة ، وتصبح الأسئلة مصدقة لقول الشاعر الإنجائزى : —

What remains will be so pure,

It will bear The examination of the most severe.

وحتى هذا لا يطمئن إليه الواقعى من المربين إذ أنه لاحظ أنه حتى هذه اللجان من كبار الممتحنين كثيراً ما تقوم بوضع أسئلة يتمكن أى تلميذ من الإجابة عليها بسهولة أو لا يتمكن أى تلميذ من الإجابة عليها قط . وفى نظر الواقعيين أن أى سؤال عديم « القيمة الشخصية » لا يساعد على فصل « الناجحين من الراسبين » ، هو سؤال لا قيمة له . ولا يستحق أن يوضع فى ورقة من أوراق الامتحان سواء اعتقد المدرس أنه سؤال هام جدير بالطفل أن يجيب عليه أو لم يعتقد . الطريقة الوحيدة للحكم فيما إذا كان للأسئلة « قيمة شخصية » أم لا هى تطبيقها على تلاميذ أقوياء ، وعلى تلاميذ ضعفاء كى نتمكن من معرفة قيمة الأسئلة ذاتها . وبعبارة أخرى يجب أن تكون الأسئلة مقننة ، ويجب أن نحاسب تلاميذنا على إجاباتهم بقياسها على ما عندنا من إجابات مقننة .

وبهذه الطريقة يتمكن « الواقعى » من ابتكار اختبارات تتلخص من عنصر الذاتية من جانب التلاميذ ، ومن جانب الممتحن ، وما لا شك فيه أن مثل هذا الإعداد لهذه الأسئلة لا بد وأن يكلف الممتحن جهوداً جبارة ، ووقتاً طويلاً . ولكن بعد ما يتمكن المدرس من عملها يسهل عليه أن يطبقها فى أى وقت وبأقل جهد . إن مثل هذه الاختبارات هى بدون شك تتمثل فيها الكفاية ، وترتبط النهاية العظمى للتحصيل الموضوعى بالنهاية الصغرى للمجهود .

٢ - المذهب المثالى فى عمل الامتحانات

إن الرجل المثالى يمتاز بوضوح الهدف أمام عينيه ، وهذا الهدف لا يخرج عن الوصول إلى أقصى ما يمكن أن تصل إليه قدرات الشخص الذاتية . ولذلك نجد أنه يبحث ، ويفتش عن أسئلة الامتحانات التى تعمل بطبيعتها على تنشيط عقل الطالب إلى أقصى حد ممكن ، وبذلك يتمكن من أن يشجع الممتحن على أن يلم شتات نفسه ويبدل أقصى جهده فى الإجابة على الأسئلة . ولا كانت شخصيات الأفراد تختلف فيها بينها اختلافاً كبيراً كان نوع الأسئلة

التي يرى المثالي إلى البحث عنها يناقض تمام المناقضة تلك الأسئلة التي يرى « الواقعي » إلى ابتداعها . فالواقعي يبحث عن أسئلة يمكن أن يجاب عنها بشكل صائب ، وبطريق واحد . أما الرجل المثالي فيبحث عن الأسئلة التي لا يتفق طالبان في الإجابة عليها ، والتي تنحدي بطبيعتها قوة كل طالب على حدة . فالأسئلة التي يمكن الإجابة عليها بوضع علامة الصواب أو الخطأ أمامها أو بوضع خط تحت نوع الإجابة - مثل هذه الأسئلة لا تروق مطلقاً في نظر الرجل المثالي . والتلميذ إما أن يعرف هذه الأسئلة أو يجهلها ، وهو في كلتا الحالتين لا يشعر مطلقاً باللذة في عرض آرائه الصائبة ، ولا يشعر بمرارة الألم إذا كانت إجاباته خاطئة .

فالأسئلة التي يجدها « الرجل » المثالي هي بعينها الأسئلة التي يرفضها « الرجل الواقعي » . أسئلة تأخذ شكل (ناقش - اشرح - انتقد) وهذا نوع من الأسئلة كفيل في نظر المثالي بأنّه يتيح الفرصة للتلميذ كي يبرز شخصيته ويبرز معرفته ، ويدلى بذكائه ، وبقدراته الخاصة . على أن نوع الإجابة التي يتطلبها الرجل المثالي هي نقيض الإجابة التي يتطلبها الرجل الواقعي . فالمثالي يتطلب « المقال » ، والمقال يتيح للفرد الفرصة للتعبير ، ولإبراز عمق البصيرة ، ولتنمو الشامل . وفوق هذا تبرز العبقرية . زد على ذلك أن مثل هذه الأسئلة تتيح للتلميذ فرصة لتحدي الشيء المجهول بخلاف أسئلة الحقائق ، وأسئلة المعرفة في نظره بعيدة عن الناحية الجمالية ، ولا تفسح المجال للتعبير عن الذاتية . فالأسئلة المبنية على مشاكل هي النوع الذي يتطلب عبقرية وقدرة ، وهي بعينها الأسئلة التربوية .

وإذا كان المقال ضرباً من ضروب التعبير عن العنصر الذاتي فكيف يمكن تصحيح مثل هذا الشيء ؟ هل هناك مبادئ معينة يتمكن الممتحن من الاستعانة بها ؟ أو تصحيح مثل هذه الاجابات أمر ذاتي أيضاً ؟ إن الرجل المثالي يؤمن إيماناً قاطعاً بأن الإجابة على الأسئلة المقالية تحتاج إلى أمرين هامين ، هما : القدرة على الحكم ، والبصيرة النافذة في تصحيح المقال . التربية وطرق التدريس - ثان

ولما كان يعتقد أن القدرة على الحكم ، والبصيرة النافذة لم يصحبا بالأمور الهامة لدى المرئي الحديث في الوقت الحاضر ، لذلك نراه ينادى بأن المبادئ التي يجب أن تطبق عند تصحيح المقالات هي مبادئ العقل نفسه ، وهذه المبادئ هي :

Comprehensiveness	١ - القدرة على الفهم
Clearness	٢ - الوضوح
Vigour	٣ - النشاط العقلي
Unity	٤ - الوحدة
Depth	٥ - العمق
Originality	٦ - العبقرية

فإذا كان كاتب المقال قد تمكن من أن ينظر إلى المشكلة بعين فاحصة ، وأن يجعل مقدمة مقاله ، وطريقة عرضه ، وخاتمته مرتبطة متصلة بصلب المشكلة ، وإذا كانت الأدلة التي أدلى بها تؤدي إلى نتيجة واحدة محتملة . وإذا كانت النتائج وثيقة الصلة بمقدماتها ، وإذا كانت حركة الأفكار منتظمة . عندئذ يحكم الرجل المثالي على المقال بالامتياز ، وهذا يدل في نظره على عقلية من النوع الممتاز تمكن صاحبها من الكشف عن الصفات العقلية اللازمة لحل المشكلة في وقت محدد هو وقت الامتحان .

وثمة نقطة هامة جدية بالذكر . « فالواقعي » يصحح الإجابات بألفاظ هي صواب أو خطأ ، ويقصد بهذا أن الإجابات صحيحة بالقدر الذي ترتبط به وتتفق مع مستويات الحقائق ، وإذا كانت الإجابات خاطئة فعنى هذا أنها لم تصل إلى ذلك المستوى الذي يتفق ، والحقائق العامة . فالمقياس الذي يقيس به الرجل الواقعي قيم الأشياء هو معيار « ربطها بالحقائق » fact correspondance أما الرجل المثالي فلا يهتم مطلقاً بارتباط الإجابة ارتباطاً موضوعياً بالحقائق أو عدم ارتباطها . كما أنه لا يهتم مطلقاً إذا كان الطالب يتفق مع الممتحن أو لا يتفق . وكل ما يهمه هو الصفات العقلية التي يبرزها كاتب

المقال ، فإذا كان التماسك ، والعمق ، والعبقرية واضحاً كانت درجة المقال عالية . وإذا كان التماسك ، والعمق واضحين ، ولكن التلميذ يكرر مذكراته التي استقاها عن أستاذه بمعنى أن الصفات العقلية الظاهرة هي صفات المدرس لا التلميذ كانت درجة المقال منخفضة . فمقياس المقال في نظر المثالي هو التماسك ويقصد بالتماسك والانسجام ، تلك الوحدة المنظمة المؤسسة على موجة واحدة من موجات البصيرة .

إن هذه الاختلافات الواضحة بين وجهتي النظر « الواقعية » ، « المثالية » لها أثر واضح في التطبيقات التربوية وفي النظريات التعليمية . ويتضح أثرها إذا كان الامتحان من ذلك النوع الذي ستسمح نتائجه لصاحبه في المستقبل بمجانبة لمتابعة التعليم أو بمكافأة أو وظيفة ، ولذلك لا بد وأن يبدو الخلاف واضحاً وظاهراً إذا كان معظم المتحنيين من « الواقعيين » أو من « المثاليين » . فقلما تخلو لجنة من لجان الامتحان من النوعين ، وإذا كان هناك اختلاف بين المتحنيين من حيث المبدأ ومن حيث طريقة الامتحان فلا بد وأن نتوقع اختلافاً من حيث النتيجة ، وهناك خطر أخلاقي واضح يظهر في طريقة تطبيق الواقعيين لامتحاناتهم ، فمقياس الاتفاق مع الحقائق قد يكون معناه عملياً ، الاتفاق التام مع آراء الأستاذ ، وهذا ما لا يرضاه المثاليون ، وهذا أيضاً الأمر الذي لم يتخذ ضده جماعة الواقعيين الحبيطة . فالخنوع لا العبقرية هو من منتجات طريقة الواقعيين . وعن ذلك فلا بد وأن يحدث خلاف في التقدير بين الفريقين ، ويكون خطره واضحاً في حياة التلميذ .

٣ - البراجماتيون ، ورأيهم في الامتحان

إن « الرجل البراجماتي » يلاحظ الاختلاف في الأهداف التي يرى إليها كل من « الواقعي » و « المثالي » فيجد أن « الواقعي » يبحث عن مقياس مريح ، وثابت النتائج ، لقياس التحصيل الموضوعي . فالواقعي عندما يمتحن الطفل ، لا يحاول أن يربى مطلقاً ، ولكنه يهدف إلى قياس النتائج الموضوعية

التي أمكن الوصول إليها بطرق أخرى . أما الممتحن المثالي فهو في امتحانه يحاول أيضاً أن يستكمل تربية التلميذ، ويحاول استكمالها بطريقة الخاصة ، فيطرح أمام الطالب موضوعات من نوع المقال وهذه الموضوعات تحتاج بطبيعتها للمناقشة ، ولاستشارة أكبر طائفة لدى التلميذ الممتحن للإجابة والبراجماتسي لا يرى في طريقة المثالي وسيلة لقياس تحصيل التلميذ الناتج عن طرق تعليمية أخرى . ويمكن أن نلخص أوجه الخلاف في نقطتين : هما : على التلميذ في امتحان معين أن يمر بمجال عظيم الاتساع ووقته محدد بوقت الامتحان . ومعنى هذا أن على التلميذ أن يعالج أربع أو خمس مشاكل أو مقالات مرتبطة بأجزاء المنهج المختلفة بدلاً من أن يكتب مقالا واحداً مرتبطاً بجزء محدد من المنهج ، ومعنى هذا أيضاً أن وقت الامتحان المحدد يحتم عليه أن يحدد مدى الوقت الذي يجب أن يخصصه لكل سؤال . ولما كان بعض التلاميذ يحسنون الإجابة تحت ظروف الامتحان بينما البعض الآخر لا يجيدها ، لذلك وجدنا البراجماتسي — ولو أنه لا يعارض في أن مثل هذه الامتحانات حافز عظيم الأهمية — يشعر أنه لا يمكن الاعتماد عليها كوسيلة لقياس تحصيل التلميذ .

« والبراجماتسي » مثله كمثل « الواقعي » يقنع بأن تتحقق أهداف التربية والتعليم في الوقت المخصص للدراسة ، وهو يلجأ إلى فترات الامتحان لقياس مدى النجاح العام الذي استطاع تلميذ من التلاميذ إحرازه في مادة من المواد أو في جزء منها، فهو لا يهتم بمصطلحات « صدق الامتحان »^(١) « Validity » التي تحبذها الاختبارات الحديثة ، إذ يعتقد أن الإجابات « بنعم » من الممتحن ، أو الإجابات « بنعم » من جميع الممتحنين على سؤال معين ، في نظره لا يعبر عن درجات متساوية من المعلومات الموضوعية . ولكنه مع ذلك يعتقد أن هذه الطريقة ترتبط ارتباطاً عالياً مع غيرها من الطرق التي تستخدم لقياس تحصيل

(١) معنى صدق الامتحان أن تكون المعلومات التي يختبرها هي نفس ما يراد اختبارها فإذا كان الامتحان في مادة التاريخ فليس من العدل أن يكون للإنشاء أو الخط أو الهجاء أو الرسم أو النظافة والتنظيم نصيب في تقدير الدرجة .

التلميذ الموضعي ، كما أنه من السهل إيجاداً تطبيقها تطبيقاً عملياً . ويقول البراجماسي إذا كان من نتائج هذه الطريقة البسيطة القدرة على ترتيب التلاميذ بشكل لا يقل عن أعظم الطرق التي يستخدمها أمهر المتحنيين فلماذا إذن لا نترك أمر التربية لفترات الدراسة ، ولماذا لا نستخدمها عند رغبتنا في قياس قدرة التلميذ على التحصيل ؟

فالبراجماسي يتفق مع الواقعي في طريقة الامتحان ولو أنه يخالفه من حيث المبدأ . ولكنه لا يهتم بالامتحانات نفس الاهتمام الذي يوليه لها الرجل « الواقعي » . وهو يرى أن تحصيل التلميذ لا يعدو أن يكون قدرته على حل المشاكل التي تجابهه في المعمل أو في الفصل بنجاح : ولكنه يرى أن هذه المشاكل جميعها نوعية . كل منها تحل بطريقة خاص . وإذا ما حلت هذه المشاكل فلا داعي مطلقاً لعمل الامتحانات . وقيمة الامتحانات عندئذ لا تدرس من وجهة نظر التلميذ كتلميذ ، ولكن من وجهة نظر المؤسسة كؤسسة : فهي وسيلة اجتماعية مريحة يقبلها البراجماسي . والبراجماسي كمرتب يعمل على تقليل قيمتها ، ولا يعطيها من الأهمية إلا القدر القليل . فمثلاً لا يعطي للامتحانات النهائية في بعض المعاهد من الأهمية أكثر من ٢٥ ٪ من التقدير الكلي للطالب : ويعمل البراجماسي على ألا تتبوأ الامتحانات أكثر من القيمة عند تقدير تلميذ ، ويعطى $\frac{2}{3}$ التقدير للعمل طيلة العام الدراسي .

ونظراً لاختلاف الآراء بين وجهات نظر الفلاسفة من الواقعيين ، والمثاليين والعمليين فهناك نزعة ترمى إلى التوفيق وتعرف باسم « الامتحان الشامل » ، وهنا نجد أن المجال متسع فهو لا يقصر على محتوى هذا المنهج أو ذاك ولكن يمتد فيشمل الموضوع كله ، فورقة أسئلة برمتها قد تشمل « المنطق » ، و« علم النفس والميتافيزيقا » وقد تشمل جل « التاريخ القديم » أو كل « الأدب اليوناني » أو كل « الطبيعة » أو « الأحياء » وتكون الأسئلة من النوع العام الذي يحتاج في الإجابة إلى الإلمام التام بمجال الدراسة . ومثل هذه الأسئلة من النوع النقدي وتحتاج إلى بصيرة نافذة ويقول في ذلك الأستاذ « باجلي » ما يأتي :

« إن قيمة الامتحان تتوقف على قوتها في تحريك صاحبها لبذل مجهود عقلي لتنظيم قدر عظيم من الحقائق والمبادئ بشكل منسق . . فأسئلة الامتحان يجب أن تكون واسعة شاملة ، مصاغة بشكل لا يشجع على مجرد ذكر ما وعته الذاكرة ، ولكن بشكل يكشف عن القدرة على هضم كميات عظيمة من المعرفة ، وربط الحقائق والمبادئ في شكل منظم »^(١)

والامتحانات الشاملة أو المعقولة Comprehensive لا زالت موضوعاً في بوتقة البحث ، وهي كجميع الحلول التي ترمى إلى التوفيق بين الوجهات المتعارضة لا تحظى بالقبول التام ، وهي لا زالت تخفى تحت سطحها مواضع الاختلاف الرئيسية بين أنصار الفلسفة الواقعية ، والمثالية ، والعملية ، وطالما كان الخلاف متعمقاً فنحن نشك فيما إذا كان هذا النوع الجديد من الامتحانات سيعمر طويلاً أم لا ؟

المراجع

1. Gallbraith, W : Examinations.
2. Hartog, P.J. and Rodes, E.C. : An Examination of Examinations.
3. Miller, G.F. Objective Tests in High School Subjects.
4. Bagley, W.C. : The Educative Process.
5. Rupert C. Lodge : Philosophy of Education.
6. Green and Birchenough : A Primer of Teaching Practice.
7. T. Rayment : Modern Education.
8. C. Bloor : The Process of Learning.
9. Hughes & Hughes : Learning and Teaching.
10. Ballard : The New Examiner.
11. Wallis, B.C. : The Technique of Examining Children.
12. H. World & F. Roscoe : The Approach to Teaching.

١٣ - رابطة التربية الحديثة مشكلة الامتحانات

١٤ - عبد العزيز القوصي : الإحصاء في التربية وعلم النفس

الفصل الثانى عشر

الاهتمام وبذل الجهد فى التربية والتعليم

Interest and Effort in Education

والآن نتقدم بالقارئ إلى مشكلة هامة من مشاكل التربية هى مشكلة « الدوافع » incentives التى تدفع الأطفال إلى العمل . أهى النظام الذى يغرى أطفال المدارس باستذكار دروسهم أو أن هناك « ميولا طبيعية » يمكن أن يستثيرها المدرس ؟ أم هل هناك ميول أخرى تدفع بالأطفال إلى تقليد الأعمال ، والاتجاهات العقلية التى يقوم بها الكبار ؟ إن معرفة الإجابة الحقيقية على هذه الأسئلة تتطلب منا أن نتعرض لدراسة مشكلة الاهتمام وبذل الجهد فى التربية والتعليم .

١ - اختلاف الآراء فى القيمة التهذيبية للعمل المدرسى

كانت العقيدة لدى بعض المربين - حتى عهد قريب جداً - أن بعض المواد الدراسية لها قيمة تهذيبية كبيرة ، وهذا هو سربقائها فى المنهاج الدراسى ، وكانت العقيدة أن التهذيب الذى تحدثه هذه المواد إنما هو تأثير أخلاقى لا عقلى . كما كانت العقيدة الشائعة حينئذ أن هناك بعض مواد « شائقة فى حد ذاتها » وأن هذه المواد ليست بحاجة مطلقاً إلى أن يبذل الفرد منا أى مجهود فى دراستها . فهى مواد جذابة مثل الأدب القومى ، لا سيما التمثيليات الحديثة ، والشعر - والمحاضرات الشائقة المتعلقة بالأسفار أو « العلوم » وخاصة إذا عرضت بالفانوس السحرى أو إذا عرضت عملياً أمام التلاميذ . أو بعض

المواد الثقافية المتعلقة بالنواحي الفنية ، والموسيقية التي يدخل في نطاقها الفن التطبيقي ، كالنجارة ، والتطريز ، وصنع الفخار ، وصنع المعادن فكل تلك المواد كانت معتبرة مواد شائعة ولكن كان ينظر إليها على أنها عديمة الفائدة من ناحية الأخلاق .

أما المواد الأخرى كالرياضة ، واللغة اللاتينية ، فبالإضافة إلى ما لها من فائدة في تسهيل فتح ميادين أخرى مغلفة من ميادين الخبرة الإنسانية فقد كانت العقيدة السائدة أنها مواد بحاجة شديدة إلى بذل جهود جبارة متوالية لسنوات عدة ، وبذلك يمكن أن تساهم في بناء صفات خلقية قيّمة كالثبات ، وقوة العزيمة ، والدقة : وقد كان أنصار مبدأ التهذيب أو جماعة اليهوديين - يطالبون تلاميذهم يومياً بأن يقوموا بأداء الواجب - ظناً منهم أنهم بهذه الطريقة يساعدونهم على تقوية إرادتهم فيتمكنون من الصمود أمام أحداث الدهر في المستقبل وقد كان « وليم جيمس » عالم النفس المشهور من كبار المؤمنين بقيمة بذل الجهد ، ولقد قال في هذا المعنى « علم الطفل ما تشاء من غير اكتراث برغباته وميوله » .

“It does not matter what you teach a boy, as long as it is distasteful to him”.

على أن التقدم الحديث في علم النفس التربوي قد أثبت فساد هذا الرأي - أعنى فساد القيمة التهذيبية لبعض المواد الدراسية . وكما أثبت أيضاً أنه ليس هناك مادة من المواد الدراسية يمكن أن يحكم عليها بأنها غير سارة . فالإنسان يلذ له دراسة الرياضة ويجد فيها عناصر شائعة . ولا يقتصر هذا على حالات مشاهير الرجال أمثال « ديكارت » ، « لينتر » أو « رسل » أو « هوايتهد » فحسب بل ينطبق أيضاً على تلاميذ المدارس ، وتلميذاتها . ومن المحتمل أيضاً أن نجد اللغة اللاتينية سارة وشائعة لا في نواحي آدابها مثل كتابات « فيرجيل » أو « شيشرون » ، ولكن في نواحيها اللغوية كذلك ، وهذا ينطبق على تلاميذ وتلميذات المدارس كما ينطبق على طلاب البحث والعلم . وكما

أن الأطفال يهتمون على أهلهم أن يعلموهم القراءة والكتابة عند ما يجدون آباءهم يتمتعون بهذا الفن ، فكَذلك هناك أطفال يهتمون على آبائهم أن يعلموهم اللاتينية إذا كان هؤلاء الآباء يتمتعون بقراءتها . وينطبق هذا تماماً على اللغة اليونانية . فكثير من الأطفال يجدون أن دراسة هذه اللغة شائعة ولذيذة ، لا لارتباطها بالقصص المتعلقة « بهومر » أو « يوروبيدس » ولكنهم يعشقون اليونانية كلغة لها قواعد ، وأسلوبها . والخلاصة أنه لا يمكن أن نقول إن هناك من بين المواد ما يمكن أن نعتبره مادة غير شائعة بالنسبة لعقل الطفل أو لعقل الشاب الباحث .

هذا ولقد أثبتت الاتجاهات السيكولوجية الحديثة أنه إذا تولد « الميل » Interest في نفس الطفل نحو مادة من المواد أقبل عليها إقبالاً عظيماً ، فكلما أحب الطفل مادة أقبل على دراستها ، وكلما أقبل على دراستها ازداد عشقاً لها . ولقد أثبتت الأبحاث أيضاً أن مواد الدراسة مهما كانت شائعة يمكن أن تدرس بشكل يعمل على التغلب على المشاق ، ويساعد على بناء الأخلاق ، وبناء على ذلك يكتفى ذلك الصراع القديم الذي كان حادثاً بين الاهتمام ، وبذل الجهد . ويعبر « ديوى »^(١) عن وجهة النظر الحديثة بذكر المثل الآتي :

إن الطفل الصغير الذي يرغب في عمل صندوق من الخشب إذا لم يأخذ خطوات إيجابية (عملية) في هذا الاتجاه ، وإذا وقفت رغبته عند حد مجرد الخيال فسوف لا يستفيد من الناحية التهذيبية ، ولكنه إذا حاول تحقيق هذا الدافع احتاج الأمر لأن يضع أفكاره محل التنفيذ ، فيبحث عن النوع الجيد من الخشب ، وقيس الأجزاء المطلوبة ويقطعها بالنسب المرغوب فيها ، ويجهز مواده الخام ، ويقوم بعملية نشر الخشب ، وصنفرته ، وصقله . فالطفل الذي يقوم بجميع هذه العمليات يحقق نداء غرائزه ، ويقوم بعمل الصندوق وتتسع الفرصة أمامه « للتهذيب » « للمثابرة » و « لبذل الجهد » للتغلب على المشاكل ولزيادة معلوماته .

ب - المذاهب الفلسفية وعلاقتها بالمشكلة

والواقع أن هناك تذبذباً في الآراء ، واضطراباً ، في عقول معظم المربين عن العلاقة الحقيقية بين الاهتمام ، وبذل الجهد ، وهذا التذبذب ، وهذا الاضطراب إن دلا على شيء فإنما يدلان على أننا لم نحلل طبيعة الموقف تحليلًا جيداً : ولذلك كان لزاماً علينا أن نتقدم خطوة أبعد من ذلك في دراسة هذه المشكلة في ضوء بعض المذاهب الفلسفية .

١ - الفلسفة الواقعية

يعتقد جماعة الواقعيين أن « الاهتمام » في مختلف درجاته أمر « ذاتي » فهو حالة تهيؤ عقلي من جانب الطفل تؤثر بدورها على مدى إقبال الطفل على العمل الموضوعي . فإذا عرض مدرس واقعي درساً من دروس الأدب على تلاميذه ، وليكن عنوان الدرس مثلاً أحد مناظر رواية « مجنون ليلى » لأمير الشعراء « أحمد شوقي » فجرد عرض هذا الموضوع كقيل بأن يثير ميولاً متعددة لدى مختلف تلاميذ الفصل : فقد يتجه اهتمام تلميذ منهم إلى معرفة التفاصيل عن « ليلى » العامرية ، بينما يتجه تلميذ آخر إلى الاهتمام « بقيس بن الملوح » ، بينما يتجه الثالث إلى الاهتمام بغريمه « ورد » ، أما الرابع فقد يهتم بمقارنة الغزل العربي بالغزل في عصرنا الحديث ، وهكذا ... إلخ . أما المدرس الواقعي فيكبت تلك الميول المتعددة مسيراً في ذلك برغبة عمياء في إعداد التلاميذ للامتحان ، والانتهاء من المقرر الدراسي ، فيصنع درسه بصيغة شكلية ، ويرغم التلاميذ على الإصغاء لمناقشات لفظية تدور حول القواعد ، والمصطلحات ، والمقارنات ، ضارباً بميولهم المتعددة عرض الحائط . ومثل هذا العمل كفيل بالقضاء على شئ الميول المتعددة للتلاميذ طالما كان المدرس لا ينشد من وراء درسه سوى تحقيق هدف واقعي واحد هو أداء « الواجب » وإتمام « العمل » . فالواقعية من شأنها إحباط الميول الذاتية وتوجيه النشء إلى الاتصال بالعوامل

الموضوعية المحيطة به' اتصالاً مباشراً بحيث لا يوجد حائل بين جهاز التلميذ العصبي ، وبين البيئة الطبيعية التي تحيط به . ولا عجب أن نرى التلميذ الذي رُفِيَ في أحضان الفلسفة الواقعية سوف لا يفتح كتاب اللغة اللاتينية بعد ترك المدرسة ، وسوف ينظر إلى أيام الدراسة كشبح مخيف مزعج تفرغه ذكره .

« فالاهتمام » في نظر الرجل الواقعي أبعد عن أن يكون عنصراً « ذاتياً » إذ أنه يستبعد هذا العنصر منه . وهو أمر تهذيبي قوامه ضبط الفرد بشكل يجعله قادراً على أن يكيف نفسه في اتجاه العوامل الطبيعية التي هو جزء منها وبذلك يكتسب بعضاً من قوتها ومن عدم مبالاتها بأقدار الأفراد . « فالتهذيب » هو الهدف المنشود وهو بطبيعته يطلب تشجيع الموضوعية The Cult of Objectivity لدى الأفراد .

٢ - الفلسفة المثالية

إن الرجل المثالي ينظر إلى النظام - بمعنى خضوع الفرد لمؤثرات خارجية - نظرة كراهية واشمئزاز ، إذ أنه يدين بفكرة حرية الاختيار ، وبالتوجيه الذاتي أكثر من قبوله لمبدأ الطاعة . ويرفض المثالي أن يعتبر نفسه مشجعاً لأحداث الدهر فيتحرك هنا وهناك تلبية لنداء الجوع أو العطش أو الجنس ، كما أنه يرفض أيضاً الإدعان لواجب يفرض عليه من الخارج فرضاً . فجميع هذه الدوافع ، والميول هي في النهاية عوامل خارجية وطبيعية . وفي الاستجابة لهذه الدوافع يشعر المثالي بأنه سيفقد سيطرته على نفسه وسيادته عليها .

The idealist feels that he is in danger of ceasing to be the Captain of his own soul.

فهو يكره أن يقف موقفاً سلبياً وأن يتقبل الأوامر من الخارج ، فهو مدفوع بطبيعته إلى أن يتساءل دائماً : لماذا ؟

والمثالي وإن كان لا يؤمن مطلقاً بالميل الطبيعية ، والفسولوجية في عالم المؤثر ورد الفعل إلا أنه يدين بما للميول النابغة من الباطن من قيمة . فهو نفسه يميل نحو شيء من الأشياء أو نحو غيره . وإذا ما شغلت نفسه بحب

شئ فإنه يعتقد أن دوافعه وميوله التي تسير بها رحي اختياره دوافع ليست عملية فحسب ، ولكنها أقوى من ذلك . فالشخص الذي يخصص نفسه للفن أو للعلم أو للفلسفة أو للتدريس أو للتجارة أو للزراعة والذي يعيش وفقاً لما قرره نفسه لا تؤثر فيه مطلقاً ، موجات الحظ أو الزمان . وبما لا شك فيه أن الدوافع العملية ، بما فيها من نجاح ورسوب تؤثر فيه ، وتوجه حياته ، ولكن من الصعب أن نقرأ عن بدء كفاح العظماء من الناس رجالاً كانوا أو نساء ، ونرى كيف أنهم يستطيعون الحصول على أقصى درجة من درجات النجاح دون أن نصل إلى حقيقة هامة وهي أن مصادر ثروتهم الروحية لا حد لها .

وتتجلى قوى الروح النابعة من الباطن ، والموجهة نحو التغلب على العالم الخارجي ونحو رفع هذا العالم من مستواه الطبيعي إلى المستوى الروحي ، تتجلى ، في عمليات « التنظيم » ، والتوجيه ، والتوحيد ، والاختيار ، والتأكيد والتركيز وخلق الأشياء المنظمة من القوضى الحادثة . . إلخ .

فالاهتمام — من وجهة النظر المثالية — أمر نابع من الباطن ، فالأشياء لا تفرض نفسها علينا فرضاً ، وترغماً على الانتباه . ولكننا نواجه انتباهنا نحو شئ من الأشياء ونميل إليه فنقوم بعمل هذا الشئ أو ذاك حسب إرادتنا . فنحن نختزن الأشياء ونضفي عليها معنى روحياً . وإذا طبقنا هذا الكلام على الاهتمام وجدنا أنه نشاط تلقائي تعيره عناية خاصة .

It is personal, self-directed activity in which we specially take an interest

فالمدرس المثالي عندما يعرض درس الأدب السابق (أحد مناظر رواية مجنون ليلى) نجد أنه لا يتأخر مطلقاً عن تشجيع الأسئلة ، ولا يعمل كالمدرس الواقعي على إحباط الميول وتوجيه الاهتمام إلى اللغة أو النحو أو البناء ، أو التراكيب ، ولكنه على العكس من ذلك يرى في كل ميل يتجلى من ميول الأطفال حتى ولو كان ميلاً سطحياً بداية في خلق تلك الذات الابتكارية . ولذلك نراه يساعد التلميذ الأول مثلاً في معرفة التفاصيل عن ليلى العامرية ، وبذلك يشجعه على أن يمزج ذاتيته بالذات التي يتناولها الشاعر أو بعبارة أخرى

يتيح له فرصة لتوسيع ذاته وتكوين نفسه . والمدرس المثالى نفسه باتباعه هذا الأسلوب ينمى ذاته كمدرس مثالى ، فيزداد قوة ، وبعد نظر .

أما « بذل الجهد » من وجهة النظر المثالية فهو لا يتعارض مطلقاً مع « الاهتمام » ولكنه جزء هام منه ، فالاهتمام فى هذا المعنى اهتمام نشط ، اهتمام بمظاهر النشاط الذاتى ، وهذا النشاط لا يخرج عن كونه عملاً أو مجهوداً ذاتياً self-directed Effort . فعند ما نرغمى فى أحضان هذا العمل أو ذاك ، وعندما نبذل الجهود من تلقاء أنفسنا بدون دفع — وعندما نندمج فى الفن أو فى العمل أو فى اللوم تصبح جهودنا مرتبطة أشد الارتباط بميولنا . ويصبح بذل الجهد هو الذات فى مظهر من مظاهر نشاطها ، وتصبح هذه الحالة مثيلة لتلك الحالة التى أصبح فيها « الاهتمام » هو الذات فى مظهر من مظاهر نشاطها . فالجهود الذاتية والنشاط الذاتى ، والاهتمام — هى فى نظر الرجل المثالى وحدة أوكل لا يتجزأ ، والفارق الوحيد بينها جميعاً فارق عملى مرتبط بمقدار طاقة النشاط العقلى التى تحت تصرف الفرد — فطالما كنا نشعر بالحدة أو بالقوة لا يكون ما نبذله من نشاط إلا لوناً من ألوان الاهتمام لا نوعاً من أنواع بذل الجهد ، ولا نشعر مطلقاً بأننا نبذل أى جهد إلا إذا نضب معين نشاطنا ، ولحقنا التعب . فالاهتمام وبذل الجهد يساير بعضهما بعضاً ، فإذا زاد اهتمامنا بشيء من الأشياء بذلنا فى سبيله أقصى ما يمكن من أنواع الجهود ، وإذا ما قل اهتمامنا بشيء ما ، لم نبذل فى سبيله أى جهد مطلقاً . وهذا أمر يتوقف على الحد الذى ترتبط به الذات بموضوع من الموضوعات أو بأمر من الأمور .

فحينما يوجد الاهتمام توجد المثابرة ، والدقة ، والعزم ، وغيرها من الصفات الهامة . وجميع هذه الصفات إنما هى فى نظر المثالى وظائف للاهتمام ، فالاهتمام أمر إيجابى . أمر نابع من تلقاء نفسه من الباطن . أما النشاط المبذول فلا يعدو أن يكون تعبيراً عن مظاهر السرور التى تعترى الذات ، فعازف « البيانو » يشعر بالسعادة عندما يتقدم إلى الآلة الموسيقية ليقوم بالعزف ، فالعزف بالنسبة له حياته ، وفيه سر وجوده . وكذلك « رجل العلم » يستشعر اللذة فى الكشف

عن الحقائق ويرى في ذلك معنى من معاني حياته ، فالمثابرة حتى النهاية لا تختلف مطلقاً عن مظهر من مظاهر حياة الفرد في نظر الرجل المثالي . فهو لا يشعر بأن نشاطه أمر مفروض أو واجب محتم عليه بذله . فالمثالي يتبع أهواءه وينشط فيما يقوم به من أعمال لا من أجل المدح المرتقب ولا من أجل ما قد يجنيه من ربح طائل ، ولكن نظراً لأن من طبعه أن يعمل بهذا الشكل .

وعلى هذا الأساس يتطلب المدرس المثالي أن يقوم تلاميذه بأداء أعمالهم لا من أجل الحصول على درجات علمية أو من أجل التخلص من لون من ألوان العقاب ، ولكن لأن ذلك منتج من نتائج الاهتمام في المدرسة وفي مظاهر نشاطها داخل جدران الفصل ، وخارجه — والخلاصة أن الرجل المثالي يؤكد قيمة الاهتمام ، ولا يذكر الكثير عن بذل الجهد ، ولا يتعرض مطلقاً للنظام أو التهذيب . . . إلخ .

٣ — الفلسفة العملية

يعتقد الرجل العملي أن النظام أو التهذيب إن هو إلا المجهود الخارجي لمساعدة السلطة ، وللأوامر ، وللعقاب ، وللأعمال المضنية ، وغير السارة التي لا ترتبط مطلقاً بالدوافع الباطنية للنشاط — فالنظام مظهر متطرف يعجز أنصاره عن أن يفهموا أن النشاط يجب أن يكون شائقاً ، وساراً في حد ذاته . والمدرس الذي يلجأ إلى النظام ليستمد منه العون في شكل العقاب أو الثواب لدفع التلاميذ عن العمل ، إنما هو مدرس فاشل في نظر البراجمسي .

ويعتقد الرجل العملي أن بعض مظاهر النشاط شائق لأنها ترتبط بالترغبات الطبيعية ، والحيوية ، والاجتماعية المتصلة بجهاز الفرد العصبي . ويذكر جون ديوى ميول الأطفال كالاتي : « ميل للمحادثة ، وميل للاجتماع ، وميل للبحث عن الأشياء وتركيبها وميل للتعبير الفني — وهذه جميعها منابع أصلية عليها يتوقف نمو الطفل » .

« فالدوافع الكامنة في الجهاز العصبي ؛ ليست بعناصر خارجية — كما

يتصور الرجل المثالى . فالذات فى نظر البراجماتسى تتكون من مثل هذه الدوافع . فهى دوافع باطنية ، وهى جزء متمم للذات . فالبراجماتسى لا يشعر مطلقاً بأنه ليس سيداً لنفسه عندما يتمتع بما يتناول من طعام أو عندما يندمج فى مجتمع يرغب فيه ، فهو يعترف بهذه المتعة كما لو كانت جزءاً من نفسه . فالحياة فى نظره مكونة من مثل هذه الأشياء وهو يقبل عليها جميعاً كما يقبل مظاهر الرضا الطبيعية . فهى فى نظره عملية ، وهى أيضاً تتذبذب ، تجئ وتذهب وهو يقبل هذه الأشياء كما تبدو ، ويتمتع بها كما هى .

والتلميذ العملى يذهب إلى المدرسة لأنه يحب المدرسة فهى مكان سار بالنسبة له . ويرعى فى أحضان الرياضة لأنه يحبها ، ولأنه يرى أهميتها له فى المستقبل لافى حياته المدرسية فحسب ، ولكن فى حياة المجتمع الذى هو فرد من أفراد . فمظاهر النشاط المدرسى مظاهر سارة وتتفق مع ما يحتاج إليه جهاز الطفل العصبى ، ومع ما يرغب فيه من أن يصبح مدنياً مستقراً فى المستقبل . ولذلك نرى أن « البراجماتسى » يبذل فى تحقيق ميوله كل الجهود الممكنة ، ويغالب المشاكل ، ويستشعر لذة النصر لا يفرق بين اللعب والشغل ، ويعتقد بارتباطهما ارتباطاً محكماً ، فالطفل يتعلم عندما يلعب ، ويقبل على العمل بروح اللعب . والجهود التى يبذلها جزء من ميل طبيعى ، حيوى اجتماعى عن طريقه تأخذ الطبيعة فيها مجراها . فاذا نظمت الدراسة بحيث تتفق ، وهذه الميول الطبيعية ، ضمناً أن يبذل الفرد من الجهود ما يمكنه من التغلب على المشاكل التى تعترض طريقه دون أن نلجأ إلى الواجب أو إلى ما نحرك به الضمير . فالميول العملية ، وبذل الجهود العملية يسيران جنباً إلى جنب .

الخلاصة : يتبين لنا مما سبق أن الرجل الواقعى يؤمن بالنظام وبلغى الاهتمام ، وبذل الجهد طالما كانا عاملين ذاتيين ، ويعمل على بث بذور الموضوعية والاهتمام بها ، وعلى إخضاع الذات لقوى الحقائق الطبيعية — أما الرجل المثالى فيدين بإلغاء النظام بمعنى التوجيه المنبعث من الخارج ، ويعمل على تشجيع القوى الذاتية طالما كان هذا يؤدي إلى تكوين ذات قد تحررت

من جميع القيود باطنية كانت أو خارجية فالاهتمام الفعال ، وبذل الجهد يساير كل منهما الآخر - أما الرجل العملي فيعمل على التخلص من النظام الخارجى ، ويؤكد القيم التربوية للاهتمام . وفى هذه الحالة يصبح الاهتمام عملياً ، بيولوجياً حيويّاً ، اجتماعياً .

والآن وقد عرضنا وجهات النظر الفلسفية المختلفة نرى أن نعود إلى تناول المشكلة فى صورة جديدة تتيح لنا مناقشتها مناقشة هادئة مثمرة ، تسلمنا إلى رأى قاطع فى الموضوع ، ومن الطبيعى أن يقوم عرضنا الجديد على إبراز طرفى هذه المشكلة بما لها من حجج وبراهين . وتناولهما بالتمحيص حتى نصل إلى النتيجة المرضية .

٢ - مشكلة التوفيق بين الاهتمام وبذل الجهد

١ - هناك مذهبان هامان فى عالم التربية ، ولكل منهما أنصار وأتباع ، وسنسمى أتباع المذهب الأول باسم « الاهتماميين » أما أنصار المذهب الثانى فسنطلق عليهم اسم « الجهوديين » وعلى كل منهما تبنى طرائق للتعليم مخالفة لطرائق الآخر .

أما مذهب الجهوديين فيدعوا أنصاره إلى أن تكون الدراسة نوعاً من الجهود عنية كانت أم لينة ، يبذلها التلاميذ فى فهم دروسهم سواء رغبوا فى ذلك أم كرهوا ، وسواء وجدوا فى هذا البذل لذة ، أم لم يجدوا ، فسواء أكانوا ميالين أم لم يكونوا ، فليؤد التلاميذ ما يطلب إليهم أدائه من الواجبات غير ناظرين إلى ميولهم وبواعثهم الباطنية ، ولا إلى ما فى ذلك من عنصر الارتياح أو الألم . فهذا هو الذى يقتضيه الواجب أو يهيب به الضمير ، وربما كان من أشهر الداعين إلى هذا المذهب فى العصر الأخير العالم النفسانى الكبير « وليم جيمس » تعرف ذلك من قوله « استبق القدرة على بذل الجهد حية قوية فى نفسك ، ورضها كل يوم على عمل صغير تقوم به لا حرجاً فى هذا العمل أو رغبة فى فائدته ، ولكن أملاً فى قمع النفس الأمارة ومخالفة الهوى ، وبذا تكون قوى

«العزيمة صلب الإرادة» ، قادراً على النجاح في الحياة ، والتغلب على ما فيها من صعاب وعقبات ، ومن الذين يتحمسون لهذا المذهب نفسه الأستاذ «هورن» وذلك حيث يقول «خذوا أنفسكم بعمل أشياء يومية لا لسبب سوى أنكم لا ترغبون في عملها» .

وأما مذهب الاهتمام ، وقد يسمى كذلك مذهب التشويق ففيه يعول المدرسون على استثارة الميول المختلفة في الأطفال ، والكتل المتلائمة من معلوماتهم السابقة حتى يضمن المدرسون بذلك إقبال تلاميذهم على الدروس ، ومضيق في هذا الإقبال إلى أقصى حد مستطاع ، ومعنى هذا أن الاهتمام أو التشويق ليس إلا خلقاً لحاجة في النفس يشعر بها التلاميذ ، ويجدون من أعماق نفوسهم رغبة صادقة في إشباع هذه الحاجة مهما يكلفهم هذا من جهد ، ومهما يعترضهم في سبيل ذلك من صوبات مداموا يجدون في هذا الجهد لذة ويصادفون في معالجة الصعوبات ارتياحاً .

والترية الصحيحة هي التي تعنى حقيقة بدراسة ميول الأطفال ومواقع اهتمامهم حتى يستعان بذلك على حملهم على بذل أقصى ما يستطيعون بذله من جهد ، وبذلك يقبل التلاميذ على التعليم من تلقاء أنفسهم مدفوعين إلى ذلك بدوافع وميول باطنية لا بعامل مسلط عليهم من الخارج .

وظاهر مما تقدم أن المذهبين متباعداً ، وظاهر أيضاً أن في كل منهما إسرافاً وغلوّاً فالجوديون وأنصارهم من أصحاب المدرسة القديمة يرون أن المدرسة مهمتها إعداد الأطفال لحياة الرجال في المستقبل وإذا كان الأمر كذلك فلا بد وأن نأخذ الأطفال بالشدة في المعاملة وأن نروضهم على أداء الواجبات الشاقة المضنية حتى يتعودوا الصبر على مواجهة الصعاب والثبات في ميادين الجهاد .

ولكن يعيب الاهتماميون عليهم ذلك فيقولون أترى أننا إذا أجبرنا طفلاً على عمل من الأعمال فإنه سيستمر في أدائه وقتاً طويلاً وما يتظاهر به من نشاط في العمل لا يلبث أن يزول حينما نرفع عنه هذا الضغط الخارجي الذي كنا نفرضه عليه ؟ ثم ألا ترى أيضاً أن التربية على أساس بذل الجهد ، مفسدة

للأخلاق وذلك لتشجيعها في الطفل الميل إلى الغش والمخاتلة فيتظاهر أمامك بأنه منكب على عمله والواقع أنه بعيد عنه بذهنه وروحه بعداً عظيماً ؟

وأما من الناحية السيكولوجية أيضاً فظاهر أنه يكاد يكون من المستحيل أن يسترعى التلاميذ نوع من أنواع النشاط المثمر ما لم يوجد عامل من عوامل الشوق أو باعث من بواعث الاهتمام وفوق ذلك فتنظرية الجهاديين كما يقول علماء النفس تحل محل ميل آخر فهي تحل الميل السلبي غير المباشر محل الميل الإيجابي وهو الذي يكون نابعاً من النفس هو الذي يميز « نظرية الاهتمام » ومعنى ذلك كله أن مدرسة الجهاديين لا تخلق من الرجال سوى ذلك النوع الآلى الذى لا يعرف من بواعث العمل إلا باعثاً واحداً وهو باعث الخضوع للسلطة والقوة الخارجية ولا يلبي من دافع النشاط إلا دافعاً واحداً هو دافع القصد إلى أداء الواجب الذى يفرضه عليه الغير .

أما أنصار الاهتمام وأصحاب مدرسة الشوق في التربية وهى مدرسة أحدثت في ظهورها من المدرسة الأولى فشعارهم الحرية ومهمة المدرسة عندهم ليست إلا إعداد للمستقبل فقط ولكنها توثيق للصلة بين الحياة القائمة داخل جدرانها والحياة القائمة خارجها أى تثبيت للرابطة التى بين المدرسة والمجتمع وهم لهذا يرون أن يكون العمل المدرسى خالياً من عنصر الإجهاد وأن يكون محتوياً على عنصر التشويق حتى يقبل عليه التلميذ بدافع من نفسه لا بدافع يكون خارجاً عنه، بل إن من بين هؤلاء الشوقيين إذا صح هذا التعبير من قال « بأن مشكلة المدرس الحقيقية تنحصر في جعل المادة التى تعرض على التلاميذ شيقة جذابة تستثير فيه اذلك الميل الذى يساعده على أن يستيق اهتمامه » والحق أنه من الغلو في التعسف أن نظن بأن الطفل يزداد علماً إذا سار في عمل من الأعمال وهو لا يميل إليه أو لا يرتاح إلى أدائه كما أنه إذا شعر بالإجهاد في عمله وجدناه لا يستطيع إنجازة إلا بدافع خارجي يكون من القوة بحيث لا يجد الطفل منه مناصاً فإذا لم يكن هذا الدافع قوياً إلى هذا الحد تشتت انتباهه وانجبه من ساعته إلى الشيء الذى يميل إليه تاركاً ما عداه .

الواقع أن نظرية اليهوديين في الوقت عينه تناقض نفسها بنفسها وتهدم صرحها بيدها إذ يكاد يكون من المستحيل على إنسان ما أن يستثير نشاطه نحو عمل ما، دون أن يكون ذا ميل حقيقى إلى هذا العمل ورغبة صادقة فى إنجازه . ويقول ديوى « إن نظرية اليهوديين » هذه لا تخرج لنا من الرجال إلا من كان ضيق الأخلاق جامد العقل شديد التعصب للمبدأ عنيداً يوشك أن يكون آلياً .

ولا أريد أن أقف بك عند هذا الحد بل سنمضى سوياً فى مناقشة هذين المذهبين إلى أبعد مما انتهينا إليه : فاليهوديون لا يستهويهم ذلك الطلاء الجميل الذى نطلى به رؤوسنا فيقولون يجب أن نعد أطفال اليوم ورجال الغد إعداداً صحيحاً .

ويقول بعضهم : « إذا لم يكن القدر مواتياً وإذا لم تكن الطرق التى نسلكها محفوفة بالأزهار والرياحين أفلا يجدر بنا فى هذه الحالة أن نعود الأطفال الحذر ؟ فى الحذر السلامة أو نأخذهم بوقاية أنفسهم ضد كل هذه المخاوف فالوقاية خير من العلاج .

فالحياة فى نظر اليهوديين جد لا هزل ، فهى ليست شيئاً تافهاً لا قيمة له بل هى من العظم بحيث يجب على المرء أن يزود نفسه فيها بكل ما يعتقد أنه صالح له ، يساعده على الكفاح فى ميدانها وبغير هذا لا نستطيع أن نكون رجالاً معتمداً على نفسه ، رجالاً لن تذهب بريجه العواصف حين يجد الجدد أو يعظم الأمر . ويقول اليهوديون إلى جانب هذا : نحن إذا طرحنا مستقبل الطفل وراء ظهورنا ، ثم ظللنا أيضاً نركن إلى مذهب الاهتمام فى تربيته للأطفال ، كان فى ركوننا إلى هذا المذهب نفسه من جهة ، وأخذ الأطفال أنفسهم بأن يجدوا من مدرسم هذا التشويق دائماً من جهة أخرى ، نقول ! لكان فى هذا كله تشتت لأذهان الأطفال الذين نعلمهم من حيث لا ندرى وكان فى هذا توزيع لقواهم ومضبعة لعنصر الإرادة فيهم ، كما كان فى ذلك أيضاً توجيه منا لنشاطهم إلى القشور دون اللباب ، ومن ثم لا نكاد نضمن استمرارهم

في هذا النشاط الذى يوشك أن تضع نتيجة لذلك ، فالمعول عليه في هذه الحالة هو المشوقات الخارجية ، والمشوقات الخارجية للأسف ، هي تلك البضاعة التى قد يعز وجودها أحياناً عند المدرس ، فهى هذه الطبقة الحلوة التى « يعز وجودها » نكسو بها دروسنا فسيتمررها الأطفال ، فإذا غابت عنهم لسبب من الأسباب كانت دروسنا طعاماً لا لذة فيه ، أو صاباً لا بد أن يشربوه . وهؤلاء الأطفال قد تعودوا الطعم الحلو ، فإذا جاءهم ما هو أقل منه حلاوة شعروا بعظم الفرق ، فهم قد أخذوا أنفسهم أو أخذناهم نحن بالبعد عن كل ما لا يميلون إليه ، فأصبحوا كما يقول الناس مدللين .

وعلى هذا فنظرية الشوق تهدم كذلك نفسها ، بنفسها فعندما يستنفد المدرس جميع وسائل التشويق أو عندما تخونه إحدى هذه الوسائل لا يصبح عند الطفل قدرة تساعد على أن يصحب المدرس أو يتبعه في درسه ، وهنا يترك هذا الطفل حائراً وسط خضم يتيه فيه ، حتى تأتيه موجة الشوق فتدفعه إلى حيث يريد . وعلى هذا يجب ألا تنهون التربية في جعل النظام المدرسى شديداً قاسياً ، فالتعليم في رأى اليهوديين يرمى إلى بذل أقصى ما يمكن بذله من الجهد ، وتفسير ذلك أن المدرس يجب أن يسترشد دائماً بهذا السؤال . « هل فهم التلاميذ ما ألقى عليهم من معلومات جديدة » ؟ ولكن ليس من الضروري مطلقاً أن يسأل نفسه قائلاً : « هل كان التلاميذ مشوقين إلى دروسهم أم غير مشوقين ؟ فالطفل مشوقاً أو غير مشوق لا بد وأن يبذل أقصى ما يستطيع من جهد في الدرس ، وهو مجبر على أن يتعرف هذا الدرس مدفوعاً إلى ذلك بقوة المدرس أو شدته ، وهذه القوة التى تقابلها فيما بعد قوة الظروف الحيوية وشدتها :

وزيد اليهوديون على ذلك بأن نظرية الاهتماميين فاسدة كذلك من الناحيتين : العلمية والأخلاقية ، فالانتباه لا يتجه مطلقاً نحو الحقائق الهامة ، ولكنه كثيراً ما ينصرف إلى كل ما يحيط بهذه الحقائق ، فإذا صادفنا في الدرس حقيقة غير شائعة وجب على المدرس أن يعالجها كحقيقة مجردة من بواعث التشويق ، أما إذا كان يحرص على أن يحيطها بمثل هذه البواعث

فإن هذا لا يقرب التلاميذ خطوة واحدة في سبيل الوصول إلى معرفتها . وهالك
مثلا : هذه الحقيقة الحسابية $4 = 2 + 2$ أظن بأن من الضروري جداً أن
يبدل المدرس جهده في تشويق التلاميذ إلى معرفة هذه الحقيقة أم يجب عليه
أن يشرحها مجردة عن عوامل الشوق والاجتذاب ؟ على أن الطفل لا يزيد
علماً بهذه الحقيقة نفسها إذا ما أحطناها بكثير من المشوقات ، كأن يقص في
سبيلها حكايات عن الطيور والحيوان ، أو نحو ذلك .

ويجب ألا ننسى أيضاً أنه من العبث حقيقة أن يكلف المدرس نفسه في
هذه الحالة الخاصة بأن يستحضر للأطفال عدداً من الطيور أو الحيوانات ،
ليساعدهم على فهم عملية من عمليات الجمع كهذه ، وإن فعل المدرس ذلك
فإنه يصرف أذهان التلاميذ عن فهم الحقيقة الحسابية إلى الانتباه إلى تلك
الوحدات الحقيقية التي تميز ما يذكره لهم من الأعداد .

وإذاً فلا مناص من أن يعترف منذ الآن بأن هناك حقائق يجب علينا أن
نعرفها ، ولو كانت هذه الحقائق غير شائقة ، أو لو كان الطريق الوحيد
إليها هو طريق بذل الجهد على الشكل الذي يتفق وأكثر المتعصين من
اليهوديين ، فهؤلاء في مثل هذه الحالة - أعني في تعلم الأشياء غير الشائقة - لا يعينهم
بطبيعة الحال أن يكون الشوق باعثاً للتلاميذ على العمل ، ولكن يعينهم أن
يكون حب النظام هو الذي يحثهم عليه . ويرشدهم إلى ضرورة المضى فيه
بنجاح ، ومن هنا نستطيع أن نفهم كيف أنهم عندما يعرضون إلى تعريف
النظام يقولون : « بأنه عادة التلبية إلى الأشياء غير السارة » .

تلك هي آراء الفريقين ، وهي الآراء التي كانت تشغل أذهان المربين
منذ عهد أفلاطون وأرسطو ، ولن تفتأ شاغلة لأذهانهم ما دامت التربية
وما دام القائمون بها .

ويسهل علينا أن نلاحظ أن كلا من الفريقين لم يستطع أن يهزم الفريق
الآخر بشكل جدى حاسم ، فكل من النظريتين قوى في ناحيته السلبية
أكثر من قوته في نفسه ، وما يدريك لعل الحقيقة التربوية الهامة تقع بينهما ؟

أو ما يدريك لعل هناك مبدأ عاماً تعترف هاتان النظريتان له بالوجود اعترافاً ضمنياً أو لا شعورياً إذا صح هذا التعبير .

نعم فالواقع أن أساس هاتين النظريتين واحد ، وهذا الأساس الذى تشركان فيه يمكن أن نعبر عنه بكلمة واحدة وهى « تعلق النفس بالموضوع والغاية منه » ، فلقد أكثر الفريقان اللجاج ، وتظاهرا بالخصومة ونسيا أنهما لابد ملتقيان فى نهاية الأمر . فكل منهما يتحدث عن النفس التى من شأنها أن تقبل أو لا تقبل ، وهذا هو الأساس الأول وكل منهما يوجه عنايته إلى موضوع الإقبال أو الإعراض ، وهذا هو الأساس الثانى وكل منهما يعترف صراحة أو بطريق ضمنى بأنه يجب أن تشتغل النفس راضية أو كارهة بالموضوع الذى أمامها بقدر المستطاع ، فإذا كان الموضوع الذى تبدل فيه النفس جهدها شائقاً فى نفسه ، فن الطبيعى جداً أن تنصرف إليه النفس غير محتاجة إلى وسائل التشويق ، وأن تبدل فيه جهدها بقدر المستطاع ، أى بقدر ما فى هذا الموضوع نفسه من عوامل جذب الاهتمام والتشويق ، وفى هذه الحالة لا تكون ثمة حاجة إلى نظريات الجهودين وكلامهم .

وإذا لم يكن الموضوع شائقاً فى نفسه فهنا يجب أن نستعين بآراء الاهتمامين إلى حد ما ، فنحنى بليجاد التوافق بين هذين الشبثين الأساسيين ، وهما : النفس من جهة والموضوع من جهة ثانية ، فتشعر النفس بحاجتها إلى الموضوع ما دام يسد هذه الحاجة التى تثور فى جوانبها .

أما من الناحية الأخلاقية فأذكر أننا قلنا إن مذهب الجهودين من شأنه أن يوزع انتباه التلاميذ حيث يتظاهر هؤلاء بالإصغاء إلى ما يتعلمون ، وهم فى الواقع كارهون له ، ومتبهنون بقلوبهم إلى غيره ، وفى ذلك تزييف خلقى وخداع معنوى لا ريب فيه ، ولكنه تزييف يقره الجهوديون وخداع يرضون عنه لأنهم يقيسونه بمظاهر النشاط الخارجى من جهة ، وبالتائج المواتية من جهة ثانية ، فإدام الطفل أمامهم يعمل أو يتظاهر بالعمل ، وما دام الطفل بعد ذلك قد واثته الظروف فنجح فى نتيجة هذا العمل فهم

قانون بهذا الحد معقدون أنه تكون علمياً وخلقياً فالأول لأنه نجح والثاني لأنه قد قويت مثلاً « إرادته » وأصبح أقدر على ضبط النفس أو الصبر أو غير هذه الخصال .

وعلى هذه الأقوال كلها يرد الأستاذ الفيلسوف « ديوى » فيقول : لا يزعم هؤلاء اليهوديون أنهم قد أفلحوا في تكوين الطفل من الناحية الخلقية ، كما لا يحق لهم مطلقاً أن يتوهموا نجاحهم في تكوينه من الناحية العلمية ، فالطفل الذى قام بأداء عمله كارهاً ، وأقبل عليه وأنفه راغم ، لم يستفد من هذا العمل شيئاً علمياً ، وإن كان في الواقع قد نجح فيه ، وآية ذلك أنك إذا كنت تقيس نجاح مثل هذا الطفل بنجاح غيره ممن يكون مدفوعاً إلى العمل بشوق واهتمام تبين لك الفرق واضحاً بينهما ، واستطعت أن تطمئن إلى تكوين الثانى من الناحية العلمية اطمئناناً لا مجال للشك فيه .

وهذا الطفل الذى قام بأداء عمله كارهاً لم يكسب يستفيد من هذا العمل شيئاً خلقياً ، إذ أن الانتباه الآلى أو الخارجى الذى يثير مثل هذا الطفل ليس انتباهاً يجرى على تقوية الإرادة كما يزعم اليهوديون .

والدليل على ذلك أن القوة التلقائية عند الطفل ورغبته في تحقيق ميوله ورغباته لا يمكن إخمادها بحال من الأحوال ، والواقع أن انتباه الطفل في هذه الحالة يكون مقسماً بطريقة غير عادلة ، فقسم ظاهرى صغير من هذا الانتباه يظهره التلميذ للمدرس رغبة في استرضائه ، وفراراً من عقوبته ، وقسم باطنى كبير جداً من هذا الانتباه يتركه الطفل ليتبع به تلك الصور العقلية التى ألفها والتى يميل إليها ويخلقها خياله الحبيب فلا يستطيع إلا أن يهبها مخلصاً هذا الجزء الأكبر من انتباهه وطاقته ، فإذا كان اليهوديون يهشون أنفسهم بنجاحهم في تدريب الأطفال على اكتساب عادات خلقية أو نظامية خاصة [ويستدلون على وجودها فيهم بمقدرة الطفل على أداء عمل يطلب إليه ، نقول إذا كان اليهوديون يعتقدون بذلك فلأنهم ينسون أو يتناسون في الوقت نفسه أمراً هاماً يستحقون عليه التأنيب والتثريب ، هذا الأمر هو « العقل الباطنى »

الذى يؤثر أعظم الأثر فى طبيعة الطفل الخلقية ، أو العامل المهم فى توجيه سلوكه عامة ، ويقول ديوى بعد ذلك : إنه لا يمكننى أن أجزم حقيقة بانعدام التدريب الخلقى المطلوب من تعود مثل هذا الانتباه الظاهرى المشتت ، فالقدرة على رد الانتباه إلى الموضوع المنتبه إليه كلما نقر منه من أساس الاستدلال والحكم الصحيح وهى عماد تكوين الخلق وتقوية الإرادة ، ولكن الذى أستطيع أن أجزم به هو عظم الخطر الذى يهدد أخلاق الطفل نتيجة لتشتت انتباهه الباطنى الذى لا بد أن ينشأ عنه فى مثل هذه الحالة .

والواقع أن هذا هو الحادث فعلاً عند الفريق المعارض من أصحاب نظرية الاهتمام ، وذلك لأنهم يستخدمون من أنواع السرور أو التشويق نوعاً ليس طبيعياً كما سيأتى شرح ذلك ، ألا ترى أن محاولتنا جعل الشيء ساراً معناه صراحة أن عنصر الشوق نفسه معلوم فيه . ثم ألا ترى أن هذه المحاولة نفسها تتضمن التباعد بين النفس والشيء كما هو الحال عند الجهوديين سواء بسواء . ويقول الأستاذ ديوى « إن هناك نوعين من السرور يمكن استثارتهما .

أولهما : هذا النوع الذى يصحب العمل والنشاط الذى يحس به الفرد بعد تغلبه على صعوبة فى أداء هذا العمل أو ظهوره على عقبة كأداء فى الطريق ، والسرور فى هذه الحالة شخصى ينبعث من باطن النفس ، ويذيب شعورها بالجهد ، فكأن لم تكن قد تعبت فى بذله ، وإذا فهو السرور الحقيقى الطبيعى الذى ينبى حياً فى النفس ببقاء الحاجة حية فيها .

ثانيهما : سرور مصدره الخضوع لمميزات خارجية ، وهذا النوع من السرور قائم فى مجرى الشعور تحس به النفس وتشعر أيضاً بالطاقة التى تصرفها فيه ، فهو إذاً ليس هذا النوع الأول الذى يمتص الجهد امتصاصاً ويغسل التعب غسلاً . فيتخلص الجسم منه فى نهاية الأمر .

والاهتماميون يستخدمون الضرب الثانى فقط من ضروب السرور ، وهو البحث الذى ليس له من عمل إلا أن يسد الفراغ الذى يكون بين الشيء والنفس ، ولا يكون من نتيجة ذلك نفسه إلا توزيع النشاط ، وهذا هو نفس

الحادث عند اليهوديين، فالانتباه في حالة بذل الجهد الإرادى موزع بطبيعة الحال والانتباه في حالة الشوق موزع كذلك، غير أن توزيعه في الحالة الأولى دائم وتوزيعه في الحالة الثانية متقطع متعاقب ، والنشاط في الحالة الأولى آلى خارجي ، يوجه الطفل إلى الدرس ، أو هو نشاط باطني قد يأتي مرة إذا صادفت النفس عنصراً شائقاً من عناصر هذا الدرس ، والنشاط في الحالة الثانية كما ثبت ذلك بالتجارب التي أجريت في رياض الأطفال وأمثالها قد بذل بين حالتى الحدة والسكون فتناول الطفل من أجله فترات من النشاط الزائد مرة والجمود مرة أخرى ، فإذا كانت وسائل التشويق قوية ارتفع النشاط الذى ينبه الطفل وازدادت درجته ، وعلى العكس إذا كانت هذه الوسائل ضعيفة ، وفوق هذا فإن استثارة أى حاسة من حواس الطفل لا تكون استثارة لهذه الحاسة بعينها فحسب ، وإنما تكون باعثاً لخلق حاجة جديدة تتجه إليها النفس وتصرف فيها جزءاً من الطاقة العقلية التى كنا نحرص على أن تستبقها كاملة فيها . خذ لذلك مثلاً ظاهراً « الكأس » فإنك إذا حدث أن أظهرتها فارغة لرجل شغف باحتسائها أثارت في نفسه ميلاً شديداً إلى الخمر ، وصرفه ذلك الميل عن الانتباه إلى الكأس من حيث هى ، أو الحديث الذى يدور حولها أو تريد أن توجهه إليه ، وهذا هو الذى من أجله نجد أن الأطفال يوزعون انتباههم ومجهودهم . وهذا التوزيع هو فى الواقع أكبر ما يميز هذا الصنف من الأطفال الذين يعتمدون على المميزات الخارجية والذين لا بد لنا من أن نأتى لهم بكل ما يحرك اهتمامهم مادامنا نريد منهم بذل هذا الاهتمام .

د - سوء فهم المشكل لدى كل من المدرستين

إن نظرة واحدة إلى ما تقدم من القول نستطيع بها أن ندرك كيف أخطأ كل من الفريقين فهم الآخر، وكيف كان مصدر هذا الخطأ أموراً كثيراً منها :
أولاً - كان كل من الطرفين فيما يزعم قوى الحجة ضد الآخر، كما كان دفاعهما مجالا حرص فيه كل فريق على أن يقنع الفريق الآخر فى قصور

فى الفهم أو قلة التوفيق فى التقدير ، والحق لقد كان كل منهما هادماً لنظرية الآخر ، ولكن كليهما لم يستطع أن يفهم كيف أننا محتاجون فى الواقع إلى الاهتمام وبذل الجهد فى آن واحد . ومعنى ذلك أن الاهتمام وبذل الجهد ليسا بمتضادين « كما سنثبت ذلك عاجلاً » ولكن أحدهما نتيجة للآخر و متمم ضرورى له ، فليس لأحد غنى عن الشوق أو الاهتمام ، وما يستطيع أحد أن يفر من بذل الجهد .

ثانياً - لقد أخطأ كل من الفريقين أيضاً فى فهم الاهتمام كباعث ضرورى من بواعث العمل والنشاط ، وتناسى الفريقان أن الاهتمام هو شىء ذاتى ، وليس بموضوعى . فأما الاهتماميون فأوشكوا أن يكونوا عندهم الاهتمام والتشويق غاية أو جزءاً عظيماً منها . وأما اليهوديون فقد نعتوا الشوق والتشويق بأنه طلاء سكرى ، لم تكن تدعو إليه ضرورة ماسة أو حاجة ملحة . فالشوق عند الاهتماميين ليس وجداناً ذاتياً أو شيئاً نابعاً حقيقة من النفس ، ولكنه ستار يسدله المدرس على كل شىء لا يشوق التلاميذ أو يسرهم ، وهؤلاء وأولئك نسوا أو تناسوا أن الشوق يجب أن تكون دوافعه صادرة من الباطن وأن مشكلة الطرفين تلخص فى هذا السؤال : ما هى الميول التى عند الطفل والتى يجب أن نستثيرها ليتمكن الطفل من إظهار نشاطه الذاتى وشخصيته الحقيقية أو يتمكن من جعل ما تفرضه عليه من الحقائق والمعلومات جزءاً من نفسه وداخلا فى تكوينه .

ثالثاً - فشل اليهوديون أيضاً فى تفسير معنى « جعل الشىء ساراً » فزعموا أنه مرادف لجعل الشىء سهلاً ، وربما كان هذا هو السبب الذى من أجله نجد أن زعماء هذا المذهب كثيراً ما يذكرون عبارة « الطلاء السكرى » فى تقديمهم للمذهب خصوصهم وتنديدهم بآرائهم ، وهنا نجد هؤلاء اليهوديين يخطئون مرة ثانية فى اعتبارهم أن الشوق بهذا المعنى خدعة نخدع بها الطفل ونغريه على الانتباه إلينا .

وليس الشوق فى حقيقة الأمر إلا حالة نعرض فيها أمام الطفل المعنى

الحيوى ، ونشعره بأهمية هذا المعنى ، ونخلق فى نفسه حاجة إليه فيندفع إلى إشباعها دون أن ندعوه إلى ذلك ، ويبدل فى سبيل ذلك جهداً كبيراً لا يحس به ، ومن ثم كان الشوق أكبر عامل فى ربط أجزاء الموضوع بعضها ببعض ، وكان أكبر داع إلى التعب المتواصل والجهد الذى لا نهاية له ، حتى قال بعضهم وربما كان مصيباً فى هذا القول : « إن معنى جعل الشيء ساراً هو زيادة ما فيه من صعوبة وتقدير ما له من خطر » .

رابعاً - أخطأ اليهوديون فى اعتقادهم أن الإرادة تدرّب عن طريق عمل من الأعمال غير السارة لقيادة التلاميذ ، وأى تدريب على قوة الإرادة يكون فى استظهار هؤلاء للدرس لأنهم يخافون إن أهملوا فيه أن ينالهم العقاب .
والآن نتساءل أى تربية للعزائم تكون فى أداء مثل هذا العمل صادرة من دافع كدافع الخوف وغيره من تلك الدوافع الوضيعة ؟ ألا يدرك هؤلاء أن الوقت الذى يقضيه التلاميذ فى فصولهم إنما هو جزء من حياتهم فيجب أن يكون له الأثر الأكبر فى إعدادهم لهذه الحياة ، ولا يكون هذا الإعداد إلا عن طريق اتصالهم بها منذ الطفولة لا انفصالهم عنها فى دور العلم التى نخشى أن تكون أديرة ينشأ فيها التلاميذ على أنهم رهبان ، أو بيتا ينشأون فيه على ألا يكونوا أناساً كسائر الناس .

خامساً - والخطأ الشائع الذى وقع فيه كل من الطرفين هو تقسيم الانتباه الذى يفضى إلى الجمود ، ولا يؤدى إلى تحقيق الغرض الصحيح من العمل المدرسى . فالجهديون أنفسهم لا يحسنون فهم الانتباه حين يقولون : إن معنى إجبار الطفل على نوع من النشاط هو عدم السماح له بأن يركّز جهده فى شيء غير العمل الذى أمامه ، وتفسير ذلك أنهم يريدون أن يسيروا به فى هذا العمل سيراً ميكانيكياً مشتتاً ويقودونه كما يقاد الحيوان الأعجم ، والواقع أن جزءاً من عقله ينتحى ناحية ما والجزء الآخر ينتحى نواحي أخرى غالباً ما تكون حول تحقيق الأخيلة السارة والأحلام المشتهة ، فغرض التربية اليهودية إذن هو تركيز الشعور .

والواقع أنه يستحيل عليها ذلك ما دام هناك تشتيت لانتباه الأطفال ، وهو تشتيت يسبب ضرراً علمياً وخلقياً كما رأينا . فالضرر العلمى يظهر فى قلة محصول الطفل فى نهاية الأمر ، والضرر العقلى يظهر فى قصور عقولهم عن التفكير الصحيح ، والضرر الخلقى هو الذى عبر عنه ديوى بعبارة التى ذكرناها من قبل والتى يبدأها بقوله « إنه لا يمكننى أن أتصور كيف أن شخصاً . . . » إلخ .

سادساً - وفى هذا الخطأ النفسانى المتقدم وقع الاهتماميون أنفسهم فزعموا أيضاً أن التشويق حالة خاصة بها يتحتم على المدرس أن يجعل الشئ غير السار شيئاً يمكن أن يكون ساراً فهو إذن تغيير لموقف العقل تجاه الشئ المراد معالجته ، والواقع أنه ليس من الضرورى مطلقاً أن يكون كذلك .

وخلاصة القول :

أنه ربما كان خير ما نسلم به هو أن الاهتمام ليس إلا وسيلة للتعبير عن الذات ، وما دامت الغرائز هى الوسائط التى بها أو على أساسها تقوم بهذا التعبير ، فيجب علينا دائماً أن ننظر إلى الاهتمام أو الشوق على أساس المظاهر الغريزية ، وذلك ما لم يستطع علماء النفس الأقدمون أن يفهموه . أما اليوم فقد أصبح قاعدة من القواعد المأخوذ بها عند علماء العصر الحاضر . كذلك يجب ألا يغرب عنا أن الإجبار الخارجى أو إجبار الطفل على بذل الجهود يتضمن بطبيعة الحال إرهاقاً لشخصية الطفل وفرديته ، وذلك ما تنحاشى التربية الحديثة أن تقع فيه فى حين أن النشاط إذا كان نابعاً من طبيعة الطفل نفسه وذاتيته فإنه يعينه على ترقية هذه الذاتية ترقية صحيحة ، ويدفعه إلى التعلق بمثلثه العليا ، والاستمسك بالظهور بمظهرها الطبيعى فى كل حال .

هـ - العلاقة بين الاهتمام وبذل الجهد

عرفنا مما سبق أن الاهتمام وبذل الجهد ليسا بمتضادين ، وأن لا غنى

عن أحدهما للمتعلم ، فلا مناص من أن يكون للشوق أو الاهتمام سلطان مباشر على التلاميذ يصرفهم عن الكسل ويدفعهم إلى العمل ، وليس من الضروري أن نجارى اليهوديين في وضع عقبات نصطنعها أملاً في تدريب تلاميذنا على ما نسميه الانتباه الإرادى ، ولكن يجب أن يكون ورود تلك العقبات طبيعياً لا تكلف فيه ، يجب أن نذكر دائماً أن الصلة بين الاهتمام وبذل الجهد كالصلة بين المحبة والقانون أو بين الحب والواجب . فإن وجد الحب وجدت معه الرغبة ، ولكن إذا أعوزنا هذا الحب كان الدافع إلينا هو الواجب وحده ، وحينما وجد الاهتمام فقد حل المشكل نفسه بنفسه ، ولكن إذا فقد هذا العنصر الهام فعلى جهد المجد يكون وقتئذ التعويل ، وعن ذلك المعنى يعبر فيه فيحسن التعبير الأستاذ « هورن » حيث يقول : « لقد نحمد نسمات الشوق التى تملأ شراعنا ، أو تتلاشى تلك الرياح التى تسير بها سفينتنا وفى هذه اللحظة فقط يكون على ذلك المجداف الطويل أن يقوم بإدارة هذه السفينة ويبدل جهده فى قيادتها .

ومعنى ذلك أن الاهتمام يؤدى إلى بذل الجهد ، ونستطيع كذلك أن نرى العكس ، فترى أن الجهد يؤدى إلى الاهتمام أو الشوق ، وهنا نستعير كذلك لغة « هورن » حيث يقول « نعم إن لبداية الموضوع دائماً صعوبة خاصة ، وكثيراً ما يتعذر ربط الموضوع الجديد بما سبقه من الموضوعات الأخرى ، ونستطيع أن تشبه الجهد الذى يبذل للتغلب عادة على أولى الصعاب بالجهد الذى لا بد أن يبذله ذلك القارب الصغير فى قشد السفينة الكبيرة حتى يخرجها إلى عرض البحر ، وهناك يمكنها أن تسير وفق رغباتها ، وفى الاتجاه الذى تتخيره دون حاجة إلى معونة هذا القارب :

والآن نستطيع أن نقول : إننا قد حددنا معنى بذل الجهد ، ولكننا فى الوقت نفسه قد قصرناه على التغلب على الصعاب والانتباه الإرادى نحو الشئ الذى يكون فى نفسه شائقاً . ويرى الأستاذ « ديجارمو » أن هذا المعنى للبذل الجهد ضيق فيقول : « إن بذل الجهد هو العملية التى نرمى بها إلى غاية

« ما » عن طريق العمل ثم إن الرغبة هي ميل الطاقة العصبية إلى الاندفاع في إتمام هذا الجهد . ويقول الأستاذ « هورن » إن بذل الجهد خادم للشوق ، ولكن يجب أن لا ننسى مطلقاً أن بذل الجهد أيضاً قد يكون سيداً للشوق ، وذلك حين يعجز هذا عن أن يبدأ عملاً من الأعمال فيترك للجهد أن يوجه صعوبة البدء ، وأن يكون له فضل التغلب على هذه الصعوبة .

و- التوفيق بين الاهتمام وبذل الجهد

توشك عناية المربين الآن أن تكون مقصورة على الجمع بين مذهب الاهتمام وبذل الجهد ، فالعصر الذي سادت فيه فكرة التعليم عن طريق بذل الجهد تبعه عصر آخر مقرون بظهور هذا الصراع الهائل بين أنصار المذهبين حتى انتهى الأمر بالتفات الناس إلى الاهتمام كما التفتوا من قبل إلى بذل الجهد ، ولم ينته الصراع بين هذين المذهبين حتى انصرفت عناية هؤلاء وأولئك في العصر الحديث إلى شيء رأى الجميع أنه هو الأخرى بالبحث والأجلد بالاعتناء ، هذا الشيء هو دراسة ميول الأطفال ، فقصر الباحثون جهدهم على هذه الدراسة ، وخاصة حين ظهر لهم تعصب كل فريق لآرائه وتوفره فقط على هدم آراء صاحبه ، وبالفعل رأينا أن دراسة الأطفال بقصد التوفيق بين المذهبين قد استغرقت القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وربما أنها لم تزل تشغل بال الباحثين حتى الآن .

فالشوق أو الاهتمام ضروري لأنه أساس للتعليم والباعث على الاستمرار فيه وبذل الجهد ضروري لأنه نتيجة لهذا الشوق نفسه ، والرأي الحديث يتنادى بدراسة ميول الأطفال دراسة ليست بالسهلة ولا بالهينة ، أو بدراسة نستغلها استغلالاً عظيماً في استمالة التلاميذ إلى الجهود يبذلونها عن طيب خاطر في سبيل العلم ، ويتغلبون بها على صعابه ومشاكله . وإذا كان الجهوديون يريدون الوصول إلى هذه النتيجة السابقة عن طريق الانتباه الإرادي الشاق ، فإن المحدثين من أنصار الشوق يصلون إلى نفس النتيجة السابقة عن طريق الانتباه التلقائي

وواضح أن طريق الأولين وعر ولا يتفق وطبيعة الطفل ، وأما الطريق الآخر فليس وعرأ لأنه يتفق وهذه الطبايع .

وهنا يجب أن يلتفت إلى أنه ليس الاهتمام ولا بذل الجهد غابتين في أنفسهما ، كما أنهما ليسا كل شيء في عملية الاهتمام ، بل الحالة التي يظهر بها العقل نتيجة لمؤثرات خارجية بيئية ، وبذل الجهد هو الناحية الأخرى لهذه الحالة نفسها . وليس كل ما نرى إليه من التوفيق بين الشوق والجهد إلا تدريباً للطفل على التأمل العقلي والاستقلال في الحكم والعمل المثمر ولا نستطيع أن نفوز بهذا كله ، حتى نجتمع بين المذهبين ونسلك هذين الطريقين أثناء التعليم ، وهنا نواجه مشكلة جديدة هي :

هل سرّغ لنا أن نلجأ إلى استعمال الشدة في حمل الطفل على أن يعمل عملاً لا يتفق وميله ؟ أم هل واجب المدرسة أولاً وقبل كل شيء أن تجعل كل عمل مدرسي حلوأً له هذا الطلاب الجذاب ؟

وللعجواب على هذا نصر على قولنا الأخير بأن أحدث الآراء في التربية هو التوفيق بين مذهبي الاهتمام ، وبذل الجهد ، ولا يكون ذلك أيضاً إلا بربط الأعمال المدرسية بالحياة الخارجية ، والعمل على إيجاد الصلة بينهما .

ويسير علينا أن نستنبط من كل هذا أن الاتجاه الحديث في التربية الحديثة يرمى إلى المحافظة على الصلة أو العلاقة بين النفس وبين الشيء بطريقة عملية ظاهرة ، وذلك لأهمية ذلك الشيء من حيث تمكين النفس من التعبير عن ذاتها «فالتضاد بين الجهود والاهتمام معناه فصل النفس عن الشيء الذي فرض عليها أن تعمله أو تفهمه ، وهنا ينشبت النشاط ويتوزع الانتباه هذا ، وقد يكون معناه أيضاً استثارة عظيمة بسبب هذا التشتت عينه في النشاط والانتباه ، ولكننا متى وثقنا بأن في الطفل قوى باطنية ، تحتاج إلى الاستثارة والميول والغرائز ، وجب علينا أن نستثير هذه القوى ، وأن نشجع ظهور هذه الميول والغرائز ، ونستغلها لفائدة التلميذ ، وحينئذ لا تكون هذه الاستثارة إلا ضرباً من الخداع أو التكلف ، ولا يكون هذا التشجيع نوعاً من العمل

الذى لا مبرر له ، وذلك لأن الباعث على العمل والانتباه يكون صادراً من النفس ذاتها ، وأن عنصر الاهتمام موجود ، فالنفس ذاتها هى المهتم بها طول هذه العملية ، وعلى ذلك يمكن أن نختتم فصلنا هذا بالحقيقة الآتية :
الاهتمام أو الشوق ما هو إلا توحيد للنشاط وتوجيه للطاقة ، طاقة الميول والغرائز والدوافع وغيرها إلى التعلق بالأعمال والمواد الدراسية المختلفة .

المراجع

1. Dewey : How we think.
2. Dewey : Democracy and Education.
3. Dewey : Interest and Effort in Education.
4. H.H. Horne : Philosophy of Education.[
5. Rupert. G : Lodge Philosophy of Education.
6. Degarmo : Interest and Education.
7. Pillsbury : Attention.
8. Klapper : Principles of Educational Practice.

الفصل الثالث عشر

التخطيط للتعليم

مقدمة :

التخطيط فى مفهومه العام هو دراسة احتياجات المجتمع المتطور والعمل على سدها بطرق صحيحة . وكل مجتمع يتطور بسرعة خاصة تختلف عن السرعة التى تتطور بها المجتمعات الأخرى ، هذا بالإضافة إلى التغيرات العظيمة التى اجتاحت العالم فى السنوات الأخيرة من هذا القرن ، والتى أثرت تأثيراً ملموساً فى جميع الميادين .

فالتقدم الهائل فى العلوم والصناعات والتكنولوجيا والنمو المطرد فى أعداد السكان وتنوع التوزيع فى الموارد البشرية والطبيعية ، كل ذلك يخلق ضغوطاً جديدة ويستحدث مواقف تستدعى البحث والدراسة وتمتضى وضع تخطيط شامل متكامل يكفل النمو المتناسق فى نواحي المجتمع المختلفة .

والتخطيط التربوى ركن من التخطيط الشامل لسد حاجات المجتمع . ومع أن أهميته قد ظهرت واتضحت حديثاً إلا أن المبررات والدوافع القوية له فى الوقت الحاضر وضعته فى مكان الصدارة . فالحاجة إلى زيادة الاهتمام بالتعليم وتحسينه تعد اتجاهاً بارزاً عند جميع الأمم سواء النامية منها أو المتقدمة . ثم إن التعليم لى يخدم احتياجات المجتمع والفرد خدمة كاملة يجب أن يأخذ فى تنظيمه وضوح هذه الاحتياجات وتباين الظروف الاقتصادية والاجتماعية والموامة بين متطلبات التنمية وإمكانات المجتمع وحساب ما يلزم البنائين الاجتماعى والاقتصادى فى المستقبل فالتخطيط التربوى يضع المشروعات التعليمية التى تكفل إعداد القوى البشرية وتلبيها للقيام بأعمال التنمية الاقتصادية والاجتماعية بدرجة كافية من الإجابة .

وقد ظهرت الحاجة واضحة إلى التخطيط التربوى نظراً للثورة التعليمية التى

يعيش فيها المجتمع الحالى ونظراً لزيادة الوعي التعليمى وضرورة مجازاة التربية للتقدم السريع والتغير المستمر فى ميادين العلوم والفنون والصناعة .

كذلك قد تغيرت النظرة الآن إلى التربية من حيث اعتبارها توظيفاً مثيراً لرؤوس الأموال فهى عملية استثمارية لها عائد وليست خدمة عامة فقط ، ومن مصلحة الأمم فى الوقت الحاضر وبخاصة النامية منها أن تستثمر أموالها فى إعداد الأفراد وتدريبهم .

والتخطيط التربوى تواجهه تحديات عظيمة نظراً لازدياد التعقيد فى الحياة الاجتماعية ونظراً لتشعب الميادين التى لها تأثير على التربية ووظيفة التخطيط التربوى والحالة هذه هى أن يدمج التعليم ضمن احتياجات التطور الاجتماعى إدماجاً متسقاً متلائماً مع التحليل العميق لمتطلبات التنمية الاقتصادية من القوى العاملة المدربة على أن يتصف التخطيط بالمرونة التى تمكنه من أن يلائم هذا التطور : ولكى يحقق التخطيط التربوى ما يقع على عاتقه من وظائف نحو المجتمع المتطور يجب أن يهدف إلى التوسع فى النظام التعليمى كما وكيفا بحيث يواجه النمو السكانى من جهة والتغيرات الأساسية التى تجرى فى المجتمع من جهة أخرى. ويحدث التحسينات اللازمة فى طرائق التربية ووسائلها ، ومحتوياتها من برامج ومناهج وخطط وأنشطة فى داخل المدرسة وخارجها .

تطور التخطيط التربوى فى الجمهورية العربية

تعتبر فكرة التخطيط للتعليم فى جمهوريتنا فكرة ثورية ترسم معالم الانطلاق نحو تحقيق المبادئ الاشتراكية التى نادى بها الثورة ، ولو أن للتخطيط التربوى فى مصر جذوراً نشأت مع نشأة النظام التعليمى الحديث . فالتعليم فى أى بلد يقوم على الوفاء بحاجات المتعلمين وحاجات المجتمع الذى يعيشون فيه . ونشأة نظامنا التعليمى فى أوائل القرن التاسع عشر تعتبر نتيجة لعملية تخطيطية تطلبها احتياجات المجتمع فى ذلك الوقت . فقد دلت نشأة المدارس المتعددة التى تمد المجتمع آن ذاك بأنواع مختلفة التدريب من القوى البشرية التى كان التطور فى

حاجة إليها في ذلك العصر من أطباء ومهندسين وضباط للجيش وخلافهم على وجود بعض الوعي الذي ربط التخطيط للمشروعات التعليمية بتدريب القوى العاملة التي تحتاجها مشروعات الدولة ووظائف أجهزتها المختلفة .

إلا أن عمليات التخطيط في تلك الفترة المبكرة من تاريخ نظامنا التعليمي ، لم تكن شاملة متكاملة ، بل كان ينقصها الوعي الواضح بالأولويات الأساسية ، بدليل نشأة المدارس العالية قبل المدارس الابتدائية في ذلك الحين .

وأخذت مبادئ هذا الوعي تتطور وتنمو وتزداد وضوحاً لدى القائمين على أمور التربية والتعليم في جمهوريتنا واتخذت صوراً عديدة من تقرير إلزام المرحلة الأولى في إصلاح التعليم الثانوي وتنويع مدارسه بما يلائم حاجات المجتمع في تطوراتها الأخيرة حتى قامت ثورة ١٩٥٢ فقادته إلى تبلور فكرة التخطيط وشمولها بمبحث يضم جميع النواحي الاقتصادية والاجتماعية والخدمات العامة ومتطلباتها . وبدى منذ عام ١٩٥٥ في إنشاء أجهزة التخطيط في الدولة فظهرت وزارة التخطيط وإداراته في المصالح المختلفة ، كما وضعت الخطط الخمسية وخطط مشروعات التصنيع والتنمية .

التخطيط للتعليم في الوقت الحاضر

رسمت معالم الثورة بما وضعته من مبادئ ومعايير تطلعات المجتمع الاشتراكي ، وفي ضوء هذه المبادئ والمعايير برزت خطوات العمل الاشتراكي التي يجب أن نخطط لها تخطيطاً شاملاً . هذه الخطوات تركز في :

- ١ - تحقيق مبدأ تكافؤ الفرص أمام كل مواطن .
- ٢ - النهوض بمستوى الحياة والعمل على مضاعفة الدخل القومي كل عشر سنوات

٣ - كذلك تهدف إلى تذويب الفوارق بين الطبقات ، والتقريب بين القرية والمدينة في المشروعات التعليمية خاصة .

- ٤ - ثم إقامة هيكل صناعي متكامل - يحقق أكبر قدر ممكن من العمالة .
- التربية وطرق التدريس - ثان.

ولتحقيق هذه المتطلبات تضع الدولة خطة شاملة هي خطة التنمية . ويكون التخطيط للتعليم جزءاً من هذه الخطة متضمناً في إطارها بصفته أداة فعالة لها دور أساسي في إنجاح الخطة الشاملة . إذ أن التعليم يعد الطاقات البشرية اللازمة للإنتاج في مجالاته المتعددة ومستوياته العديدة .

والتخطيط للتعليم في مجتمعنا الحاضر يقع على عاتقه مواجهة الزيادة المطردة في عدد السكان بجانب الوعي التعليمي المتزايد بين الجماهير ورغبتهم الأكيدة المستنيرة في متابعته إلى أقصى حد ممكن ، بخلاف ما تلقىه علينا مسئولية قيادتنا العلمية للدول العربية الشقيقة والأفريقية والآسيوية الصديقة . هذا مع مراعاة أن تخطيطنا للتعليم يأخذ في اعتباره الإمكانيات المادية المتاحة له في مجتمع نام كمجتمعنا والقدرات المتنوعة للمتعلمين ولا يغفل الهدف المقرر بكل هذه العمليات من رفع مستوى الأداء والارتقاء بالعمليات التعليمية لإعداد المواطن العربي في نطاق المبادئ السائدة في مجتمعنا الحالي .

الأولويات في التخطيط

إن التخطيط للتعليم في جمهورية نامية مثل جمهوريتنا الفتية يعتبر بالدرجة الأولى أن التعليم عملية استثمارية لها عائد إنتاجي يعوض النفقات الهائلة التي تصرف عليه . فالتربية تعد الأفراد للانتفاع بقدراتهم ومواهبهم واستغلالها إلى أقصى طاقاتها : ويجب أن ننظر إلى العائد المادي منها الذي يظهر على هيئة ازدياد

في القدرة على الإنتاج واستفادة من القوى البشرية المدربة مما يدخل التعليم في

باب الاستثمار لا الإنفاق . والمجتمع النامي المتطور كمجتمعنا في تخطيطه للتعليم

يأخذ في اعتباره أيضاً إمكانيات الدولة والجانب الاقتصادي وثن التكلفة على العمليات التربوية ، هذا الجانب الذي يجد دائماً من القدر الإجباري الذي نكلفه لجميع المواطنين ومن هنا ظهرت الأولويات في التخطيط التي يأخذ بها مجتمعنا الحالي ومجالاتها هي :

أولاً - المرحلة الابتدائية

وهي مرحلة التعليم الإجبارى التى تكفل التعليم العام لجميع أبناء الشعب باعتبارها القاعدة الأساسية . هذه المرحلة يجب أن تعم وأن يتوفر فيها الحد الكافى من المستوى الثقافى الذى يعتبر حداً أدنى للمواطنة المستنيرة .

والتعليم الابتدائى فى مجتمعنا النامى من الضرورى أن يدخل ضمن إطار خطة التنمية ومتطلبات التطور الاقتصادى رغم ما يبدو فى ذلك من صعوبة أن التلميذ يترك المدرسة الابتدائية وهو ليس فى سن العمل بعد ، وقد لا يتابع دراسته المنتظمة بعد ذلك . ومن هنا فإن الخبرات التى تعطىها المدرسة الابتدائية لتلاميذها فى القراءة والكتابة والحساب وبعض المهارات الأخرى ، يجب أن يكون لها قيمة نفعية فى أى عمل يقوم به التلميذ فى مجتمعه وبيئته ويجب أن تشجع تلك الخبرات والمعلومات على تكوين اتجاهات وعادات سلوكية وقيم ذات طابع نفعى يخدم غرض الإنتاج المحلى البسيط فى البيئة ، زراعية كانت أم صناعية . وفى الوقت نفسه يجب أن تكون طبيعة تلك الخبرات قابلة للتنمية والتطوير بعد ذلك .

ثانياً : المراحل التالية للتعليم الابتدائى :

من الأولويات فى التخطيط أنه إذا بلغت نسبة تعميم التعليم الإجبارى فى المرحلة الأولى ما يزيد عن ٧٠ ٪ فإن الخطوة الحتمية التالية هى الاهتمام بمرحلة ما بعد التعليم الابتدائى . وفى مجتمعنا النامى المتطور الذى يحتاج إلى كفاية بشرية وكفاءة فى الإعداد والتدريب على مختلف المستويات ، يجب أن تكون الأولوية فى التخطيط بعد الإلزام هى العناية بالمراحل التى تلى التعليم الإجبارى بحيث تتاح الفرص للفئات التى لديها قدرات واستعدادات أن تتابع نوعاً من التعليم أرقى من التعليم الابتدائى بالقدر الذى تسمح به إمكانيات الدولة .

الخطة التعليمية الحالية

وفى إطار أولويات التخطيط يمكننا أن نبرز الخطة التعليمية ونلونها . فنحن فى تخطيطنا للتعليم الآن نراعى الأولويات الأساسية . وقد أعدنا خططنا التعليمية القائمة فى إطار خطة التنمية الشاملة بحيث تكفل الآتى :

أولاً : النظام التعليمى

نظام تعليمى متكامل فى سلم يتدرج تدرجاً طبيعياً يشتمل لثلاث مراحل تكون فترة التعليم قبل الجامعى هى :

١ - المرحلة الابتدائية

ومدتها ست سنوات تعليمية تضم الأطفال من سن السادسة حتى الثانية عشرة تقريباً وهى مرحلة الإلزام والتعليم فيها بالحجان .

٢ - المرحلة الإعدادية :

ومدتها ثلاث سنوات تعليمية تلى المرحلة الابتدائية . وتضم التلاميذ من سن الثانية عشرة حتى الخامسة عشرة تقريباً . والتعليم فيها مجانى إلا أنه غير إلزامى . وقوام المرحلة الإعدادية مدرسة موحدة لجميع التلاميذ تعتبر استمراراً طبيعياً للمدرسة الابتدائية وتمزج الثقافة بخبرات مهنية فى مجالات عملية مختلفة تكشف عن ميول التلاميذ واستعداداتهم وتوجهها وتنميتها .

٣ - المرحلة الثانوية

وتلى المرحلة الإعدادية ، ومدتها ثلاث سنوات تعليمية تضم الشباب من سن الخامسة عشرة إلى الثامنة عشرة تقريباً . والتعليم فيها مجانى أيضاً . وتنوع مدارس هذه المرحلة من الثانوى العام إلى الفنى الصناعى والزراعى والتجارى ودور المعلمين

والمعلمات ثم مستقبلاً المدرسة الفنية المتخصصة . وهذه المرحلة هامة في إعداد القوى اللازمة لخطة التنمية .

ثانياً - الاتجاهات السائدة

في تنظيمنا لهذه المراحل التعليمية وضعت وزارة التربية والتعليم سياسة عامة تتحقق فيها الاتجاهات الآتية :

١ - تعميم التعليم الإلزامى باعتباره القاعدة الأساسية لجميع أبناء الشعب مع توفير الحد الكافي من المستوى الثقافى اللازم للمواطنة المستنيرة ، والتوسع في هذا النوع من التعليم بما يتفق والنمو السكاني ويعوض المناطق المحرومة ويوصل الخدمة التعليمية إلى صميم الريف والقرى والجهات النائية .

وقد حقق التخطيط إلزامية المرحلة الأولى بحيث بلغت النسبة في نهاية الخطة (الخمسية الأولى) ١٩٦٥ ما يقرب من ٧٦,٥ ٪ تقريباً . وتهدف الخطة الثانية إلى زيادة هذه النسبة حتى تصل ٩٢ ٪ عام ١٩٧٠ إن شاء الله .

٢ - تحقيق مبدأ تكافؤ الفرص في المراحل التعليمية التالية للمرحلة الابتدائية بحيث يتابع التلاميذ التعليم في المرحلة الإعدادية والثانوية على أساس مدى استعدادهم وقدراتهم . وقد وجدت مدارس المرحلة الإعدادية لجميع التلاميذ بحيث تكفل تعليمياً عاماً شاملاً يكمل الثقافة العامة التي بدأت في المرحلة الإلزامية ممزوجة بثقافة مهنية وخبرات عملية توفر للمتعلم المهارات المناسبة لمستواه وقدراته والتي تهيئه للإنتاج في البيئة واحترام العمل اليدوى وتقدير القائمين عليه . وقد روعى في التخطيط أن تكون المجالات العملية وميادين الثقافة المهنية في هذه المرحلة وسيلة للكشف عن ميول التلاميذ وتنميتها وتوجيهها بما يكفل حسن الاستفادة في الحياة العاملة أو في متابعة دراسة أرقى .

وقد تقرر التوسع تدريجياً في القبول بهذه المرحلة حتى يحين الوقت الذى تتمكن فيه إمكانات الدولة من جعلها مرحلة إلزامية تستوعب جميع المنتهين من الدراسة الابتدائية .

٣- تنوع مدارس المرحلة الثانوية إلى مدارس تعليم عام ، ومدارس تعليم فنى صناعى وزراعى وتجارى ومعاهد لإعداد المعلمين ، والمعلمات - ومستقبلا المدارس الفنية المتخصصة ، ومدارس نوعية تخدم أغراض بعض الخدمات العامة . كذلك أنشئت شعب للصناعات المتطورة تتمشى مع تطورات المجتمع واحتياجات التنمية الاقتصادية ، وتلاءم مع التقدم العلمى فى الصناعة والزراعة وميادين الإنتاج العلمى الأخرى ، ومع متطلبات خطة التنمية من مهارات على مستويات مختلفة . ويستهدف التخطيط لهذه المرحلة زيادة عدد الطلبة الذين يلتحقون بمدارس التعليم الفنى والفنى المتخصص لمواجهة تطلعات الإنتاج من أيدى عاملة مدربة ، والحد من الإقبال على التعليم الثانوى العام الأكاديمى ، وتشجيع الالتحاق بدور المعلمين والمعلمات لإعداد هيئات التدريس التى تقوم على هذه العملية فى المرحلة الأولى .

كذلك تستهدف الخطة تشجيع الجانب المسئول عن التعليم الخاص الذى يسهم فى قبول التلاميذ المنتهين من المرحلة الإعدادية .

٤- يتضمن التخطيط الحالى للتعليم مشاريع إنشاء مراكز للدراسات التكميلية ، يلتحق بها المنتهون من المدارس الابتدائية ممن لم تستوعبهم مدارس المرحلة الإعدادية حتى لا يكون هناك ضياع فى القوى البشرية . فإن هذا العصر عصر التصنيع وتكافؤ الفرص لا يحتمل الضياع فى أى مورد من الموارد الطبيعية كانت أم بشرية . وفى هذه المراكز يعد التلاميذ لمواجهة الحياة العاملة فى البيئة بشىء من المرن . كذلك يخطط لإنشاء مراكز التدريب المهنى للتلاميذ المنتهين من المرحلة الإعدادية ولم يتقدموا للمرحلة الثانوية إذ أن هؤلاء هم دعامة الأيدى العاملة فى المصانع والمتاجر والمنشآت حيث إنهم فى سن العمل .

وقد كفل التخطيط الحالى للتعليم حتمية إشراك الهيئات الاجتماعية والإدارات المحلية والمؤسسات العامة ومصالح الدولة الأخرى فى إعداد بعض الأفراد للقيام بالأعمال النوعية ذات الطابع الخاص التى تتطلبها الخدمات العامة ، والتى تحتاج إلى نوع معين من الإعداد والتدريب ، فأهاب التخطيط التربوى بهذه

الهيئات والمصالح أن تنشئ المدارس النوعية بعد المرحلة الإعدادية كمدارس البريد والإسعاف والتفريغ وأعمال السكرتارية والفنادق ، والسياحة ، وغير ذلك مما يسهم بصورة إيجابية في التنمية الاقتصادية وزيادة الدخل وإنعاش الحياة .

٥ - يهتم التخطيط التربوي بإعداد وتدريب وتوفير القوى البشرية اللازمة للقيام بمهام التربية والتعليم وحسن تنفيذ الخطط الموضوعية، إلى جانب احتياجات الدول العربية ، الشقيقة والدول الأفريقية الصديقة . كذلك فإن التخطيط يهدف إلى رفع مستوى الكفايات من النواحي العلمية والفنية بما يحقق رفع الكفاية الإنتاجية كماً وكيفاً ويعمل على زيادة فاعلية وإيجابية التعليم والعائد منه .

هذه هي النواحي الأساسية والأولويات البارزة في التخطيط للتعليم بجمهوريةنا . وقد ضمنت هذه الأساسات الخطة الخمسية الثانية للتعليم ، مع ما يلزم لكل مشروع من مبان وتجهيزات ومعدات وأدوات وهيئات للتدريس وبرامج ومناهج وخطط وكتب مدرسية ووسائل تعليمية . كذلك تشمل الخطة التطور الكمي لإعداد التلاميذ بكل مرحلة في كل عام من أعوام الخطة حتى تستكمل التوسع الكمي المنتظر للتعليم خلال الخمس سنوات القادمة .

إعداد الخطط والهيئات التي تقوم على التخطيط

إعداد الخطط

بما أن الخطة التعليمية جزء من التخطيط الشامل للدولة، فإن هناك اعتبارات عدة تراعى عند التخطيط للتعليم تحتاج إلى دراسات وبحوث وتقضى تفرغ هيئات وأفراد متخصصين مسؤولين مباشرة عن وضع الخطط التعليمية . وتستعين هذه الهيئات بأجهزة داخلها وبأشخاص ملحقين بهيئات أخرى ثم بمن لهم اتصال مباشر بالعملية التعليمية في الميدان ومن لهم ضلع فيها بالبيئة .

أما الاعتبارات الهامة فهي أن يسير التخطيط للتعليم الأهداف العامة للدولة

وبتحقق أهداف المجتمع مع مراعاة احتياجات كل قطاع في حدود الأموال المخصصة للمشروعات حسب إمكانيات الدولة ومواردها ، ووفق التوزيع السكاني والجغرافي ، واحتياجات البيئات المختلفة .

ويسبق إعداد الخطط بحوث ودراسات على مستويات متعددة للحصول على البيانات والإحصاءات اللازمة وربط هذه المعلومات ببعضها وبالمبادئ الأخرى ذات الصلة بالتعليم ثم بالاتجاهات السائدة التي تؤثر في العملية التعليمية وتوجه سيرها في السنوات المقبلة .

وبعد جمع المعلومات وتبويبها وتنظيمها واستقراء مدلولاتها ، تعد مقترحات المشروعات التعليمية التي يرى تنفيذها في المدة الزمنية المعينة . هذه المشروعات المقترحة تعرض على المختصين بأجهزة التخطيط بالوزارة فيتولون مدارسها ومناقشتها في لجان فنية تتمثل فيها جميع القطاعات المشتغلة بالتعليم من المدرس والناظر إلى المتابع والمقوم والمخطط . وتعد هذه اللجان من بين المقترحات ، المشروعات المبدئية التي سوف تتضمنها الخطة ، وتزكها وتضعها في صورتها شبه النهائية ، حتى إذا ما وافق عليها كبار المسؤولين عن التخطيط بالوزارة تصبح مشروعات نهائية وترسل إلى الأقسام الفنية المختلفة ليحدد ، كل فيما يخصه الإمكانيات اللازمة للتنفيذ من المباني والتجهيزات والأدوات إلى إعداد المدرسين ومستوياتهم إلى البرامج والمناهج والخطط ، إلى الخدمات المساعدة وإلى ما يتعلق بشئون التلاميذ من شروط القبول والنقل والامتحانات العامة وخلافه ، مع مراعاة التنسيق بين العمليات المختلفة حتى يخرج التخطيط شاملا متكاملا يحقق الأهداف بدرجة عظيمة من الرضا .

وبعد استكمال المشروعات من كل زاوية ترفع إلى الهيئة العليا للتخطيط بوزارة التربية والتعليم لمناقشتها وإقرارها ، وبذلك تصبح نافذة المفعول .

البيئات التي تشترك في عمليات التخطيط

إن التخطيط للتعليم في مجتمع اشتراكي يجب أن يكون عملية اجتماعية تعاونية

تشترك فيها جميع الهيئات المعنية بشئون التعليم على كافة المستويات من بدايتها إلى نهايتها ولكن التخطيط التربوى ، من الجهة الأخرى ، عملية تحتاج إلى باحثين ومخططين ، كما تحتاج إلى إمكانيات إحصائية ومعلومات فنية يتوقف على توفيرها حسن وضع الخطط .

لذلك كان ولا بد من وجود هيئات رئيسية مركزية مسئولة عن التخطيط تستطيع بما لديها من الإمكانيات وبما توفره من هيئات متخصصة أن تقوم على هذه العملية خير قيام ، هذا إلى جانب وجود أجهزة محلية على المستوى الإقليمى تعاون فى جمع البيانات وتقديم المقترحات وتصوير احتياجات البيئة المعنية ، كما يستعان بخبرات أجهزة المتابعة والتقويم التى تعنى بمتابعة تنفيذ الخطط وبحث نتائجها أولاً بأول .

ووزارة التربية والتعليم باعتبارها الجهاز المركزى القائم على شئون التعليم العام فى الجمهورية ، هى المسئولة عن التخطيط لمراحل التعليم قبل الجامعى بمختلف أنواعه .

وللتخطيط التعليمى وكيل وزارة مسئول عن جميع عملياته تتبعه إدارات عامة للتخطيط تختص كل منها بالتخطيط لنوع معين من أنواع التعليم وبمستوى خاص منه . وتشتمل الإدارات أقساماً يعهد إلى كل قسم منها وضع الخطط اللازمة لوجه معين من أوجه العملية التربوية ويقوم على العمل فيها هيئات متخصصة فى التخطيط للنواحى المختلفة من الإدارة التعليمية والمناهج والوسائل وإعداد المدرسين وتدريبهم وشئون الطلاب وتقويمهم إلى غير ذلك من العمليات الرئيسية .

ويتبع وكيل الوزارة المختص أيضاً إدارة للإحصاء توفر البيانات الإحصائية المطلوبة ومركز للوثائق التربوية يمد الأجهزة بالدراسات المقارنة والوثائق اللازمة . وملحق بهيئة وكالة الوزارة للتخطيط مجموعة من الخبراء الفنيين فى الميادين ذات الصلة الوثيقة بالتعليم يعاونون فى وضع الخطط وتقديم الآراء والمقترحات ويعملون كمستشارين كل فيما يخصه .

وتستعين جميع أجهزة التخطيط فى تنفيذ عملياتها بلجان أصلية وأخرى فرعية

تشكل من ممثلين على مختلف المستويات في التنفيذ والمتابعة لمدارس بعض الموضوعات التي توكل إليها ، كما تعاون أقسام التخطيط المحلية بالمديريات التعليمية في توفير البيانات على المستوى الإقليمي وتصوير مطالب البيئة المعنية ، وتعتبر مقترحاتها نقطة البدء في المشاريع التخطيطية .

ويتوج كل هذا هيئة عليا للتخطيط بوزارة التربية تضم كبار رجال التعليم ويتمثل فيها رجال التربية والجامعات وأصحاب المصانع والمؤسسات ومن يهمهم أمر الحركة التعليمية في البلد وعند هذه الهيئة تنهى مناقشة وإقرار المشروعات النهائية للخطة .

دور المعلم في التخطيط

قد يبدو مما سبق ذكره عن طريقة إعداد الخطط التعليمية والهيئات التي تشارك فيها ، أن المدرس ليس له دور إيجابي في هذا الإعداد . ولكن المتفحص في عملية التخطيط يستطيع أن يبرز بسهولة مكانة المدرس من كل هذا ، فهو ولو أنه المنفذ الحقيقي للمناهج والبرامج والخطط ، إلا أنه أيضاً المثير الأول لإعادة النظر فيها ووضع تخطيط جديد لها يتلاءم ، والتطورات الاجتماعية ويتمشى مع مراحل نمو التلاميذ وقدراتهم ومتطلبات العصر الذي يعيشون فيه .

— والدور الفعال الذي يقوم به المعلم في التخطيط هو أنه من خلال تنفيذه للخطط الحالية يسهم في تدعيمها وفي نفس الوقت يضع الاتجاهات الرئيسية للخطط المستقبلية . فنحن عن طريق متابعتنا وتقويمنا للتخطيط الموضوع ومعرفة نواحي القوة وإمكان تنفيذه في الفترة الزمنية الموضوعية ، نرسم السياسة للخطة التالية . — أما الجانب الآخر من دور المعلم في التخطيط للتعليم فيأتى عن طريق رأيه في المناهج التي يدرسها والكتب المدرسية التي يستعملها والزمن المدرسي المخصص لمادته في جدول الدراسة . فهو الشخص الأول الذي يمكن أن يعطى رأياً صحيحاً صريحاً في كل هذه الأمور ، وعلى مجموع هذه الآراء بشكل التطور للعمليات التعليمية من حيث النوع والكيف .

— والتخطيط للتعليم كما سبق أن أشرنا عملية اشتراكية تعاونية ، فهي تنبع من القاعدة ولو أنها تستكمل نحو هيئة عليا . ومبدأ المشروعات التخطيطية دائماً هي الجهة المحلية وأولها المدرسة والمعلم عن طريق التقرير والبيانات والآراء والمقترحات التي تجمعها المديريات التعليمية وترسلها أقسام التخطيط المحلية إلى الوزارة ، كذلك عن طريق رأى المعلم الذى يحمله المفتش ويؤثر فى عملية التخطيط عن طريق جهاز المتابعة .

— ولكن للمعلم دور مباشر فى التخطيط . ذلك أنه كما سبقت الإشارة لا يمر أى مشروع من المشروعات التربوية إلا بعد أن يدرس ويناقشه المعنيون مناقشة دقيقة من زواياه المختلفة . وتم الدراسة والمناقشات على مستويات مختلفة تبدأ بين الأعضاء القائمين على وضع الدراسات المبدئية وتنتهى عند هيئة التخطيط العليا . هذه الدراسات والمناقشات المبدئية تضم ممثلين للمدرسين وفيها يلعب المعلم دوره كاملاً فى التخطيط للتعليم . ففى لجان المدرسة سواء منها الأصلية أو الفرعية يكون بجانب المعلم هو الغالب إذ يستعان به استعانة أكيدة بحكم صلته القوية الفعلية بالميدان . ولا تكاد تخلو لجنة من لجان الدراسة التى تشكلها إدارات التخطيط من ممثلين للمعلمين .

دور النقابة فى التخطيط :

تستهدف نقابة المهن التعليمية خدمة مهنة التعليم أولاً وقبل كل شئ ، وهى تعمل على رفع مستوى المعلمين مادياً وأدبياً والارتفاع بمدى كفاياتهم العلمية والمهنية ، وتعمل على تقويم الخدمات والمعونات لهم وتوفير أسباب الحياة الكريمة . كما تعمل من ناحية أخرى على ترقية صناعة التعليم بين التقدم العلمى وتطور الحياة فى شئى الميادين .

كذلك تيسر النقابة أسباب التعاون مع الاتحادات والنقابات المماثلة فى الأغراض المهنية والغايات الإنسانية . وهى تساند الهيئات النقابية فى كل قطر عربى وتنضم جميعها فى اتحاد قائم الآن للمعلمين العرب .

وهى فى كل ذلك تقوم بأنشطة لها تأثير مباشر على التخطيط للتعليم وتوجه مستقبل العملية التعليمية فى الجمهورية .

ومن الأنشطة التى لها تأثير مباشر فى التخطيط للمؤتمرات العامة التى تدعو لها النقابة من آن وآخر على الصعيد العربى لمدارسه مسائل محددة فى التعليم ومن ضمن هذه المؤتمرات كان مؤتمر اتحاد المعلمين العرب لدراسة تطوير تدريس العلوم فى العالم العربى والذى عقد بالإسكندرية فى أغسطس ١٩٦٥ . والباحث للتوصيات التى أصدرها المؤتمر يستطيع أن يجزم بالدور الأكد الذى تقوم به النقابة فى التخطيط للتعليم فقد قامت فعلا بلجان لإعادة النظر فى مناهج العلوم الطبيعية بالمرحلتين الإعدادية والثانوية وطورت هذه المناهج آخذة فى اعتبارها توصيات المؤتمر وسوف تنفذ المناهج المطورة فى المدارس بعد إقرارها واعتمادها، وبالطبع سوف يتبع تطوير المناهج تطوير الكتاب المدرسى وطرق التدريس والوسائل وتدريب المعلمين وذلك مما يتعلق بتنفيذ المناهج المطورة .

ومن مظاهر نشاط النقابة مما يؤثر تأثيراً مباشراً فى التخطيط للعمليات التعليمية الاشتراك الفعلى فى الدراسات التمهيدية وفى التوصيات التى تنبع عن مؤتمرات النهوض بالتعليم فى مراحل المختلفة . ونذكر على سبيل المثال مؤتمر النهوض بالتعليم الابتدائى الذى عقد بالقاهرة فى يوليو ١٩٦٣ ومؤتمر النهوض بدور المعلمين والمعلمات الذى عقد بالإسكندرية فى أغسطس ١٩٦٥ . فلقد كان لوجهة نظر النقابة فى المؤتمرين ما أثر فعلا فى التخطيط لهذه المراحل، إذ أخذ المؤتمر بوجهة النظر هذه فيما يخص إعداد معلم المرحلة الأولى ووسائل هذا الإعداد ونظمه كذلك فيما يخص بالنمو المهنى للمعلمين ووسائل تشجيعهم والاحتفاظ بهم وإبرازهم كقادة ورواد فى خدمة القاعدة الشعبية .

ويبدو أثر نشاط النقابة واضعاً فى التخطيط للمرحلة الأولى من حيث الاهتمام بالرعاية الصحية للتلاميذ وشئون التغذية ثم بالرعاية الاجتماعية والخدمات ودور مجالس الآباء فى المجتمع المدرسى :

ولا يقف تأثير النقابة فى التخطيط للتعليم على الدعوة للمؤتمرات أو الإسهام

فيها بتقديم دراسات أو إبداء وجهة نظر فحسب ولكن النقابة بما تضمنه من نخبة ممتازة من رجال التربية والتعليم في مختلف مجالاته تشكل لجاناً للبحث والدراسة تمد النقابة بنوع مستمر متجدد من تقويم وتحليل للعمليات التعليمية وتضع تحت تصرفها أحدث الاتجاهات في التربية وبذلك يكون في مقدور النقابة أن تتقدم بالتوجيه البناء للخطط القائمة وتقرّح الاتجاهات السليمة للخطط المقبلة .

ومن الأنشطة التي تقوم بها نقابة المهن التعليمية والتي لها تأثير ولو أنه غير مباشر إلا أن له نفس القوة التي للأنشطة الأخرى في توجيه التخطيط للتعليم ، « مجلة الرائد » التي تصدرها النقابة شهرياً والتي تكون صفحاتها بمثابة سجلات تربوية تبين تطور العملية التعليمية وتعبر عن الرأي فيها وترسم الخطوات التي تسيرها في مجرى يتفق والأحداث الجارية في المجتمع العربي خاصة والعالمي عامة . هذا فضلاً عن أنها ملتقى آراء القائمين على التربية والتعليم من كافة المستويات ، والنافذة التي يطل منها المعلمون على الاتجاهات الحديثة في مجالاتهم والتي تلقى الأضواء على مجهوداتهم وأفكارهم .

ويجب ألا ينسينا كل ذلك الدور الأهم والأساسي الذي عن طريقه تؤثر النقابة في التخطيط للتعليم . ذلك أن النقابة هي الهيئة التي تمثل المعلمين ، وفيها يجتمعون ، وبوجها يأتمرون ، وبمآثرها تتشكل آراؤهم ويتعدل سلوكهم وتحدد اتجاهاتهم . والمعلمون هم أولاً وأخيراً القائمون فعلاً بالعملية التعليمية وبين أيديهم العملاء الأصليون لهذه العملية وهم التلاميذ . فالمعلم والتلميذ هما العاملان الأساسيان في التعليم ومن أجلهما يخطط للعملية التعليمية .

خاتمة :

يوجه التخطيط عنايته مستقبلاً إلى الأمور التالية :

١- لأنه مع الاعتراف التام بالتخطيط للعمليات التعليمية كأساس للنهوض بالتعليم ، إلا أننا ندرك أنه لا يكفي لتحسين البناء التعليمي إنشاء المدارس ووضع الخطط والبرامج ، كما لا يكفي رسم الخطط البعيدة المدى ولا التنبؤ بالتغيرات ومواجهتها ، ما لم يصحب ذلك مزيد اهتمام بإعداد المعلم في مختلف المستويات وتشكيل مهنة التعليم من أشخاص مؤهلين ومدرّبين وعلى جانب كبير من الممارسة لمهنتهم وتشجيعهم وترغيبهم فيها وتحسين أوضاعهم بحيث يكونون راضين عنها .

٢- ينبغي أن يصاحب التخطيط التربوي لكل مرحلة معينة برامج لتدريب الأعداد الكافية من المعلمين ذوي الكفاءة والتأهيل الكامل للقيام بتنفيذ هذا التخطيط .

٣- يعمل التخطيط على زيادة وعي المسئولين عن التخطيط بأهمية اشتراك المعلمين اشتراكاً فعلياً إيجابياً مباشراً في التخطيط للتعليم ، كما يسهمون عن طريق منظماتهم في الخطوات المرسومة للنهوض بنوع الخدمة التربوية وتطورها .

فهرس

صفحة

٣	مقدمة الطبعة السابعة
٥	مقدمة الطبعة السادسة
٧	مقدمة الطبعة الأولى
١١	تمهيد
١٥	الفصل الأول : التربية القديمة وأساليبها
٢٣	الفصل الثاني : نحو التربية الحديثة
٣٥	الفصل الثالث : أسس التربية الحديثة وطرقها

طريقة اللعب وعلاقتها بالتربية ٣٨ - طريقة متسوى ٥١ - طريقة ماسون ٧٢ -
طريقة دالتن ٧٥ - طريقة ونتيكا ٨٩ - طريقة ساندروون ١٠٢ - طريقة
المشروع ١٠٥ - تعليق على الطرق المختلفة ١١٧ .

١٢٣	الفصل الرابع التربية الحديثة وسجل التلميذ
	أهمية سجل التلميذ في التوجيه التربوي ١٢٤ - عمل سجل ١٢٧ - تفسير السجل ١٣٧ - قيمة السجل وأثره في التربية ١٤١ .

١٤٩	الفصل الخامس : المنهاج الدراسي
-----	--

أهمية المنهاج ١٤٧ - الطفل والمنهاج - عرض المشكلة وتحليلها ١٤٨ - التنظيم
السيكولوجي والتنظيم المنطقي ١٦٣ - دراسة المنهاج في ضوء المذاهب الفلسفية ١٦٦
المذهب الطبيعي ١٦٦ - المذهب العمل ١٦٩ - الفلسفة المثالية ١٧١ - اختيار
مواد المنهاج ١٧٤ - الاعتبارات السيكولوجية ١٧٥ - الاعتبارات الاجتماعية ١٧٦
أغراض التربية ١٧٨ - الأسس التي يستند عليها في عمل المنهاج ١٧٨ - الطفل
كأساس في عمل المنهاج ١٧٩ - المعلومات كأساس في عمل المنهاج ١٨٣ -
المجتمع كأساس في عمل المنهاج ١٨٤ - تنظيم المنهاج ١٨٦ - منهاج المادة ١٩١ -
منهاج المجالات المنسقة ١٩٣ - منهاج الخبرات الحية ١٩٤ - منهاج البارز ١٩٦ -
نقد المناهج الحالية ١٩٩ - ماذا يجب أن تكون عليه روح المدرسة ٢٠٥

صفحة

الفصل السادس : التربية الحرة والتوجيه المهني

٢١١

مشكلة العلاقة بين المواد الثقافية والمواد المهنية ٢١٢ - مشكلة العلاقة بين التربية الحرة والتوجيه المهني ٢١٣ .

الفصل السابع : التربية الخلقية

٢٣١

معنى الخلق وتعريفه ٢٣٠ - السلوك والأخلاق ٢٣٦ - المشكلة الخلقية ٢٣٩ - مستويات السلوك ٢٤١ - مراحل النمو الخلقى ٢٤٣ - الأخلاق والفرص من التربية ٢٥٩ - ميادين الأخلاق ٢٦٧ - أثر المنزل في التربية الخلقية ٢٦٧ - أثر المدرسة في التربية الخلقية ٢٧١ - وسائل التربية الخلقية ٢٧٥ - الطريقة المباشرة للتربية الخلقية ٢٧٥ - الطريقة غير المباشرة للتربية الخلقية ٢٧٧ .

الفصل الثامن : الحرية والنظام

٢٨٣

معنى النظام ٢٨١ - لماذا يطيع الأطفال مدرسيهم ؟ ٢٨١ - الفرق بين النظام والأوامر المدرسية ٢٨٣ - وسائل حكمة المدرسة ٢٨٥ - المثل الأعلى للنظام ٢٩٠ .

الفصل التاسع : التربية الاجتماعية

٣٠٥

أولاً - الصلة بين التربية والمجتمع ٣٠٣ - قيمة المجتمع في الحياة الإنسانية ٣٠٤ - ماهى وسائل الإبانة عن أهداف التربية ٣١٠ - لماذا نحتاج إلى تكيف اجتماعى يتصف بالمرونة والابتكار ؟ ٣١٨ - كيف يمدنا المجتمع بوسائل التكيف مع المؤسسات الاجتماعية ٣٢١ - ثانياً - العلاقة بين المدرسة والمجتمع ٣٢٦ - روح الجماعة ٣٢٦ - نمو الروح الاجتماعية في المدرسة ٣٢٨ - الشروط التى تساعد على تقوية روح الجماعة بالمدرسة ٣٣٤ .

الفصل العاشر : التربية الجمالية

٣٤١

تمهيد ٣٣٩ - ماهية التربية الجمالية وقيمتها ٣٤١ - لمحة تاريخية في تعريف الجمال ٣٤٢ - آراء المربين في الجمال ٣٤٤ - منشأ الدوافع الفنية في الإنسان ٣٤٥ - الخبرة الجمالية أو الشعور بالجمال ٣٤٦ - أهم نظريات الجمال السيكلوجية ٣٥٢ - التقدير الجمالى ٣٥٤ - الحواس والتقدير ٣٥٩ - دروس التقدير ٣٦١ - ميدان الخلق والابتكار ٣٦٢ - العاطفة الجمالية ٣٦٧ - ميدان التربية الجمالية ٣٦٨ - المنزل ٣٦٨ - المدرسة ٣٧٠ - مواد الجمال في المنهاج ٣٧٢ -

٣٨٩ الفصل الحادى عشر : الامتحانات

الامتحانات بين القديم والحديث ٣٨٧ - مشكلة الامتحانات ٣٩٥ - الإمتحانات
في ضوء المذاهب الفلسفية ٤٠٤ - المذهب الواقعى ٤٠٥ - المذهب المثالى ٤١٤ -
المذهب البراجماتى ٤١٧ .

٤٢٣ الفصل الثانى عشر : الاهتمام وبذل الجهد فى التربية.

اختلاف الآراء فى القيمة التهذيبية للعمل المدرسى ٤٢١ - المذاهب الفلسفية وعلاقتها
بالمشكلة ٣٢٤ - الفلسفة الواقعية ٣٢٤ - الفلسفة المثالية ٤٢٥ - الفلسفة
العملية ٤٢٨ - مشكلة التوفيق بين الاهتمام وبذل الجهد ٤٣٠ - سوء فهم المشكل
لدى كل من المدرستين ٤٣٩ - العلاقة بين الاهتمام وبذل الجهد ٤٤٢ - التوفيق بين
الاهتمام وبذل الجهد ٤٤٤ .

٤٤٩ الفصل الثالث عشر : التخطيط للتعليم فى الجمهورية العربية المتحدة